شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٢

آب (اغسطس) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **متعهد التوزيع** : جبريل ديب .

هيئة التحرير : د. ابراهيم ابو لغد ، بلال الحسن ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، محمود درويش ، د. يوسف شبل ، د. نبيل شعث ، د. صادق العظم ، ناجي علوش ، حبيب قهوجي ، د. محمد المجذوب ، عبد الحفيظ محارب ، د. حنا ميخائيل ، هاني الهندي .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص. ب ١٦٩١ ، تلفون ٣٥١٢٦٠ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صور الغلاف : الشهيد غسان كنفاني
ومسقط راسه عكا

المحتويات

صفحة ٤ — **شؤون فلسطينية** ، د. أنيس صايغ [مدير عام مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس تحرير شؤون فلسطينية] .

٥ — **أنيس صايغ : مناضل آخر يدفع ثمن الكلمة الحرة** ، أسرة تحرير « شؤون فلسطينية » العاملون في مركز الابحاث .

٦ — **عرس الدم الفلسطيني** ، محمود درويش [الشاعر والكاتب الفلسطيني ، مستشار قسم الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] .

٨ — **حول قضية ابو حميدو وقضايا « التعامل » الاعلامي والثقافي مع العدو** ، آخر ما كتبه الشهيد غسان كنفاني .

١٩ — **ملاحظات أولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها واصولها المجتمعية** ، أ. ن. سعد [باحث في قسم الدراسات الاسرائيلية في م. أ.].

٤٥ — **الوطن .. بين الذاكرة والحقيبة** ، محمود درويش .

٥٥ — **اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن غوريون وغولدمان** ، د. اسعد رزوق [باحث في الشؤون الاسرائيلية — مركز الابحاث] .

٦٦ — **على ضوء لقاء مع الفيلسوف الفرنسي : سارتر والمسالة الفلسطينية** ، داود تلحمي [باحث فلسطيني ومراسل شؤون فلسطينية في فرنسه] .

٧٤ — **مسؤولية بريطانيا في حرمان الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره** ، د. عبداللطيف الطيباوي [المؤرخ والباحث الفلسطيني في بريطانيا] .

٨٣ — **الفكر الصهيوني في شعر بياليك** ، د. عبدالوهاب المسيري [مدرس الادب الانجليزي والاميركي في جامعة عين شمس] ورشاد الشامي [معيد بقسم الدراسات العبرية بجامعة عين شمس] .

٩٤ — **دراسة حول الاتجاهات السياسية لدى بعض وحدات الميليشيا الفلسطينية**، باسم سرحان [من باحثي مركز التخطيط في م. ت. ف.] .

١٠٥ — **المسالة الفلسطينية في الادب العربي الحديث** ، صالح ج. الطعمة [استاذ الادب العربي في جامعة انديانا الاميركية] .

١٢٧ **أزمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية : دراسة مقارنة مع بعض الاحزاب الشيوعية العربية** ، أسامة الغزي [باحث سوري] .

١٣٨ **تقرير : أوضاع العمال العرب في الارض المحتلة بعد العام ١٩٦٧ واضطهادهم** ، عبدالله الصفدي [من باحثي م. أ.] .

١٤٦ **الصهيونية في خمسة وسبعين عاما** ، ندوة ادارها وحررها الدكتور صادق جلال العظم [مستشار قسم الدراسات الإسرائيلية في م. أ.] .

٢٠٠ **مراجعات** : الماركسية والدولة الصهيونية ، ص. ج. ع. مسؤولية الغرب أمام خطر الحرب ، ماجد نعمة [دارس في العلوم الاجتماعية والاقتصاد في بيروت] . تاريخ الاقطار العربية الحديث ، هاني حوراني [فنان وناقد أردني] . اسرائيل والاماكن المقدسة المسيحية ، خالد القشطيني [باحث عربي ومراسل شؤون فلسطينية في لندن] . من القمة الى الهزيمة ، عصام سخنيني [رئيس قسم اليوميات الفلسطينية في م. أ.] . الموت الكبير ، فوزي كريم [شاعر وناقد عراقي] . مرآة شعب : مقتطفات من الشعر اليديشي ١٨٧٠ — ١٩٧٠ ، فاضل عباس هادي [محرر أدبي وفني ومترجم عراقي] .

٢١٩ **تقارير اسرائيلية** : الصناعات الفوسفاتية والمعدنية والتعدينية في فلسطين المحتلة واثرها في خدمة الاطماع الصهيونية ، د. فلاح سعيد جبر [امين سر اتحاد الجيولوجيين العرب] . صناعة الاسلحة في اسرائيل ، د. يوسف شبل [الاستاذ في الجامعة الاميركية في بيروت والمستشار الاقتصادي لمركز الابحاث] . الارشيف في اسرائيل ، أ. م.

٢٣٧ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، بلال الحسن [رئيس قسم الدراسات الفلسطينية في م. أ.] . (٢) القضية الفلسطينية عربيا ، ناجي علوش [الكاتب الفلسطيني] . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، ص. ج. ع. (٤) المناطق المحتلة ، عبدالحفيظ محارب [باحث في قسم الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] . جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٦/١ — ١٩٧٢/٧/١١ ، غازي خورشيد [باحث في م. أ.] .

٢٦٦ **اسرائيليات** : م. د.

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

شهدت الاوساط الفلسطينية (وخاصة في لبنان) في شهر يونيو عددا من المسائل التي أثارت نقاشات حادة ولم ينقسم الفرقاء حولها حسب تنظيماتهم ولا خلافاتهم الايديولوجية وانما كانت المواقف تنتج في معظم الاحيان عن قناعات ذاتية خاصة وتفسيرات اجتهادية. ومشاركة من « شؤون فلسطينية » لمعالجة هذه الامـــور واعطاء رأي هادىء وهادف فيها ، طلبت من غسان كنفاني أن يكتب لها تعليقه حولها ، وكمحاولة منه للتهرب من تلبية الطلب ــ وكان ، كعادته ، غـــارقا في ألف مسألة : اعلامية وتنظيمية وتحريرية وسياسية وتخطيطية ــ تساءل : ولم أنا بالذات ، وبين الكتاب الملتزمين العشرات من هم أكثر امتلاكا لاوقاتهم ؟ وكان الجواب : لانك ، مع هذا ، أنت الاكثر جرأة على معالجة هذه المسائل دون مراعاة الحساسيات التي لا معنى لها ودون الموقف من ادانة فعل مقبول عموما أو تبرير فعل مرفوض عموما . وكتب غسان المقال . وسلمه في وقت مبكر . وأرسل الى المطبعة وأجريت عليه المراجعات التصحيحية الطباعية الخمس التي تقوم بها المجلة عادة . وفي صباح السبت ، الثامن من يوليو ، هيئت البروفه النهائية لترسل له ليتولى بنفسه المراجعة الاخيرة . وكان غسان ، في تلك اللحظة بالذات ، يتوج نضاله المشرف ويصل بعطاءاته لفلسطين ، وما أكثرها ، الى قمة التضحية .

أن يستشهد غسان كنفاني أمر طبيعي . فلقد استشهد في كل لحظة من سيرة نضاله من أجل البلد الذي أحب والذي خلد في أروع ما يكون التخليد (في الكتابة السياسية والادب والفن ، في السلوك ، في الالتزام) . وسيرة نضاله هي ، في الواقع ، حياته العملية كلها. ولقد طلب الاستشهاد بنفسه . ولقد عمل له . ولقد سعى اليه . وذلك لانه آمن به . آمن بأن العمل لفلسطين لا حدود له . وان المشاركة في حرب التحرير لا تكون من بعيد . وان الكتابة الثورية (وهي مهنته وهوايته وقناعته ولذته ومعاناته في آن واحد) لا معنى ولا أثر لها اذا لم تتجسد بالممارسة والسلوك اليومي . وان الثورة لا تتحمل المواقف الوسط ، ولا المهادنة ، ولا التأجيل ، ولا الاستراحـــة ، وان الكلمة الثائرة لا تعرف المواربة ، ولا الدبلوماسية ، ولا التلفيق ، ولا الاصطناع .

كانت شؤون فلسطينية تعتز بغسان كنفاني رفيقا وزميلا : يكتب لها ، يشترك بندواتها ، يشير عليها ، يعلق على محتوياتها ــ وما أكثر ما كان يغضب لبعض محتوياتها ، وينتقد بقسوة (وبصدق وباخلاص) ، وما أكثر ما كان يثور على محرريها ، وعلى بعضهم بوجه خاص ، « سأغتالكم . سأكسر أقلامكم . سأخلص فلسطين من تحاملكم » . ثم يهدأ . ثم يكتب لنا ثانية . ويشترك معنا في تحرير العدد المقبل . ويقدم النصح من جديد . وبين الثورة الغاضبة والمشاركة جلسة بسيطة نكتشف خلالها ، هو ونحن ، أن لا خلاف بيننا ، وانه جزء لا يتجزأ من شؤون فلسطينية ، شاء أم أبى وشئنا أم أبينا .

وكسائر اجهزة الثورة الفلسطينية ، تخسر « شؤون فلسطينية » في غياب غسان كنفاني واحدا من أخلص وأقدر وأجرأ رجالاتها . ولكنها ، وبشكل خاص ، تخسر أيضا صوتا مشجعا ونبرة محذرة وقلما جبارا وقلبا واسعا ، وتخسر أخا .

حق الثورة علينا ألا نبكي غسان . وحق غسان علينا أن نغبطه شرف الاستشهاد . انما الحقيقة القاسية والبشعة تبقى : لقد خسرنا هذا الرجل ، باخلاصه وقدرته وجرأته ، بصوته المشجع ونبرته المحذرة وقلمه الجبار وقلبه الواسع . وخسرنا الاخ . ولسوف نفتقده كثيرا . ولسوف نفتقده طويلا .

أنيس صايغ :
مناضل آخر يدفع ثمن الكلمة الحرة

اسرة تحرير « شؤون فلسطينية »
العاملون في مركز الابحاث

أنيس صايغ نفسه ، وبخط يده ، كتب افتتاحية « شؤون فلسطينية » عن شهيدنا البطل غسان كنفاني . وبعد أيام قليلة وقبل أن تصل كلماته الى المطبعة، كان هو نفسه يتعرض لحادث مماثل ، دفع فيه ضريبة الكلمة الحرة التي قالها وكتبها وأنشأها منظمة اعلامية ضخمة ، تخدم القضية الفلسطينية بالعلم والحقيقة ، بعد أن هزمت طويلا بالجهل والغموض .

واذا كان هذا الحادث الذي تعرض له الدكتور صايغ يملأنا جميعا — خاصة نحن الذين نعمل معه — بالالم والحزن ، الا أننا بالاضافة الى ذلك مليئون بشعور الفخر والاعتزاز . فان تتوجه اسرائيل الى رجالات الفكر الفلسطيني بمحاولات النسف والاغتيال ، فذلك يعني بالدرجة الاولى ان اسرائيل تخاف من الكلمة الحرة أكثر مما تخاف من الرصاصة . ذلك ان الكلمة الحرة هي التي تصنع الرصاصة في النهاية ، وهي التي تحفر لها طريق المستقبل ، وهي التي تحميها وترعاها من أجل بناء وطن عادل لا اضطهاد فيه ولا تشريد ولا ارهاب .

ودور أنيس صايغ في بناء الكلمة الفلسطينية الحرة ، دور معروف . ولكن ما هو معروف منه لا يتعدى الكتاب الذي يصل الى كل قارىء ، وعلى امتداد رقعة واسعة من العالم . حاملا الصورة الواقعية لاسرائيل الارهـــاب والتشريد ، والصورة الواقعية الاخرى لفلسطين الثورة والنضال . أما ما هو غير معروف عن دور أنيس صايغ ، والذي نعرفه نحن العاملين معه ، فهو ذلك التفاني الذي لا مثيل له في العمل الصامت الدؤوب ، والذي يبني ويبني ، في كل لحظة وفي كل ساعة ، من أجل عمل يصل الى يد كل مقاتل ، والى عقل كل مناضل ، والى مكتب كل اعلامي عربي وأجنبي ، ليتمكن مـــن رؤية اسرائيل والقضية الفلسطينية من منظار واضح .

في هذا المجال ، كان أنيس صايغ ولا يزال ، انسانا لا يجارى . فهو دائما أول من يصل الى العمل ، وهو دائما آخر من يغادره . عقله يضج بالمشاريع ، ومشكلتنا معه دائما أن نصل الى نقطة التوازن بين طموحاته وامكانياتنا . ولكنه من خلال كل ذلك ، من خلال الكثير الذي أنجزه ، ومن خلال الكثير الذي لا يزال يحلم بانجازه ، أقام مؤسسة علمية مكرسة لفلسطين ، يمكن القول بكل فخر انها الاولى من نوعها حتى الآن . ويمكن القول بكل فخر أيضا ان الفضل الاول في بنائها يعود له .

ولانه كان كذلك استهدفه الارهاب الاسرائيلي . واذا كان هذا الارهاب لم يستطع النيل من حياته ، فهو بالتأكيد لن يستطيع النيل من ارادته . ومركـــز الابحاث الفلسطينية المستمر في عمله وانتاجه ، والحريص على متابعة النهج العلمي الذي بني عليه ، ينتظر تماثل الدكتور انيس صايغ للشفاء ، وينتظر عودته ليستمر في أداء رسالته .

وهذا الانتظار ليس في حقيقته رغبة منا فقط ، بل هو تجسيد لقناعة أنيس صايغ نفسها حين كتب عن غسان كنفاني يقول ان « سيرة نضاله هي في الواقع ، حياته العملية كلها. ولقد طلب الاستشهاد بنفسه . ولقد عمل له . ولقد سعى اليه . وذلك لانه آمن به . آمن بأن العمل لفلسطين لا حدود له » .

عرس الدم الفلسطيني

لم تختلف نهاية غسان كنفاني عن بدايته الا بمدى ما تختلف مراحل تطور ماساة الانسان الفلسطيني . ولا تتصل نهاية غسان كنفاني ببدايته الا بمدى ما تتصل حلقات هذه المراحل . من هنا ، لا تكون هذه النهاية قفزة أو تحولا وانما هي تسلسل طبيعي بكل ما تحمله الكلمة من دقة وفجيعة .

ذلك ، لان غسان كنفاني الذي هو رمز مكثف لالتحام ما يحمله من وجوه التعبير والممارسة ، كان منسجما كل الانسجام مع نفسه التي هي قضيته ووطنه في آن واحد . وكان متطابقا مع ما يمثله من سلوك وكلمة . ومن هنا أيضا ، سيجد الدارسون صعوبة واضحة في محاولة تصنيف شخصيات غسان كنفاني ، لان فصل الواحدة عن الاخرى قد يؤدي الى عملية قتل . لان غسان كان واحدا لا يتجزأ مهما تعددت ظواهره ومظاهره التعبيرية . وهذه الحقيقة النادرة في تاريخ ممارسة الكتابة العربية الحديثة هي ، بحد ذاتها ، ما تعطي غسان كنفاني هذا الحجم الذي يفجر حياته القصيرة ويتجاوزها . انه شبيه بالينبوع الذي لا يتسع مجرى النهر لغزارة مياهه ، فيفيض جداول فرعية توهم الناظر اليها بانها مختلفة . وهي ليست سوى أشكال متعددة لجوهر واحد .

عاش غسان كنفاني حياة قصيرة ، ولكنها عريضة كما يقولون . ولم يكن ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الاخلاقي للكلمة فحسب . ولكنه كان ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الابداعي للكلمة أيضا . ما اختار مصيره وبدايته ، ولكنه اختار الالتزام الابداعي بتطوير هذا المصير ، فكان من الرواد الاوائل للارهاص الوجداني والفكري بميلاد الشخصية الفلسطينية الجديدة . وهي الشخصية المقاومة . لم يجهض هذه النتيجة الحتمية بتكهنات مترفة . فقد رافق الشخصية الفلسطينية — وهي هو على السواء — منذ مرحلة التمزق الاولى ، الى مرحلة التشرد والضياع ، الى مرحلة الذل والابادة ، حتى مرحلة المقاومة والموت . لم تكن غربته شخصية ، فالتمزق الراهن ناتج عن تمزق آخر — هو تمزق الوطن . وهكذا توحد السعي نحو التئام الشعب الفلسطيني مع السعي نحو التئام الوطن . وكان غسان كنفاني — الفلسطيني حتى النخاع — من رواد الباحثين الاكثر أهمية عن تجميع ملامح هذه الهوية الفلسطينية التي أن تلتئم ما دامت لاجئة . من هنا ، يصبح التمرد على صيغة اللاجيء هو مفتاح امكانية العودة . كيف يكون هذا التمرد ؟ الموت واقع لا ينجو منه الفلسطيني ، ولا يملك ازاءه اختيارا . ولكن بوسعه ان يختار طريقته الخاصة في الموت . وهكذا عثر غسان كنفاني — الفلسطيني والفنان — على صيغة الفلسطيني المقاوم ، صاحب الماضي العريق في المقاومة ، ثم تجسدت فكرة المقاومة بالكائن البشري الذي يمارسها وهو الفدائي .

لم يكن غسان كنفاني صبورا ، فمن وصل ساحة الموت لا يتحلى بالصبر . ان شراهة الحياة تجعله كالعاصفة .. مندفعا ومتفجرا على الدوام . ووصف المقاومة والفداء ليس صفة غسان . انخرط في الممارسة النضالية وسط شعبه ، وهنا ، أيضا حقق التطابق الرائع بين حركتين أو بين ثوريتين — حركة مضمون الادب الثوري والممارسة الثورية . فكان نموذجا لتلاحم من طراز فريد . يتساءل النقاد والادباء عن دور الاديب ازاء كل

محنة ، وكثيرا ما يطرح هذا التساؤل في المواسم المأساوية . ولكن مأساة غسان لم تكن موسمية . وتلك حقيقة بسيطة لا يعيها الجميع . ومن هنا ، لم يتساءل غسان عن دوره . لقد مارس دوره بهذا الزواج الخلاق بين الحلم وبين قبضة اليد ، بين الكلمة وبين الخطوة . ولم تكن نهايته طلاقا لصحبة العمر او قدر العمر ، وانما كانت حفلة زفاف دموي لذلك الزواج التاريخي الذي لم تتح لنا الايام العاصفة فرصة الاحتفال به . هكذا التحمت نقطة النهاية مع نقطة البداية لتشكل دائرة رمزية متوهجة لتاريخ غسان كنفاني ولتاريخ شعب فلسطين ولتاريخ الصراع . كل الناس لاحظوا التشابه الرمزي الجارح حتى البكاء بين مأساة البداية ومأساة النهاية .. بين جسد غسان وبين جسد الوطن .. بين طريقة تمزيق غسان وبين طريقة تمزيق شعب ووطن . وغسان كنفاني نفسه كان يلاحظ هذا التشابه قبل وصوله الى حد التطبيق . لقد وصلت رؤياه الى النهاية قبل أن يصل جسده .

من هنا ، تكون حياة غسان درسا لا رمزا فقط . ليس الدرس الذي ينتظره الاعداء — النهي عن المسيرة ونشر الفزع في القلوب . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تعميق الاصرار على الاستمرار ، وتحرير الرغبة في الانتقام من معناها القديم واغناؤها بمزيد من الالتزام الثوري الخلاق بالوطن والثورة ، لان مقتل غسان لا يعادله مقتل عدو مهما كبر ، لا يعادله الا المثابرة على تحقيق احلامه وأحلامنا التي نسفته . وهو درس لكل من يتعامل مع القلم الصادق ، لا الدرس الذي ينتظره الاعداء — تنصيب شبح اسرائيلي على عقل الكاتب ووجدانه . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تحرير القلم من التردد ازاء النكسات ، وتحقيق الوحدة والتزاوج العميقين بين حركة الفكر والابداع وحركة الثورة . ان استشهاد أول كاتب فلسطيني منذ ما يزيد عن عشرين عاما لهو دليل ساطع على خطورة القلم في مسيرة الانسان الفلسطيني وعلى دوره الخلاق في المعركة من ناحية ، وهو دعوة للكتاب الى سد الفراغ الذي يتصور الاعداء أنهم قد خلقوه بغياب غسان كنفاني من ناحية أخرى .

لقد علمنا غسان دروسا كثيرة في الانسجام والصدق والاحتراق من أجل قضية قاتلة . وأول ما علمنا اياه هو أن الفلسطيني يفقد ذاته وحضوره الانساني في العالم والكون اذا كف عن أن يكون فلسطينيا . والفلسطينية ليست انتماء الوراثة والحنين الى أشياء ضائعة وانتظار الانبعاث العربي . الفلسطينية معناها ثورة ، وتغيير ، وتفجير، وابداع. ان غسان درس سياسي وأدبي واخلاقي معا . لم تذهب لحظة من حياته سدى . كان ملحمتين : ملحمة شعب ، وملحمة ابداع . لا تعرف أين يبدأ غسان الثائر وأن يبدأ غسان المبدع . ذلك لان الثورة الحقيقية والابداع الحقيقي معادلة واحدة . الثورة ابداع. والابداع ثورة . لقد اختار الموت المبدع تعبيرا مأساويا حتميا عن انتمائه الى الحياة . ولكنه لم يتمكن من اختيار الارض التي يموت فيها . هذه هي مأساته ، وهذه هي مأساتنا جميعا . وتلك هي الغصة الباقية مهما بلغنا من سعادة الموت الحقيقي المختار.

هذه هي المأساة

وهذه هي الوصية ...

لان موت غسان كنفاني ليس موت كاتب أو مناضل فقط .

انه انفجار قضية ..

قضية شعب ..

وقضية وطن .

محمود درويش

آخر ما كتب غسان كنفاني

حول قضية ابو حميدو
وقضايا « التعامل » الاعلامي والثقافي مع العدو

في الفترة القريبة الماضية تفجرت أحداث جزئية شغلت الكثير من الناس ، حول قضايا تتعلق بالمقاومة بالذات ، ولم تكن هذه الاحداث في حد ذاتها مهمة ، ولكنها كانت مناسبة لالقاء نظرة الى جذورها ، ومع ذلك فان مثل هذه النظرة لم تتح الى الآن ، ليس فقط لانغماس الكثير من المتناقشين في التفاصيل السطحية لهذه الاحداث ، ولكن أيضا بسبب التسارع المستمر للتطورات المحيطة بحركة المقاومة ، بحيث يندر أن تتاح الفرصة للقيام بامتحان عميق لحدث من الاحداث ، من جميع جوانبه ، قبل أن يطغى حدث جديد يشد الانتباه اليه ، ويغطي على ما عداه ، وهكذا .

لعل أبرز أحداث الفترة التي نتحدث عنها ، والتي تندرج في قائمة المواصفات التي أشرنا اليها ، هي مسألة « أبو حميدو » ، والضجة التي أثارتها الاتهامات التي وجهت اليه حول ما قيل عن قيامه باغتصاب فتاتين ، هما شقيقتان ، من بلدة حاصبيا مما دفع شقيقهما الى اطلاق الرصاص عليهما وقتلهما ، وردود فعل سكان البلدة الذين هبوا لغسل العار الذي لحق بهم ، ثم قرار محكمة الثورة القاضي بانزال حكم الاعدام بالفدائي « أبو حميدو » وذلك « كي يكون عبرة لغيره » ، على ان يجري تنفيذ هذا الحكم في ساحة البلدة ، وبقية القصة معروفة : فقد رفض سكان البلدة اعدام ابو حميدو ، وطالبوا بانسحاب الفدائيين من البلدة وجوارها ــ وقد انسحب الفدائيون فعلا ، وقصفتهم الطائرات الاسرائيلية ظهر اليوم التالي قبل أن يتمكنوا من مواقعهم الجديدة ، وتمويهها ، ولكن الطائرات الاسرائيلية قصفت ، أيضا ، شوارع البلدة ذاتها دون تمييز . وقيل فيما بعد ان « ابو حميدو » اصيب بجراح اثناء تعرض المنطقة للقصف ، ولعله كان واحدا من نزلاء السجن الذي تعمدت الطائرات الاسرائيلية ضربه .

وفي الوقت الذي كان حادث ابو حميدو ، وذيوله ، تشغل الجزء الاكبر من المناقشات المحتدمة في تلك الفترة ، كانت قضية أخرى تتفاعل على مستوى أقل حدة ، وهي قضية يمكن تلخيصها بـــ : حدود وضوابط العلاقات الاعلامية والثقافية عموما ، مع العدو الاسرائيلي . ففي تلك الفترة أخذ طالبان على عاتقهما أمر الاشتراك في برنامج تلفزيوني بريطاني ، من قبرص ، قاما اثناءه بمناقشة مباشرة مع طالبين اسرائيليين حول قضية فلسطين . وفي الفترة نفسها أخذت قضية « فنلي » ، في كلية بيروت للبنات ، (وهو الاستاذ الذي تغاضى عن وجود مقطع في كتـــاب دراسي مقرر ، يبـــرر الاغتصاب الصهيوني) ، تتفاعل ، وتنتقل الى صفحات الصحف اليومية ، وتصل الى حد المطالبة بطرد الاستاذ المذكور . اما قضية وجود مرجع طبي اسرائيلي في مكتبة الجامعة الاميركية ، فقد أخذت حيزا أقل من الاهتمام ، ومع ذلك فقد أدت الى طرح المسألة الاساسية في هذا النطاق .

ولا تشكل هذه القضايا الثلاث شيئا جديدا تماما ، فقد حدثت أمور تماثلها مرات عديدة خلال السنوات الماضية ، والواقع انه لا يمكن اكتشاف منطق معين للاسباب التي تؤدي الى ظهورها فجأة ، واحتدام النقاش حولها ، مرة بعد الاخرى ــ وقد يحدث ذلك في فترة يكون فيها العدد الاسبوعي من « الاكسبرس » الفرنسية (مثلا) موجودا في كل مكان من بيروت ، ويخصص عدة صفحات لشتم عنصري وديني للعرب ، دون ان يقوم أحد ليس بمنع « الاكسبرس » او مناقشة موقفها ، ولكن حتى بعتاب مراسلها في بيروت ! وهذا ما كان يحدث فعلا في الفترة التي كان البروفسور فنلي معرضا لنقد شامل في صحافة بيروت !.

على ان المهم في هذه القضايا ، والاشكال المختلفة التي تظهر فيها بين الفينة والاخرى ، هو انه طوال الفترة الماضية لم يكن بالوسع التوصل الى مقاييس وقوانين فيما يتعلق بحدود وضوابط الصلة الاعلامية والثقافية عموما ، مع العدو ــ وهكذا ظلت الامور خاضعة في معظم الاحيان لتقديرات شخصية ، وظلت الاحكام بشأنها هي الاخرى احكاما فردية ، ومزاجية في أحيان كثيرة .

لنحاول ، فيما يلي ، القاء نظرة على هاتين القضيتين : قضية أبو حميدو ، وقضية النشاطات الاعلامية والثقافية للعدو ، وعلاقتنا بها ، على جميع المستويات .

قضية أبو حميدو

لا يمكن فهم هذه القضية دون تفكيكها الى عناصرها الاصلية ، والا ظلت بالنسبة لنا كتلة من الغموض ، ومن الانفعالات التي لا تفسر ، وبالتالي لا يمكن حلها . واني أرى انه كي يكون بوسعنا الاحاطة بهذه المسألة (وبالدرجة الاولى : بدلالاتها وجذورها) علينا تقسيمها الى ثلاثة أجزاء رئيسية : موقف الثورة ، اي ثورة ، من الانتهاكات التي يرتكبها عناصرها ــ الاغتصاب وجرائم العرض ــ علاقة المقاومة بالاهالي .

أ ــ موقف الثورة من الانتهاكات التي يرتكبها أعضاؤها :

لا يجادل أحد في أن الثورات عادة تطلب من عناصرها درجة عالية من الانضباط المسلكي، خصوصا ازاء تقاليد الجماهير في فترات الاحتكاك معها في عهود الكفاح المسلح . ويصل هذا الانضباط الى حد جعل الكثير من المفكرين ومؤرخي الثورات يعتقدون ان احد الاخطار الكبيرة التي تواجه الجيوش الثورية هي تحولها ، نتيجة للضبط الحديدي لمسلكيتها ، الى قوة محافظة في المستقبل . ويقول لنا جون ريد ، مثلا ، ان التعليمات التي حملها الجيش الاحمر معه حين اكتسح المقاطعات الاسلامية في الصين ابان الثورة كانت تطالب بمسلكية معينة وقاسية لا تكاد تصدق ، الى حد كانت معه تعليمات الرئيس ماو للجنود الصينيين تصل الى الطلب بأن لا يتلفظوا قط ، أمام المسلمين ، بكلمة « كلب » او « خنزير » او « خمر » .

وليس استثنائيا على الاطلاق ان يقوم الجيش الثوري باعدام عنصر من عناصره اذا ما اغتصب فتاة ، وقد حدث ذلك مرات لا يحصيها العد ، بل ان الجيوش الثورية، في فترات احتدام حرب الشعب الوطنية ، تصدر احكاما بالاعدام على عناصر من صفوفها لاسباب تبدو أحيانا ، اذا ما نظر اليها من الخارج ، أقل شأنا من الاغتصاب .

ومن هنا فان الحكم باعدام فدائي اغتصب قروية هو من حيث المبدأ اجراء لا يمكن وصفه بأنه غريب أو انه استثنائي ، ولكن اصدار حكم من هذا النوع يجب أن يرتبط ، من بين أمور عديدة ، بأمرين أساسيين : **أولهما** : التحقيق بالامر وفق أصول علمية ، ذلك لان جريمة الاغتصاب هي واحدة من أعقد الحالات الجرمية ، خصوصا اذا ما نظر اليها من زاوية ثورية ، وليس من زاوية الانسياق في نسخ التقاليد بصورة آلية . (وسنرى

تفاصيل ذلك حين نصل الى بند الاغتصاب وجرائم العرض) . **وثانيهما** : ضرورة قياس حادث من هذا النوع وفق القوانين التي جرى تربية عناصر الجيش الثوري على أساسها: درجة الانضباط ، درجة التسيس ، والشروط المسلكية التي يعتمدها هذا الجيش ، والى آخر ما هنالك من قوانين ، ودون وجود مثل هذه القوانين الثورية أصلا في صلب التربية السياسية والعسكرية للقوات المسلحة ، فانه من غير المنطقي تطبيق تلك القوانين فقط عند حالات العقاب .

اذا عدنا الآن ونظرنا الى حادثة « أبو حميدو » من خلال هذين الشرطين ، وجدنا أن ما حدث يكاد يكون مهزلة ، وسنرى فيما بعد لماذا كان كذلك .

فمن الواضح أن « أبو حميدو » لم يغتصب الفتاتين ، ولا واحدة منهما — وان حالة التحرش التي حدثت ، على سذاجتها ، لم تكن حالة مبسطة (بمعنى ان ابو حميدو ليس هو الذي سببها جملة وتفصيلا) — وان الموضوع كله أخذ على أكثر أشكاله سذاجة وبساطة ، وجرى التحقق منه من خلال ردة فعل الشقيق الذي اغتال شقيقتيه دون مبرر، واعتبر سلوك الشقيق وكأنه برهان على خطأ شقيقتيه وجريمة ابو حميدو ، وهو اعتبار غير جائز بالطبيعة ، خصوصا حين تأخذ به ثورة تحكم على أحد عناصرها بالموت .

ولكن الامر الآخر ليس أقل أهمية ، وهو الامر الذي يلخصه السؤال التالي : هل نشأ « أبو حميدو » ، داخل قوات الثورة ، على درجة من التربية السياسية والنضالية ، والانضباط التنظيمي الحديدي ، موازية في منطقها وصرامتها لهذه الدرجة من العقاب التي نزلت به حين أخل بالسلوك المطلوب ؟

لقد ذكرنا في السطور السابقة ان الجيوش الثورية ، في فترات حرب الشعب الوطنية ، وعلى الاخص حين يكون الصراع المسلح محتدما ضد العدو وسط الجماهير ، تضع شروطا قاسية على مسلكية عناصرها ، وغالبا ما تسمح لنفسها بدرجة ليست قليلة من الانحناء أمام التقاليد السائدة حين لا تكون هذه التقاليد في السطر الاول من جدول التناقض الراهن — ولكن هذه الجيوش لا تفرض تلك الشروط كما تفرضها قوانين العقوبات العسكرية النظامية، ولا تفرض تلك الشروط من خلال منطق التخويف بالعقاب، ولا تفرضها من خلال سطوة الارهاب ، ولكنها تبنيها تدريجيا من خلال الوعي ، بحيث يصبح التزام المناضل الثوري بهذه القوانين المسلكية جزءا من واجباته النضالية ، لا الزام فيها ولا جزاء ، مستندة الى الوعي الثوري ، وقائمة على الانضباط التنظيمي ، ومستمدة من القناعات الذاتية العميقة .

عندها يصبح تحطيم هذه القوانين جريمة كبيرة ، تستحق تلك الدرجة من العقاب — وهذا بالذات ما يفسر منطق الثورة حين تجعل عقاب جريمة الاغتصاب الاعدام ، في حين ان القوانين المدنية العادية لا ترى في هذا العمل ما يستوجب عقابا لا يصل في اقصى الحالات الى أكثر من خمس سنوات من السجن . . ذلك لان الثورة تعتبر جريمة الاغتصاب جريمة سياسية ايضا .

من هنا ، فانه حتى لو ارتكب « ابو حميدو » جريمة اغتصاب فتاة من بنات الشعب ، فان الشروط الثورية تقتضي النظر الى هذه الجريمة — اذا ما اردنا اعتبارها جريمة سياسية ايضا — من خلال الوعي ، واذا نظرنا اليها من خلال وعي ابو حميدو ، صار لزاما علينا أن نضع نصب أعيننا امتحان أسلوب التربية السياسية في التنظيم الذي ينتمي اليه ، فاذا كانت التربية السياسية في ذلك التنظيم متقدمة ، وقائمة على التوعية والانضباط والمسلكية الثورية والعلاقة الحميمة مع الجماهير ، فان العقاب الذي ينزل بمرتكب الجرم ، عندها ، يكون غيره فيما لو كان التنظيم المشار اليه متسيبا ، وفاقدا لعناصر التثقيف السياسي والانضباطية المسلكية ، وغير مكترث بالجماهير او مهتم بها .

ان نشاط أية « محكمة ثورية » ــ على وجه العموم ــ لدى ثورة من الثورات ، يجب ان يكون مستندا الى قوانين ، وهذه القوانين عادة تنبثق من النظـــام الداخلي لتنظيم ما او حزب او جبهة ، ومن اللوائح التنظيمية الملحقة به ــ ومن المفهوم ان الانظمة الداخلية لحزب او لحركة او لجبهة هي انعكاس للايديولوجيا التي تسترشد بها ، وهذا يدلنـــا ، بصورة مختصرة ، على الحيثيات الكامنة وراء منطق العقاب في الثورة ــ هذا العقاب الذي يستند الى نظرة للانسان وللعالـــم تختلف عن تلك التي تنتهجهـــا الانظمة والدول الخاضعة لسيادة البورجوازية ، او الاقطاع ، او الواقعة تحت الاحتـــلال . فالثورة لا تستطيع الا ان تربط مسألة العقاب بالوعي ــ ومن البديهي ان الوعي ، بالنسبة لعضو في تنظيم معين ، مرتبط ارتباطـــا شديدا بالمسألة التنظيمية ، ويجب النظـــر الى منطق العقاب من خلال ذلك كله .

ب ــ الاغتصاب وجرائم العرض :

كما هو واضح فان جريمة الاغتصاب ، في مجتمع مثل مجتمعنـــا ، هي جريمة معقدة ، وتكاد تكون لكل واحدة منها شروط تختلـــف عن الاخرى . انه من التكـــرار التذكير بان مجتمعا متخلفا ، يضع حواجز قاسية بين الجنسين ، ولا يستطيع ان يقدم حلا منطقيا لمشكلة الكبت (خصوصا بعد انتهاء عادة الزواج المبكر) ، وفي الوقت نفسه يتسامح ازاء نشر الصور العارية ، والافلام الاباحية ، وترويج منطق « التحرر » الجنسي واخلاقياته على جميع المستويات ، والتحريض عـــلى اعتباره منطـــق المثل الاعلى المنشود ــ ان مجتمعا من هذا النوع لا يمكن ان تكون الجرائم الجنسية فيه ، بما في ذلك الاغتصاب ، احداثا بسيطة او احداثا يمكن الحكم عليها ببساطة . ويتوجب علينـــا ان ندرك ان هذه « الجرائم » ، على مختلف مستوياتها ، هي افعال مركبة ومعقدة وتخضع كل واحدة منها الى شروط فريدة ، لا نستطيع الا ان ندرسها اذا اردنا ان تكون احكامنـــا عليها دقيقة وغير جائرة .

والمشكلة هي انه مع ازدياد تعقيد واقع الجريمة الجنسية ، وحوافزها ونتائجها ، فان جرائم العرض ــ كرد تقليدي على جرائم الجنس ــ ما زالت تحتفظ بمنطقها القديم اياه ، وتوفر لها القوانين الرجعية ، وكذلك منطق الانظمة البورجوازيـــة المتخلفة ، جوا من الحماية الكافية لضمان استمرارها : فهـــذه الانظمة ، بالرغم من دورها المباشر وغـــير المباشر ، في خلق مسرح الجريمة الجنسية ، فانها تهرع الى مساندة مجرمي العرض ، قتلة اخواتهم وزوجاتهم وبناتهم وامهاتهم وبنات عمومتهم ، بفرض عقاب شكلي ــ في حين انها تقف عاجزة عن تقديم اي حـــل لحماية تلك الاخوات والزوجـــات والامهات وتوفير استمرار الحياة لهن .

ان حادثة « ابو حميدو » هي نموذج لهذا المنطق غير المتزن الـــذي خضع له الجو العام طيلة ايام الازمة :

● فقيام شقيق الفتاتين بقتلهما هو عمل لا مبرر لـــه ، حتى في السياق التقليدي لمنطق جرائم العرض ، ومع ذلك فقد توفرت له الحماية على جميع مستويات المجتمع والدولة .

● وانصباب النقمة عـــلى « ابو حميدو » ، حتى دون اثبـــات ودون تحقيق ، ورغـــم الصيحات الخافتة للاطباء الشرعيين ، جاء بمثابة الامعان في حماية قاتل شقيقتيه ، وهدر دم بريء .

● وانسياق الثورة الفلسطينية في هذا التيار جاء كثالثة الاثافي ! اذ ان الثورة ، امـــام مشكلة من هذا النوع ، وامام الواقع المعقد للجرائم الجنسية وجرائم العرض كـــانت مطالبة بوقفة جادة وعميقة ، حتى وان كلفتها هذه الوقفة ، مؤقتا ، هزة صعبة .

فليس الاغتصاب ، كما قلنا ، كلمة تقال . بل هي عمل يخضع لظروف محددة ولشروط معقدة : فمـا فهمه الشقيق بانه جريمة اغتصاب لم يكن كذلـك ، وما فهمه المجتمـع ـ قياسا على جريمة الشقيق ـ بانه « اغتصاب جمـاعي » ، لم يكن كذلك ـ وقد جاء قرار الاعدام الذي ابرمته الثورة وكأنه يوافق على ذلـك الفهم المغلوط للحادث بدلا من انتهاز الفرصة لطرح مثل هـذا الموضوع الخطـير طرحا موضوعيا ، ومواجهة الخطأ بجراة ، ودعوة القوى الوطنية والتقدمية في لبنان لقول كلمتها .

جـ ـ علاقة المقاومة بالاهالي :

في المقاطع السابقة مس المقال نقاطا تبدو للوهلة الاولى وكأنها عـلى غير علاقة مباشرة بموضوعنـا ، نقاطا من نـوع : دور الوعي السياسي عبر العملية التنظيمية في فرض منطق العقاب ـ والمأزق الجنسي وجرائم العـرض في بلادنا ـ ودور القوى الرجعية في تهيئة مسرح الجريمة الجنسية وبعد ذلك المسارعة الى حماية القاتل ـ ومهمة التنظيم الثوري في صدم المجتمع المنساق في تيار الضلال والخطأ ـ ودور الثورة في النظـر الى مسألة العلاقات بين الرجل والمراة نظرة علمية في مستوى التطورات التي نعيشها وعدم الخضوع للارهـاب اللفظي الذي تمثله كلمـات مثل اغتصاب ، وانتهـاك ، وشرف ، وعرض ، حين تكون مفرغة من معانيها الانسانية ـ الانحناء احيانا امام بعض التقاليد ولكن ليس الانسياق في تيارها ـ وبعد ذلك دور القوى الوطنية والتقدمية في لبنان ازاء حادثة حاصبيا بالذات . على ان هذه النقاط هي في الحقيقة في صلب موضوعنا ، وتشكل اساسه ، واذا اردنا حقا فهم حادثة حاصبيا وقصة ابو حميدو ، فانها ، بالدرجة الاولى، حصيلة هذه النقاط مجتمعة .. ولو لم تكن كذلك لما وصل الامر الى هذه الدرجة ، ومن الواضح أن الخطأ الذي وقع في كل نقطة من هذه النقاط هو الذي جعل من هذا « الحادث العادي » ، حادثا سياسيا كبيرا .

ومع ذلك ، فان عشرات من مثل هذه الاحداث تقع كل يوم في كـل بقعة من بقاع وطننا العربي ، والذين يواكبون حياة المقاومة والمقاومين ، يعرفون ـ وهذا ليس سرا ـ ان ما توهم كثيرون انه وقع في حاصبيا قد وقع فعلا ، وليس وهما ، في امكنة عديدة من البلاد العربية ، وان التنظيمات كانت تنظر في كل قضية من هذا النوع النظرة التي تتفـق مع انظمتها وعلاقاتها الداخلية ، وتتخذ الاجراءات المناسبة ، وفي معظم الحالات كانت الامور تنحل قبل وصولها الى درجة التأزم .

سنكون في منتهى السذاجة لو اعتقدنا للحظة واحـدة ، ان الالاف من الشبان الـذين يشكلون الجسد الحي لحركة المقاومة ، والذي ينتسب معظمهم الى حركات وقوى كان لها نظرة سلبية الى مبادىء التثقيف السياسي والتربية التنظيمية ، هم جيش طاهر من القديسين الاتقياء الورعين ، وانه ينبغي علينا عدم توقع اي خلل او خطأ في مسلكياتهم ـ ولكن الصحيح هو ان هذه المجموعة من الاخطاء والانتهاكات ، في السنوات الماضية ، ومن خلال القياس النسبي ، كانت قليلة للغاية ، واقل ما يمكن توقعه .

ومع ذلك فانه ـ بالاجمال ـ لم تكن التنظيمات تتلكأ قط في اتخاذ اجراءات صارمة جدا احيانا ضد مرتكبي تلك الاخطاء او الانتهاكات ، ولا شك ان هذه الاجراءات كانت احيانا تخضع لتقديرات مبالغ في قسوتها او في ليونتها ، وانه في العادة كـانت تشكو من عدم استنادها الى لوائح تنظيمية واضحة ، الا ان ذلك لم يكن يمنع من احتفاظ المقاومة بدرجة معينة من الانضباط ، ومن المنطـق التفاهمي ، في علاقاتهـا مـع الناس على مختلف المستويات . فلماذا انفجر الموقف في حاصبيا على هذه الصورة ؟

ان هذا السؤال يجب ان يعيدنا الى جذور المسألة ، وهي جذور تقع بلا شك ابعـد من ابو حميدو ، وابعد من قرار محكمة الثورة . وعلينا ، توا ، أن نضع المسألة باختصار

وبوضوح : لقد اشار حادث حاصبيا الى خلل خطير في علاقة المقاومة بجماهير الجنوب ، وعبر عن انفجار لمأزق متقادم ، واوضح ان سلسلة المعالجات الخاطئة للعلاقات مع الجماهير في جنوب لبنان قد دفعت بالتناقض الثانوي الى سطح الاحداث ...

وهكذا فان ايقاف نظرتنا لحادث حاصبيا عند ابو حميدو ، هو بمثابة التزلج على قشرة المشكلة !

والذهاب الى جذر المشكلة هو الذي يفسر لماذا اخذ حادث حاصبيا كل هذا الحجم الذي لا مبرر له ، في حين ان احداثا مشابهة قد وقعت في امكنة مختلفة ، ولاقت حلولها نتيجة لمبادرات من المقاومة حينا ، او من ممثلي الاهالي حينا اخر .

وقد تراكمت الامور لفترة طويلة كي تصل الى ما وصلت اليه في حاصبيا ، ولعلنا نستطيع ان نلاحظ ان ذلك التراكم لم يكن تجميعا مبسطا لاحداث يومية عادية ، ولكنه تركيب معقد لنتائج كانت تصب من خلال الممارسات التالية :

أ ــ ضعف العلاقة بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية والديمقراطية في لبنان، هذا الضعف الذي كان يلجأ احيانا لاخفاء نفسه وراء مختلف صيغ « المساندات » الميكانيكية ، واحيانا اخرى وراء انشاء علاقات مختزة ووجاهات ، ولكن من حيث الجوهر ظلت المقاومة تعتبر نفسها وجودا طارئا وزائدا في الجنوب ، وليس جزءا لا يتجزأ من تحرك وطني ديمقراطي شامل ، مرتبطة به ارتباطا يوميا ، ومنظما من خلال القوى الوطنية والتقدمية .

ب ــ عسكريتاريا المقاومة ، التي اصرت على طرح نفسها فقط من خلال وجود وممارسات عسكرية ، مما ادى الى ترويج فهم خاطىء لمفهوم « القاعدة العسكرية » ومفهوم « تنمية القدرات القتالية » في الجنوب ، وتحويل هذه المفاهيم وغيرها الى ممارسات تتناول حياة الجماهير من الخارج ، ولا تدخل في صلبها وتصبح جزءا من وعيها او من تحركها اليومي .

ج ــ نتيجة لهذا الطابع العسكريتاري لوجود المقاومة في الجنوب ، فان كسل العمليات القتالية وضآلة حجمها وعددها وفعاليتها في الفترة الاخيرة ، قد افقد ذلك الوجود ــ في اعين قطاع كبير من الجماهير الجنوبية ــ قسما كبيرا من مبرراته ، وتضاعفت كمية السلبية في النظر اليه ، وتضاءلت الى الصفر كمية « التسامح » او « التفهم » او « العقلانية » في معالجة الاخطاء الناجمة عن ذلك الوجود الذي فقد الكثير من مبرراته .

د ــ يضاف الى ذلك كله ان عدونا (وهو بدوره حالة مركبة من اطراف مختلفة ومتفاوتة الحجم) يعيش على مبادرات متحركة تعرف كيف تتسرب من خلال هذه الظروف ، وتعرف كيف توجه رياح حربها النفسية ، وغاراتها المعنوية ، وضغوطها العسكرية والسياسية ــ وقد نجح هذا العدو الى حد بعيد في ارهاب جماهير الجنوب وبناء حاجز من الخوف بينها وبين المقاومة ، وهو حاجز سببه الخشية من « عقاب » اسرائيلي توجهه اجهزة مخابرات قديرة ومتسللة جيدا في الجنوب (قبل وبعد حادث حاصبيا ، مثلا ، قامت منظمتان باعدام جاسوسين كان الاسرائيليون قد نجحوا في تجنيدهما من داخل هاتين المنظمتين ، وقد اعدم احد هذين الجاسوسين في ساحة قرية صديقين ــ واثناء ازمة حاصبيا كان كثير من السكان الغاضبين مقتنعا تماما بصحة اشاعة مفادها ان ٢٥ فدائيا على الاقل قد تناوبوا اغتصاب الشقيقتين ــ ولم تكن هذه الشائعة بعيدة عن نشاط مخابرات العدو) .

ومهما يكن فانه يتوجب علينا عدم المبالغة (كما يحدث عادة) باهمية هذا البند الاخير ، بحيث يعطى الاولوية ــ لانه من الواضح ان قدرات العدو هذه لم يكن من الميسور لها

ان تحقق النجاح الذي حققته لو كانت الثغرات في علاقة المقاومة بالجماهير اللبنانية ، وفي تصورات المقاومة لطبيعة وجودها ومهامها في الجنوب ، اقل مما هي فعلا .

ان النتائج التي أخذت تتراكم تدريجيا ، كافرازات يومية لهذه الخطوط ، او لهذه القنوات الاربع ، قد تحولت الى طاقة نوعية وجدت اول الفرص السانحة لتعبر عن نفسها في حادثة ابو حميدو ، ولو لم يخطر على بال ذلك الشاب ، عصر ذلك اليوم ، ان يتحرش بفتاتين شاهدهما تتمشيان قرب المعسكر ، لكان انفجار حاصبيا ، او غيرها من القرى الجنوبية ، قد حدث ايضا ، وربما بعد يوم او اكثر ، عبر حادثة من هذا النوع او من نوع اخر .

ان هذا الحادث ، منظورا اليه من هذه الزوايا المجتمعة ، يشكل في جانبه الايجابي اشارة الى ضرورة الوقوف بجرأة ، واعادة النظر بالتجربة ، وتصويبها — وذلك من خلال توحيد موقف المقاومة حول خطة وهدف العمل في جنوب لبنان ، وبالتالي شكل ومدى العلاقة مع الجماهير الجنوبية ، والدور المركزي للقوى الوطنية والديمقراطية في لبنان ازاء هذه المهام .

انه من السخف تحميل الخطأ لـ « ابو حميدو » ، واعتبار المسألة منتهية هنا ، وكذلك فانه من السخف توجيه اللوم لاهالي حاصبيا ، واعتبار المأزق مجرد افتعال لحالة غضب لا مبرر حقيقي لها ، وعلى نفس المستوى فانه من الضروري القول بانه لا دماء الشقيقتين البريئتين ، ولا دماء ابو حميدو ، ولا كل الاحكام الاخلاقية في العالم تستطيع ان تحل مشكلة من هذا النوع .

وقد يكون من المستحيل تجنب القيام باجراء آني ، او تكتيكي ، عندما نواجه بمشكلة واقعية من هذا النوع — هذا صحيح ، ولكن الخطأ الفظيع هو ان يكون ذلك الاجراء الآني او التكتيكي اجراء انفعاليا ، مقطوع الصلة بالفهم الصحيح للمشكلة ، وبالتالي فهو لا يكون الا مقدمة للوقوع ، بعد فترة وجيزة ، في فخ مشكلة مماثلة .

قضية العلاقات الاعلامية

تختلف طبيعة وأبعاد هذه القضية اختلافا كليا عن طبيعة وابعاد المشكلة الاولى التي صارت تعرف باسم « مشكلة ابو حميدو » .

وكما قلنا فان الموقف العربي من قضايا العلاقات الاعلامية والتعليمية ، والشؤون الثقافية الاخرى ، مع العدو ، او مع مؤسسات تابعة له ، ما يزال الى الان خاضعا لاجتهادات شخصية وتقييمات ذاتية . ورغم ان هذا النوع من العلاقات اكثر تعقيدا وتشابكا من العلاقات التي تدخل في اختصاص قوانين ولوائح مكتب مقاطعة اسرائيل ، الا اننا نلاحظ ، بصورة اجمالية ، أن الموقف العام الذي تعتنقه الغالبية الساحقة من العرب الذين يطلب منهم « التحاور » الاعلامي مع اسرائيلي ، هو الرفض . ومع ذلك فان مكاتب المقاطعة نفسها تقع في اشكالات معقدة حين يطلب منها ان تصدر حكما على ممثل سينمائي ، او على موسيقي ، او على كاتب — وغالبا ما تتعرض احكامها في هذا النطاق الى اختراق من هذه الدولة العربية او تلك ، في فترة ما او فترة اخرى ، رغم ان قوانين وقرارات مكاتب المقاطعة هي — على وجه الاجمال — مطاعة من قبل الدول الاعضاء في الجامعة .

ان هذه الملاحظات ضرورية للاشارة الى انه من الصعب للغاية — او بالاحرى مستحيل — الزعم بانه بالامكان صياغة وصفة ، او قرار ، ينطبق على كل الحالات ، ومن الضروري اتباعه في كل زمان وفي كل مكان وعلى جميع المستويات . على انه يتعين علينا ان نسارع الى القول ان تحفظنا هذا لا يعني قط ان تظل الامور سائبة ، وان تظل المقاييس فردية

ومزاجية ــ بل عــلى العكس تماما : فلانه من الصعب وضع صيغة لقرار يناسب كل الحالات فلا بد اذن من ايجاد جهة مخولة بتقدير الموقف في كــل حالة من هذه الحالات ، واصدار القرار الذي تراه مناسبا .

ونحن ندرك ان مثل هذه الجهة ــ ومن البديهي ان تكون قيادة الاعلام الموحد في منظمة التحرير ــ سترتكب اخطاء في تقدير الموقف هذه المرة او تلك ، الا ان هذه الاخطاء تظل في نطاق معقول ، وهي افضل من حالة التسيب التي يمكن ان تنشأ في حال ترك الحبل على الغارب .

ان هذا الاجراء ينبع ببساطة من كوننا في حالة حرب مع اسرائيــل ، وان هذه الحرب المحتدمة يسقط فيها شهداء كل يوم تقريبا ، وان اكثر من نصف شعبنــا منفي ، ونصفه الاخر تحت قمع الاحتــلال المباشر ، والالاف يرزحون بالسجون . ولو لــم تكن درجة التناقض مع العدو بهــذا المستوى من الحالة الصدامية المحتدمــة ، المتمثلة بالكفــاح المسلح ، لكانت الدعوة لانشاء مثل هذه الجهة المركزية لا مبرر لها .

ولكن ، وزيادة في محاولة الاقتراب من صورة اشمل ، لنأخذ احداثا مختلفة ، كل علــى حدة :

أ ــ التحاور بين طلاب اسرائيليين وطلاب فلسطينيين في تلفزيون لندن :

ان الطالبين الجامعيين الفلسطينيين (طالبة وطالب) اللذين ذهبا الى قبرص لمنازلة طالبين اسرائيليين حول المسألة الفلسطينية قد حققا في رأي كثير من المشاهدين انتصارا ساحقا في المجادلة على الطالبين الاسرائيليين اللذين مثلا حالة مــن السطحية العاجزة . ولكن الذين شاهدوا البرنامج لاحظوا ايضا ان الاطــار الذي قدمت فيه المجادلة كــان اطارا يحمل على تأييد اسرائيل .

ان معظم الحالات التي جرت فيها مواجهات من هذا النوع في برامــج اذاعية وتلفزيونية مختلفة في اوروبا واميركا كانت تنتهي لمصلحة الطرف العربي . وهــذه النتيجة ليست غريبة ، وكل من يعرف شيئا عن وجهــات النظر الاسرائيلية ، والفنون الاعلامية يعرف عادة كم هي هشة في حالات النقاش .

ومع ذلك فان السبب الذي يحملنا على الدعوة لرفض هذا النوع من الترف لم يكن قط الخوف من نتيجة المبارزة الكلامية ، او الخشية من « صلابة » الفهلويــات الاسرائيلية القابلة للكسر بسهولة ، عند مواجهة فيها الحد الادنى من الموضوعية .

ان السبب الاول هو اننا في حالة حرب مع هذا العدو ، ومقاطعتنــا له ليست نابعة من موقف وجداني ، ولكنها نابعة من طبيعة المواجهة التي نعيشهــا ضده ، وهذه المقاطعة هي في حد ذاتها وجهة نظر ، وموقف .

اننا ندرك بأن كسب الرأي العام العالمي ــ في هذه المرحلة على الاقل ــ لا يقدم فيها ولا يؤخر مثل هذه المبارزات الكلامية ــ وعلى العكس تماما ، فان اجهزة الاعلام البرجوازية تستخدم مثل تلك المبارزات للامعان في لعبتها التي تحقق لها في نهاية التحليل سطوة اشد على عقول جمهورها .

ان « بي بي سي » لندن ، التي ذهب بها « تسامحها » الى حد فتح الفرصة امام طالبين عربيين كي ينتصرا في مبارزة كلامية على طالبين اسرائيليين ، قبل حــادث الهجوم على مطار اللد بـ ٢٤ ساعــة فقط ، تعمدت طــوال الاسبوعين اللاحقين رفض تمرير عبارة واحدة لمصلحة الفلسطينيين في كل نشراتها الاخبارية ، الى حد اضطرت معه الى تزوير واجتزاء تصريحات وبيانات فلسطينية كي تجندها في خدمة حملتها العنصرية .

ولدينا كل الحق للاعتقاد بان تلك المبارزة الكلامية قد خدمت بصورة لا مثيل لها هذا المنهج المنحاز ، ومن المؤكد ان مثل هذا العمل ليس نتيجة لمؤامرة شيطانية او تخطيط سري ، ولكنه نتاج منطقي للبنية السياسية والايديولوجية التي تحرك اجهزة اعلام من هذا الطراز .

اننا بصورة اجمالية ، ورغم كل تجاربنا ، لم نستوعب بعد مدى انحياز وسائل الاعلام البورجوازية للحركة الصهيونية التي تراها كجزء حيوي من منطقها وتطلعاتها — وحسن ظن الكثير منا بكمية وجدوى المظاهر الديمقراطية الحرة في وسائل الاعلام هذه ، وطابع « البرلمانية » و « الحوار » الذي تمنحه لنفسها هو في الواقع نتيجة لمدى تغلغل سطوة هذه الوسائل الاعلامية في عقول بعضنا .

انني أجرؤ على القول ، من خبرة مادية وواقعية ، ان هدر مئات الساعات مع الاف من الصحفيين والاذاعيين الاجانب ، خلال السنوات الماضية قد أدى الى نتائج تكاد لا تذكر — والشيء الوحيد الفعال هو حجم العمل المسلح والعمل السياسي في أرض المعركة ذاتها ، وليست هذه الملاحظة بعيدة عن موضوعنا ، اذ ان مقابلة كل صحافي وكل اذاعي هي في الواقع حلقة من الجدل العنيف ، هي — لو شئنا — شكل من أشكال المبارزات الكلامية . فالاحرى ان يقوم هؤلاء الاعلاميون بفتح مسرحهم امام تمثيلية بين طلبة عرب وطلبة اسرائيليين . فذلك مشهد ليس فقط عديم النفع ، ولكنه ضار بالنسبة لنا .

ان مقاطعة العدو ، ورفض حوار الاقناع معه من خلال المبارزات الكلامية ، هو في حد ذاته موقف . هو وجهة نظر . هو شكل من اشكال الصدام .

ومع ذلك ، فان هذا الشكل الاعلامي (اي الحوار الكلامي مع العدو) هو شكل واحد فقط من بين عدد كبير من الاشكال الاعلامية التي يمكن لنا ان نستخدمها في الغرب ، شرط ان يظل هذا الاستخدام مشدودا الى الحقيقة الجوهرية التالية : ان تغيير ميزان القوى الاعلامي في الغرب لا يحدث الا في ميدان القتال .

اذا استوعبنا هذه الحقيقة استيعابا عميقا وجيدا ، صار بوسعنا معرفة ما هو أصح ازاء الاشكال الاعلامية المختلفة التي يتعين علينا انتهاجها : ان أي شبكة تلفزيونية ليست مستعدة لاعطاء اي فلسطيني ، في حال سكون الثورة ، دقيقة واحدة ليعبر فيها عن رأيه — ولكن هذه الشبكات ترغم ارغاما على فتح شبكاتها امام صوت المقاومة حين يصبح الحجم القتالي والسياسي لهذه المقاومة من الكبر بحيث يدخل ، او يمس ، الاطار اليومي لحياة الناس في الغرب . وعندها لا نعود بحاجة الى تقديم مشهد مسل من مشاهد المبارزات الكلامية ، مع عدونا المنصرف الى قتل شعبنا واستعباده ، امام اميركي او سويدي او الماني يتعشى « الهوت — دوغ » امام شاشة التلفزيون ، ولا يختلف الامر عنده ان ذهب العرب الى الصحراء أو ذهبوا الى جهنم ، مهما كانت قدرة المجادل العربي على الحذلقة !

ان عملنا الاعلامي في الغرب يجب ان يستند على الاصدقاء ، على الحركة الثورية في البورجوازيات الغربية ، ولا يمكن ان يتكون رأي عام عالمي يقف الى جانبنا دون جهد هذه القوى اليسارية ، وتبنيها للقضية ، وبوسع هؤلاء الاصدقاء ان يقرروا عند ذاك ، على ضوء الواقع الذي يعيشونه في مكان معين وزمان معين ، الاشكال الافضل للمعركة الاعلامية .

ان الاعلام معركة — هكذا يقول لينين — وبالنسبة لنا فان معركتنا الاعلامية لا تحقق انتصارا اذا ما جرى خوضها من خلال المبارزة الكلامية مع العدو امام رأي عام في مجمله منحاز ، وعلى شبكات اذاعية وتلفزيونية تقف جوهريا ضد قضايانا .

ان الجلوس مع العدو — حتى في استديو تلفزيوني — هو خطأ اساسي في المعركة ، وكذلك فانه من الخطأ اعتبار هذه المسألة مسألة شكلية .

اننا في حالة حرب ، وهي بالنسبة للفلسطينيين على الاقل مسألة حياة او موت ، ولا بد من التزام جمهرة الشعب الفلسطيني بالشروط التي تستوجبها حالة حرب من هذا الطراز .

ب : قضية البروفسور فنلي وقضية المرجع الطبي :

لعل الاستاذ المذكور قد ظلم في هذه الحملة ، اذ قيل منذ فترة طويلة انه صديق للعرب ، وان المقطع « الصهيوني » الذي ورد في كتاب كان قد اختاره كمقرر لصف من صفوف كلية بيروت للبنات ، لم يكن مقصودا . ومهما يكن الامر ، واذا كان انطباعي صحيحا ، فانني شعرت طوال تطورات هذه القضية ان المسألة مفتعلة — ليس لان الاستاذ الاميركي المذكور صديق للعرب او ليس صديقا لهم ، ولكن لان المقطع الذي اثار كل تلك الضجة هو مقطع سخيف ، وان تدريسه يجري في صفوف عليا .

انني لا ارى سببا يمنع الصفوف العليا من الاطلاع على تفكير العدو ، بل لا ارى سببا يمنع من ان يكون هذا الاطلاع اجباريا . لو كان هذا المقطع ، او اي مرجع صهيوني ، قد جرى تدريسه خلسة في صف ابتدائي ، كشكل من اشكال غزو العقول البريئة العزلاء لاطفال غير قادرين على خوض جدل ضد ذلك الغزو ، فان الامر يصبح جريمة وطنية اذن .

ولكنني لا استطيع ان افهم كيف نتردد حتى الان في الاطلاع ، وفي السماح بالاطلاع ، على مصادر واشكال فكر العدو .

هل كان البروفسور فنلي « يهرّب » مادة ممنوعة الى عقول عزلاء ؟ انني لا اعتقد ذلك ، ولم اقتنع بحجج الذين حاولوا الايحاء بهذا . كل ما هنالك ان مقطعا كتبه مؤرخ متعصب ، نصف أعمى ، يشكو من سذاجة فكرية مفرطة ، قد جعل يمر من امام اعين طلبة من المفترض ان يكونوا متقدمين .

والشيء نفسه — تقريبا — يقال عن المرجع الطبي الموجود في مكتبة الجامعة الاميركية (والواقع ان مكتبة الجامعة الاميركية مليئة بالكتب التي تعكس فكرا صهيونيا واسرائيليا على صعيد الادب والاجتماع والاقتصاد) .

على أن ذلك كله يدل على شيء مهم ، يمكن التوصل اليه من خلال طرح التساؤل التالي: لماذا نخاف من مثل هذه الامور ؟ وهل من المفترض ان نلغي حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على الانجازات الفكرية والعلمية لافراد العدو ، والاستفادة منها ايضا ؟

ان ما يكمن وراء هذا التساؤل هو قناعتنا بأن مناهج التربية والتعليم في بلادنا ليست في مستوى القدرة على معالجة هذا الموضوع جذريا ، ولو توفرت عندنا القناعة بأن التنشئة الوطنية في مدارسنا مبنية على اسس علمية وراسخة وصحية وعصرية ، لما كان المقطع الساذج في برنامج « فنلي » يخيفنا ، ولما كانت رؤيتنا لمرجع طبي من انتاج عالم اسرائيلي في مكتبة الجامعة تهز ثقتنا بقدرة طلابنا الجامعيين على معرفة الفارق بين هذا المرجع ، وبين استمرار معركة التحرر الوطني ضد العدو الاسرائيلي .

ان برنامجا للتنشئة الوطنية ، قائما على البحوث العلمية والحقائق التاريخية ، والتحليلات السليمة ، يضع طلابنا وهم في صفوفهم الابتدائية والثانوية في صلب معارك أمتهم ومصالحها ، هو الذي يجعل معالجتنا لمثل هذه المواضيع تصبح معالجة صحيحة .

وفوق تأسيس وطني من هذا النوع يصبح من واجبنا ان نوفر لطلابنا في دراساتهم العليا كل شيء يحدث في اسرائيل ، صحافة وكتبا وانجازات .

وبالطبع ، فان تربية وطنية من هذا الطراز لن تمنع من وجود استاذ اجنبي منحاز ، ما زال مصرا على غسل يديه الملطختين بدمـــاء الخطيئة اللاسامية بجلـــود العرب ، او متعصب ديني محشو بالخرافات السياسية ـــ وانـــا اشك في وجود طريقة قادرة على استئصال مثل هذا النوع من البشر ـــ الا انه من المؤكد عندئذ ان الضرر الذي يستطيع مثل هذا الاستاذ ، الاجنبي او العربي ، تسبيبه للطلاب يكون محصورا ومحدودا وغير ذي أهمية .

ان التناقض الذي لا يحتاج الى شرح ، والذي نعيشه كل يوم فيما يتعلق بهذه المسألة ، يدل على الاساليب الشكلية التي تقوم بها معظم الانظمة العربية لمعالجة مشكلة مهمة من هذا الطراز ، وفي الوقت الذي تمتلىء فيه كل صحف الغرب ، تقريبا ، بامتداح اسرائيل وشتم العرب ، وتدخل الى معظم اسواقنا دون رقابة ، وتشكـــل غزوا اعلاميا عنصريا مستمرا ويوميا ، نرى ان الحملة على كتب موضوعة بين ايدي جامعيين هي التي تثـــير الجدل !

على انه يجب التأكيد على اننا حين نرفض الغاء حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على انجازات العدو وفكره ، فاننا ـــ مرة اخرى ـــ لا ندعو الى التسيب باسم الحرية المزيفة ، او فتح ابواب الغزو الاعلامي للعدو على مصراعيه ، او شد ازره بحربه النفسية ضد جماهيرنا، وترك الحقن اليومية لفرض ثقافة الاستسلام والاستخذاء تنغرس في ادمغة شعبنا دون حساب . . كلا ، ان علينا ان نعي حالة الحرب التي نعيشها ، والاساليب التي يستخدمها العدو على جميـــع المستويات ، والتصرف وفق القوانين التي تعطينا حق الـــدفاع عن انفسنا وعن جماهيرنا ، وفي طليعة هذه الحقوق الحيلولة دون وصول سموم العدو الى عقول جماهيرنا ، واستخدام الوسائل الكفيلة ليس فقط ببنـــاء مصفاة فعالة في هذا المجال ، بل ردع كل المحاولات الخبيثة التي لا تتعب من استخدام الحديث عن «الحريات» لفتح الباب امام حملات العدو .

ان جوهر الحـــل الايجابي هو « ردكلة » الجماهير ـــ تعميم ثقافة وطنية علمية ـــ اي المضي بالثورة الى الامام بالدرجة الاولى .

ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية

أ. ن. سعد

من الشائع تقديم الصهيونية وكأنها حركة قومية نشأت عفويا في اوساط جماهير اليهود في اوروبة الشرقية واجتاحت مخيلاتهم عند نهاية القرن الماضي فاندفعوا الى فلسطين لبناء كيان ذي مضمون مجتمعي تقدمي اشتراكي . والالتباس الذي رافق دراسة وفهم العقيدة الصهيونية عامة يعود لوجود تيار يساري اشتراكي داخل الحركة الصهيونية لعب دورا هاما في تثبيت نموها في فلسطين ومن ثم في اسرائيل . فرغم وضوح واقع نشأة الصهيونية ونموها تحت اجنحة الامبريالية البريطانية نهج زعماء الحركة الصهيونية وبشكل دائم في ابراز هذا الوجه التقدمي المزعوم لحركتهم . وكان لتصدي الصهيونية لبريطانية في اواخر الاربعينات ، او بالاحرى ، محاولة بريطانية الوقوف في وجه تزايد النمو الصهيوني في ظل الظروف المؤاتية لها في ذلك الحين ، اثر في الفهم الخاطىء لحقيقة القوى التي خلقت الحركة ورعت نموها ، علما بان النتيجة الرئيسية لاحداث تلك الفترة كانت استبدال الوجود البريطاني بالنفوذ الامبريالي الاميركي ، مما نم في الحقيقة عن تعميق روابط اسرائيل مع الامبريالية في الوقت الحاضر . ولم يكن للسقوط اللاحق للانظمة العربية الدائرة في فلك بريطانية — الامر الذي أدى الى مجابهة محدودة بين الامبريالية وانظمة المساومة العربية التي جاءت في اعقاب ذلك في الخمسينات والستينات — سوى تأثير سطحي على فهم طبيعة المسألة الصهيونية . الا ان ظهور حركة شعبية في صفوف الجماهير الفلسطينية العربية وفي اوساط بعض المثقفين اليساريين الاسرائيليين معادية تماما للامبريالية والصهيونية هو ما اعاد طرح مسألة الصهيونية بالشكل الذي نشهده اليوم .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان بعض دارسي الصهيونية الذين يعترفون بالتقاء سياسات اسرائيل مع مصالح الامبريالية يدعون ان هذا الالتقاء ظاهرة عرضية تنتج عن المتطلبات الفورية للدفاع عن اسرائيل بوجه التهديدات العربية لها ولا ينم عن انعكاس اساسي لطبيعة الصهيونية . ولكن نظرة نقدية في طبيعة الصهيونية حرية بان تبرز عنصر المغالطة الوارد في هذا الادعاء وبانه ليس سوى تعبير عن منهج تبريري في طرح المسألة . وستظهر هذه المقالة ان الصهيونية ، بتراثها الطويل في خدمة الامبريالية ، لم تلق تأييد الامبريالية لها نتيجة لاهداف الاخيرة في الهيمنة على منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل واهم من ذلك ، ارتكز اهتمامها في ظرف الصراعات المجتمعية القائمة في اوروبة نفسها .

يظهر تحليل الظروف المجتمعية التي خرجت عنها الصهيونية ان التبني الامبريالي للحركة كان نتيجة حتمية لطبيعة الحركة نفسها مع ما كمن وراءه من تناسق مبدئي مع ايديولوجيتها . فالدوافع المجتمعية للممولين من وجهاء البورجوازية اليهودية الذين كانوا الاوائل في تبني الصهيونية لم تنطو عن اي تعلق خاص بالشعور « التوراتي » القومي

اليهودي قدر ما كانت انعكاسا لموقعهم المجتمعي ــ الطبقي . وفضلا عن ذلك ، فان قراءة دقيقة للزعماء الصهيونيين الاوائل تظهر التكامل بين مختلف الاتجاهات في الحركة الصهيونية كما تظهر التقاء هذه الاتجاهات بدوافع المتموئين . فقد عكست كتابات هؤلاء منذ عهد باكر تشعبات المسألة الصهيونية وعواقبها كما تركت لنا الدلائل الواضحة على محتواها الايديولوجي . والعنصر الذي تتميز به كتاباتهم هو العداء للحركات الاشتراكية الثورية والقلق على اشتراك اعداد اليهود بشكل خاص في هذه الحركات . وقد جاء تبلور الصهيونية عمليا وفكريا انطلاقا من هذا الموقف الايديولوجي كما ان تبني الدول الامبريالية لها كان نتيجة لهذا الموقف .

نشأت الصهيونية عن ظروف القرن التاسع عشر في اوروبة . واغلبية اليهود في الغرب (أي باستثناء السفرديين) كانوا يقيمون انذاك في أوروبة الشرقية ، وبشكل رئيسي في روسية القيصرية . وقد شكلت هذه المنطقة فيما بعد المصدر الرئيسي للمادة السكانية للصهيونية رغم انها لم تكن بالضرورة مصدر قيادتها وتمويلها . وتسلل الرأسمالية الى هذه المنطقة والذي جاء تحت سيطرة رؤوس الاموال الاوروبية الغربية كان قد أدى الى ازاحة الاسس الاقتصادية للبلدان اليهودية التي غلب عليها الطابع التجاري المركنتيلي والحرفي الصغير الذي كان قائما في فترة ما قبل الرأسمالية . وتدمير الحرف الصغيرة والتجارة المحدودة والربا أدى الى قيام حركة هجرة واسعة أخذت بابعاد اليهود عن بلدانهم الى المدن الرأسمالية الآخذة في النمو . وتسلل الرأسمالية بعد ذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى المناطق الريفية قام عنه تحرك سكاني شامل جاء بالفلاحين المسيحيين الى المراكز الصناعية مما زاد في تفاقم ظروف الازدحام والبطالة في المدن . والتغيرات الاقتصادية هذه والتي أدت الى تحول جماهير من الفلاحين والحرفيين الى البروليتارية في المدن ، وان شكلت الاساس المجتمعي لنشأة جذور الحركة البروليتارية بايديولوجيتها الاشتراكية الاممية ، فقد ظهرت عنها تحاملات وصراعات تعصبية بين اليهود وغير اليهود . وقام عنها كذلك سيل متزايد من الهجرة باتجاه اوروبة الغربية واميركة الشمالية شكل اليهود القسم الاكبر منه . ومأساة الجماهير اليهودية المسحوقة والتي انجرفت باتجاه الغرب هاربة من ظلم الاقطاعية القيصرية المنهارة ومن الرأسمالية الهزيلة التي جاءت لترثها شكلت ما عرف بالمسألة اليهودية .

ان اوائل من اثاروا « الحل » الصهيوني للمسألة لم يكونوا من اليهود بل من المسيحيين من مسؤولي الدول الاوروبية . وقد رأى فيه بعضهم تخليص اوروبة من « الساميين » ورأى فيه آخرون امكانية زرع نفوذهم بذلك في الشرق الاوسط والمناطق الاخرى المتنازع عليها بين الدول الاوروبية الاستعمارية . والديبلوماسي البريطاني لورانس اوليفانت ، وهو المسيحي المتحمس الذي بدت لزوجته رؤى خيالية عن « عودة » اليهود الى فلسطين لاعتناق المسيحية هناك ، كان من الاوائل بين فئة الصهيونيين المسيحيين . وكذلك كان ارنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الثالث الذي دعا الى « اعادة » تشكيل الدولة اليهودية في فلسطين وذلك في كتاب وضعه عام ١٨٦٠ عندما كانت الحكومة الفرنسية تتحين فرص الصراع الطائفي بين الموارنة والدروز في لبنان للتدخل عسكريا بالبلاد . وبعد عدد من الصهيونيين المسيحيين ظهر كذلك عدد من المتنصرين ذوي الاصل اليهودي الذين رفعوا شعار الصهيونية بحماس . وافضل مثال على هذه الفئة كان بول فريدمان الذي طالما شغلته مسألة ابعاد اليهود الروس فقام بحملة على رأس شرذمة من المرتزقة لاحتلال الشاطىء الغربي من الجزيرة العربية ليعلن نفسه ملك اليهود هناك فانتهت مغامرته بالفشل والسخرية حين طردته الحامية العثمانية عن المنطقة .

عندما حان وقت اهتداء اليهود انفسهم للصهيونية جاء ذلك على أيدي كبار الاثرياء من

اعضاء البورجوازية اليهودية ولم تكن فلسطين مركز اهتمامهم . وكانت هذه الطبقة قد انصهرت في المجتمع البورجوازي في كافة بلدانها وخاصة في اوروبة الغربية والوسطى ولكن كذلك في اوروبة الشرقية . وقد بدت مظاهر هذا الانصهار في كافة المجالات اللغوية والثقافية والقومية والدينية كذلك اما عن طريق التنصر أو نشوء المذاهب « الاصلاحية » الجديدة . الا ان عملية الانصهار هذه باتت تواجه العوائق نظرا لنشوب موجات الاضطهاد المتتالية ضد اليهود واحداث التنكيل بهم . وكانت البورجوازية اليهودية المنصهرة تعتبر قدوم المهاجرين اليهود الروس من البروليتاريين الفقراء سبب هذه الاحداث التي عكرت صفو وضعهم المنصهر في بلادهم . وقدوم موجات هؤلاء المهاجرين الى المدن الاوروبية اعتبر مسؤولا عن « انبعاث اللاسامية » كما ان هؤلاء المهاجرين القادمين من البلدان اليهودية شبه المنغلقة بدوا وكأنهم غير قادرين على الاندماج . ومما اضاف الى قلق البورجوازية اليهودية هو ان عملية التحول الى البروليتارية التي اختبرتها افواج المهاجرين المتدفقة على المدن الصناعية غالبا ما دفعت بافرادهم ومجموعاتهم الى الاحزاب اليسارية والصراع البروليتاري الدائر في العواصم والمدن الاوروبية آنذاك . وهذه الظاهرة التي اقترن اسم البروليتاريين اليهود بها بدت وكأنها تلقي ظلال الشك على وطنية الطبقات البورجوازية المنصهرة وشكلت اسباب الارتباك والقلق لها . لذلك فقد جاء رد فعل هذه الطبقات في البحث عن الوسائل لتحويل نزوحهم المحتوم بعيدا عن المدن الاوروبية وتوجيهه خارج نطاق دول اوروبة وشمالي الاطلسي . وهذا ما كان دافع الاختبارات الصهيونية الاستيطانية الاولى وطابع ممارساتها العملية .

وقد اتخذ هذا المنطلق عمليا شكل تنظيم مشاريع التهجير والتوطين في مستعمرات زراعية في مناطق مختلفة من العالم . وهذه المشاريع الهادفة لابعاد الفقراء اليهود انشئت بتمويل من كبار اثرياء البورجوازية اليهودية في اوروبة الغربية . فالبارون دي هيرش وجمعية الاستعمار اليهودي التي انشأها قامت بتنظيم وتمويل الهجرة والاستيطان في الارجنتين . والبارون ادموند دي روتشيلد واخرون من افراد عائلته قاموا بتمويل الهجرة عن اوروبة الى فلسطين بشكل رئيسي حيث اقيمت مستوطنة زراعية صغيرة تحت رعايتهم . اما الاتحاد اليهودي العالمي ، والذي كان بالاساس جهازا يرعاه افراد البورجوازية اليهودية في فرنسة ، فكان يوفر الاموال لمساندة المستوطنات اليهودية في عدد من البلدان . ولم يقصد من هذه المشاريع تحقيق الارباح لمولييها بل اديرت باكلاف بالغة وابقي عليها طالما نجحت في استمالة افواج المهاجرين من البروليتاريين اليهود الفقراء . والهدف الرئيسي وراء « برامج الابعاد الخيري » هذه ، كما وصفها احدهم ، ارسال فقراء اليهود الى ابعد مكان ممكن بأقل كلفة ممكنة .

ان اول شرح للصهيونية كتبه يهودي ظهر في الكراس الذي وضعه ليو بنسكر عام ١٨٨١ تحت عنوان : **التحرر الذاتي** باللغة الالمانية . وبنسكر الذي كان مثالا لليهودي الوطني المنصهر من اعضاء البورجوازية اليهودية في روسية ارسل هذا الكراس نداء الى ابناء دينه وخاصة أثرياء البورجوازيين منهم في اوروبة الغربية دعا فيه الى توحيد مشاريع الاستيطان اليهودية وتركيزها في منطقة واحدة . ولتحقيق هذه الغاية دعا بنسكر الى تشكيل « هيئة ادارية يهودية » تقرر اولا على منطقة مناسبة لتوطين بضعة ملايين من اليهود — ويقترح منطقة ما في تركية الاسيوية او شمالي اميركة — وتعمل للحصول على موافقة القوى الاوروبية للمشروع وتباشر بعد ذلك بتنظيم الهجرة من خلال شركة مساهمة تنشئها لهذا الغرض . ورغم التحرر الذاتي الذي يدعيه الكراس بعنوانه لم يقترح بنسكر نزوحه هو وافراد طبقته ، بل نزوح البروليتارية اليهودية . فقال : « وستهدف الهيئة الادارية بشكل رئيسي وخاص الى ايجاد وطن آمن لا يمكن انتهاكه للفائض من اولئك اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في مختلف البلدان ويشكلون عبئا

على سكان البلاد الاصليين . لذلك يجب ان نتأكد من أبعاد الفائض من اليهود ، تلك الفضلة غير القادرة على الانصهار وتوفير المقام لها في مكان آخر » .

وهكذا فان أغلبية اليهود البالغة بضعة ملايين نسمة من البروليتاريين بدت لممثل البورجوازية الرقيقة هذا وكأنها فائض وفضلة يجب ازالتها الى مكان اخر . وبازدراء واضح نجد بنسكر يتكلم في مكان اخر في كراسه عن البروليتارية اليهودية على انها « عبء على نفسها وعلى الاخرين ستحضر المصير المشؤوم للشعب [اليهودي] بكامله» . والشعب اليهودي بكامله برأيه كان بالطبع البورجوازية . وواقع ما كان بنسكر يدعو اليه هو تحرير البورجوازية اليهودية من المشكلة التي فرضت عليها بفعل وجود البروليتارية اليهودية واعمالها . فهو كان يكتب في أعقاب احداث أواخر السبعينات من القرن الماضي حين أظهر الصراع المجتمعي والاختمار الايديولوجي الذي رافقه — وهي أحداث وصفها لينين على انها عهدت الى البروليتارية الروسية المهمة الاكثر ثورية من أي من المهمات التي واجهت البروليتارية في اي بلد آخر — بداية انهيار النظام القيصري والبورجوازية الناهضة محاولة وراثته . ورغم ان بنسكر كان على علم ، كما يخبرنا في كراسه ، ان اثارة اللاسامية خلال هذه الاحداث جاء على أيدي الصحافة الروسية والتي كانت تمثل بمعظمها لسان حال البورجوازية الروسية — هذا بالاضافة الى حملة اللاسامية التي أثارها النظام القيصري نفسه — الا ان اهتمامه بموجة التنكيل باليهود التي اجتاحت روسيه عام ١٨٨١ عكس اهتمامات الطبقة التي انتمى اليها فاختار مخططا يقضي باجلاء البروليتاريين اليهود الى بلاد بعيدة ليخلو المكان للبورجوازية اليهودية للتنعم بالمظهر « المهذب والمثقف والوطني » المنصهر الذي اختاره لها .

لقد لقي مخطط بنسكر بعض الاهتمام من أعضاء البورجوازية اليهودية ولكن بهذه الايديولوجية لم يكن ليلقى الاندفاع لدى البروليتاريين اليهود الذين باتوا يرون مستقبل تحررهم الذاتي في الكفاح الثوري الاشتراكي المتصاعد . واصبح بنسكر مدير منظمة سميت « جمعية أحباء صهيون » قامت خلال فترة من الزمن بتنظيم هجرة بضعة آلاف يهودي عن طريق الاموال التي تبرع بها بعض اثرياء اليهود في غربي أوروبه . وقد انهارت هذه الجمعية عام ١٨٩٠ نظرا للخسائر المالية التي منيت بها نتيجة المخاطرات المالية والمضاربات في شراء الاراضي التي مارسها ممثلوها في فلسطين . ومع مضي الزمن ، وخاصة بعد قيام دولة اسرائيل ، بات بنسكر يعتبر رائدا للفكر القومي اليهودي . والواقع ان اي قومية طرحها بنسكر لتفنيد مقترحاته كانت قومية للآخرين . فقراءة دقيقة لكراسه تظهره يشير الى « نحن » عند التكلم عن تركيب الهيئة الادارية والشركة اليهودية التابعة لها التي حث على تعبئة العناصر اليهودية البارزة بها . اما عندما يتكلم عن سكان الوطن في المستقبل لاثبات حقهم بوطن خاص بهم نراه يشير اليهم « هم » . ومن هذه الناحية ، وبظهوره المبكر هذا ، فان شرح بنسكر يمثل اوضح تعبير — لا تشوبه التعليلات التمويهية التي غلبت على الكتابات اللاحقة — عن النسخة الصهيونيةللقومية اليهودية : وهي عبارة عن قومية بعثت بها طبقة معينة لاستخدامها باقتصار على طبقة أخرى . وكان هذا بشكل عام المادة الايديولوجية لكافة الزعماء الصهيونيين الذين جاؤوا بعد بنسكر .

سقطت مقترحات بنسكر في حالة اهمال نسبي حتى عام ١٨٩٥ حين اثارها الصحافي الفيني ثيودور هرتزل المقيم آنذاك في باريس في كراس كتبه بالالمانية تحت عنوان **الدولة اليهودية** . ووردت هنا نفس الآراء التي عالجناها في كراس بنسكر ولكن بأسلوب أفاض بالزخرفة والتفصيل . ودعا هرتزل الى انشاء جمعية يهودية وشركة يهودية تابعة لها تسعيان لاعتراف الدول بها ولتنظيم الاستيطان في منطقة واحدة — اقترحت فلسطين والارجنتين — بحيث تتطور تدريجيا الى الدولة اليهودية . وباشاراته المستمرة

الى « منجزات رجال الاعمال ... وعجائب العلم الحديث » ، حاول هرتزل وضع مخططه بأفضل ضوء ممكن ، فكانت له وعود جذابة للجميع . لكبار المتمولين الذين سعى لنيل رعايتهم لمشروعه أمثال روتشيلد وهيرش ، وعد هرتزل ان يكون مشروعه أقل كلفة من مشاريعهم بل وان يؤدي الى الربح . ولهذا الغرض شرح هرتزل طريقته لتنظيم المهاجرين كعمال في المنطقة الجديدة على نسق عسكري باقامة نظام « معونات عن طريق العمل » وصفه على انه نوع من « الاعمال الشاقة قبل ارتكاب الجريمة » يؤمن النتائج الاكثر فعالية والاقل كلفة . وبهذا قال هرتزل ان الطبقات الفقيرة من يهود روسية ورومانية ستقوم بوضع الاساس الذي سيفتح الطريق للعمل فيما بعد في مجالات جديدة « لروح النجاح في المنشآت ... » التي يعرف بها اليهود . ولكبار البورجوازية اليهودية عامة وعد هرتزل بأن نزوح فقراء اليهود سيتيح لهم الفرصة للتنعم بثرائهم بسلام ولاقامة مآدبهم الفخمة دون الحاجة الى اسدال الستائر . اما ابناء الطبقة اليهودية الوسطى من « أولئك الرجال الطموحين » و « أولئك المفكرين محدودي القدرة العقلية » فقد وعد هرتزل للاعداد منهم بالمراكز كمسؤولين في الجمعية والشركة اليهوديتين في البلاد الجديدة . وذهاب هؤلاء كما قال سيمكن قيام هجرة داخلية تأتي بالمسيحيين الى المراكز الشاغرة نتيجة للهجرة المغادرة . وهكذا فاليهود المنصهرون وغير اليهود «سيتخلصون بذلك من المنافسة المزعجة وغير الممكن تجنبها من البروليتارية اليهودية » . وتصل وعود هرتزل هذه الى ذروتها عند نهاية الكراس حيث تظهر الطبيعة الحقيقية للدولة « اليهودية » التي نادى بها ونوعية العقلية التي كان يخاطبها . فهو يقول : « ان اليهود بعد أن يستوطنوا في دولتهم ، لن يبقى لهم أي أعداء، وبما ان الرخاء يضعفهم وينقص عددهم فانهم سيزولون كليا » !

لم يلق مخطط هرتزل الحماس الذي قد يكون توقعه له على أيدي المتمولين اليهود الذين توجه به اليهم . وان لاقى هذا المخطط اي رد فعل ايجابي في البداية فقد جاء ذلك ترحيبا لدى بعض اللاساميين مثل القس وليم هشلر الالماني المولود في جنوبي افريقيه والذي سبق وكان نشيطا في « الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود » . وعند سماعه بمخطط هرتزل هلل هشلر له ورحب به بحماس معتبرا اياه حركة نبوية . وقام هشلر فيما بعد بالتدبير لظهور هرتزل لدى دوق بادن والقيصر الالماني .

ثمة عنصر اضافي هام ورد في مخطط هرتزل كان من شأنه أن يلقى اهتماما خاصا لدى رجالات الحكومات الاوروبية : وهو الدور الذي أورده حول قدرة الصهيونية في اضعاف اشتراك اليهود في الاحزاب الاشتراكية . ولم يشر هرتزل الى هذا العنصر في كراس **الدولة اليهودية** الا بشكل غامض وغير مباشر الا انه عبر عنه بوضوح في مذكراته حين سجل رسالة بعث بها الى دوق بادن في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٨٩٦ جاء فيها : « ولكن ستكون لحركتنا نتيجتان — وهذا أمر لم ألمح له سوى خطفيا في كراسي المقصود به للنقاش العلني ، وأود أن أوجه انتباه سموكم الملكي الى هاتين النتيجتين : دور الهجرة اليهودية المغادرة في اضعاف الاحزاب الثورية وضرب القوة المالية العالمية . واذا حظينا بالتأييد فلن تكون هذه مجرد كلمات متجرئة » .

والنقطة التي أوردها هرتزل حول كسر شوكة القوى المالية العالمية التي تمتع بها بعض المتمولين الذين كانت لهم آنذاك مضاربات مع البنك الالماني حول الاسواق العالمية بمن فيهم بعض كبار رأسماليي اليهود لا يمكن أخذها على محمل الجد . فهرتزل كان يقحم نفسه هنا بشكل سطحي وساذج في الصراعات المالية القائمة والتي لم يمكن لحركته التأثير عليها بالشكل الذي ادعاه . وان كان اثرها بشيء فهو في قدرتها على تخليص المتمولين اليهود من عبء ارتباطهم اسميا بجماهير فقراء البروليتاريين الذين سعى مخطط هرتزل لتهجيرهم . والمرجح ان هذه النقطة في رسالة هرتزل جاءت بنصيحة صديقه

اللاسامي هشلر والذي يبدو (مذكرات ، ٢٦ ابريل ١٨٩٦) انه كان يتكلم اليه بطلاقة عن « الجشع اليهودي » . اما النقطة الاخرى حول دور الصهيونية في اضعاف الثورية فهي أكثر قابلية للتصديق وتظهر التلميحات التي تشير اليها في معظم ما لدينا من كتابات واقوال هرتزل . فهجرة البروليتاريين اليهود كان من شأنها ان تحرم الاحزاب الثورية من اتباعها ومؤيديها بين صفوفهم . والاحزاب الثورية كانت منذ أجل باكر موضوع قلق للدوق والقيصر الالماني كما كانت بالنسبة لكافة رجالات الحكومات الاوروبية الاخرى . وما تجدر ملاحظته هنا انه منذ هذا التاريخ الباكر عام ١٨٩٦ كان هرتزل يدرك ان مسألة كهذه يجب الا تظهر في كراس مثل **الدولة اليهودية** موجه الى الرأي العام بل في مراسلات سرية . وفيما بعد حين وضعت القدرة الكامنة في الصهيونية على معاداة الاشتراكية موضع الاهتمام الفعلي عام ١٩١٧ احيطت هذه الدوافع بالسرية التامة .

من المرجح ان هذا العنصر هو ما مكن هرتزل في السنوات القادمة وخاصة بعد انشاء المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٧ من كسب انتباه رجالات الحكومات الاوروبية المختلفة الذين اجتمع بهم الواحد تلو الآخر في السنوات اللاحقة . (اما في سعيه للظهور لدى الباب العالي فيبدو انه استخدم كوسيلة مناسبة للمزايدة على مختلف المتمولين الذين كانوا يتقدمون آنذاك بعروضهم لتوفير القروض للخزينة العثمانية) . وفي جولات هرتزل بين العواصم الاوروبية المختلفة واجتماعاته بمسؤوليها طرحت امكانية تحقيق التوطين اليهودي في مناطق عديدة امتدت من فلسطين وقبرص وسيناء والعراق الى الموزامبيق والكونغو واوغاندا . ولم تكن الدوائر الاوروبية الحاكمة لتعارض مبدئيا مخططا كهذا يؤدي الى تخليصهم من البروليتاريين اليهود . ولكن نظرا للمنافسة الحامية التي دارت بين الدول الاوروبية على مناطق القارات الاسيوية والافريقية والاميركية الجنوبية فان الاتفاق على منطقة تقتصر على الاستيطان اليهودي لم يمكن التوصل اليه. كما ان امكانية نشوب الكفاح الثوري الاشتراكي ، وان كان موضوع قلق دائم ، الا انه لم يصل الى مرحلة تهديد الانظمة المجتمعية القائمة في أوروبه حتى عام ١٩١٧ . وحتى ذلك الحين فقد كان لوعود هرتزل أن تبقى « مجرد كلمات منجرنة » . وواقع ان اتباع الصهيونية بين اليهود بقي ضعيفا لم يكن ليثبط من عزيمة هرتزل الذي حمل راية الصهيونية بحماس في حين ان اغلبية المثقفين كانوا يتجهون بازدياد الى الاحزاب الاشتراكية . وفي مذكراته ليوم ١٤ حزيران ١٨٩٥ كتب : « ان شبابنا بكامله ، كل اولئك الذين هم الان بين سني العشرين والثلاثين عاما ، سيتخلون عن ميولهم الاشتراكية الغامضة ويتجهون الي . وسيذهبون الى عائلاتهم والى العالم بمثابة مبشرين متجولين دون ان اضطر ان احثهم على ذلك » .

لم يكن من المحتمل أن تسير الجماهير اليهودية وراء هرتزل بالشكل الفوري الذي توقعه. غلم يكن في ايديولوجية حركته ما من شأنه أن يستميل عواطفهم البروليتارية . حتى وظهور اليسار الصهيوني بعد ذلك بقليل لم يغير الامور بشكل حتمي . ويبدو ان هرتزل نفسه كان يدرك الحاجة الى نظرية تجتذب الجماهير . وهذا واضح من عبارة وردت بهذا المعنى في روايته **الارض القديمة الجديدة** نعود الى ذكرها فيما بعد . والنظرية المطلوبة ما لبثت ان ظهرت في كتابات ايديولوجيي اليسار الصهيوني وعلى رأسهم دوف بير بوروشوف .

باستثناء مغازلة قصيرة له مع الحزب الاجتماعي الديموقراطي الروسي ، بدأ بوروشوف مهنته السياسية عام ١٩٠٥ كخطيب متجول (أو مبشر متجول لو ذكرنا عبارة هرتزل) لصالح المنظمة الصهيونية . وفي الخطب التي توجه بها الى العمال اليهود بشكل خاص، تقدم بوروشوف بشرح لنفس الاهداف التي كان قد رفعها كل من بنسكر وهرتزل الا انه فسرها على أساس ما سماه «نظرية مادية صرفة». وقد ضمن بوروشوف نظريته هذه

في مقالة كتبها آنذاك تحت عنوان : **حول المسالة القومية والصراع الطبقي** وهي مقالة وان تكلمت عن المجتمع الانساني عامة كان المقصود بها اسباغ قبولية التصديق على تباشيره الصهيونية . واستعمل بوروشوف مجموعة زاخرة من العبارات الماركسية في هذه المقالة ليقول انه في حال وجود قومية بلا أرض خاصة بها (واليهود يشكلون مثل هذه القومية على حد قوله) فتنشأ عن ذلك مشكلة قومية تعطل تطور الصراع الطبقي وينتج عنها تماسك قومي بين كافة الطبقات في تلك القوميـــة . ويتضمن ذلك الطبقة البروليتارية التي يصف بوروشوف قوميتها على انها ليست فقط قائمة بل وتشكل برأيه أصفى مظاهر القومية . والمغزى الايديولوجي لهذه النظرية والتي جاءت عقب الثورة البروليتارية الروسية عام ١٩٠٥ واضح للغاية : فالبروليتارية اليهودية ، وفق المبادىء المادية الصرفة ، يجب ان تخفف صراعها الطبقي الـــى جانب الاجزاء الاخرى مـــن البروليتارية الروسية وتتوجه مع الطبقات البورجوازية اليهودية الى هدف ايجاد الارض للامة ــ اي الى الصهيونية .

بعباراته الماركسية ادعى بوروشوف انه يطرح نوعا خاصا من الصهيونية . ففي عام ١٩٠٦ حين قام مع عدد من شركائه بانشاء حزب بوعالي صهيون (عمال صهيون) كتب مقالته **برنامجنا** ليشرح فيها ما سماه « الصهيونية البروليتارية » التي ادعاها لنفسه ولحزبه . وواضح من هذه المقالة بالذات كيف ان صهيونيته لم تختلف بجوهرها عن صهيونية سالفيه بنسكر وهرتزل . وان كان بنسكر قد عبر عن المسألة وكأنها نتيجة فائض من البروليتاريين يجب نقلهم الى مناطق أخرى فقد رآهـــا بوروشوف نتيجـــة « الفائض من الطاقة » لدى البروليتارية امل أن توجه نحو اتجاه آخر . قال في هذه المقالة : « ان حالة الاضطهاد القومي الشديد ... تولد طاقة ثورية قاهرة وروحا عالية من التضحية بالنفس.وهذا الحماس الثوري، والذي تعيقه تقاييد القاعدة الاستراتيجية، غالبا ما يتخذ اشكالا بشعة . ومرض الفائض من الطاقة هذا هو مأساة البروليتارية اليهودية وسبب آلامها . »

ان المركز المتقدم لبعض اليهود من البروليتاريين في الصراع المجتمعي ظهر لبوروشوف وكأنه مرض بشع . وهو دلالة واضحة عن المصدر المجتمعي لايديولوجيته ان الكفاح البروليتاري نفسه ، وليس الظلم الذي واجهه ، بدا وكأنه المأساة وسبب الآلام . ولا عجب فاهتمام بوروشوف الرئيسي تركز في الهدف الصهيوني لايجاد منطقة استيطان ، أو قاعدة استراتيجية كما ارتأى ان يسميها ، لتوطين جمـــاهير البروليتـــاريين اليهود خارج أوروبه وشمالي اميركه . وهذا هو الهدف الذي أمل بوروشوف ان تتحول انظار البروليتارية اليهودية اليه وان يبذل الفائض من طاقاتها لتحقيقه . وهذا جل ما شكل مغزى « الصهيونية البروليتارية » التي دعا بوروشوف اليها .

مثل بنسكر وهرتزل والمتمولين قبلهما تطلع بوروشوف الى تهجير الجماهير المفتقرة من يهود اوروبه الشرقية الذين كانوا في طور تحولهم الى البروليتارية . ويشكل هؤلاء برأيه « المصدر الرئيسي للمادة الانسانية لعملية اعادة التأهيل اليهودية » في المنطقة الجديدة في المستقبل . وهذه الجماهير المنجرفة عن البلدانيات اليهوديـــة التي فقدت أسسهـــا الاقتصادية واتجهت غربا الى المدن الاوروبية والاميركية يشير اليها مرارا في **برنامجنا** على انها « البورجوازية اليهودية الصغـــيرة المفتقرة » . ووجود مثـــل هذه الطبقة البورجوازية الصغيرة المفتقرة يشكل برأيه خطرا شديدا على الامن والنظام الضروريين للتطور الصحيح للرأسمالية . والبحث عن حل لهذه المشكلة لا يتناول المتمولين اليهود وحكومات الدول « المتمدنة » فحسب بل ، كمـــا يقول ، « كـــل مـــن البورجوازيـــة والبروليتارية الثورية له اهتمام بالتساوي فيحل سلمي ومنظم ... للمشكلة اليهودية» .

والحل السلمي لهذه المشكلة لا يأتي بزعم بوروشوف الا عن طريق تهجير جماهير اليهود من البورجوازية الصغيرة المفتقرة وأولئك الذين هم في طـور التحول الى البروليتارية وتركيزهم السكاني في بلد غير متطور . ولهذا الغرض يميـل بوروشوف الى تفضيل فلسطين نظرا للقدرة التجارية التي يوفرها موقعها الجغـرافي للرأسمال اليهـودي الصغير . وهناك برأيه ستقوم البورجوازية اليهودية كما تتمثل في المؤتمر الصهيوني (اي المنظمة الصهيونية التي أنشأها هرتزل ورفاقه) بتوجيه الهجـرة في المستقبل وتنظيم الاستيطان وتنسيق تطوير البلاد واستغلال مواردها الطبيعية . وفي فلسطين لن يكون المخطط الصهيوني سلميا وبوروشوف يعلم ذلك اذ يقول : « ان اولئك الذين يعتقدون بأن تغييرا جذريا للحياة اليهودية كذلك الذي ينطوي عن الحل الاقليمي يمكن ان يحصل دون صراع مرير ودون قسوة وجور ودون تسبب الالـم للابرياء والمذنبين على حد السواء فهم طوباويون . وثورات كهذه لا تكتب بالحبر بعبارات رنانة المسمع بل تكتـب بالعرق والدموع والدم » .

وهكذا فقد دعا بوروشوف الى حل سلمي ومنظم للصراع بين البورجوازية والبروليتارية في أوروبه ليتقدم بحل شوفيني يدفع بالجماهير اليهودية الى صراع دموي ضد السكان الاصليين في فلسطين . وكمـا نعرف عما جاء من تطور الامور فيما بعـد فان « الحل الثوري » الذي نادى به بوروشوف سبب القسوة والجور والالم للابرياء دون المذنبين .

وهذا المنطلق لايديولوجية بوروشوف الداعي لتحويل المفكرين والبروليتاريين اليهود عن الكفاح الاشتراكي الاممي يطبع معظم كتاباته،نذكر منها مقالة وضعها تحت عنوان **التطور الاقتصادي للشعب اليهودي** عام ١٩١٦ حين كان يقيم في نيويـورك . وفي هذه المقالة أرسل بوروشوف تحليلا مطولا لتلك الارقام الاحصائية التي اختارها عن الاعمال التي يمتهنها اليهود في مختلف الدول الغربية ليبين ان « التركيب الاقتصادي المجتمعي للشعب اليهودي شاذ » وليتقدم بالحل الذي من شأنه تقويمه . وبغـض النظر عن اسلوبهـا الاكاديمي فلا تمثل هذه المقالة اكثر من اعتذار تبريري لصغار الرأسماليين اليهود ونواح على ضعف منشآتهم الاقتصادية الصغيرة حيث يعمل معظم العمال اليهود . ويتجنب بوروشوف هنا ذكر كبار الرأسماليين اليهود الذين كانوا يسهمون في الكرتلات الماليـة المسيطرة على الاسواق العالمية ليستنتج ان المنشآت اليهودية بعيدة عن قطاعات الانتاج الاولية . ويختتم بوروشوف، مقالته فيعلن انه بسبب هذا البعد عن اسس عملية الانتاج فان دور اليهود في الكفاح الاشتراكي الاممي سيكون « ضئيلا » وان الصهيونية هي الحل الوحيد « للحاجات الاقتصادية للشعب اليهودي » .

مع ظهور ايديولوجية بوروشوف وقيام حزب بوعالي صهيون الذي بني عليها ليصبح فيما بعد اساس اليسار الصهيوني اكتملت الصهيونية بشقيهـا التنظيميين . فالمنظمـة الصهيونية كانت مؤهلة للتوجه الى المتمولين من اعضاء البورجوازية اليهودية لجمع الاموال اللازمة والى مسؤولي الحكومات الاوروبية للسعي وراء التأييد لمطالبها بمنطقة للتوطين . وبالعبارات اليسارية التي اتخذها عن بوروشوف توجه حزب بوعالي صهيون الى الطبقة العاملة اليهودية لحثها على اعتناق الصهيونية والهجرة الى فلسطين . ولكن رغم هذا الاكتمال الايديولوجي والتنظيمي فقد بقيت تبعية الصهيونية بين اليهود منحصرة في القلائل طوال فترة نشأتها حتى أواخر الحرب العالمية الاولى . ومنطلق الصهيونية المعادي للثورية والاشتراكية ــ والذي انعكس كما رأينا في ازدراء بنسكر بالبروليتاريين اليهود وفي معاداة هرتزل لانتسابهم الى الاحزاب الثورية وفي تعليلات بوروشوف لصرفهم عن الكفاح البروليتاري الاممي ــ أهل الصهيونية لاهتمام الحكومات الاوروبية بها . الا ان هذا الاهتمام لم يصل الى حد الالتزام حتى نشوب الكفاح المجتمعي في روسيه عام ١٩١٧ . وهي ظروف هذا الكفاح الذي أدى الى ظفر الثورة البروليتارية ما دفع بالدول

الاوروبية الى تبني الصهيونية باصدار اعلان بلفور البريطاني (او وعد بلفور كما سمي بالاوساط العربية) آنذاك .

شكل اعلان بلفور البريطاني البداية الحاسمة للتطورات التي اجتاحت حيـاة السكان الاصليين في فلسطين وحياة اليهود في مختلف أنحاء العالم خلال الخمسين سنة الماضية. وقد أصدرت وزارة الخارجية البريطانية هذا الاعلان مباشرة بعد قيام الثورة البولشفية في روسيه . الا أن الارتباط بين هذين الحدثين والذي يشير اليه التقارب الزمني قد أغفل حتى الآن في كافة مـا كتب حول الموضوع . ولا شك ان السريـة التي اكتنفت سياسة البلدان الغربية في هذا الصدد آنذاك كانت السبب الرئيسي لهذا الاغفال. الا ان المفاهيم الخاطئة للايديولوجية الصهيونية التي طالما ادعت التقدمية لنفسها قد تضافرت مع هذه السرية لتغطي أهم الدوافع لتي أدت ببريطانيه الى اصدار الاعلان عام ١٩١٧ .

ان دوافع بريطانية في هذا الصدد قد شكلت موضوع نقاش طويل صدرت حوله مطبوعات وكتب ومنشورات كثـيرة الا ان هـذه التغطية الواسعة للموضوع لـم تقف على اهم عوامله بل ، بالواقع ، زادت في غموضها . وهناك تفسيران يطرحهما كافة الكتاب حول المسألة : الاول يدعي ان الاعلان أصدرته بريطانيه كجزء من المنافسة الاعلامية التي قامت ابان الحرب العالمية الاولى بين دول الحلفاء والدول المركزية للتـأثير على الرأي العام في الولايات المتحدة أملا بأن اثره على اليهود هناك قد يسهم في تسهيـل دخول الولايات المتحدة في الحرب الى جانب الحلفاء . والتفسير الثاني يقول أن بريطانيه بتبنيها للصهيونية كانت تأمل بتأمين فلسطين لنفسها سابقة بذلك حلفاءها ، وخاصة فرنسه ، الذين كانت لهم نوايا ومطالب خاصة فيما يتعلق بفلسطين . ولكن حكما بتوقيت الاعلان لا يمكن القبول بأي من هذين التفسيرين : فعند اصدار الاعلان كانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الى جانب الحلفاء منذ سبعة أشهر ومسألة مستقبل فلسطين أجل البت فيها عمدا في بريطانيه ، كما سنرى ، على ان يتم الاتفاق عليها بين دول الحلفـاء عند انتهاء الحرب . اما المنافسة الاعلامية التي قامت للتأثير على اليهود فقد بعثت خلال العامين الاولين للحرب ولم تركز على الصهيونية بل علـى معاملـة اليهود على أيدي السلطات القيصرية في روسيه فتناولت تبادل اتهامات المانيه بهذا الصدد تقابلها تطمينات من جانب الحلفاء دفاعا عن سمعة حليفتهم القيصرية . وفيما يتعلق بفلسطين لم تكن بريطانيه الدولة الوحيدة التي تبنت الصهيونية فقد كانت جميع دول الحلفاء موافقة على ذلك وخرجت كل منها باعلان لصالح الصهيونية يحاكي اعلان بلفور . اما وضع فلسطين بعد الحرب تحت حكم بريطانيه فلم يكن نتيجة تبنيها للصهيونية قدر ما كان نتيجة احتلال البلاد على أيدي قواتها الزاحفة من مصر — هذا بالاضافة الى القوات العـربية التي آزرتها .

رغم عدم مطابقتهما لواقع الاحداث يلقى هذان التفسيران ، بتركيزهما على التنافس فيما بين الدول الاوروبية ، رواجا لدى معظـم الكتاب في الموضوع . والكتاب الصهيونيون يجهدون لربط الاعلان بموقف الولايات المتحدة من الحرب وبالمجهود المشترك لانتصار الحلفاء محاولة منهم لتوفير ما يبدو لهم مناخا ايجابيا لتبني بريطانيه للصهيونية . وغالبا ما يرافق هذه الرواية تفاصيل اضافية — مما يزيد في الواقع في عدم قبولية تصديقها — تفسر اصدار الاعلان بالقدرة والحذاقة الديبلوماسيتين لدى الزعماء الصهيونيين ، أمثال حاييم وايزمان ، الذين يقال انهم نجحوا في اقناع الدول الغربية وحتى خداعها في التوصل الى تبني قضيتهم . والواقع ان الدول الغربية هي التي ارتأت في الصهيونية وزعامتهـا أداة مناسبة لتحقيق مآرب معاداة الثورية ، الامر الذي شكل المنطلق الايديولوجـي المنبثق عن مصالح طبقية مشتركة بين البورجوازية اليهودية والبورجوازية المسيحية من رجالات هذه الدول .

ان تحليل سياسات الدول الاوروبية آنذاك بالتركيز على التنافس فيما بينها يفعل أمرا اساسيا اتصف به تاريخ الدول الاوروبية بوضوح طوال المائة والخمسين سنة الماضية: المعارضة المشتركة التي مارستها جميع هذه الدول ضد الاشتراكية والثورة . فالخوف من الثوريين والاشتراكيين والكراهية لهما كانا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد انتفاضات عام ١٨٤٨ في العواصم الاوروبية ، الصفة الوحيدة التي اتصفت بها جميع الدوائر الحاكمة في اوروبة . ولم تكن هذه الصفة المشتركة خافية على الاشتراكيين اذ تصدرت العبارات التالية مقدمة **البيان الشيوعي** : « هناك شبح يجول في اوروبة — هو شبح الشيوعية . وقد اتحدت كل قوى اوروبة العجوز في حلف مقدس لملاحقته والتضييق عليه: من البابا والقيصر الى مترنيخ وغيزو ، ومن الراديكاليين في فرنسه الى رجال الشرطة في المانية » . وموقف العداء المشترك للاشتراكية شكل مظهرا هاما لسياسات جميع الحكومات الاوروبية ووصل الى اوجه ابان الحرب العالمية الاولى حين ادى تفتت الحلف المقدس الى الجزع من ظفر الاشتراكية . ففي عام ١٩١٤ ، عندما كان ادوار غراي وزير خارجية بريطانية يحاول اقناع السفير النمساوي بمعارضته للحرب التي بات من غير الممكن تفاديها عشية نشوب القتال ، قال له : « ان الحرب اكبر خطوة الى الاشتراكية كان من الممكن اتخاذها » .

وكان انطلاقا من هذا الموقف المعادي للاشتراكية والثورة ان جاء تبني البلدان الغربية للصهيونية في ظروف تصاعد النضال الثوري في روسية ابان الحرب . وتركز الاهتمام الاساسي في الصهيونية في هذا الوقت بالذات في قدرتها على صرف اهتمام اليهود عن مشاركتهم وتأييدهم للكفاح الثوري وتوجيهه الى الاهداف الصهيونية في فلسطين . والارتفاع النسبي في انتماء اعداد اليهود الى الاحزاب الاشتراكية ، مع ما رافقه من رواج الخرافة الاوروبية القائلة ان الاشتراكية من اختراع اليهود ، اضف الى ذلك منطلق الصهيونية المعادي لهذا المظهر ، جعل الصهيونية موضع اهتمام الحكومات الاوروبية القلقة على تطور الاحداث الروسية . فتبنيها للصهيونية عن طريق اصدار اعلان يؤيد اهدافها ، كانت حكومات الحلفاء تأمل بحرمان الثورة من التأييد الذي يمكن ان تحظى به بين الجماهير اليهودية ولتحد بذلك من تقدمها ليس فقط في روسية بل بين اوساط الطبقات العاملة في الدول الغربية الاخرى .

توجهت انظار الحكومات الغربية الى الصهيونية لاول مرة بشكل جدي في ظروف الاحداث المعادية للنظام القيصري في روسيه عند بداية عام ١٩١٧ والتي أدت الى ثورة آذار (مارس) التي اطاحت بالحكم القيصري فاثارت قلق الحكومات المتحالفة مع روسيه في الحرب . وعقدت عند بداية شباط (فبراير) لقاءآت شبه رسمية بين ممثلي الحكومة البريطانية وبعض الصهيونيين المقيمين في بريطانيه . كما عقد في لندن آنذاك اجتماع بين الصهيوني الروسي ناحوم سوكولوف والوزير الفرنسي للشؤون الشرقية جورج بيكو الذي أظهر بوضوح ان اهتمامه بالصهيونية ارتكز على الدور الذي قد تقوم به هذه الحركة في التأثير على يهود بولنده حيث بات موضوع تأييدهم للاحزاب الثورية والاشتراكية موضوع قلق لحكومات الحلفاء . ولا شك ان قيام ثورة اذار (مارس) ضاعف هذا القلق الا ان قيام الحكومة المؤقتة والتي اصطبغت بصابغ بورجوازي ليبرالي اعطى متنفسا للحكومات المتحالفة مع روسية . فالنظام الجديد ابدى استعداده للاستمرار في الحرب التي ورثها عن النظام السابق كما تضمن بين اعضاء حكومته عددا من الرأسماليين . وفي فرنسة فضلت الدوائر الحاكمة ان ترى الحدث الروسي على انه ثورة حماس وطنية من شأنها تحسين اوضاع روسية ومساهمتها في الحرب . وكذلك الامر بالنسبة لحكومة الولايات المتحدة التي دخلت الحرب الى جانب الحلفاء بعد ذلك بقليل وباشرت باقامة المفاوضات مع النظام الروسي الجديد لتوفير القروض المالية له .

ونتيجة لهذه التطورات اخذت حكومات الحلفاء تركز اهتمامها في تأمين استقرار النظام والحؤول دون سقوطه على ايدي المعارضة التي بدأت تنمو بين قطاعات العمال والجنود . واستمرت اتصالاتها مع الصهيونيين اهتماما بخدمات الذين بينهم من اصل روسي ممن كانوا على اتصال بالحالة في روسية املا بان تسهم في تأمين استقرار الحالة هناك . الا ان عودة الاستقرار الى روسيه — وان كان استقرارا سطحيا — ادى الى تأجيل البت بمسألة الصهيونية مرارا ولم يتم القرار عليها نهائيا حتى ثورة اكتوبر البولشفية التي اطاحت بالحكومة المؤقتة .

جاء اول تهديد جدي للحكومة المؤقتة في روسية بعد مدة قصيرة من قيامها . ففي النصف الثاني من نيسان (ابريل) قامت موجات من التظاهرات ضد الحكومة وخطتها الحربية اتصفت بتمرد بعض الحاميات ورفضها الانصياع لاوامر الحكومة كما قامت مظاهرة كبيرة في العاصمة بتروغراد جاءت بعشرات الالاف من العمال والجنود الى الشوارع يطالبون بوضع حد للحرب وبعزل البورجوازيين عن الحكومة . وهذه الاحداث التي بدأت تقرب جماهير العمال والجنود الى الحزب البولشفي شكلت موضوع قلق لحكومات الحلفاء . وفي بريطانية حث عدد من المسؤولين الحكومة على اصدار اعلان لصالح الصهيونية للتأثير على اليهود ولصرفهم عن الصراع المجتمعي القائم . وعلى أثر ذلك في ٢٤ نيسان (ابريل) بعث مكتب العلاقات الخارجية البريطانية رسالة من لندن الى السفير البريطاني بوكانان في بتروغراد ورد فيها : « ثمة نصائح تقول لنا ان افضل وسيلة للرد على الدعاية اليهودية السلمية والاشتراكية في روسية هو ان نتقدم بتشجيع محدد للاماني القومية اليهودية في فلسطين . ومسألة الصهيونية مليئة بالتعقيدات ولكن سأكون شاكرا لو علمت رأيكم عما اذا كان اصدار اعلان من الحلفاء يعطف على الاماني القومية اليهودية سيساعد فيما يتعلق بالحالة الداخلية والخارجية في روسية » .

جاء جواب بوكانان في ٢٧ نيسان (ابريل) بالنفي . وحذر السفير من اثارة الموضوع قائلا ان الحماس للصهيونية بين اليهود في روسية ليس قويا وان الدعاية السلمية اقتصرت على الذين ينتمون الى اقصى اليسار . وربما عكست اعتراضات بوكانان موقف النظام القائم في روسية والذي ، وان لم يعارض الصهيونية ، كان يفضل ان يربط نفسه فيما يتعلق باليهود بحزب «البند» المعادي للصهيونية والذي فاق عدد اتباعه بكثير عدد الصهيونيين .وهذا الحزب الذي نادى بالقومية الثقافية اليهودية مطالبا بالاستقلال الذاتي لليهود في روسية كان ، مع باقي الاحزاب اليسارية المساومة قد وضع ثقله وراء الحكومة المؤقتة . اما عدد اليهود في الحزب البولشفي (أي اقصى اليسار كما وصفه بوكانان) لم يكن ضخما الا ان عددا لا يستهان به من اليهود كان في الحزب وبرز في قياداته كما ان تأثير البلاشفة بين اوساط الطبقة العاملة من اليهود بات ينمو باستمرار .

أجل البت بموضوع الاعلان ، ربما أخذا بنصيحة بوكانان ، الا انه لم يتم التخلي عنه كليا . وكان واضحا لدى حكومات الحلفاء ان مركز الحكومة الروسية المؤقتة لم يكن قويا وجهدت هذه الحكومة للاستفادة من الصهيونيين بكافة الوسائل لتقوية وضع النظام الروسي . كما كان ضروريا القيام بمجهودات لتقوية موقف الصهيونيين بين اليهود في البلدان الحليفة . ففي الولايات المتحدة كان الصهيونيون قلة تعارضهم كافة المنظمات اليهودية بما في ذلك اللجنة اليهودية الاميركية ، الا انهم كانوا ذوي قدر من النفوذ بقيادة لويس برانداييس الذي كان قاضي محكمة العدل العليا آنذاك . وكذلك الامر بالنسبة لفرنسة حيث واجهت اقلية الصهيونيين معارضة الاتحاد اليهودي الفرنسي . اما في بريطانيه فقد واجه الصهيونيون عداء اكثرية اليهود في البلاد بعضهم من أعيان اليهود مثل ادمون مونتاغو الذي كان عضوا في الوزارة .

في اذار (مارس) ١٩١٧ دعي الصهيوني ناحوم سوكولوف المقيم آنذاك في لندن لزيارة باريس بتشجيع من مارك سايكس المسؤول البريطاني عن الشؤون الشرقية وزميله الفرنسي جورج بيكو . ولا شك ان اختيار سوكولوف الروسي لهذه الزيارة (وليس حاييم وايزمان البريطاني) كان يهدف الى اسباغ نكهة يهودية « عالمية » على الزيارة والى ربطها بالدعاية التي قصد بها في روسية . وفي فرنسة تعاون سوكولوف مع المتمول اليهودي ادمون دي روتشيلد لنيل تاييد للصهيونية من المنظمات اليهودية القائمة وخاصة الاتحاد اليهودي العالمي . كما اقيمت له لقاءات مع الرسميين الفرنسيين سميت فيما بعد في المصادر الصهيونية على انها « مفاوضات » عقدت باسم الصهيونيين مع جورج بيكو . وتقول لنا هذه المصادر ان مارك سايكس البريطاني كان راضيا جدا عن هذه المفاوضات . وقد ظهرت فعلا نتائج هذه المفاوضات — مما يشير الى اهدافها — في رسالة بعثت يوم ٤ حزيران (يونيو) من المسؤول الفرنسي بول كامبون الى السفير الفرنسي في بتروغراد ورد فيها ان الحكومة الفرنسية تؤيد المشروع الصهيوني الذي قيل ان سوكولوف أمن التأييد له في لندن وروما وواشنطن . واستمرت الرسالة في القول : « انه من المؤكد ان نفوذ الصهيونيين يمكن ويجب استخدامه في روسية لصالح الحلفاء ولدعم القوى التي تحاول الحكومة المؤقتة (الروسية) الاعتماد عليها . ونفوذ المسيو سوكولوف سيستعمل في هذا المضمار ... »

كان سوكولوف قد قام بزيارة الى روما بتشجيع من سايكس وبيكو واجتمع ببعض مسؤولي الحكومة الايطالية والفاتيكان ليؤمن التأييد للصهيونية هناك . ولم يزر سوكولوف واشنطن ، الا ان الحكومة الاميركية كانت فعلا موافقة على اهمية تبني الصهيونية من حيث فائدتها بالنسبة للوضع في روسية رغم ترددها فيما يتعلق بمستقبل فلسطين . وواقع ان اهتمام الولايات المتحدة تركز في فائدتها بالنسبة للظروف في روسية واضح من رسالة وجهت فيما بعد من وزارة الخارجية الاميركية الى مكتب العلاقات الخارجية البريطانية . وهذه الرسالة التي جاءت في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) — أي بعد اصدار اعلان بلفور — صادقت على الاعلان البريطاني فيما يتعلق بفائدته في روسية وفي نفس الوقت حذرت من تفسيره كموافقة اميركية على اقامة محمية بريطانية على « المناطق التركية » في فلسطين . وقالت الرسالة فيما قالت : « ولكنه امر هام جدا ابقاء علاقات جيدة وودية مع الصهيونيين وتأمل الولايات المتحدة ان يبذل تأثير اليهود من اجل المصلحة في روسية » .

كان هذا بعد اصدار الاعلان — اي بعد سقوط الحكومة المؤقتة . وقبل ذلك بقي اهتمام حكومات الحلفاء يرتكز على تقوية النظام الروسي القائم . ويبدو ان الصهيونيين كانوا على استعداد لاسداء خدماتهم لهذه الحكومات في هذا المضمار . وفيما كان سوكولوف يتجول في فرنسة وايطالية كان وايزمان يتجول في بريطانية ساعيا لتقوية موقف الصهيونيين في أوساط يهود البلاد . ونعلم من سوكولوف في كتابه ، **تاريخ الصهيونية** ان وايزمان كان يتكلم عن الحالة في روسية في جولاته الدعائية لصالح الصهيونية . فقد قال في كلمة القاها الى مؤتمر الاتحاد الصهيوني البريطاني في ٢٠ ايار (مايو) ١٩١٧: «ان مصير الحركة الصهيونية يعتمد الى حد بعيد على استقرار الاوضاع في ذلك الجزء من العالم.وسيكون عملا مشرفا ولا شك للمنظمة الصهيونية في مختلف انحاء العالم وخاصة لاصدقائنا في روسية ان يساهموا بكامل قدرتهم من اجل استقرار الاوضاع في روسية ».

ان اهتمام وايزمان بالاستقرار في روسية في وقت كانت تتصاعد فيه الثورة البروليتارية هو دلالة واضحة على المنطلق الايديولوجي الذي رفعه وايزمان مع الاخرين من شركائه الصهيونيين . وما تجدر ملاحظته هنا ان وايزمان الذي قام فيما بعد بدور الديبلوماسي الاول للصهيونية في اتصالاته بين لندن وواشنطن الى ان نصب اول رئيس للدولة

الصهيونية بعد قيامها ، كان يعي ان مصير الصهيونيـــة يعتمد على ظـــروف الصراع المجتمعي في روسية . ويبدو ان الصهيونيين كانوا على استعداد آنذاك لوضع انفسهم في خدمة ضرب الثورة . وفي مقالة كتبها هـــايمن لومر تحت عنوان « الـــدور الرجعي للصهيونية » ظهرت في مجلة **الشؤون السياسية** الاميركيـــة في عددها الصادر في تموز ١٩٧٠ تكلم المؤلف عن الخدمات العملية التي وفرهـــا الصهيونيون للـــدوائر الاميركية الحاكمة حين وفروا المعلومات الدقيقة من خلال عملائهـــم في روسية عن تطور الوضع هناك مـــا بين ثورتي آذار (مارس) وتشرين الاول (اكتوبر) . ولا شك ان اعمـــال الصهيونيين اغدقت عليهم استحسان الدول المعنية . اما مسألة اصدار الاعلان لصالح الصهيونية بقيت معلقة رهن تطور الاحداث في روسية .

ان القوى التي اعتمدت عليها الحكومة المؤقتة في روسيه ظلت هزيلة بوجه تعالي كفاح الطبقات العاملة ضدها . وبدا ذلك واضحا في منتصف حزيران (يونيو) عند انعقاد اول مؤتمر للسوفييات وما تبعه من ضجة واسعة حول المظاهرة غـــير المرخصة التي نادت اليها اللجنة المركزية البولشفية في بتروغراد ليوم ٢٣ حـــزيران (يونيو) . ورغـــم ان المظاهرة الغيت ، الا ان الاحداث التي سبقت موعدها اظهرت ضعف الحكومة واثارت خوف الديبلوماسيين الغربيين . واعيدت اثارة موضوع الاعـــلان لصالح الصهيونية في هذا الوقت حين قام رونالد غراهـــام احد اعيان مكتب الشؤون الخارجية البريطـــانية باصدار مذكـــرة في ٢٣ حزيران (يونيو) حث فيهـــا على اصدار بيـــان علني لتأييـــد الصهيونية . وكان هذا المسؤول البريطاني واضحا جدا في كلامه عن النتائج السياسية التي كان يأمل احرازها من هذا البيان . فقال : « يجب علينـــا اذا تأمين كافة الفوائد السياسية التي يمكن احرازها من علاقتنا بالصهيونية ولا شك ان هذه الفوائد ستكون ضخمة وخاصة في روسية حيث الطريقة الوحيدة للوصول الى البروليتاريين اليهود هي من خلال الصهيونية ... »

وهكذا بدا للمسؤولين البريطانيين ان الصهيونية هي الوسيلة الوحيدة لصرف اهتمـــام البروليتاريين اليهود عن الكفاح الاشتراكي في ظروف الحرب . فاعـــلان رسمي تصدره دول الحلفاء اعتبر اداة من شأنهـــا تقوية الصهيونيين وتحسين قبوليـــة تصديقهم بين صفوف الجماهير اليهودية . وبدا لهم الامر ذو خطورة خـــاصة وان ازمة الحكومة في روسية بدأت تزداد سوءا . ففي اوائل تموز (يوليو) حدثت عدة اشتباكات في شوارع بتروغراد بين مؤيدي الحكومة المتحمسين للحرب وجماهير العمال الذين بدوا وكأنهم على استعداد لبدء هجومهم على الحكومة . وفي الجبهة بدأ افـــراد الجنود ومجموعات منهم تتذمر وتتمرد . ومن انكلترة بعث بعميل بريطاني اسمه غولدبرغ الى روسية للاتصال بالصهيونيين كما باشر سوكولوف بالتوجه الى روسيه من اجـــل « البحث في الوسائل للقيام بالدعاية الفعالة » بين اليهود هناك . وفي نفس الوقت ، « طلب » من الصهيونيين البريطانيين بقيادة روتشيلد ووايزمان اعداد مشروع اعلان يتقدمون به الى وزارة الحرب البريطانية . وبدا وكأن الاعلان على وشك الصدور ، الا ان تغير مجرى الاحداث ادى الى تأجيل الاعلان الى اجل غير محدد .

ففي النصف الثاني من تموز (يوليو) تمكن النظام الروسي من تحسين اوضاعه . وتمكن اسكندر كيرنسكي باتباعه موقفا وسطا بين الاحزاب المساومة (المنشفيـــك والثوريين الاجتماعيين) من جهة والرأسماليين الذين تطلعوا الى الجنرالات امثال كورنيلوف بافواج الكوساك الموالية لـــه من جهة ثانية من تحقيق قدر من الاستقـــرار والقوة للحكومة . وباشرت بعد ذلك الحكومة بضرب العمـــال والجنود المتمردين وتفريق صفوف الحزب البولشفي . ويبدو ان موضوع الاعلان في بريطانية اهمل لمدة شهر ونيف على اثر ذلك .

بالاضافة الى استتباب الامور في روسية فقد كانت هناك الاعتبارات العسكرية الهامة

المتعلقة بوضع الجبهة العسكرية في منطقة شرقي المتوسط والتي استطلبت تأجيل اصدار اي اعلان لصالح الصهيونية نظرا لعداء العرب الواضح لهذه الحركة . فقوات الشريف حسين وحلفاؤه الموالون لبريطانية كانت تقوم في هذه الاثناء بحملاتها العسكرية ضد القوات العثمانية ــ الالمانية في فلسطين واحرزت هذه القوات انتصارا هاما في ٦ تموز (يوليو) على القوات التركية واستولت على العقبة . وباشرت بعد ذلك بالسير الى المناطق شمالي العقبة في فلسطين والاطراف الاخرى من سورية فاتحة البلاد بذلك للقوات البريطانية المرابضة في سيناء على اهبة الاستعداد للسير على فلسطين . وفي ٢٠ آب (اغسطس) وصلت برقية من المسؤول البريطاني كريستوفر سايكس في القاهرة يحذر فيها من اصدار اي اعلان آنذاك قائلا : « انه من الافضل الامتناع عن اي تصريحات علنية في الوقت الحاضر ... تؤيد الصهيونية في فلسطين ضد مصالح المسلمين المقيمين في البلاد ، مما قد يعطي العرب سببا اضافيا للاستياء » .

لم يغب موضوع الاعلان طويلا عن جدول اعمال الوزارة البريطانية . فصراع القوى الذي بات ينشب بين كيرنسكي وكورنيلوف مما اعاد البلاشفة الى وسط مسرح الاحداث، ربما كان السبب في اعادة اثارة المسألة ، وربما كان ذلك تلبية لاصرار الصهيونيين البريطانيين وعلى رأسهم وايزمان الذي كان طوال هذه الفترة يسأل المسؤولين في بريطانية والولايات المتحدة عن اسباب تأجيل البت بالموضوع . وعقدت جلسة لوزارة الحرب البريطانية في ٣ ايلول (سبتمبر) تناولت موضوع الاعلان ويبدو ان المسألة لم تؤخذ بكامل الجدية اذ ان كلا من رئيس الوزارة لويد جورج ووزير الخارجية آرثر بلفور كان غائبا عن هذه الجلسة . وواجه محبذو الصهيونية في هذه الجلسة اعتراضات ادوين مونتاغو وزير الدولة للشؤون الهندية ــ وكان العضو اليهودي الوحيد في الوزارة ــ فعارض فكرة الاعلان وحذر منها باعتبارها حركة تنطوي على الاساءة الى وطنية اليهود البريطانيين . كما حذر من ارتباطاتها بالاجانب (الروس) والاعداء (الالمان) . وبهذه الاعتراضات وبغياب كبيري المسؤولين لم تؤد هذه الجلسة الى قرار محدد بشأن الاعلان .

عند اواخر ايلول (سبتمبر) قامت تحركات جماهيرية واسعة في روسية دفعت بالبلاشفة الى قيادة مجالس السوفيات تلاه ازدياد في النشاط من اجل اصدار الاعلان البريطاني لصالح الصهيونية . ان صراع القوى الذي كان قد انفجر داخل النظام الروسي أدى الى التباعد الحتمي بين الرأسماليين والبروليتاريين مما أدى الى انعزال الاحزاب المساومة عن العمال لصالح الحزب البولشفي . وحاز الحزب البولشفي على الاكثرية عند اواخر ايلول (سبتمبر) في مجالس السوفيات والمحميات في كل من بتروغراد وموسكو . وتضاعف ولاء البروليتاريين للحزب البولشفي في كافة أنحاء البلاد وقد أخذت اخبار موقفه المعادي للحرب تتسرب الى مجموعات الجيش على الجبهة .

وعقد اجتماع لوزارة الحرب في لندن نظر في مسألة الاعلان يوم ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ . وكان كل من لويد جورج وبلفور موجودا الا ان هذه الجلسة انتهت مثل سابقتها بعدم اتخاذ قرار نهائي في المسألة . ومونتاغو لم يعارض فكرة الاعلان كليا في هذه الجلسة بل تقدم باقتراحات لتعديل شكله . اما بلفور فقد وجه انتباه الموجودين الى بيان يعبر عن تأييد الحكومة الفرنسية للصهيونية (رسالة من كامبون الى سوكولوف) واشار الى موقف حكومة الولايات المتحدة الراضي عن الصهيونية . ورغم ذلك فقد انتهت الجلسة بقرار يقضي استشارة الرئيس الاميركي وبعثت اليه رسالة تضمنت نص مشروع الاعلان .

جاء جواب الرئيس الاميركي يوم ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) موافقا على اصدار الاعلان،

الا ان الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة للعمل بذلك فورا . فالقوات البريطانية كانت قد باشرت زحفها باتجاه غزة في فلسطين والحالة في روسية لم تكن قد وصلت بعد الى نقطة الانفجار. وارجيء موضوع الاعلان، على ان عضوا في الوزارة ، اللورد كيرزون. كان يعد مذكرة حول الموضوع. واستمر هذا التأجيل حتى ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) حين خرج كيرزون بمذكرته ليقول ان توفير الظروف لاقامة وطن قومي لليهود سيكون صعبا في بلد كفلسطين لا تكفي مواردها سكانها الاصليين . ولم تكن اعتراضات كيرزون امرا جديدا للوزارة التي كانت دون شك على علم بهذه المعضلة منذ البداية الا انها ، على اي حال ، اسهمت في تأجيل الاعلان . ولكن بعد هذا الموعد يبدو ان المسألة لم تعد تتحمل التأجيل .

فخلال هذه الايام الحاسمة قام سوفيات بتروغراد بأغلبية البولشفية بتشكيل « اللجنة الثورية العسكرية » لحد سلطة الحكومة في نقل الحاميات من العاصمة واليها . ولا شك ان تشكيل هذه اللجنة التي قدر لها ان تنفذ الانتفاضة الثورية بعد بضعة ايام بقيادة اليهودي الروسي ليون تروتسكي بدا تهديدا واضحا لسلطة الحكومة . وصادقت اللجنة التنفيذية لمجلس سوفيات العمال في بتروغراد على تشكيل اللجنة يوم ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) . وباشرت قيادة الحزب البولشفي بعد ذلك باعداد الترتيبات النهائية للانتفاضة .

يوم ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) اجتمعت وزارة الحرب البريطانية للتقرير نهائيا في موضوع الاعلان . وحرص خلال هذا الاجتماع على تجنب كافة المشكلات التي كانت قد ظهرت سابقا بشأن الصهيونية . وبما ان مونتاغو كان غائبا عن هذه الجلسة ، امتنع كيرزون عن ذكر الاعتراضات التي كان قد اوردها في مذكرته . وبهذا كان بوسع وزير الخارجية بلفور ان يعلن « ان الجميع متفقون ... على الرغبة باصدار اعلان لصالح الاماني القومية اليهودية الان » . ولم يكن بلفور على استعداد لاثارة اي من التعقيدات التي قد تنشأ عن الاعلان . اما موضوع مستقبل فلسطين فقد آثر تأجيل البت فيه فتكلم بشكل موجز وعام عن اقامة « نوع من محمية بريطانية او اميركية او اخرى » على البلاد . اما عن هدف اصدار الاعلان ، فقصر بلفور كلامه على فائدته الاعلامية والدعائية لدى اليهود مشيرا بشكل خاص الى يهود روسية والولايات المتحدة ثم الى اليهود في كافة البلدان الاخرى . ففي الولايات المتحدة كان تأييد السكان اليهود ، الذين سبق وابتهجوا وتظاهروا لثورة آذار (مارس) ، لتصاعد الثورة البروليتارية في روسية موضوع قلق لحكومة الولايات المتحدة وحليفاتها . كما ان نشاط الاشتراكيين في نيويورك والذي بدأ يتعالى بشكل خاص في صيف ١٩١٧ كان غالبا ما يبرز فيه افراد من اليهود الاميركيين من اصل روسي . ولكن الاهمية الاولى للمسألة كانت تتعلق بتأثيرها في روسية . فاليهود كانوا يقيمون بمعظمهم في الاجزاء الغربية والغربية الجنوبية من الدولة حيث تأييد الثورة لو نما لكان من شأنه ان يوفر للثورة مكتسبات لا يستهان بها . والحكومات الغربية كانت دون شك تدرك خطورة ذلك خاصة وان اليهود في هذه المناطق كانوا يشكلون حلقة وصل سكانية تربطهم مع الجاليات اليهودية في اوروبة الوسطى والتحول الثوري بينهم كان من شأنه ان يوفر وصلة للامتداد الثوري باتجاه الغرب . وقياسا بالاحداث آنذاك ، فانطلاق الصراع المجتمعي في اوروبة الوسطى وحتى في غربي اوروبة لم يكن غير ممكن ومتوقع . فعندما دعا لينين حزبه الى الثورة ركز اهتماما كبيرا على امكانية انطلاق الكفاح الثوري الاشتراكي في البلدان الغربية .

نقل قرار اصدار الاعلان بعد يومين من جلسة الوزارة التي تبنته (اي في ٢ تشرين الثاني — نوفمبر وهو الموعد المتبع في الاوساط العربية لاحياء ذكرى الاعلان) الى المتمول اليهودي الصهيوني جيمس روتشيلد في رسالة تضمنت نص الاعلان . كما ابلغ

آخرون من صهيونيي بريطانيه بيثهم حاييم وايزمان بنبأ القرار . الا ان الحكومة آثرت ابقاء القرار سريا وقتئذ وارجأت اصدار الاعلان . فقد كانت القوات البريطانية خلال هذه الايام ترابض عند حصون مدينة غزة وتقوم بعمليات لاحتلالها ، مما دعا الى ابقاء القرار سريا حتى لا يؤدي تسرب اخباره الى السكان العرب في فلسطين الى قيام مقاومة اضافية لدخول القوات البريطانية الى البلاد . وربما كانت الحكومة البريطانية ما زالت تأمل حتى هذا الموعد انقلاب الاوضاع مجددا في روسية لصالح حكومة كيرنسكي . ولذلك لم يصدر الاعلان علنيا حتى بعد وصول انباء سقوط الحكومة في بتروغراد في التاسع من تشرين الاول (نوفمبر) . وصدر الاعلان في ذلك اليوم اخيرا وظهر في الصحف البريطانية الى جانب اخبار اليومين السابقين في العاصمة الروسية : القوات الثورية كانت قد احتلت المباني الحكومية الرئيسية واطاحت بالحكومة وهرب كيرنسكي من المدينة وانتقلت السلطة الى مجالس السوفيات . وهكذا فقد نالت الصهيونية الاعتراف الذي طالما سعت اليه في نفس اليوم الذي ولدت فيه اول دولة اشتراكية . وقد جاء نص الاعلان كما يلي : « ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الغرض ، على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل ما من شأنه ان يضر الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود في فلسطين والحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في اي بلد اخر » .

وفيما تضمن القسم الاول من الاعلان ما ترتب على تبني الصهيونية ، حاول القسم الثاني منه تغطية التناقضات التي كمنت فيه . فالحقوق المدنية للسكان العرب الاصليين لم يمكن توفيقها مع مشروع اقامة وطن للاخرين في بلادهم . كما ان الحقوق والوضع السياسي لليهود في مختلف بلدانهم لم يمكن الحفاظ عليه في وثيقة دعتهم لاعتناق القومية اليهودية — الصهيونية في فلسطين .وتدمير الحياة اليهودية في اوروبه الوسطى واوروبه الشرقية على ايدي النازية في اوائل الاربعينات لم يكن غير مرتبط بتلك الصورة لليهود كـ « غرباء » التي اسبغتها الصهيونية على يهود اوروبة في اوطانهم . واستئصال اكثر من مليون عربي فلسطيني من بلادهم في اواخر الاربعينات لتوفير المقام للدولة اليهودية الناشئة تعود اصولها الى تحركات الطبقات البورجوازية وحكوماتها (بمن في ذلك اليهود في اعضائها) لضرب امتداد ثورية واشتراكية البروليتارية الاوروبية بمن فيها البروليتارية اليهودية في اوروبة الشرقية . وقد اشار لينين في دراسته **الامبريالية : اعلى مراحل الرأسمالية** عام ١٩١٦ الى مجاهرة بعض رجالات الدوائر الحاكمة في اوروبة بفوائد الامبريالية لحل المشكلات الطبقية الداخلية بما في ذلك من امتصاص نقمة الطبقات العاملة بتهجير الفائض من السكان . وان كان هذا المنطلق مظهرا اتصفت به كافة حركات الامتداد الامبريالي الغربي الى قارات افريقية وآسية واميركة اللاتينية عامة فقد انطبق هذا المظهر على الصهيونية بشكل خاص . فقد نشأت هذه الحركة على ايدي البورجوازيين اليهود ضمن ظروف تصاعد الصراع الطبقي الاشتراكي بين صفوف البروليتاريين اليهود ونالت هذه الحركة تبني الدول الغربية لها وسط انطلاق وانتصار الثورة الاشتراكية الاولى .

لم يمض وقت طويل على اصدار الاعلان الا وكانت الطائرات البريطانية تحلق فوق التجمعات اليهودية في مدن وقرى اوروبة الشرقية وتقذف بملايين المنشورات تحمل تصريحات شبه نبوية تعلن لليهود ان « الابواب فتحت اخيرا لعودتهم الى وطنهم التوراتي بعد الفي سنة من التشتت » . ولا حاجة للقول ان هذه المنشورات لم تذكر الحقوق المدنية للسكان الاصليين ولم تتناول الحقوق والوضع السياسي لليهود في اوطانهم . فتحت البلاغة بالشعارات النبوية كمنت دوافع مجتمعية تقضي بصرف ابناء

الطبقات الفقيرة من اليهود عن الصراعات الطبقية في مجتمعاتهم والدفع بهم الى صراع قومي شوفيني للتسلط على وطن الاخرين .

في ٩ شباط (فبراير) ١٩١٨ اصدرت الحكومة الفرنسية بيانا يصادق على الاعلان البريطاني ويؤيد مشروع تشجيع الصهيونية واهدافها في فلسطين . وفي ٩ ايار (مايو) ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايطالية عن تأييدها للصهيونية في رسالة موجهة الى سوكولوف . وفي ٣١ آب (اغسطس) ١٩١٨ صادقت الحكومة الاميركية على الاعلان البريطاني في بيان سلم الى الحاخام الاميركي ستيفن وايز .

ان قلق حكومات الحلفاء لسقوط حليفتهم الروسية لصالح ثوريين امميين يناهضون الحرب الامبريالية ويدعون الى تماسك بين الطبقات البروليتارية لكافة الامم كان السبب المباشر لتبني الصهيونية على ايدي هذه الحكومات . وان كان هناك اي تردد عند انتهاء الحرب عن التمسك بهذا التعهد للصهيونيين فان صمود الثورة في روسية وتصاعدها في هنغارية والمانية وبلاد اوروبية اخرى خلال عام ١٩١٨ ازال اي تردد كان قائما . وقد صدق المفكر السياسي ثورستين فبلن حين قال عام ١٩٢٢ ان كلا من اتفاقية فرساي ومنظمة عصبة الامم قد تم الاتفاق عليهما بين القوى الاوروبية بطريقة لا يمكن ان تخدم سوى هدف واحد : ضرب روسية السوفياتية . وفي هذا المضمار حظي الصهيونيون بانتباه كبير في محادثات فرساي كما ضمن اعلان بلفور في نص الانتداب لعصبة الامم . وعندما اصبح التدخل العسكري المباشر الاسلوب الذي اتبعته الدول الغربية لضرب الثورة الروسية ابقي على الصهيونية وشجعت بشتى الوسائل لتسهم في تحقيق الهدف المشترك .

ان كنا قد عالجنا بهذا الاسهاب تفاصيل احداث عام ١٩١٧ في روسية ورد فعل الحكومات الغربية عليها فذلك لنوضح ان العداء للكفاح الثوري في اوروبة — وبشكل خاص فيما يتعلق باشتراك اعداد اليهود في هذا الكفاح — كان الدافع الاساسي لاصدار اعلان بلفور آنذاك والتمسك به فيما بعد . والعداء لاشتراكية وثورية اعداد من البروليتاريين اليهود كان شعورا مشتركا حمله الصهيونيون من بورجوازيي الدول الغربية وزملائهم الطبقيين من غير اليهود في حكومات هذه الدول . ويبدو هذا الواقع بأكثر قدر من الوضوح في سجل اجتماع عقد يوم ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩١٩ بين لويس برانداييس زعيم الصهيونيين في الولايات المتحدة والذي كان يشغل مركز قاضي المحكمة العليا في اميركة آنذاك ووزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور الذي اقترن اسمه باسم الاعلان . ولاهميته في اظهار تفكير هذين المسؤولين في كبريي الدول الغربية وفي اظهار الصهيونية التي اشتركا في اعتناقها يستحق سجل هذا الاجتماع ايراده بشكل مطول : « أعرب السيد بلفور عن ارتياحه الكبير لقدوم القاضي برانداييس الى اوروبة . وقال ان المشكلة اليهودية (والتي لا تشكل مسألة فلسطين سوى جزء صغير ولكن هام منها) هي برأيه مسألة تفوق تعقيداتها اي مسألة اخرى تواجه رجال السياسة في اوروبة ... وقال ان المشكلة تتعقد بالطبع بسبب الظاهرة الغريبة ان اليهود لا يشتركون في الحركات الثورية فحسب بل وفي الواقع هم الان في قيادة هذه الحركات الى حد كبير . وقال ان شخصا موثوقا به اخبره منذ ايام ان لينين ايضا من جهة امه يهودي . واجاب القاضي برانداييس ان لديه جميع الدلائل للاعتقاد ان الامر ليس كذلك وان لينين روسي على الجهتين من الطبقة العليا . واستمر بالقول ان هذه المسألة ثانوية على كل حال وان كل ما قاله السيد بلفور صحيحا . وهو يعتقد ان كل يهودي مفكر ومثالي وان المشكلة هي في توجيه هذه الصفات . ثم سرد قصة توصله هو الى الصهيونية وانه توصل اليها كليا كاميركي اذ كانت حياته خالية من الاتصالات والتقاليد اليهودية . وكأميركي فقد جابهته حالة الاعداد الهائلة من اليهود وخاصة اليهود الروس الذين يتدفقون الى الولايات

المتحدة سنويا . الى ان وقعت يداه على منشور عن الصهيونية مما أدى به الى دراسة المشكلة اليهودية والاقتناع ان الصهيونية هي الحل . فنفس الرجال وذوو نفس صفات الذين ينتمون الان الى الحركات الثورية سيجدون سبلا بناءة (وفي الولايات المتحدة فعلا يجدون هذه السبل) للتعبير ، ولتقديم المساهمة الايجابية للحضارة . وعندها قاطعه السيد بلفور للتعبير عن موافقته مضيفا : وهذه هي الاسباب بالطبع التي تجعلك وتجعلني صهيونيين متحمسين » . وهكذا فقد كانت الرغبة في دفع اليهود في « سبل بناءة » بعيدين عن الاحزاب الثورية ما جعل كلا من بلفور المسيحي وبراندايس اليهودي المنصهر صهيونيين متحمسين . فالتدفق المستمر من المهاجرين اليهود القادمين من شرقي اوروبة الى اوروبة الغربية والولايات المتحدة لم يمكن حده الا بتحويل سيل الهجرة الى فلسطين . وانضواء هؤلاء المهاجرين ، مثل حال ابناء ديانتهم في شرقي اوروبة ، في الاحزاب الثورية لم يمكن ردعه الا بدفعهم وراء حركة قومية تلهيهم عن المصالح الطبقية وتحولهم الى خدمة مصالح الامبريالية . وان نعلم ان براندايس توصل الى الصهيونية كأميركي وليس كيهودي — وهو الذي كان مسؤولا ذا شأن في الدوائر الاميركية الحاكمة — فذلك ينطبق عليه قدر ما انطبق على بلفور المسيحي الذي توصل الى صهيونيته بكونه مسؤولا في الحكومة البريطانية . اما عن تأكيدات براندايس ان اليهود في الولايات المتحدة باتوا يجدون سبلا بناءة للتعبير ، فكاتب سيرته يخبرنا انه قال بعد مصادقة الرئيس الاميركي على اعلان بلفور « ان العداء للصهيونية اصبح يعتبر شبيها بالخيانة » . ولم تمض سنوات قليلة على تبني الدول الغربية للصهيونية ، الا وفرضت الصهيونية ، بتشجيع من هذه الدول باجهزة الاعلام التي في حوزتها ، على كافة السكان اليهود في اوروبة الغربية وشمالي اميركة . وحتى يومنا هذا ، فان يكون احدهم يهوديا ومعاديا للصهيونية في نفس الوقت ما زال يوصم بالخيانة في هذه البلدان .

وان اصطبغت هذه المقالة نتيجة سردها للتفاصيل الدبلوماسية التي دارت حول احداث عام ١٩١٧ في روسيه بصابغ التحليل التآمري ، فذلك لان المسألة التي نحن بصددها أحيطت بالسرية واتخذت شكل التآمرية . فمنذ مطلع عهد الصهيونية حين كتب هرتزل عن دور الصهيونية في اضعاف الاحزاب الثورية ، امتنع مؤسس الصهيونية ، كما رأينا، عن اثارة هذا الموضوع في كراس موجه الى الرأي العام وآثر ان يذكرها في رسالة سرية . وتشارك الصهيونيون ورجالات الدول الغربية الذين أيدوهم في الابقاء على سرية هذا الدور للصهيونية حتى الان . فمنذ اصدار الاعلان كان المسؤولون البريطانيون وعلى رأسهم ونستن تشرشل قد باشروا بارسال التصريحات المختلفة لتفسير تبنيهم للصهيونية مختلقين الروايات عن دوافع اصدار الاعلان ومتجنبين دائما ذكر الدافع الاساسي . كما جهد الزعماء الصهيونيون بعد ذلك وعلى رأسهم حاييم وايزمان لاختلاق الاسباب والدوافع التي أحرزت لهم النجاح في نيل تأييد الدول الغربية للصهيونية فأصدروا المقالات الكثيرة والمنشورات الكثيفة لاحاطة الموضوع بأكثر قدر من التعقيد والغموض . ولا عجب في ذلك ، ففي الدعوة لتحقيق هجرة اليهود من اوروبة الشرقية الى فلسطين ، ادعت الاحزاب الصهيونية وخاصة احزاب اليسار منها ان برنامجها في فلسطين برنامج تقدمي ثوري يهدف الى اقامة المجتمع الاشتراكي الافضل لليهود في فلسطين . وقد نجحت الصهيونية الى حد بعيد في هذا الخداع في فلسطين خاصة وان سلطات الانتداب البريطانية وافقت على غض النظر عن الشعارات الاشتراكية والماركسية التي رفعتها أحزاب اليسار الصهيوني في حين صبت كامل سطوتها لضرب الحزب الشيوعي الذي ضم العرب واليهود معا في صفوف اعضائه . وبهذا تمكنت الصهيونية خلال حربها لاجلاء سكان البلاد الاصليين من عمال وفلاحين في فلسطين في الاربعينات من نيل تأييد الرأي العام التقدمي الاشتراكي في الغرب عن طريق ادعائها بأن صراعها كان مع الاقطاعيين العرب الذين تسلطوا على خيرات البلاد . ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم ،

واليساريون الغربيون منهمكون في تسطير المقالات النظرية لمعرفة ما اذا كانت الصهيونية متكافئة مع الاشتراكية ام لا . وكان هذا المنهج التبريري المصدر الايديولوجي الحاسم الذي كان يغذي شوفينية زعماء الصهيونية تحت ستار الزعم بأنهم اشتراكيون ومكنهم من احكام قبضتهم على الجماهير اليهودية في فلسطين ، ومن توجيه هذه الجماهير لتنفيذ المهمة الصهيونية باستبعاد الجماهير العربية الفلسطينية وطردها عن البلاد . وعلى نفس المنوال ، ولكن على نطاق أقل حسما ، ساهم هذا المنهج في استبقاء نوع من الثقة بزعماء الطبقات البورجوازية العربية التقليدية وبتظاهرهم بمناهضة الصهيونية في الوقت الذي كانوا يتواطأون مع حلفائها الامبرياليين ، عن طريق التأكيد ، من خلال تمسك بريء مزعوم لهم بالتقاليد والديانة ، بأن الصهيونية والشيوعية اسمان لمسمى واحد . وما غفلت الجماهير الفلسطينية عن ادراكه آنذاك هو ان الصهيونية نمت وترعرعت كأداة لمناهضة الاشتراكية والشيوعية .

* * *

كان للايديولوجية الصهيونية كما تبلورت عن ظروف الصراع المجتمعي في أوروبه الاثر الاساسي في تحديد هوية المؤسسات التي نفذت عملية التوطين الصهيونية في فلسطين . ولا يسعنا المضي في معالجة الاصول المجتمعية للايديولوجية الصهيونية دون التطرق ، ولو بشكل مقتضب وأولي ، الى الطريقة التي ترجمت هذه الايديولوجية نفسها في الممارسات العملية لتحقيق وتوطيد الكيان الصهيوني في البلاد . وسيتضح من خلال عرضنا الوجيز لهذه المسألة ان الاتجاهات المختلفة في الصهيونية عملت هنا أيضا بشكل متكامل من أجل تحقيق الهدف الواحد . وكنا قد أظهرنا الدور الذي وضعت من أجله تعليلات اليسار الصهيوني بالعبارات الماركسية لصرف اليهود عن الكفاح الثوري في الغرب . وكذلك كان الامر في فلسطين حيث استخدمت الشعارات الاشتراكية لليسار الصهيوني لتبرير اقامة مؤسسات ذات مظاهر شبه اشتراكية تقوم بالدور الشوفيني الذي استطلبه المخطط الصهيوني بما في ذلك عزل الطبقة العاملة العربية في المجالات الاقتصادية في البلاد . ولتوضيح هذا الدور الفريد الذي نفذ تحت غطاء الشعارات اليسارية لا بد من العودة الى بوروشوف .

ان بعض المحللين الذين عالجوا كتابات بوروشوف بشكل عام قد ربطوا ايديولوجيته بالسعي لتحويل اليهود من وضعهم في الطبقات الوسطى في أوروبه الى « شعب منتج » يعمل في قطاعات الانتاج الاولية في فلسطين . وربما كان هذا بالفعل أحد أوجه تفكير بوروشوف الا انه لم يشكل الوجه الاهم لمنطلقه الايديولوجي كما انه لم ينتم اليه بشكل خاص . فالانطباعات القائلة ان اليهود « شعب طفيلي » يتطلب بعثه المجتمعي العودة الى الاسس الزراعية والصناعية لعملية الانتاج كانت شائعة منذ امد بعيد في أوروبه بين اليهود وغير اليهود على حد سواء . واصبحت هذه الفكرة من الاوجه الرئيسية للايديولوجية الصهيونية . والواقع ان المتمولين من كبار البورجوازيين اليهود ، وليس اليسار الصهيوني بأي شكل خاص ، هم من بعثوا هذا العنصر من الايديولوجية الصهيونية حين غسروا مشاريعهم « الخيرية » لتوطين اليهود في مستعمرات زراعية خارج أوروبه على انها وسيلة لاثبات قدرة العمل في الانتاج عند اليهود . وحين تقدم هرتزل بمخططه المليء بالوعود للجميع في اجتماع له مع البارون دي هيرش ، جاء جواب البارون كما يلي : « لا اريد رفع المستوى العام البتة . فجميع مشكلاتنا تأتي نتيجة رغبة اليهود في التسلق الى المراكز العالية أكثر مما يجب . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ... اما عن خططي في الارجنتين ... فبعد بضع سنوات جيدة سيمكنني ان اظهر للعالم ان اليهود ايضا يمكنهم ان يصبحوا مزارعين جيدين . »

ولهرتزل الذي سجل هذا الحديث في مذكراته ليوم ٢ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ بدا هذا

الصيرفي المليونير بكلامه هذا وكأنه اشتراكي . ومع مضي الزمن فان هذه الفكرة القائلة بوضع اليهود في العمل الانتاجي ارتبطت « بالصهيونية ــ الاشتراكية » لاحزاب اليسار الصهيوني التي تفرعت عن حزب بوعالي صهيون الذي انشأه بوروشوف والتي تشكل العامود الفقري للمؤسسات الحاكمة في دولة اسرائيل اليوم .

ان واقع الالتقاء الجازم بين ايديولوجية اليسار الصهيوني والمصالح الطبقية والاهداف المجتمعية لتمولي البورجوازية اليهودية موضوع تذهب في تمويهه كافة الكتابات الصهيونية . فيذهب الكثيرون في مدح وتمجيد مثالية الاستعمار الصهيوني كما جاء بعد نشوء اليسار وفصله كليا عن المخططات الاولية التي قام بها المتمولون . والدليل الذي يبرزه هؤلاء في هذا المضمار هو شعار « العمل الذاتي » الذي رفعه اليسار الصهيوني . ورغم المثالية التي اعتنقت بهذا الشعار ، الا ان الهدف الرئيسي منه كان استثناء العمال من السكان الاصليين لحصر العمل في المهاجرين اليهود في كافة المشاريع والاراضي التي حازت تحت ملكية الصهيونيين في فلسطين . وفي الواقع فان هذه الممارسة كانت قد بدأت في مشاريع الاستيطان الاولى التي نظمها المتمولون . فالمشاريع التي رعاها هؤلاء لم يقصد بها استغلال العمال الاصليين في البلاد لجني الارباح بل أقيمت خصيصا لتحقيق مجالات الاستيعاب الاقتصادي لاكبر عدد ممكن من الفقراء اليهود الذين شجعت هجرتهم خارج أوروبه . ولم يتوقع ممولو هذه المشاريع والقائمون علـى ادارتها تحقيق هذا المأرب الا من خلال استثناء العمال من سكان البلاد الاصليين . وهكذا فان ازاحة الطبقة العاملة الاصلية بدأت منذ البداية قبل نشوء اليسار الصهيوني وقبل رفع شعار « العمل الذاتي » . وهذا ما أدى الى قيام مقاومة مباشرة لهذه المشاريع بين السكان الاصليين في كل من الارجنتين وفلسطين منذ بدايتها في أوائل الثمانينات من القرن الماضي . وفي تلك الحالات التي قام بها ممثلو البارونات ، ان كان ذلك في الارجنتين او في فلسطين ، بترويج ممتلكاتهم الخاصة عن طريق المضاربة بالعمالة بتوظيف السكان الاصليين بأجور مؤاتية (أو عن طريق المضاربة بشراء وبيع الاراضي) فكانوا يطردون من مراكزهم ويستبدلون بآخرين اكثر وفاء الى البارونات واهدافهم .

وان كانت المقاطعة العملية للسكان الاصليين في قيد الممارسة منذ البداية، الا ان النظرية التي كان من شأنها تعليل هذه الممارسة لم تكن موجودة . وفي كراس **الدولة اليهودية** تكلم هرتزل عن اقامة اجهزة عمالية شبه عسكرية تنتمي الى الجمعية اليهودية وشركتها في المستقبل تقوم بنقل افواج العمال المهاجرين من مكان الى الاخر وفق الطلب مما يؤمن عزل السكان الاصليين والحؤول دون عملهم في المنشآت والممتلكات اليهودية . ويبدو ان هذا الترتيب لم يكن كافيا لهرتزل اذ عاد وأشار الى الحاجة الى نظرية تعلل هذه الممارسة، حين كتب روايته **البلاد القديمة الجديدة** عام ١٩٠٢ . وفي هذه الرواية التي فصلت رؤيته لمستقبل الدولة اليهودية بشكل مضيء ، جعل هرتزل احد اشخاص الرواية في فلسطين يعلن : « ان غريزة الجماهير يجب اطراؤها. ويجب ايجاد نظرية ترضي المصالح المباشرة للجماهير او على الاقل لما تتخيله الجماهير على انه لمصلحتها المباشرة . ولذلك فان شعارا ضد الغرباء يجب رفعه . وغير اليهود لا يجب قبولهم في الجمعية [اليهودية] . » لا شك ان هرتزل كان يسجل بهذا ما كان آنذاك موضوع نقاش دائم يدور بين مسؤولي التوطين في فلسطين عندما قام بزيارة البلاد عام ١٨٩٨ . والنظرية المطلوبة جاءت في شكل نظرية « الصهيونية البروليتارية » التي ادعاها بوروشوف لحزبه والشعـار المطلوب جاء بشكل شعار « العمل الذاتي » والذي اكتمـل تعليله على أيدي الاحزاب المتفرعة عن بوعالي صهيون في فلسطين حين ادعت هذه الاحزاب ان مقاطعة العمال العرب مسألة تتطلبها ضرورة الحؤول دون استغلال العمل المأجور والرخيص للسكان الاصليين . ووصلت هذه التعليلات الى اعلى مراحل تظاهرها اليساري حين أنشئت

المستوطنات التي نظم فيها العمال على انهم اعضاء ووفرت لهم تكاليف المأكل والمسكن والملبس مقابل عملهم دون اجور ورفعت لهذه المستوطنات شعارات العداء للعمل المأجور كليا . وهذه المستوطنات التي اقترن اسمها لسبب ما فيما بعد بالاشتراكية والشيوعية، وهي الكيبوتزات التي انطوت كما يشير اسمها في العبرية (جماعة) على مجموعات العمال المهاجرين الذين نقلوا الى اماكن تواجد العمل وخاصة في الزراعة حيث باتت الاجهزة الاكثر تأهيلا للازاحة الاقتصادية للسكان الاصليين. كما أنشأت « كتائب عمال » للعمل في البناء تنقل جماعيا بأسلوب شبه عسكري كذلك الذي نادى هرتزل الى انشائه حسب توفر عقود مشاريع البناء وتطورت هذه الكتائب العمالية الى انشاء الهستدروت فيما بعد على ان تعمل كشركة مقاولة تحت اسم « الاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين » . وبالنظرية والشعارات المرائية هذه وبالتنظيمات العمالية التي نشأت منها بات اليسار الصهيوني الاطار الافضل لتحقيق اغراض الصهيونية الداخلية في فلسطين في حين استمرت المنظمة الصهيونية بالقيام بالاعمال الخارجية في أوروبه من حيث جمع الاموال والاتصال بمسؤولي الدول الاوروبية .

نظرا لهذه الخصائص ، ورغم الادعاءات اليسارية ، يمكننا القول دون تردد ان احزاب اليسار الصهيوني بأجهزتها العمالية ومنشآتها الاقتصادية ، بما في ذلك شركات المقاولة في بناء المساكن والطرقات التي أنشأتها منذ أوائل أيام قدومها الى فلسطين ، لعبت ذلك الدور الذي كان بنسكر وهرتزل قد توقعاه للشركة اليهودية . وبعد فرض الادارة الاستعمارية البريطانية على البلاد ، لعبت مؤسسات هذه الاحزاب الدور الرئيسي في ازاحة الطبقة العاملة العربية فاتحة بذلك البلاد للمنشآت الصهيونية . والكيبوتزات اقتلعت الفلاحين العرب اقتصاديا بطريقة اوتوماتيكية بفعل ممارستها معارضة العمل المأجور في نفس الوقت الذي وفرت فيه أرخص الشروط وأكثرها فعالية من حيث تمويل البورجوازية اليهودية والمنظمة الصهيونية لعملية التوطين . والهستدروت ثبت أقدام الصهيونية اقتصاديا في البلاد بفعل العقود الذي وفرته لاجهزة المقاولة التي في حوزته كل من حكومة الانتداب والمنظمة الصهيونية ، مما أدى الى ازاحة العمال العرب في المدن عن قطاعات هامة من الاقتصاد المديني في البلاد . وفي نفس الوقت مكنت اجهزة العمل شبه النقابية التي امتلكها من اقامة حاجز فاصل بين الطبقة العاملة العربية والطبقة العاملة من اليهود . وبهذا وضعت أجهزة اليسار الصهيوني الاسس الاقتصادية والسياسية للازاحة السكانية التي أدت الى اجلاء معظم السكان العرب عن البلاد خلال عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ .

بعد ذلك ومنذ اقامة دولة اسرائيل فقدت مؤسسات اليسار الصهيوني دورها الفريد هذا في ازاحة السكان الاصليين وتتطورت الى أجهزة اقتصادية بحتة تتحكم في قسم واسع من الاجهزة الاقتصادية للمؤسسة الحاكمة في اسرائيل . وتخلى الكيبوتز عن معارضته للعمل المأجور فأصبح اعضاؤه طبقة مرتاحة من المناظرين على العمال المأجورين في اراضيه ومصانعه ومعظمهم الان من بقايا السكان العرب الاصليين ومن المهاجرين الجدد من يهود البلدان العربية . والهستدروت تخلى عن أي مظهر نقابي كان يمارسه فأصبح الاداة الرئيسية لاستغلال عمال الانتاج في منشآته ، ومعظمهم من اليهود العرب ، كما بات يوفر للمؤسسة الحاكمة ، بهيكل اتحاد النقابات الذي يدعيه ، أداة لكبح الطبقة العاملة الاسرائيلية يعارض مطالبها من حيث الاجور ويكسر اي اضرابات قد تقوم بها مجموعاتها في نفس الوقت الذي يشكل هيكله العمالي النقابي المزعوم مظلة يعمل بظلها الرأسماليون المحليون تحت اشراف وسيطرة الرأسمال الاحتكاري الامبريالي . واخيرا ، وفيما تعبأ جماهير الطبقة العاملة الاسرائيلية وراء سياسات دولتها في منطقة غريبة ومعادية ، يعيش الفلسطينيون العرب اهل البلاد اما تحت الاحتلال أو في المنفى

خارج بلادهم . وما هذه التطورات كلها الا نتيجة نهائية لرغبة البورجوازية اليهودية في نقل جماهير الفقراء من البروليتاريين اليهود خارج اوروبه وبلـــدان شمالي الاطلسي .

* * *

في مقالة صدرت حديثا بعنوان **فلسطين واليهود** عالج ايلي لوبل باقناع دوافع المتمولين اليهود في أوائل عهد الصهيونية . كما أظهر المؤلف التقاء أهداف الزعماء الصهيونيين الاوائل مع دوافع اللاساميين في أوروبه وخاصة من مسؤولـــي روسيه القيصرية . واستطاع المؤلف ان يحدد كذلك « الدور الذي لا يحسد عليه » الذي توقع من المهاجرين اليهود ان يقوموا به في فلسطين . الا ان لوبل في تحليله للاصول المجتمعية للايديولوجية الصهيونية الصق تمييزا مبالغا فيه بين منطلق مشاريع المتمولين الاستيطانية ومخططات هرتزل وبوروشوف .

يقدم لوبل الصهيونية على انها حركة ذات ميول ايديولوجية مختلفة تطابق الانتماءات الطبقية المختلفة للبناء المجتمعي لليهود في أوروبه . فمنطلق المتمولين أمثال روتشيلد وصهيونيتهـــم « الخيرية » يربطه لوبل بايديولوجية البورجوازية اليهودية الكبرى . في حين يمائل هرتزل وصهيونيته « السياسية » بالبورجوازية اليهودية الوسطى . امـــا بوروشوف فيبدو له على انه متكلم بلسان البورجوازية اليهودية الصغرى وأجزاء من البروليتارية اليهودية في شرقي أوروبه . وبهذا التصنيف يضع لوبل ثقلا على الاختلاف بين هذه المنطلقات الثلاثة معتبرا اياها انعكاسات ايديولوجية لفروق طبقية قائمة وبذلك يغض النظر عن التكامل الحتمي بين هذه الاتجاهات . ولا شك ان صهيونية كل مـــن هرتزل وبوروشوف جاءت عمليا في خدمة البورجوازية الكبرى وأهدافها الاساسية .

عندما كتب هرتزل كراس الدولة اليهودية لم يوجهه الى البورجوازية اليهودية الوسطى التي يقال انه انتمى اليها بل اصدره بمثابة نداء الى المتمولين سعيـــا وراء رعايتهـــم لمشروعه . والواقع ان الكراس كتب على ان يصدر في البداية تحت عنوان : **الدولة اليهودية : نداء الى عائلة روتشيلد** . وفضلا عن ذلك فان هرتزل نفسه كان يعلم كما يخبرنا في مذكراته بأنه لا فرق اساسي بين منطلق روتشيلد « الصهيوني الخـــيري » ومنطلقه «السياسي». فحين اجتمع به في ١٨تموز (يوليو)عام ١٨٩٦ قال له:«ان المستوطنة دولة صغيرة والدولة مستوطنة كبيرة ، انت تريد بناء دولة صغيرة وانا اريد مستوطنة كبيرة » . وروتشيلد لم يعارض هذا الكلام من حيث المبدأ فحاء جوابه بالمثل القائل : « ان العيون لا يجب ان تكون اكبر من المعدة » . ولا شك ان روتشيلد كانت له المعدة الكبرى . كانت لعائلته في هذا الوقت مصالح وقوى مالية في الخزائن الاوروبية المختلفة وفي الخزينتين العثمانية والروسية القيصرية. ومعظم بضعة الاف المهاجر اليهودي الذين استوطنوا في فلسطين قبل عام ١٩١٧ كانـــوا يعيشون في المستوطنات التي مولهـــا روتشيلد . كما ان عائلة روتشيلد كانت تبرز في الكرتلات المالية الاحتكارية التي كانت تتزاحم آنذاك فيما بينها لاقتسام الموارد الاقتصادية الرئيسية في العالم . ولذلك فقد كانت تحركاتهم موقع اهتمام وانظار مختلف الحكومات الاوروبية والحكومة العثمانية . وأول حضور حظي به هرتزل لدى القيصر الالماني كان القصد الرئيسي منه معرفة « ما اذا كان روتشيلد وراء هذا » (اما اللقاء الثاني والذي تم في فلسطين فكان الغرض منه تأمين ذكر « وفد يهودي » قابله القيصر في البيان الرسمي عن زيارته العثمانية آنذاك). ولم يكن لروتشيلد تلك الحرية في الكلام عن « دولة » يهودية التي كانت لهرتزل في كراسه الذي شرح فيه مشروعه الذي بدا له « كحلم عظيم ... امتلك افكاره لايام ... فأقلقه وسكر من نشوته » . ولا شك ان روتشيلد كان قد رأى الكثيرين من المفكرين متوسطي القدرة كبيري الاعين الذين أتوا اليه بمقترحاتهم « الجديدة » لاقامة مشاريع اكبر واكثر نجاحا . ولم يكن افراد عائلة روتشيلد مبتهجين لفكرة هرتزل في تأسيس المبارزة في

الدولة اليهودية في المستقبل كما لم يكونوا متحمسين لفكرة الحرس الخاص الذي ارتأى هرتزل ان يرافقه هناك . وكذلك فان الاخوان هيرش لم يتحمسوا لهرتزل حين قرر ان يحثهم على بناء « متحف لوفر هناك » .

ان القول بأن منطلق هرتزل السياسي يشكل اتجاها مختلفا عن منطلق المتمولين لا يمكن قبوله . ففيما بعد ، حين قام هرتزل وشركاؤه بتشكيل المنظمة الصهيونية ، وجدوا هم كذلك انه من الضروري تقليل طلاقة شعاراتهم وباتوا يتكلمون عن « الموطن » او « الملجأ » بدل « الدولة » . وعند نهاية العقد الاول من القرن الحالي، بعد وفاة هرتزل، وجدوا انفسهم يعبرون عن صهيونيتهم بعبارات ثقافية . وفي عام ١٩١٧ حين جاء الوقت للنظر السياسي الجدي في الصهيونية لم يكن افراد عائلة روتشيلد معارضين : فاليهم وجه قرار اعلان بلفور فور تبنيه في بريطانية .

وأكثر أهمية من ذلك خطأ لوبل في اعتبار بوروشوف ممثلا للبورجوازية الصغيرة واجزاء من البروليتارية اليهودية في شرقي أوروبه : فمن الصعب التأمل كيف ان نداءه الى الجماهير اليهودية لحثها على التخلي عن كفاحها البروليتاري الاممي لصالح صراع استعماري شوفيني يمكن تفسيره على انه تمثيل لايديولوجيتها . وواقع ان بوروشوف رأى تلك «الطبقة غير المتجانسة» من أفراد البورجوازية الصغيرة المفتقرة والبروليتاريين المنخرطين في الهجرة على انها ستشكل المادة السكانية للمشروع الصهيوني لم يجعله متكلما بلسانها بقدر ما ان مخطط البارون دي هيرش لتوطينها وتشغيلها في الزراعة في الارجنتين لم يجعله ممثلا لمصالحها. وحقا ان بوروشوف كان يتوجه بدعوته بشكل خاص الى هذه الطبقة ــ وهذا ما يفسر غنى كتاباته بالعبارات الماركسية ــ الا انه كان يتوجه اليها بالبرنامج الذي اختارته البورجوازية الكبرى لها . وواقع ان بوروشوف لم يعتبر الماركسية اكثر من عبارات رنانة واضح من خطاب القاه في سبتمبر عام ١٩١٧ عند عودته الى روسيه بعد ثورة آذار (مارس) حين ارتأى ان يعلن ان تطور الاحداث والظروف الجديدة تتطلب « منا ان تصبح عباراتنا أكثر غناء وليونة » .

وان بدا التصنيف الايديولوجي الطبقي ضروريا ، فاي مكان تتركه وصفة لوبل لتلك الاحزاب الاشتراكية المساومة من الاحزاب والجماعات القومية اليهودية ، مثل البند ، التي سعت لتحقيق الاستقلال الذاتي لليهود في بلادهم في شرقي أوروبه ؟ والحزب الاجتماعي الديموقراطي اليهودي (البند) كان يطالب ويدعي بحقوق خاصة من حيث التنظيم والتعبئة بين اليهود في روسيه على اساس مطالبه بالاستقلال « القومي ــ الثقافي » لليهود . وقد عارض لينين البند والاحزاب التي شاكلته في ادعاءاتها بالنسبة للقوميات الاخرى مصرا على ان الكفاح البروليتاري يجب تنظيمه على اساس اقليمي بغض النظر عن التفريقات القومية . وفي **ملاحظات حاسمة حول المسألة القومية** الذي كتبه عام ١٩٠٢ تهجم لينين على ايديولوجيي البند وربط ادعاءاتهم « الثقافية ــ القومية » بايديولوجية الحاخامات والبورجوازية اليهودية . اما الصهيونية فقد حذر لينين من رجعيتها وارتباطها بدوافع ومصالح البورجوازية اليهودية الكبرى في عدة مناسبات . وفي **اسكرا** في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٣ ندد لينين بالصهيونية وفضحها على انها حركة تناقض مصالح البروليتارية اليهودية . وتحليل لينين يمكن ان يخدم كمثال هام بالنسبة لفلسطين والمناطق التي تجاورها حيث الشوفينية الطائفية طالما اطعمت ونمت على اساس التفريقات الدينية واللغوية ومهام تخطيها تتطلب انطلاقا اقليميا للكفاح الشعبي .

وهناك تحليل مجتمعي آخر يجدر ذكره ظهر في مقالة صدرت لصادق جلال العظم تحت عنوان **نحو فهم أفضل للفكرة الصهيونية** (في مجلة **مواقف** ، العدد الخامس ، السنة

الاولى ، تموز ــ آب ١٩٦٩) . دحض المؤلف في هذا المقال التعليلات الدينية والاخلاقية والتآمرية والحقوقية التي اصطبغت بها معظم الكتابات العربية حول الصهيونية واظهر كيف ان الاساليب الخطابية التي غلبت عليها لم تفد بشيء سوى تمويه الفهم العام للمسألة . وقد حث المؤلف على تناول الموضوع بأسلوب ايديولوجي ــ مجتمعي يضع الصهيونية « في اطار الظروف التاريخية والقوى الطبقية والبيئة الاجتماعية التي نشأت في كنفها الحركة وتطورت ونمت بفعلها » . ولكن رغم أسلوبها الصحيح فقد فشلت هذه المقالة من حيث استنتاجاتها عن الاصول المجتمعية للفكرة الصهيونية . فقد رأى المؤلف الصهيونية على انها الحركة القومية للبورجوازية اليهودية ــ والبورجوازية المتوسطة والصغيرة منها بشكل خاص ــ في سعيها عن سوق وطنية خاصة بها . وهذه النظرة لم تنطبق على الصهيونية قدر ما انطبقت على الحركات القومية اليهودية التي طالبت بالاستقلال الذاتي لليهود في أوروبه الشرقية . ويقول المؤلف : « وبما انه لم يكن بالامكان توفير مثل هذه السوق الوطنية اليهودية في أوروبه اتجهت الانظار الى الخارج (يوغنده ، الارجنتين ، فلسطين) ... » وبهذا أغفل المؤلف واقع ان الاستيطان في الارجنتين وفلسطين كان قد جاء تنظيمه وتمويله ليس على أيدي البورجوازية المتوسطة والصغيرة في سعيها وراء اسواقها الخاصة بها بل وبشكل مباشر على أيدي كبار المتمولين من وجهاء البورجوازية اليهودية الكبرى (والتي كانت تسهم في التحكم المالي الاحتكاري على الاسواق العالمية) لتحقيق تهجير البروليتاريين اليهود عن أوروبه وبلدان شمالي الاطلسي . وبهذا فقد قصر المؤلف دور البورجوازية اليهودية الكبرى على انها مسألة عرضية انعكست في « العطف على الحركة ومساعدتها ودعمها في المال » حين كانت بالواقع العامود الفقري للحركة ودافعها الرئيسي من حيث نشأتها ونموها وايديولوجيتها. وقد أغفل المؤلف بذلك النقطة الاساسية وهي ان الصهيونية كانت وما تزال في غربي أوروبه وشمالي اميركه تعيش على أيدي أولئك الذين يحثون ويساعدون ويمولون هجرة الاخرين من اليهود دون ان يكون لهم ادنى اهتمام بالهجرة انفسهم . لاحظ اليوم الصرخات المتعالية : « دعوا اليهود السوفيات يهاجرون » يطلقها اليهود المنصهرون والقانعون بمقامهم في الولايات المتحدة .

ان التحليل المجتمعي المعروف أكثر من غيره للصهيونية وهو الذي طرحه ابراهام ليون في كتابه الذي طبع بالفرنسية عام ١٩٤٦ تحت عنوان : **المسألة اليهودية ، تحليل ماركسي** ، قد أسهم قبل لوبل والعظم في تهافت المفهوم العام للصهيونية . دحض ليون التفسيرات المثالية القائلة بأن التاريخ اليهودي عبارة عن قرون طويلة من المنفى الجبري واظهر خطأ النظرة القائلة بالانحدار العرقي الصافي لليهود عن الفلسطينيين القدماء . وبدأ ليون الجزء الصغير في كتابه عن الصهيونية بعرض نشوئها لدى بنسكر ، روتشيلد وهرتزل. الا انه راح يستنتج ان الصهيونية « ايديولوجية البورجوازية اليهودية الصغرى المختنقة بين الاقطاعية في طور دمارها والرأسمالية في طور تفسخها » . وان تكون طبقة صغار المتاجرين والمرابين والحرفيين اليهود التي عايشت الطور الاقطاعي قد بدأت تتفتت في عهد الرأسمالية لصالح الرأسمالية الناهضة في المدن فذلك صحيح . كما ان تحولها الى طبقة بروليتارية معدومة وانجرافها الى المدن لتواجه رأسمالية متأزمة فذلك يعكس بصدق الحالة في شرقي اوروبة بشكل خاص . بل بالواقع ان هذا ما كان مادة المسألة اليهودية كما سبق وقلنا . الا ان معادلة هذا التطور نفسه بالصهيونية أمر خاطىء . وحقا ان اعدادا كبيرة من الجماهير اليهودية المفتقرة في اوروبة الشرقية سعت لحل معضلتها عن طريق الهجرة . الا ان مدن الدول الرأسمالية المتقدمة في بلدان شمالي الاطلسي بشكل خاص كانت هدف هذه الهجرة وليس فلسطين . وفضلا عن ذلك فان هذه الظروف المجتمعية بالذات هي التي دفعت باعداد هذه الطبقة الى الثورية حين

اسهمت عناصرها خلال عملية تحولها الى البروليتارية في الاحزاب الاشتراكية بشكل خاص . والنقطة التي نعرضها هنا هو ان الاشتراكية الاممية هي الايديولوجية التي رفعتها اعداد البورجوازية اليهودية الصغيرة المنزاحة الى البروليتارية الى جانب اعداد البروليتاريين اليهود (والى جانب البروليتاريات الاوروبية عامة) ليس في شرقي اوروبة فحسب بل وكذلك في مدن اوروبة الغربية واميركة الشمالية التي اتجهوا اليها . وانتماء اعداد اليهود الى الاحزاب الثورية بشكل خاص هو ما دفع البورجوازية اليهودية الكبرى الى بعث الصهيونية تحت اجنحتها ثم أيدها شركاؤها الطبقيون من مسؤولي الدول الاوروبية (وخاصة في بريطانية ثم الولايات المتحدة) الى تبني الحركة وتقويتها . وبذلك فقد جاءت الصهيونية كرد فعل البورجوازية الكبرى على ثورية البروليتارية اليهودية فكانت النقيض الجدلي لها وهدفت الى تمويه التناقضات الطبقية عن طريق تهجير البروليتاريين اليهود خارج اوروبة . وهذا ما يفسر لماذا لم يأت تبني الدول الامبريالية للصهيونية حتى تعالي الصراع الطبقي الاوروبي عام ١٩١٧ وخاصة نظرا لظفر الثورة البروليتارية في روسية آنذاك . وان كان الاتجاه الحتمي للصهيونية الى فلسطين (وليس الى الارجنتين او اوغانده) فذلك لان العنصر المثالي المناسب والمتمثل بأسطورة الاصل الفلسطيني المرتبط بالديانة اليهودية كان العنصر الوحيد المؤهل للتوجه الى البورجوازية الصغيرة وتوجيهها بطابعها الديني المحافظ في شرقي اوروبة وتعبئتها برضى الحاخامات وراء مشروع التهجير او الاجلاء الجماعي الذي ارادته البورجوازية الكبرى لها وللبروليتارية اليهودية بشكل اخص .

ان الاتجاهات المختلفة داخل الصهيونية لا تشكل اكثر من تحريفات ثانوية على ايديولوجية المتمولين من اعيان البورجوازية اليهودية الكبرى التي نشأت الحركة برعايتها . ولا شك ان هرتزل وبوروشوف كانا يتنميان شخصيا الى فئات أصغر من البورجوازية اليهودية ، الا ان ذلك انعكس في اسلوب وليس مادة ايديولوجيتهما . فكلاهما كان على اتفاق مع البورجوازية الكبرى على هدف التهجير والاجلاء الرئيسي كما عكست كتاباتهما القلق على انضواء البروليتاريين اليهود وراء رايات الثورية . وعدا عن ذلك فقد جاءت العناصر الجديدة في مخططاتهما بتركيز كل منهما بطريقته على الفرص التي يوفرها المخطط الصهيوني لبعض اعضاء الطبقات الوسطى اليهودية . وقد وعدهم هرتزل بالمراكز كمسؤولين في الجمعية اليهودية وفي شركة الاستيطان في دولة المستقبل في حين سعى بوروشوف الى الفرص التجارية والموارد لرأسمالهم الصغير . ولكن في كل من هاتين الحالتين كانت مشاريع الاستيطان التي اقامها المتمولون قد شكلت السابقة . فالبارونات كانوا قد وظفوا الممثلين عنهم في المستوطنات من ابناء الطبقات الوسطى كما فتحت مشاريعهم الفرص التجارية على مستوى صغير لصغار المتعهدين اليهود الذين رافقوا المهاجرين كمسؤولين عن الاستيطان او تبعوهم سعيا وراء الفرص. ورغم ذلك فقد اسبغ اسلوبا هرتزل وبوروشوف صفتين محددتين على الصهيونية ومع مرور الزمن باتا يعتبران الاتجاهين الرئيسيين في الحركة . فالمنظمة الصهيونية التي انشأها هرتزل سميت لسبب ما « الاتجاه البورجوازي » في الصهيونية وتطورت عنها احزاب اليمين الصهيوني (الصهيونيون اللبراليون والصهيونيون العموميون وحزب حيروت الذي ورث الصهيونيين التحريفيين) والوكالة اليهودية . وحزب بوعالي صهيون الذي انشأه بوروشوف اعتبر الاتجاه « العمالي » في الصهيونية وتطور فيما بعد الى أحزاب اليسار الصهيوني (ماباي ومابام واحدوت هعافودا) والهستدروت . وطوال تاريخ الصهيونية فقد بقي اليسار الصهيوني ومؤسساته تحت سيطرة الموارد المالية ليمين الصهيونية المتمثل في المنظمة الصهيونية واجهزتها المالية التي كانت تحظى بتبرعات البورجوازية اليهودية في الغرب . اما اليسار الصهيوني بمؤسساته التابعة

للكيبوتزات والهستدروت فقام بدور البناء الداخلي للوجود الصهيوني اقتصاديا وسكانيا وعسكريا في البلاد . ويتعايش هذان الاتجاهان في اسرائيل باتفاق كامل كما كانت الحال طوال عهدهما منذ البداية . واحزاب اليسار الصهيوني قد اخذت في تخفيض اطلاق شعاراتها اليسارية والاشتراكية مراضاة للمظهر الليبرالي الذي تسعى اليه الامبريالية لاسرائيل . والاحزاب الصهيونية جميعها من يسارية ويمينية تحافظ على مواقعها في المؤسسات الحاكمة بفضل الوظائف التي توفرها كل منها لاتباعها في المنشآت الاقتصادية الصهيونية التي تمتلكها وتديرها بتمويل من التبرعات التي تجمعها المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية واجهزتها الاعلامية في الخارج ومن المساعدات الامبريالية التي ترد على اسرائيل . وفيما تستمر اوضاع البلاد في حالة جمود سياسي تحت اشراف هذه الاحزاب ، فان دولة اسرائيل تميل بازدياد الى الاعتماد على المساعدات الخارجية . وهذه المساعدات التي كانت تأتي بمعظمها في السابق من الاجهزة الصهيونية العالمية ، قد اصبحت بعد عام ١٩٤٨ تأتي بشكل مباشر او غير مباشر (برنامج مارشال تحت غطاء التعويضات الالمانية) من الدول الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة . ومقابل هذه الهبات فقد حول سكان اسرائيل السكان اليهود في البلاد الى قاعدة عسكرية لحماية مصالح الامبريالية في المنطقة وفي اجزاء اخرى من آسية وافريقية .

***

لقد مضى حوالي قرن على كتابة بنسكر لكراسه ويبدو ان البورجوازية اليهودية في الغرب لم تعد تشكو من الفائض من البروليتاريين . ولم يكن ذلك نتيجة الهجرة الى فلسطين حيث لم يتعد عدد المهاجرين المليون نسمة . (واكثر من نصف السكان اليهود حاليا في فلسطين البالغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين نسمة من اليهود الشرقيين ومعظمهم من البلدان العربية الذين يشكلون الان اكثرية عمال الانتاج في الدولة الاسرائيلية) . وقد لاقى بضعة ملايين يهودي معظمهم من الطبقات البروليتارية دمارهم على ايدي النازية خلال الحرب العالمية الثانية في مناطق اوروبة الوسطى واوروبة الشرقية التي وقعت تحت الاحتلال النازي .

كما مضى اكثر من خمسين عاما على الثورة البولشفية واصدار اعلان بلفور ويبدو ان الصهيونية قد نجحت الى حد بعيد في تحقيق الاهداف التي تبنتها الدول الامبريالية للقيام بها . فقد حققت الصهيونية قدرا واسعا في تعبئة يهود العالم وخاصة يهود البلدان الغربية في اوروبة واميركة وراء اهدافها مما صرفهم عن الحركات الثورية دون ان يؤدي بهم بالضرورة الى الهجرة الى فلسطين . وصورة اليهود في طليعة الصراعات الاشتراكية قد اختفت في هذه البلدان الا من التهم المنعزلة التي ترسلها بقايا بعض الفئات الفاشستية في الغرب . وقد استبدلت هذه الصورة بالصورة التي تسبغها الصهيونية على اليهود وسكان اسرائيل منهم بشكل خاص على انهم صفوف متراصة في قاعدة عسكرية عدوانية تخدم مصالح الامبريالية . واي تحد لهذه الصورة لن يأتي الا بقيام حركة جماهيرية بين سكان اسرائيل اليهود تناهض الصهيونية والامبريالية ووليدتيهما دولة اسرائيل . وامكانية قيام مثل هذه الحركة تعتمد الى حد بعيد على توجهات حركة التحرر العربية وحركة المقاومة الفلسطينية بشكل خاص .

الوطن... بين الذاكرة والحقيبة

محمود درويش

فصل اخر من كتاب عن تجربة محمود درويش
الاسرائيلية ، ينشر تباعا في « شؤون فلسطينية »

[١]

● ما هو الوطن ؟

الخريطة ليست اجابة . وشهادة الميلاد صارت تختلف . لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت . منذ الان والى ان تموت ، أو تتوب ، أو تخون . قناعتك لا تكفي ، لانها لا تغير ولا تفجر ولان التيه كبير . ليست الصحراء اكبر من الزنزانة دائما . وما هو الوطن ؟ ليس سؤالا تجيب عنه وتمضي . حياتك وقضيتك معا . وقبل ذلك وبعد ذلك — هو هويتك . من أبسط الامور ان تقول : وطني .. حيث ولدت . وقد عدت الى مكان ولادتك ولم تجد شيئا . فماذا يعني ذلك ؟. ومن أبسط الامور أن تقول أيضا : وطني .. حيث أموت . ولكنك قد تموت في أي مكان ، وقد تموت على حدود مكانين . فماذا يعني ذلك ؟ وبعد قليل .. سيصبح السؤال أصعب . لماذا هاجرت .. لماذا هاجرت ؟ منذ عشرين عاما وأنت تسأل : لماذا هاجروا ؟ ليست الهجرة الغاء للوطن . ولكنها تحويل المسألة الى سؤال . لا تؤرخ الان . حين تفعل ذلك تخرج من الماضي . والمطلوب هو أن تحاسب الماضي . لا تؤرخ الا جراحك . لا تؤرخ الا غربتك . أنت هنا .. هنا . حيث ولدت ، وحيث يأخذك الشوق الى الموت .. وما هو الوطن ؟ ولكنك جزء من كل ، والكل غائب ، ومعروض للابادة . ولماذا صرت تخشى القول : ان الوطن هو المكان الذي عاش فيه أجدادي ؟. لانك ترفض ذريعة أعدائك . هكذا يقولون .

— ماذا تعلمت في المدرسة .

● سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس الى نافذتي في المنفى . أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي .

— والاغنية السابقة ؟

● الغوها .

— ماذا كانت تقول الاغنية التي الغوها ؟

— عليك مني السلام
يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام
وطاب انشادي .

لا فارق كبير بين الاغنيتين ، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب . كلتا الاغنيتين تعلن الحب للارض ذاتها . وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء الى الاجداد . الاولى — لشاعر يهودي يعيش في روسيا . ما رأى فلسطين وما شمها . والثانية — لشاعر عربي يعيش في فلسطين ما رأى المنفى وما سمع به . بعد قليل ، تغلبت الاغنية الاولى على الثانية ، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد . وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم . وصار طريقهم الى المستقبل مرهونا باتقان اغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا . والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة اسرائيل وبتهمة اللاسامية . ثم كبرنا قليلا ، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة ، ولم نأخذ من المتنبي الا « فيك الخصام وأنت الخصم والحكم » .

هم الخصوم والحكام ..

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » ؟

نخرج مع موسى من مصر هاربا من الاضطهاد . تضرب البحر بعصا . ينشق البحر . يمر بنو اسرائيل ، ثم يلتهم البحر أعداءهم . تبقى في صحراء سيناء اربعين عاما . تتصالح مع الرب . وتعود ..

هم الخصوم والحكام .

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » .

جلس تيودور هرتسل وفكر بمصير شعبه المضطهد . ألف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد الى أرض الخلاص الوحيد .. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي الا بالعودة الى وطن الاجداد .. الى فلسطين .

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه ، يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ . ولكن ، حين يكون المدرس يهوديا يترجم لك ما قاله حاييم وايزمن في مجلس السلام في باريس عام ١٩١٩ : « ان أرض اسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن انجلترا انجليزية » . وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك الى ان وايزمن قد أضاف : « ان الصهيونيين لن يدخلوا أرض اسرائيل كالغزاة . لن يطردوا أحدا » .

لن يطردوا أحدا ...

[٢]

لا تسأل أستاذ التاريخ . لقمة عيشه يأخذها من الاكاذيب . وكلما ابتعد التاريخ ، عادة ، كلما اقتربت الكذبة من البراءة ، وقل أذاها . واستاذ التاريخ هذا يعرفك جيدا . على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا الى الشرق في اتجاه صفد . وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر . على هذه الرابية ، ولدت قبل قليل . ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء .. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الاسود ومن طلقات الرصاص الاولى . ليس صحيحا ان الاطفال ، دائما ، يخافون القمر . لولا القمر ، ليلتها ، لفقدوك الى الابد ، واستبدلوك بشيء اخر ، كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر . هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئا حسبته طفلها وقفزت الى أقرب زورق . في البحر الذاهب الى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة . ومن يومها ، أصيبت بالجنون . كم طفل تحول الى وسادة . وكم

وسادة تحولت الى طفل . وما هو الوطن ؟ وطن الام طفلها ووطن الطفل أمه . « والفلسطينيون باعوا اراضيهم وهاجروا » — هكذا يقول الاصدقاء والاعداء على السواء . الموت ليس استشهادا حين يكون بالمجان . ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الان . ان تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديدا صحيحا لمفهوم الوطن . ليست هذه حربا ولا كفاحا . هذه مجزرة . والذين يقولون الان ان الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة . وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة .

وليلتها ، لم تفهم شيئا ، سألت أباك ، فنهاك عن السؤال لانك صغير . وضعوك في قرية مجاورة . وذهبوا لتحرير القرية . مجموعة من الفلاحين المسلحين الذين لا يفهمون في السياسة والحرب ، أخذوا بنادقهم وفؤوسهم ، وراحوا يذودون عن قهوتهم التي لم تبرد وعن عجينهم الذي لم يخمر . مات منهم من مات ، وانتصروا . وجدوا شاي أعدائهم ساخنا وطعامهم جاهزا . رقصوا وغنوا وذهبوا الى القرى المجاورة ليأخذوا زوجاتهم واطفالهم . وليكملوا الحصاد . كانت البيادر مليئة بالغلال . وحين عادوا ، كانت القرية قد سلمت الى العدو . القرية أطلال والغلال رماد . لقد أحرقوها ونسفوها . وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحدا . وفي جنوب لبنان تصبح لاجئا تأكل من وكالة الغوث ، وتنتظر العودة . وفي جنوب لبنان تعرف ، للمرة الاولى ، ما هو الوطن . هو هذا الشيء الضائع . هو هذه العودة المنتظرة . وحين تعود بعد عام او عامين الى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعا .

لا تخبر أحدا أنك كنت في لبنان .

أين كنت اذن .

في مضارب البدو شمال فلسطين .

بعد قليل ، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة . اسمها اسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه .

— وماذا لو قلت اني جئت من لبنان .

— لانك عدت متسللا والدنيا تغيرت . لن تحصل على بطاقة هوية . واذا جاء البوليس الى البلد وعرف قصتنا فسيأخذنا الى الحدود ويرمينا . وستعرف بعد شهور أن آلاف المتسللين قد طردت بهذه الطريقة . تأتي الشاحنات الى ساحة القرية ، وينتشر البوليس بحثا عن البضائع المهربة . البضائع المهربة هي انت وأنا وهو وهي . كل من فر من الموت وعاد . يملأون الشاحنات ويعصبون العيون ، وفي الليل تجد نفسك في منطقة لا جهات لها ، لان الظلام بلا جهات . والقمر لا يخيف الاطفال . من بين الذين طردوهم زوج خالتك الذي لم تعد جثته ، ولعله بدون جثة . لا تعرف قاتله : الجيش ، أم قطاع الطرق ، أم الذئاب . في كل أسبوع جنازة في القرية . الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص . وأستاذ التاريخ يقول لك ان اليهود لن يطردوا احدا ... وحين تسأله : كيف تكون اسرائيل يهودية كما تكون انجلترا انجليزية دون أن يطردوا العرب ، ينهاك عن الاسئلة ويقول لك : التاريخ تاريخ ، والسياسة سياسة . وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية ، يخرج شارع من عكا الى صفد . هذا الشارع ، بالنسبة اليك ، ليس طريقا ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك . الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن . في اللحظة التي وصلوا فيها الى أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم . وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك . في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئا . اذا وطأت قدماك هذه الارض — أرضك ساقوك

الى المحكمة ، ومن المحكمة الى المنفى . وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حينا وبالخيال حينا آخر . وهنا ، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن ؟ هو الشوق الى الموت من أجل أن تعيد الحق والارض . ليس الوطن أرضا . ولكنه الارض والحق معا . الحق معك . والارض معهم . وحين امتلكوا الارض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق المكتسب . كان حقهم تاريخا وذكريات . وصار أرضا وقوة . وأنت بلا قوة — فقدت التاريخ والارض والحق .

[٣]

« اسمع .. يأتي المهاجرون ، ويأخذون هذه الارض ، وتصير جميلة .

« نفتح حانوتا ، ونبني مدرسة ، وكنيسا . وستكون هنا أحزاب ، وسنتناقش على عدة أمور . سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها . وتحيا خزعة العبرية ! ومن سيتصور ان خربة خزعة كانت هنا . طردناهم وورثناهم . جئنا . أطلقنا النار . حرقنا . نسفنا ، ونفينا » .

ليس هذا كلاما عربيا . انها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب اسرائيلي قبل أكثر من عشرين سنة . تعطي تحديدا دقيقا لحقيقة مفهوم الوطن . ترد على التاريخ وعلى استاذ التاريخ . هكذا قام الوطن الاسرائيلي : لا بالحق ، ولا بالتاريخ ، ولا بالهرب من الاضطهاد . بالعنف وحده : طردناهم وورثناهم . أحرقنا ونسفنا ونفيناهم . ولكن الصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والاكاذيب . وحين تسير ، معهم ، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون . ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم : لا مفر . وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء الى حق يعتاد عليه الناس .

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد . فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو . ان الاسرائيلي يسكن بيتا مسكونا بالاشباح ، ولكن انصرافه الى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صد كل ما يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن بضاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته . ومع مرور الايام ، تنكمش صورة العربي وتذوب . كانت عبئا على الضمير ، ثم تحولت الى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من ابادته ، ولا حق لها بالوطن .. لا حق على الاطلاق .

خلال الحرب الاخيرة ، فوجيء كثير من الجنود الاسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة . وبأنهم يتذكرون وطنا ضاع . وأكثر ما فاجأهم هو أن الاطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن . وروى جندي اسرائيلي انه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد ان السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة . انهم موزعون وفقا لما كانوا عليه . القرية ذاتها والشارع ذاته . وقد اهتاج الجندي .

لماذا ؟

— كنت عاجزا عن الفهم . لقد مرت تسع عشرة سنة وما زالوا يقولون : نحن من بئر السبع !.

وقال لي جندي شاعر انه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوما واحدا في حياته الا حين دخل احدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الاخيرة . كان في الزي العسكري . ورأى طفلة في الشارع تنظر اليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال . من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك انه محتل . لم يخف الجندي دهشته من

رفض عيون الطفلة . قال : هـذه الطفلة .. من أين جاءت بالذاكرة ؟ ومن علمها أن لها وطنا .. من علمها !.

صراع بين ذاكرتين ..

الذاكرة اليهودية تشكل احدى الدعاوي الاساسية لادعاء الحق على فلسطين . ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الاخرين في التمتع بحاسة الذكريات . والاسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية ، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة . على الرغم من أن أحد شعاراتهم القومية شعار « لن ننسى » . ومن قضايا التعليم الاسرائيلي الاساسية والاولى في سلم الاولويات الصهيونية هي ابقاء الوعي العام في حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية ، كانوا يقولون دائما : « لتنسني يميني اذا نسيتك يا اورشليم » . وبعد الكارثة التي تعرض لها يهود اوروبا على أيدي النازية أصبح الشعار الاساسي عندهم : « لن ننسى .. ولن نغفر » . وفي كل عام ، يحيي الاسرائيليون ذكرى ضحاياهم . تتعطل كل مرافق الحياة في اسرائيل . وفي اسرائيل ، متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكير الجيل الجديد بالكارثة . وفي كتلب « الاسرائيليون » لعزريا ايلون فصل خاص عن هذا الموضوع ، يقول فيه : « ان احياء ذكرى الكارثة تقر ، في نظر الجيل الصاعد ، احدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية ، وهي أن اليهودي بدون وطن سيبقى خرقة انسان وفريسة للحيوانات الشريرة » . ويعترف الكاتب بأن السياسة الاسرائيلية تستغل الكارثة لاغراض ابتزازية .

ان الثقافة الاسرائيلية تلح على اشباع المواطنين بذكريات كارثة أوربا لتعميق احساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم . ويشكل هذا الاحساس عنصرا جوهريا في بنية النفسية والمزاج الاسرائيليين . ومن هنا ، تكون تنمية الذاكرة الاسرائيلية مكرسة لغرض سياسي محدد : الالحاح على الاسرائيلي بأنه دائم التعرض للابادة ، وان العودة الى « ارض اسرائيل » والصمود فيها هو الامان التاريخي والسياسي الوحيد ، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين .

ليس من واجب اليهودي ، وحده ، ألا ينسى مذابح النازية . كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم ، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية احياء الذكرى واستخلاص العبرة . وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وبين حركات عنصرية في عالمنا اليوم . ومهما بلغت درجة العداء الاسرائيلي — العربي ، فليس من حق اي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه ، لان النازية عدوة كل الشعوب .

هذا شيء .

ولكن تمادي اسرائيل في تفريغ احقادها على شعب اخر .. هو شيء اخر . فالجريمة لا تعوض بالجريمة . وان يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن ان يكون تعويضا عن الكارثة . ان الاسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة في التاريخ ، حتى أصبحت هذه الصفة ميزة وامتيازا . ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزا كل العجز عن ادراك هذه الحاسة لدى الاخرين . وليس من القسوة ان نقول ان سلوك الاسرائيليين الصهيونيين ضد شعب فلسطين الاصلي هو تطبيق متشابه للممارسة النازية ضد اليهود انفسهم . وليس من القسوة ايضا أن نقول ان سلوك الاسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة انها تتاجر بدم الضحايا اليهودية . بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمنا لضحايا النازية تقتل شعبا اخر . ومن هنا ، ليس من القسوة ايضا القول ان الطريقة التي تحيي بها اسرائيل ذكرى ضحايا النازية توحي بملاحظة النفاق والابتزاز ، وبأنها مدينة لقاتل ابناء شعبها

وجزارهم . لان الهدف السياسي من اشباع الاسرائيلي بحس الكارثة مكرس لاشباعه ، في الوقت ذاته ، بالحاجة الى الانتقام لا من قاتله .. بل من ضحية اخـــرى هي الشعب الفلسطيني . ان الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي ـــ اذا صح الرقم ـــ قد أعطاه وطنا !..

[٤]

لا يعترفون بحقك .. ولا يعترفون بذاكرتك .

ذهبت الى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر . وأعلنت انك موجود . قال صديقك : تعال الى مغامرة . ان اقتحام الجمال مغامرة حقا . الى الجنوب من حيفا ـــ على الشارع المحاذي للبحر الابيض ، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها الا في جرحك المفتوح . تنحرف السيارة الى الشمال قليلا فتجد نفسك في كنز . على المدخل لافتـــة بالعبرية تقول « هنا عين هود » . اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة . يسقط الوطن ، ولا يسقط حرف . وما هي عين حوض ؟. بيوت عربية متروكة من الخارج كما تركها أصحابها . كل بيت يختبىء في غابة ويستقل عن العالم ، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقا صغيرا الى البحر . السكان الاصليون نقلوا الى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي . لماذا هذه السادية ؟ يرون الى بيوتهم وسكانها الجدد والى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة . وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم .

لصديقي صديق رسام اسرائيلي يقيم في هذه القرية . أصر على أن يحتفظ بالبيت العربي القديم على حاله . « ديكور جميل يذكرني بالشرق » . هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية . سألناه عن علاقته بالارض التي يسكنها الان . فأجاب بأنه يحبها . ذكرناه بأن مجرد حاجته الى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الارض . ويعطيه صفة السائح . قال : ليس لي مفر . ثم دلنا علـــى التشابه التاريخي بين العرب واليهود . ان صفة اللجوء تجمع بينهما . والان ، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الاخر . قلنا : ان ما يجمعهما هو ، في الوقت ذاته ، نقطة الصراع بينهما . لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر الى نقطة الدائرة ذاتها . وهكذا تكون المعادلة متناقضة . حين تجد نفسك تلغيني من وجودي . وحين أتمسك بوجودي تتحول العلاقة ما بيني وبينك الى صراع . لا لاني أعترض على خلاصك وعلى احتمال المشاركة في الوجود والارض ، ولكن لاني أعترض على الغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك .

لا تنتهي المناقشة في مثل هذه الحالات ، لان الاعتراف بالحق نفي . فعلى بعد خطوات منا يجلس أهل القرية الاصليون وينظرون .. وليست صهيونية عربية ـــ كما يدعون ـــ أن يتمسك العربي بذاكرته عقدين من الزمن . ان طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هو ضعف اسرائيلي أكثر مـــن كونه ذريعة . فالاحتكام الى الذاكرة يبطـــل الدهشة الاسرائيلية من تمسك الفلسطيني بذكريات طازجة . ان الذي أباح لنفسه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع في الوهم . واحتكار البكاء ـــ اذا جاز التعبير ـــ ليس صفة قومية تدعو للاعتزاز . وفي الخامس عشر من أيار ـــ وفي ساعة محددة في الصباح ـــ تنطلق صفارات الانذار في كل أنحاء اسرائيل لتعلن الوقوف حدادا على الذين سقطوا في « حرب التحرير » . السائر يتسمر أينما كان . والسيارات تقف . والاعمال والماكنات تتوقف اعلانا للحداد الذي يسبق

الاحتفالات والفرح . وماذا يفعل العربي ؟ يبكي في القلب او ينفجر من الضغط . ان اعلان ميلاد اسرائيل هو في الوقت ذاته اعلان وفاة الامل الفلسطيني . هذه اللحظة ، اذن ، هي الزمن الفاصل بين حالتين . ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى . تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية ، اذن ، هدفا صهيونيا ومطلبا قوميا من الدرجة الاولى . لا . ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك . وفي هذه اللحظة — المفارقة تلتقي دموع الاضداد . أنت تبكي على وطن ضاع . وهم يبكون على من ضاعوا بحثا عن وطن ولد . تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر . ما هو الوطن ؟ أن تحتفظ بذاكرتك — هذا هو الوطن . ان أحزانهم كثيرة . كل أعيادهم حزينة . ولكنه حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون . في الليل يرقصون بجنون ، يقبلون على الحياة بجنون . لماذا تطالبهم بأن يفهموك . كنت تقول دائما : ليتني أكتب مقالا واحدا دفاعا عنهم .. وأموت . لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الامنية الخبيثة . ان أحزان المنتصرين نفاق وخداع ، وليست دليل رقي بقدر ما هي دليل نقص . لقد حملوا أحزان التاريخ وأفرغوها بك أنت . وأنت مطالب بألا تحزن . ممنوع من الحزن يا عربي !.. هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان ، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية ، وأنت ممنوع من احياء ذكرى أحد أو شيء . أكثر من ذلك : يدعونك للاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك . واذا رفضت عوقبت . لم يسمحوا لك باحياء ذكرى ضحايا كفرقاسم . ان ضحاياهم — كل ضحاياهم سقطوا بأيدي سواك . وضحاياك — كل ضحاياك سقطوا بأيديهم . حين تأتي ذكرى كفرقاسم يحاصرون القرية والمقبرة ، ويمنعون الناس من الدخول ، لان الحزن ممنوع . وأكثر من ذلك : يصادرون مزيدا من الاراضي في الجليل .. يترجمون الجليل من جديد بمدينة يهودية « كرمئيل » . يتظاهر بسكان ثلاث قرى عربية سلبت أراضيهم . يحاصرون . يعتقلون ، وتنتصر « كرمئيل » . ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفرقاسم بالذات . لا استفزازا ولا سادية ولا استهتارا . بل مظاهرة قدرة على القهر . هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين . فماذا يعني قولك — يا صديقي الرسام — ان تشابه اللجوء يجمعنا ؟ لا شيء .. لا شيء الا الابتزاز . اللاجئون الذين شردتهم النازية وجدوا وطنا لهم في فلسطين . واللاجئون الذين شردتهم الصهيونية .. أين يقيمون .. أين ؟ .

[٥]

ذلك الطفل الذي أسلمه رحم أمه الى الارض ، وأسلمته الشرطة الى المنفى ، وأعاده الحنين الى أرض مفترسة ، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الاشياء ، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة . لماذا تكون قدرتك على تحديد « ما هو وطنك » ؟ برهانا على شرعية انتمائك الى هذا الوطن . الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن . أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطنا . ان احساسك بالحاجة الى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة . فتلك الصخرة ، بالنسبة اليك ، اجتهاد فكري . وهي ، بالنسبة لصاحبها ، سقف وجدار . والصخرة لا تكون صخرة آذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات . الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية . وماذا تقول لي أيضا ؟ كانت صحراء هذه البلاد ! لا تذهب بعيدا في الاكذوبة . فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الايام . لا يحق لك ان تحاسبني على الجدارة . فلست محاميا للرمل أو الحدائق . ما جئت لتدافع عن حق

الرمل في الماء ولا عن حق الشجـــر في الخضرة . لو كانت بلادي كذلك لما أغـــرتك باحتلالي .. وحرقي .. وطردي . ولم نبلغ ، حتى الآن ، مرحلة الوقوف أمام دائرة الطباشير لاننا لم نحتكم . ومن هو القاضي ؟ أنت !. كيف تكون الخصم والحكم في آن معا الا اذا كنت حبيبي . وعلاقتي بك ليست علاقة حب . كنت تدعي علاقة القربى والدم والان تدعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائرة الطباشير . أنت ترسم الدائرة حينا وتمحوها حينا آخر . فأنت لا تعترف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن ، وتقول انها علاقة طارئة قابلة للزوال . وبأية وسائل برهنت ؟. بالعنف وحده ، بالقوة وحدها . هكذا الدنيا .. ذريعة القوي ، دائما ، أقوى . بالقوة وحدها حددت شكل علاقتك بوطني ، وشكل علاقتي بهذه العلاقة .

« العرب موجودون في فلسطين في علاقة « أنا وهو » .

« أما اليهود ، فموجودون في فلسطين في علاقة « أنا وأنت » .

هذا صوت الفيلسوف الصهيوني — الوجودي مارتين بوبر .

يقول : ان الانسان يرتبط بما حوله عن طريقين : طريق « أنا وهو » وطريق « أنا وأنت» . علاقة « أنا وهو » توجد في المكان والزمان وتخضع لقانون السببية . وفي هذه العلاقة لا تظهر الحرية ، بل الضرورة . أما علاقة « أنا وأنت » فتوجد خارج الزمان والمكان وهي مستقلة عن قانون السببية ، وتظهر هنا الحرية لا الضرورة . على هذا الاساس ، يكون الوجود غير الحقيقي للانسان عندما يوجد في علاقة « أنا وهو » . والدين اليهودي هو الدين الحقيقي الوحيد القائم على أساس علاقة « أنا وأنت » . ولان اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي ، فان الشعب اليهودي هو الشعب المختار . وبناء على ذلك ، فان دولة اسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين . فان علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها ، لان العرب موجودون في فلسطين بعلاقة « أنا وهو » ولذا من السهل قطع هذه العلاقةومن الممكن نقلهم الى أمكنة أخرى ..

هكذا تحسم الفلسفة الصهيونية المغرقة في العنصرية مسألة علاقتك بفلسطين . أنت غير حقيقي وقابل للالغاء ، لانك لا تعتنق الدين اليهودي الذي يشكل الحقيقة الوحيدة في الوجود .

ولكن أديبا اسرائيليا آخر أكثر اقترابا بالحياة والواقع يحرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة الى مستوى التطبيق العملي ، وتخلق حالة نادرة من حالات الاحساس بالاثم ، فالايديولوجية غالبا ما تبدو نظيفة لاصحابها وهي مجردة ، وحين تترجم الى ممارسة تأخذ شكل الجريمة . في قصته التي أثارت جدلا يصور ابراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام « براءة » الايديولوجية الصهيونية مـــع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر . لقد الصق النقاد الصهيونيون بالكاتب تهمة التخريب والدعوة الى الانتحار ، والتماثل المازوكي مع العدو . القصة تدور في حرش من أحراش « الكيرن كايميت » موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل، وأقيم على انقاض قرية عربية . بطل القصة طالب اسرائيلي لا اسم له ، يبحث عـــن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية . وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الاحراش أن يعمل حارسا للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف الى الحرش المعزول ، لا يربطه بالعالم الخارجي الا منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز اطفاء . ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحا لقصته حرشا أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية ، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز الى تحقيق

الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز الى مأساة الشعب العربي الفلسطيني الناتجة عن تحقيق الحلم الصهيوني . وليس صدفة أيضا ان يكون موضوع اطروحة الطالب «الحروب الصليبية» التي تحمل شيئا من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر .

لم يكن الطالب الاسرائيلي وحيدا في الغابة أو الحرش . هناك فلاح عربي سابق قطعوا لسانه في الحرب « نحن أم هم ، هذا لا يغير شيئا » وقد بقي العربي مع انقاض قريته يعمل عاملا في الغابة ومعه طفلة صغيرة . الثلاثة يقيمون في مكان واحد ، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد — على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين « لويس شفارتس من شيكاغو » ، « ملك بوروندي » ، وفود رسمية ، سياح ، وزوار . يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين . تقول احدى الزائرات : نريد أن نسأله سؤالا بسيطا . نريد أن يبت في الامر . أين تقع بالضبط القرية العربية المشار اليها على الخارطة ؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة . ينظر اليهم الطالب — الحارس بدهشة . قرية ؟ كلا . لا توجد هنا قرية . الخارطة على خطأ .

كان الطالب ، في البداية ، يقضي الليل والنهار بحثا عن علامات حريق في الغابة . يجرب صفارة الانذار . يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام . ثم يتضح تدريجيا أن الطالب — الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة . لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض . ولكن المحاولة تفشل . ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة . الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية . والعربي الابكم يصدر أصواتا وحشية ويجيب بحركات يديه . « يريد القول ان بيته هنا وقريته هنا . وقد أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة » .

عندما يشعل العربي النار في الغابة ، يشتعل الطالب حماسا وسعادة . ويشاركه العملية . انه لا يطلب النجدة . سواء استصرخ رجال المطافىء ، ولكن بعد فوات الاوان . ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق . ورويدا رويدا تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة ، « تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماض زال » ... يقول عزريا الون صاحب « الاسرائيليون » : من الواضح ان الغابة ترمز الى المجتمع الاسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر . ويقول المؤلف في حديث صحفي ان قصته ليست ايديولوجية ولكنها وصف وضع قائم في البلاد ، حيث أقيم شيء على أنقاض شيء آخر . ثمة احساس بالاثم .

تجد بعض النماذج من تجلي الاحساس بالاثم في الادب العبري الحديث لدى تناول موضوع بناء المجتمع الاسرائيلي والصراع على وطن واحد بين الاسرائيليين والعرب . ولكنه احساس بالاثم صادر عن الثقة بالنفس . انه نوع من أنواع اعترافات القوي في حالة مزج انساني . يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والانسانية بعد فوات الأوان وانتهاء المذبحة . ولكنه ليس في أي حال من الاحوال تعبيرا عن توبة أو ندم . انه شديد الشبه بمحاورات القاتل الداخلية بعد اتمام العملية . فالاديب الامريكي مثلا يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم .

يستغرب كاتب اسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والاحساس بالاثم لدى الطرف العربي . وهذا الاستغراب ، بحد ذاته ، دليل على الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية . يطالبهما بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة : تعاسة المنتصر الذي كسب وطنا ولم يسلم من ارتكاب الظلم ، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطنا ويطلب عدالة المعاملة ممن أخذ وطنه . كيف يحاسب العربي نفسه ؟ وكيف يشعر بالاثم ؟ ان هذه

المحاسبة لا تؤدي الى نقطة التقاء ولا تخدم مصلحة الاسرائيلي ، بل تؤدي الى التفكير بادارة الصراع بطريقة أفضل تكفل اعادة الوطن . ولماذا يشعر العربي بالاثم ؟ اذا شعر بالاثم ، فانه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجاه الذي هزمه واحتل وطنه ونفسيته .

. . . . . .

لن تسأل بعد الآن عن معنى الوطن ..

الخارطة ليست اجابة ، لانها شديدة الشبه بالرسم التجريدي . وقبر جدك ليس اجابة لان غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه . وأن تبقى بجوار الصخرة ــ ليست أيضا اجابة كافية لان اغترابك ليس شيئا ماديا فقط . لم يحتلوا الارض والعمل فحسب . لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتساءل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الاحساس بحقيقة أنك محتل . مواطن من الدرجة الثانية ؟ ليس هذا السؤال . لن تكون قضيتك ديموقراطية ولا انسانية . وليس عذابك الشخصي ناجما عن سلوك شخصي . « اهدأ ــ تسلم » ليست نصيحة بريئة . هي دعوة لنفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسما . سحبوا الارض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك . عذبوك ، فلم تعترف الا بمزيد من الحب المجنون لاسباب عذابك . لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الامان . تحمل صليبك وتمضي الى ميعاد انتحارك . ولا تقول « نعم » . والاغتراب الذي يأتيك من كل الايام يتحول الى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية . وفي السجن تمتلىء بالوطن أيضا . الصراع هو الاجابة ، اذا صارعت انتميت . والوطن هو الصراع . بين الذاكرة والحقيبة لا حل سوى الصراع . الحق ــ والحرية ــ والانتماء ــ والجدارة لا تعلن الا بالصراع . لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء . يريدون ان يستولوا أيضا على انتمائك لتكون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والالم . ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد ، ولن تجد الراحة بعيدا عن هذا العبء ، ولن تجد الفرح خارج هذا الالم . الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم العائدة .

اسرائيل والحركة الصهيونية في منظار بن غوريون وغولدمان

الدكتور اسعد رزوق

من الملاحظ في معظم الكتابات الصهيونية والاسرائيلية حول موضوع العلاقة بين اسرائيل والحركة الصهيونية ان الحديث عن هذه العلاقة يتعمد النظر اليها من زاوية الصلات ، القائمة منها والمرغوبة على سبيل ادعاء التمثيل ، بين دولة اسرائيل من جهة و« الشتات اليهودي » في العالم ، من جهة ثانية(١) . فالحركة الصهيونية ظهرت رسميا فوق مسرح العالم على صورة « المنظمة الصهيونية » بتركيبها الداخلي المعروف وأجهزتها الادارية والتنفيذية ، الى جانب مؤسساتها المالية العاملة في حقل الاستعمار الاستيطاني . والمنظمة الصهيونية العالمية جعلت غرضها السياسي والمحوري في اقامة الدولة اليهودية بفلسطين . بينما جاء تحديدها في مطلع قانونها الاساسي لينص على اعتبارها تلك الهيئة التي «تضم جميع اليهود الذين يقبلون بالبرنامج الصهيوني ويدفعون رسوم الشاقل » . حتى ان الشعار الذي أطلقه مؤسس الصهيونية السياسية ، ورفعته المنظمة العالمية منذ ١٨٩٨ ، كان ينادي بضرورة « غزو الجماعات اليهودية » (Kibbush Hakehillot) واجتذابها الى حظيرة الصهيونية .

ولدى اعلان قيام الدولة اليهودية بفلسطين عام ١٩٤٨ أصبح لزاما على المنظمة الصهيونية ، بعد تحقيق الهدف السياسي وحيال التصميم على بقائها واستمرارها في ميدان العمل والنشاط ، ان تعيد النظر في وظائفها ومهماتها . فالاوضاع المتغيرة تتطلب اليها في ظل وجود الدولة ان تخرج على الملأ ببرنامج جديد للمرحلة التالية من تاريخها . وهذا البرنامج الجديد أقره المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (صيف ١٩٥١) بعد انقضاء اكثر من ٣ سنوات على قيام اسرائيل . فتحددت مهمات الصهيونية الثلاث في « برنامج القدس » على النحو الآتي : « توطيد دعائم دولة اسرائيل ، وتجميع المنفيين في أرض اسرائيل ، وتنمية وحدة الشعب اليهودي » . ثم جرى ادماج هذه المهمات في نصوص الدستور الجديد للمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٦٠) .

ومن الواضح ان المهمات التي يحددها « برنامج القدس » تنيط بالمنظمة الصهيونية العالمية دورا مزدوجا ، وعلى الصعيدين : الاسرائيلي في ظل الدولة، والخارجي بين يهود العالم. فالمنظمة الصهيونية مارست نشاطاتها في حقول السياسة والهجرة والاستيطان من خلال الاجهزة والدوائر التابعة للوكالة اليهودية ابان الانتداب البريطاني على فلسطين . والوضع القانوني العام للوكالة اليهودية ، بموجب صك الانتداب الذي أقرته عصبة الامم ، ينبغي له ان ينتهي مفعوله مع نهاية الانتداب البريطاني واعلان قيام الدولة اليهودية بفلسطين . غير ان الوكالة اليهودية — المنظمة الصهيونية لم تبادر الى اكتساب الصفة القانونية في ظل دولة اسرائيل الا بعد مرور أربعة أعوام على قيام الدولة . والقانون الاساسي الذي أقره الكنيست في ٢٤ تشرين الثاني

(نوفمبر) ، ١٩٥٢ ، جاء بمثابة التغطية الشرعية لوضع قائم على صعيد الواقع العملي . ثم كان التصديق النهائي على علاقة المنظمة بالدولة في الاتفاقية التي وقعها الطرفان بتاريخ ٢٦ تموز (يوليو) ، ١٩٥٤ ، وهي الاتفاقية المعروفة بـ « الميثاق » (Amanah) بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية الصهيونية . والميثاق يؤكد من جديد على مضمون القانون الاساسي ويشتمل على تفاصيل المهمات الموكولة الى اللجنة التنفيذية الصهيونية ـ الوكالة اليهودية .

هذا الاجراء القانوني لا يعني بأن المنظمة الصهيونية ارتأت ايقاف نشاطاتها غداة قيام الدولة بانتظار حصولها على « الشخصية القانونية » ، بل يستفاد من المصادر الصهيونية والاسرائيلية ان الهيئات المسؤولة داخل الحركة بادرت قبل اعلان قيام الدولة الى اقتسام حقول النشاط ومجالات العمل بين دوائر الوكالة وادارات الحكومة العتيدة . وهذا الاقتسام هو ما جرى التعارف عليه بـ « مبدأ الفصل بين الوظائف » (Hafrada) . اذ تحددت بموجبه تلك الوظائف التي تحتفظ بها دوائر الوكالة اليهودية ـ المنظمة الصهيونية في ظل الدولة ، على النحو الآتي : الهجرة الى اسرائيل ، واستيعاب المهاجرين ، والاستيطان الزراعي في اسرائيل ، بالاضافة الى ممارسة النشاطات الثقافية والتنظيمية بين يهود العالم . بينما تؤكد المصادر الرسمية الصهيونية ان كافة الوظائف الاخرى انتقلت الى اشراف الدولة وأصبحت خاضعة لسيطرتها(٢) .

ازاء هذه الخلفية يمكننا النظر الى العلاقة العضوية بين دولة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية في اطار المفاهيم التي تضمنها « القانون الاساسي » (Status Law) عام ١٩٥٢ . ومما تجدر ملاحظته ان المصادر الرسمية ، من صهيونية واسرائيلية ، ترى في بنود القانون المذكور ما يتجاوز تحديد العلاقة بين الدولة والمنظمة . فهي تعتبرها بمثابة الاعلان الذي يسلط الاضواء على ناحيتين اساسيتين : الناحية الاولى عن علاقة الدولة بيهود العالم ككل ، والثانية تتعلق بتحديد « الرسالة اليهودية للدولة » . والابعاد الثلاثة تتجلى بوضوح من خلال البنود الاربعة الاولى في « قانون الوضع الشرعي » للمنظمة الصهيونية العالمية ، حيث اعلنت هذه البنود ما يلي : **أولا** ، ان دولة اسرائيل تعتبر نفسها صنيعة الشعب اليهودي كله . وتمشيا مع قوانينها ، فان ابواب الدولة مفتوحة بوجه كل يهودي يرغب في الهجرة اليها . **ثانيا** ، منذ تأسيسها لخمسين عاما خلت ، وقفت المنظمة الصهيونية العالمية على رأس حركة الشعب اليهودي ، وتزعمت جهوده الرامية الى تحقيق رؤيا الاجيال في العودة الى وطنه . وتحملت المنظمة ، بمساعدة أوساط وهيئات يهودية اخرى ، العبء الاكبر من المسؤولية في انشاء دولة اسرائيل . **ثالثا** ، ان المنظمة الصهيونية العالمية ، وهي ايضا الوكالة اليهودية لفلسطين ، سوف تتعاطى ـ كما في السابق ـ بشؤون الهجرة ، وتشرف على مشاريع استيعاب المهاجرين وتوطينهم في الدولة . **رابعا** ، تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على انها الوكالة المصرح بها لكي تتابع العمل في دولة اسرائيل لاجل تطوير البلاد واستعمارها ، ولاستيعاب المهاجرين اليهود من الشتات ، بالاضافة الى تنسيق النشاطات في اسرائيل للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في هذه الحقول(٣) .

فلو اعتبرنا ما تقدم أعلاه بمثابة الاطار النظري ـ المزود بالشكليات القانونية ـ للعلاقة القائمة بين اسرائيل والحركة الصهيونية ، لجاز لنا التساؤل عن طبيعة هذه العلاقة ومداها العيني في مجال التطبيق العملي . ومن المعروف ان الصياغة القانونية لارتباط الطرفين تمت بعد مضي اكثر من عامين على انشاء « مجلس التنسيق » ، في ايار (مايو) ١٩٥٠ ، لكي يقوم بالاشراف على تنسيق النشاطات في كافة المجالات المشتركة بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية الصهيونية . لكن المصادر الرسمية الصهيونية ما برحت تؤكد لنا بان الامور ليست على خير ما يرام بالنسبة للممارسة والتطبيق العملي .

فقد جاء تحت مادة « اسرائيل والشتات » في **موسوعة الصهيونيـــة واسرائيل** ما يلي نصه : « بيد ان هذا الترتيب لم يعمل ، على صعيد الممارسة التطبيقية ، بذلك القدر من السهولة التي جرى تصورها في كل من قانون الوضع الشرعي واتفاقية الميثاق . فاللجنة التنفيذية الصهيونية لم تحصل دوما على الاعتراف والاعتبار الذي حسبته واجب الاداء للحركة الصهيونية . والسبب في ذلك يرجع بصورة جزئية ، على الاقـــل ، الى النظرة التي اتخذها رئيس الحكومة بن غوريون بوضع الصهيونية والهجرة الى اسرائيل علـــى قدم المساواة ، وعدم احلال صهيونية الشتات في منزلة رفيعة من التقدير والجدارة »(٤) . ثم مضت الموسوعة الى القول بأن الصهيوني العريق بن غوريون ذهب الى حدود أبعد من ذلك في موقفه المناوىء من الحركة الصهيونية . فقد وصل بـــه الامر الى حد مقارنة المنظمة الصهيونية العالمية بـــ « السقالة » التي كان لزومها رهنا فقط بكون البناء لا يزال قيد التشييد او في طور الانشاء . أما الان ، وقد ارتفع صرح الدولة ، فـــلا حاجة هناك الى بقاء الحركة الصهيونية !

ولكي نتحاشى الفهم الخاطىء للاراء والاحكام المنسوبة الى بن غوريون بشأن الحـــركة الصهيونية في ظل الدولة ، ينبغي لنا ايراد العناصر الرئيسية في موقفه الـــذي تضمنته شتى التصريحات ابان وجوده على رأس حكومة اسرائيل ، بالاضافة الى كتاباته العديدة حول هذا الموضوع . ثم ننتقل الى عرض الاتجاه الثاني الذي يمثله ناحوم غولدمان على صعيد العلاقة بين الدولـــة والمنظمة . وسوف يتضح لنا من خلال اجـــراء المقارنة بين الاتجـــاهين أو الموقفين ان الطبيعة العضوية للعلاقة القائمة بين اسرائيـــل والحركـــة الصهيونية لا تتأثر الى درجة كبـــيرة بمثل هذه المواقف والاراء ، كمـــا انه يتعذر على أصحاب كل اتجاه صهيوني الحفاظ على موقف يتسم بمقدار كاف من التماسك والاطراد ، أو المضي الى حد استخلاص النتائج المترتبة عن مقدماتهم الاولى . فالاراء التي يعلنهـــا بن غوريون تتوخى احراج الحركة الصهيونية من خلال التشديد على سلطة الدولة ، لكي تدفعها الى تقديم المزيد واثبات الجدارة والاستحقاق بواسطة تدبير الهجرة الى اسرائيل وتلبية حاجات الدولة اليهودية على صعيد الموارد المالية والطاقات البشرية .

بن غوريون وسلطة الدولة

ترجع تصريحات بن غوريون حول العلاقة بين الحركة الصهيونية والدولة الى فترة باكرة نسبيا من قيام اسرائيـــل . ففي اواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٤٩ أدلى رئيـــس الحكومة الاسرائيلية بتصريح مفاده ان وظيفة الحركة الصهيونية تحت حكـــم الانتداب البريطاني كانت تقوم عـــلى « تكوين سياسة حكومة فلسطين ـــ بقدر اخلاص الدولـــة المنتدبـــة لصك الانتداب وتقيدهـــا بالتزاماتها الدولية والعمل على تشجيـــع الهجـــرة والاستيطان » . ثم اعترف رئيس اللجنة التنفيذية الاسبق بأن الوكالة اليهودية كانت الى درجة معينة بمثابة « دولة ضمن دولـــة ، وحكومة داخـــل الحكومة »(٥) . وانتهى بن غوريون الى التأكيد بأن هذا الوضع « لن يسمح ببقائه في ظل دولة اسرائيل » ، مثلما أطلق التحذير من مغبة الانقياد وراء تصورين خـــاطئين . التصور الاول يزعم بأنه مع قيام الدولة أصبحت الحركة الصهيونية وصناديق الاموال التابعة لها من الامور المماتة والتي فقدت أهميتها وتجاوزتها الاحداث . والتصور الثاني الذي حذر منه بن غوريون هو الاعتقاد بان « الحركة الصهيونية ، بالرغم من قيام الدولة ، سوف تستمر في ممارسة وظائفها وكأن الدولة غير قائمة بالفعل » .

وفي الخامس عشر من ايار (مايو) ، ١٩٥٠ ـــ قبل بضعة اسابيع من صدور « قانـــون العودة » ـــ كان رئيس الحكومة يدلي ببيان أمام الكنيست حول انشاء مجلس التنسيق بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية الصهيونية ، مؤكدا فيه ان « الاجتماعات التمهيدية التي عقدها الطرفان أظهرت بانه لا توجد عوائق في سبيل التعاون الوثيق والمخلص » .

أما السبب الكامن وراء هذا التناغم المسبق فهو : « لان اهداف حكومة اسرائيل وأغراضها ، من جهة ، وأهداف الحركة الصهيونية وأغراضها ، من الجهة الاخرى ، ليست متعارضة ، بل هي ، على العكس من ذلك ، متطابقة الى درجة كبيرة »(٦).

ولدى تقديمه مشروع قانون « الوضع الشرعي » للمنظمة الصهيونية في الكنيست (أيار ، ١٩٥٢) نجد بن غوريون قد انتقل الى مزيد من التخصيص في تعيين الدور المطلوب الى الحركة الصهيونية ان تمارسه في ظل وجود الدولة ، وبين يهود العالم بالذات . فهو يشير الى عدم استطاعة الدولة الاسرائيلية على « التدخل في شؤون الحياة الداخلية للجماعات اليهودية بالخارج » ، اذ يتعذر على اسرائيل القيام بتوجيه هذه الجماعات والتقدم منها بمطاليب . والدولة — على حد قوله — ملزمة بالعمل مثل سائر الدول ، بينما قدرتها خارج حدودها تبقى محصورة ومقيدة . هذا لا يعني بالطبع ان بن غوريون ينوي بالفعل ترك يهود العالم وشأنهم ، أو الاقلاع عن التدخل في حياتهم . بل هو يريد الوصول ، عبر تقليصه المتعمد لنطاق السلطات التي تلتزم بها أعمال الدولة ، الى « توسيط » الحركة الصهيونية بين اسرائيل ويهود العالم . وفي ذلك يقول : « انها المنظمة الصهيونية ، والقائمة على أساس الارتباط الطوعي والنشاط الاختياري ، التي تقدر على تحقيق ما يتعدى سلطة الدولة وصلاحياتها . وهذه هي الحسنة التي تمتاز بها المنظمة الصهيونية على الدولة »(٧).

ان رئيس حكومة اسرائيل لا يمارس سياسة التقشف الصهيوني الا لكي ينتقل من التحفظ الظاهر الى التوريط الصريح . فالحسنة التي يميز بها المنظمة على الدولة تتيح له مجال تكليف الحركة الصهيونية بالمهمات التي تتجاوز سلطة اسرائيل وصلاحياتها كدولة . والمنظمة الصهيونية لا تعدو كونها أداة بيد الدولة ، تعمل في خدمتها ، لا سيما في المجالات الخارجة عن نطاق السيادة والسلطان . انها امتداد للدولة في الخارج ، وتقوم على تنفيذ رغباتها وتلبية حاجاتها . وبناء عليه ، يقول بن غوريون : « فان المنظمة الصهيونية لم تفقد جدواها مع انشاء الدولة . بل على العكس تماما ، فقد ازداد حجم مسؤوليتها وكبرت رسالتها الى درجة لا تحصى » . فما هي علاقة الدولة بالحركة الصهيونية ، اذن ؟ يجيب رئيس حكومة اسرائيل على سؤال من هذا القبيل بايراد التعميم التالي : « الدولة والحركة الصهيونية تكملان بعضهما بعضا ، فالواحدة منهما تحتاج الى الاخرى . وهما تستطيعان ، ويجب عليهما ، بواسطة تضافر الجهود المشتركة ، تحريك الشعب اليهودي لاجل تحقيق المثال الاعلى لخلاصه »(٨).

ويؤخذ من الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل (١٩٥٣ — ٥٤) ان رئيس الوزراء في تقديمه لقانون « الوضع الشرعي » أمام الكنيست وصف هذا القانون بأنه يتبوأ منزلة الصدارة بين القوانين الاساسية لدولة اسرائيل . فهو « يكمل قانون العودة » لجهة تحديد الصفة الصهيونية للدولة . واذا كان قانون العودة قد « أرسى الحق لكل شخص يهودي في الاستيطان داخل اسرائيل » — يتابع بن غوريون مقارناته — فان « القانون الجديد » عمد بدوره الى « ارساء الرباط بين دولة اسرائيل والشعب اليهودي كله » . ثم يضيف بن غوريون الى مفهوم « الشعب اليهودي » ما يلي : « ومؤسساته المخولة الصلاحيات في شؤون الهجرة الى اسرائيل والاستيطان فيها »(٩).

الى هنا يتصف موقف بن غوريون بالصراحة في تحديد العلاقة العضوية بين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل . فالمنظمة الصهيونية العالمية تقوم بدور الاداة التنفيذية لسياسة اسرائيل في اوساط يهود العالم ، والحديث عن المشاركة وتضافر الجهود والحاجة المتبادلة لا يقصد من ورائه سوى توجيه تلك الاداة نحو حقل النشاط المطلوب وتسخيرها لخدمة أغراض الدولة وتلبية حاجاتها . لكن انخفاض الهجرة اليهودية الى اسرائيل في اوائل الخمسينات واشتداد الازمة المالية من جراء التدهور الذي أصاب

العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية في خريف ١٩٥٣ ــ حيث لجأت أوساط نظارة الخارجية الاميركية الى التهديد بقطع المساعدات او تجميدها ــ ربما دفعا بن غوريون الى التشدد في موقفه من الحركة الصهيونية ومطالبتها بتقديم المزيد . ومن ضمن هذا الاطار سوف نعرض للاراء التي اوردها بن غوريون حينذاك في مقاله الطويل بعنوان «البقاء اليهودي» والذي استغرق خمسين صفحة من الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل (١٩٥٣ ــ ٥٤).

الصهيونية هي الهجرة الى اسرائيل

أراد بن غوريون في مقاله المشار اليه أن يعرب عن خيبة أمله للاخفاق الذي مني بـــه قانون العودة والاحباط الذي أصاب الامال المعقودة على مفعول هذا القانون . فأخذ على الصهيونية في ظل الدولة ما يلي : « عندما فتحت أبواب الوطن على مصراعيها ووصلت الموجة الاولى في عملية تجميع المنفيين ، تبين ان الصهيونية والهجرة الى اسرائيل لم تعد الواحدة منهما مترابطة داخليا بالاخرى على الاطلاق . فالصهيونية لا تنطوي علـــى اي التزام بالهجرة الى اسرائيل ، والهجرة لا تتدفق على البلد لاسباب ترجع الى الايديولوجية الصهيونية »(١٠).

ويستفاد من تلميحات رئيس الحكومة الاسرائيلية ان اليهود الذين هاجروا من الولايات المتحدة وكندا الى اسرائيل خلال السنوات الخمس الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٣ لا يتجاوز عددهم ما مجموعه ١٤٨٠٩ اشخاص . هـــذا العدد الضئيل لا يتكافأ مع قوة الحركـــة الصهيونية عدديا في اميركا الشمالية . والشواقل التي جرى بيعها وتوزيعها من ١٩٤٩ الى ١٩٥١ ، وكان نصيب الولايات المتحدة ٧٠ بالمائة من مجموعهـــا ، تشير ايضا الى انعدام التكافؤ بين القوة العددية والاقبال الصهيوني . لذا يرى بن غوريون ان (بوصلة) الحركة الصهيونية قد أنحرفت عن الاتجاه المنشود وطرأ عليها التبدل الجذري . فيقول عنها ما يلي : « وكذلك الحركة الصهيونية تغيرت كليا . فهي لم تعد تتطلع صوب الهدف المقرر لها طيلة سنواتها الخمسين الاولى . ان بوصلة الحركة لم تعد تؤشر نحو القطب المغناطيسي التـــاريخي : العودة الى صهيون . والفصل بـــين الهجرة الى اســـرائيل والصهيونية أوجد فراغا خطيرا . وان لم يتم ملء هذا الفراغ بنوع من المحتوى الجديد والمضمون الايجابي ، فهو سوف يؤدي الى انهيار الحركة »(١١).

ان رئيس حكومة اسرائيـــل لا يقرع ناقوس الخطر على الصهيونية الا لحمل المزيد من الصهيونيين في بلدان الغرب على المجيء الى اسرائيـــل والاستيطان فيها . ومما تجدر ملاحظته ان الصهيوني العتيق بن غوريون يناشد الصهيونيين خارج اسرائيـــل « النظر الى هذه الحقيقة بوضوح واستجلاء مضامينها الكاملة . فالحقائق التاريخية يجب الا تثير الاستياء والاستنكار او الغضب » . فالحقيقة التي يعلنهـــا للتاريخ هي التالية : « منذ انشاء الدولة كان على الصهيونية ان تواجه امتحانا عسيرا ، لا بل أعلى امتحان . ولم تنجح فيه . لانه عندما أعطي الخيار بين المجيء الى اسرائيل او البقاء في المنفى ، اختارت الجماهير الصهيونية ــ كما اختار زعماؤها على حد سواء ــ البقاء حيث هي . وجرى توضيح الامر بصورة جلية تماما : بان الصهيونية في الصيغة التي اتخذتهـــا منذ انشاء الدولة لا تعني الهجرة الى اسرائيل ولا تتطلب اي توحدن شخصي مع بنائي صهيون . هكذا هي الصهيونية في اميركـــا وانجلترا وجنوب افريقيـــا ومعظم بلـــدان اوروبـــا الغربية »(١٢).

ومع ادراك بن غوريون للفارق الاساسي بين الصهيونية الاوروبيـــة (التي يدعوهـــا بـــ «صهيونية الانعتاق الذاتي») والصهيونية الاميركية (ويسميها بن غوريون دون تردد « صهيونية التبرع والاحسان ») فانه يفضل الاولى على الثانية لانها تجمع في نظره بين « الخلاص الشخصي والفداء القومي » ان ما يزعج رئيس حكومة اسرائيل هو «الفراق»

الذي يطالعه بين عنصري الصهيونية والهجرة : « فالقادرون الجدد لم يكونوا صهيونيين، والصهيونيون لم يأتوا » . وهنا يستشهد بن غوريون بيهود اليمن والعراق ، الذين « جاؤوا دون معرفة بالصهيونية » ، لكنه يعترف بنقيض حجته عندما يقول بأن يهود العراق ، مثلا « تركوا البلاد التي سكنوها منذ السبي البابلي . فلم يرجعوا على عهد الملك قورش الفارسي » . ويتجاهل عن عمد دور الصهيونية في تهجير اليهود العراقيين عبر قبرص الى اسرائيل .

واخيرا ، يصل بن غوريون الى ضالته المنشودة اذ يعبر عن الخيبة التي تعتريه ، فيقول: « ظهرت الدولة الى حيز الوجود ، لكنها لم تعثر على الامة التي كانت تنتظر ظهورها . طيلة قرون عديدة والشعب اليهودي يطلب في صلواته : هل تكون لنا دولة ؟ ولم يخطر ببال أحد منهم هذا السؤال المخيف : هل سيكون من شعب هناك للدولة عندما تظهر الى حيز الوجود ؟ »(١٣). هذا ما يدعوه بن غوريون بـ « مسألة المسائل كلها » ! ثم يلتفت الى الحركة الصهيونية مؤكدا بان اسرائيل منحتها ذلك الوضع القانوني الخاص لتعزيز مركزها ومكانتها على الصعيدين الداخلي والخارجي . هذا مع العلم بان « جميع النشاطات التي تمارسها المنظمة الصهيونية (أو الوكالة اليهودية) داخل اراضي اسرائيل يمكن للحكومة ان تقوم على تنفيذها بنفسها . وربما بمزيد من الفعالية ودون التكرار والازدواجية » .

وصاحب هذا التحدي الموجه الى الحركة التي تعتبر اسرائيل بمثابة صنيعتها يصل به الامر الى حد النكران للفضل الصهيوني في انشاء الدولة اليهودية . فهو يزعم ، مثلا ، بان الحقيقة هي « ان الدولة ليست وليدة الحركة الصهيونية وحدها ودون سواها . الدولة هي صنيعة الشعب اليهودي عبر العصور ، وليست فقط من صنع منظمة ظهرت الى حيز الوجود منذ خمسين او سبعين عاما » . والمساعدات المالية يقدمها اليهود بصفة كونهم يهودا ، فلا ميزة للصهيونيين عن غيرهم . كما ان الدولة الان لم تعد بحاجة الى « وكالة يهودية » للتوسط بينها وبين يهود العالم . والهجرة اليهودية الى فلسطين لم تبدأ مع النشاطات الاستيطانية للمنظمة الصهيونية ، بل تقدمت عليها في الزمان .

لكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن على الفور : هل يريد بن غوريون قطع العلاقات القائمة بين اسرائيل والحركة الصهيونية والاستغناء عن خدمات المنظمة العالمية في شتى الحقول والمجالات ؟ والجواب هو طبعا بالنفي القاطع . ان رئيس الحكومة لا يريد للحركة الصهيونية في ظل الدولة ان تجعل استمرارها قيد الوجود مرهونا بمجرد « الاعتماد على رصيد انجازاتها الماضية » . فالدولة تقوم على تنفيذ المنجزات اياها ، وعلى نطاق اوسع بكثير ! والمطلوب ، اذن ، هو تحميل الحركة الصهيونية لواء رسالة جديدة : « ان الحركة الصهيونية سوف تستمر قيد الوجود اذا هي قامت على تنفيذ رسالة ما لن يأخذها الاخرون على عاتقهم ، ومتى فرضت هذه الرسالة واجبا شخصيا على كل واحد من أعضائها بمفرده »(١٤).

المهمة الراهنة للمنظمة الصهيونية ، بنظر رئيس حكومة اسرائيل ، تنحصر في نشر التربية اليهودية بين ابناء الجيل الطالع من يهود العالم . غير ان هذه التربية العبرية — كما يؤكد بن غوريون — ليست بمثابة البديل للامور الاخرى : مثل « تجميع المنفيين أو النشاط السياسي والاقتصادي لصالح الدولة » . وليست بالتالي « بديلا عن اعداد الرواد وتدريبهم » . انها وسيلة من أجل الغاية التالية : تجميع اليهود في اسرائيل والاسهام الفعلي في محاولة « تصفية الشتات اليهودي » وتنمية الروح الريادية بين الشبيبة اليهودية .

وهكذا ينتهي بن غوريون من حملته الاحراجية الى اعادة الاعتبار للحركة الصهيونية

والاقرار بفضلها على دولة اسرائيل ، وتعيين دورها بالنسبة ليهود العالم . ويعود الى تقرير امور واقعة ، اذ يقول : « التربية العبرية وحدها لن تستنفد المضمون الكامل للصهيونية ، حتى بعد ان يعفي الصهيونيون انفسهم من واجب الهجرة الى اسرائيل . يجب على الحركة الصهيونية ان تتزعم كل نشاط يهودي محلي ، وطنيا كان أم عالميا ، متى استطاع هذا النشاط ان يسهم في تقوية مركز اليهود والدفاع عن شرفهم وحقوقهم. ويترتب على الحركة الصهيونية بنوع خاص ان تتصدر كل نشاط موجه نحو توطيد دعائم دولة اسرائيل ، وتقوية استقلالها الاقتصادي وتعزيز أمنها السياسي والعسكري ، والتعجيل في عملية تجميع المنفيين ... يجب عليها ان تقوم بتشجيع السياحة ، ورعاية توظيف الرساميل ، والاشراف على ايفاد التلامذة والطلاب الى معاهد اسرائيل التربوية، بالاضافة الى تقديم المساعدة الفعالة في تنمية حركة الريادة والاعتناء بهجرة المهنيين والعلماء والخبراء الى اسرائيل »(١٥).

بذلك نعود الى النقطة التي بدأنا منها ، فتكمل الدائرة سيرها حتى يستقيم دورانها . والحركة الصهيونية في انتقادات بن غوريون ، كما في توقعاته ومرتجاه ، لا تخرج عن كونها الاداة التنفيذية لمخططات اسرائيل وحاجاتها بين يهود العالم . بيد ان ما يطلبه منها رئيس الحكومة الاسرائيلية هو تقديم المزيد بحجة الانسجام مع نفسها ، و « التهويل » عليها بغية تطويعها والتغلب على اتجاهات التردد والتحفظ والتريث بين صفوفها .

غولدمان : ميثاق الشراكة

ان ما أغفل ذكره بن غوريون تكشفه لنا كتابات ناحوم غولدمان ، لا سيما في أعقاب اقصاء رئيس المؤتمر اليهودي العالمي عن رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، وهو المنصب الذي شغله طيلة اثني عشر عاما (من ١٩٥٦ الى ١٩٦٨) . والنواحي التي تستأثر باهتمام غولدمان يمكنها القاء مزيد من الضوء على علاقة اسرائيل بالحركة الصهيونية .

يقول ناحوم غولدمان في مذكراته ما يلي : « لدى اعلان قيام دولة اسرائيل ومجيء دافيد بن غوريون على رأس حكومتها ، جرى حرمان المنظمة الصهيونية من كل نفوذ في السياسة الاسرائيلية »(١٦). ثم يغمز من قناة بن غوريون عندما يستطرد في الحديث عن اقتصار صنع السياسة على المواطنين في عصر الدول ذات السيادة . ويؤكد لقرائه ان دولة اسرائيل سارعت الى تطبيق مبدأ السيادة وحرصت اشد الحرص على امتيازاتها وصلاحياتها . أما تفسير هذا التعلق بالسيادة فيرجعه غولدمان الى أمرين : مبالغة اليشوف في تمجيد الدولة ، وشخصية بن غوريون التي لا تطيق اي تدخل .

ونعرف من مذكرات غولدمان انه كان من بين القلائل الذين نادوا بعدم الفصل في السلطات والصلاحيات بين حكومة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية . فهو يبرر هذه المناداة على اساس الوضع الخاص للدولة اليهودية ، ثم يعرض وجهة نظره على النحو الاتي : « مع انني لم أطالب أبدا ، كما فعل العديد من زملائي ، باعطاء اللجنة التنفيذية الصهيونية صوتا في تقرير السياسة الاسرائيلية ، فما زلت اعتقد بان الاصرار على السيادة المطلقة لاسرائيل ، رغم ما يكتنفه من ضرورة شكلية ، لا يتصف بشيء من الحكمة عندما يتم تطبيقه على السياسة العملية »(١٧).

وغولدمان لا ينتقد على سبيل الانتقاد فحسب ، بل يريد انتزاع دور نافذ للحركة الصهيونية ولما يقع تحت سيطرتها من يهود العالم . فهو ينظر الى المسألة من زاوية مقابلة ليكشف عما يلي : « ان اسرائيل ما كانت لتوجد ابدا ولا هي تستطيع البقاء على قيد الحياة ، لولا الدعم الاجماعي المتين الذي تتلقاه من يهود العالم — وهذا على الاقل في الظرف الحالي »(١٨). وهذا الدعم لا يتخذ شكل التأييد السياسي في الخارج لدولة

أسرائيل فحسب ، بل يتجاوز ذلك الى تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية للدولة اليهودية « في معركتها ضد العرب » . بيد أن غولدمان يتخوف من نتائج الوضع التالي : « عندما يقال للايين اليهود : يجب ان تقفوا بجانب اسرائيل في السراء والضراء ، انما لا يحق لكم ابداء الراي والتدخل في شؤون الدولة » . وهنا يبرز محور الخلاف بين زعامة الحركة الصهيونية التي مثلها غولدمان وبين رئاسة الحكومة الاسرائيلية في شخص بن غوريون . غولدمان يطالب بالمشاركة بين المركز الاسرائيلي والاطراف اليهودية في الخارج — من خلال المنظمة الصهيونية واجهزتها . وهو على أتم استعداد للاعتراف بـ « الفرع الاسرائيلي على انه الشريك الاكبر قدراً » (Senior Partner) .

يقول غولدمان ذلك في معرض حديثه عن الموقف المتصلب الذي وقفه بن غوريون من الحرية الصهيونية ، اذ سرعان ما تبنى رئيس حكومة اسرائيل « الموقف الايديولوجي القائل بان الصهيونية ، حيال وجود الوطن الان ، لا يسعها ان تمثل شيئا سوى الهجرة الفردية الى اسرائيل . وبما ان معظم الصهيونيين ، والزعماء من جملتهم ، لم يذهبوا الى اسرائيل ، فقد بدأ (بن غوريون) في شن حملة ضد المنظمة الصهيونية متهما اياها بخيانة برنامجها الذاتي ، وبانها عديمة الجدوى ، لا بل نسب اليها ممارسة التأثير المضر »(١٩) .

يبين غولدمان في مذكراته للقارىء ان الخلاف دار حول انتهاج « طرق اخرى لتنظيم الشعب اليهودي بقصد التعاون مع اسرائيل » . فهو يكرر الموقف الذي طالعنا به بن غوريون في مقاله المتقدم ذكره ، عندما ينسب الى رئيس الحكومة في احدى مناقشات المجلس الصهيوني العام موقفا من هذا القبيل : « نحن ، المواطنين في اسرائيل ، سوف نعكف على بناء الدولة . وانتم اليهود في الشتات ، يمكنكم تقديم المساعدات فحسب » . بينما يأتي رد غولدمان على هذا التحدي انطلاقا من نظرته الى العلاقة المتبادلة بين المركز الاسرائيلي والاطراف اليهودية في العالم . فهو يقول مخاطبا بن غوريون : « ان خلق دولة اسرائيل بنوع ثقافتها الذي لم يسبق له مثيل يجب ان يكون ، باعتباره أعظم منجزات التاريخ اليهودي ، مهمة مشتركة بين فرعي الشعب بحيث يشارك كلاهما في الحقوق والمسؤوليات بالتساوي . ومع ذلك ، أنا على أتم استعداد للاعتراف بالفرع الاسرائيلي في منزلة الشريك الاكبر مقاما »(٢٠) .

والسؤال الذي يطالعنا من خلال هذا التفاوت الصهيوني في تحديد صيغة المشاركة بين الدولة والحركة الصهيونية . يتصل بمدى انعكاس الخلافات في الراي على طبيعة العلاقة العضوية بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية . ان مخالفة رئيس المنظمة لرئيس الحكومة في الراي لم تقف حائلا دون تلبية الحاجات الاسرائيلية و « تطويع » النفوذ الصهيوني بين يهود العالم للعمل في خدمة اسرائيل . فهو يخالف بن غوريون ، مثلا ، رأيه في سياسة اسرائيل الخارجية . لكنه لا يتردد لحظة واحدة في ضمان تأييد اليهود الاميركيين لهذه السياسة . وفي ذلك يعترف غولدمان بمنتهى الصراحة قائلا : « رغم موقفي المخالف ، فقد اعتبرت من الطبيعي ان واجبي يقضي بتأمين التأييد من جانب اليهود الاميركيين للسياسة الاسرائيلية . ولم يؤنبني ضميري على هذا الامر ، لانه لو تنصلت المنظمات اليهودية الكبرى في اميركا رسميا من سياسة اسرائيل ، فمن المؤكد ان هذا التنصل ما كان لينطوي على أية فائدة ، بل ينتج عنه الضرر لاسرائيل فحسب . لقد بدا لي انه من الضروري الوقوف بجانب اسرائيل في وضعها المحفوف بالمخاطر ، وفي الوقت نفسه التأثير على سياستها الخارجية »(٢١) .

فهل استطاع غولدمان طيلة رئاسته للمنظمة الصهيونية ان يؤثر على سياسة اسرائيل؟ ان مذكراته ملأى بالتنصل من المسؤولية عن السياسة الاسرائيلية ، وهو ينسب النفوذ الضئيل الذي مارسه على السياسة الخارجية بحكم رئاسته للمنظمة الصهيونية العالمية

الى « عدم استعدادي للقبول بمنصب ديبلوماسي » . والرجل الذي تولى رئاسة المنظمة قبل بضعة شهور من العدوان الثلاثي على سيناء (١٩٥٦) ، لا يجد ما يقوله في مذكراته اللاحقة سوى الاقرار بأن : « هذا الموقف أصبح الحفاظ عليه في منتهى الصعوبة بالنسبة لي في الاسابيع التي تلت حملة سيناء . ولم يقم بن غوريون على ابلاغي بالامر مقدما — وأنا لا اقصد بذلك تقريعا او انتقادا . لكني منذ البداية بالذات اعتبرت هذه الحملة غلطة »(٢٢) .

ومع ذلك استمر ناحوم غولدمان على رأس المنظمة الصهيونية العالمية طيلة اثني عشر عاما . فالخلاف مع بن غوريون لم يصل الى نقطة اللارجوع ، ولم يمنع رئيس المنظمة من « أداء واجبه » في الحصول على التغطية اللازمة بين يهود اميركا لتأييد سياسة الدولة اليهودية . وسوف نتناول في القسم الاخير عينات من مواقف غولدمان التي تسهم في ايضاح الجوانب الهامة من علاقة المنظمة بالدولة .

الاعتماد من طرف واحد

ان الفكرة التي تستأثر باهتمام غولدمان هي في كيفية العثور على طريقة — « لا توجد لها سابقة » — بغية اشراك يهود العالم في تحمل المسؤولية عن مستقبل اسرائيل ومصيرها . فهو يعترف على صفحات مذكراته بانه سعى منذ انشاء الدولة لحمل الاخرين على القبول بتلك الفكرة . لكن المحاولة باءت بالفشل ، على ما يبدو حتى الان . فما هي محاولة غولدمان . يخبرنا الزعيم الصهيوني عنها بقوله : « لو تسنى لي ان أفعل ما أريد ، لجرت محاولة منذ البداية لربط اسرائيل مع السكان اليهود في جميع البلدان الاخرى بواسطة تركيب محدد ، ولتزويد اليهودية المنظمة على الاقل بصوت استشاري في شؤون اسرائيل الحيوية »(٢٣) .

ان هذه الامنية لم تتحقق بسبب اصرار بن غوريون على سيادة الدولة وممارسة سلطاتها الكاملة . لكن المنظمة الصهيونية العالمية حصلت على « مركز ممتاز » بالنسبة لعلاقتها مع الدولة ، ونالت « الحق المشروع » في العمل داخل اسرائيل . وغولدمان نفسه يؤكد لنا ما يلي : « مع ذلك ، نجحت في حمل الاحزاب السياسية ، ومن جملتها حزب بن غوريون « الماباي » ، على القبول بأفكاري . وبعد مفاوضات طويلة اثر الكنيست قانون الوضع الشرعي للحركة الصهيونية ، وعلى أساس هذا القانون تم التوقيع على اتفاقية مهيبة — « الامانة » — (الميثاق) بين الحكومة الاسرائيلية واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية »(٢٤) .

هذه الاتفاقية التي سميت بـ « الامانة » (Amanah) أو « الميثاق » تنطوي على مدلولات دينية . وما يعنينا من أمرها الان هو البيان الذي ادلى به غولدمان أمام المجلس الصهيوني العام بعد مرور ١٢ عاما على وضع الميثاق موضع التنفيذ . قال رئيس المنظمة الصهيونية عام ١٩٦٦ ما يلي : « دخلنا طرفا في ميثاق ، ونحن نقوم بتأدية العديد من المهمات التي تؤديها الحكومات في بلدان اخرى . وبناء عليه ، فالميثاق يعكس وضعا غير سوي . لكن وضع دولة اسرائيل ما زال غير سوي ، واكثرية الشعب اليهودي ما زالت تقيم خارج حدود الدولة . وهناك حاجة الى حركة تجلب الالاف وعشرات الالاف من اليهود الى الدولة . هذا كان السبب لتوقيع الميثاق . وفي الوقت نفسه ، من الواضح ان الاستيطان والاستيعاب والهجرة — كل ذلك لا يمكن تنفيذه الا بالتعاون مع الدولة »(٢٥) . فالعلاقة القائمة بين الدولة وأداتها التنفيذية في الخارج لم تتأثر على صعيد الانجازات وتقديم الدعم بمختلف اشكاله . وغولدمان لا يجد مناصا من الاقرار « بالنتائج النافعة » التي اسفرت عنها علاقة المنظمة الصهيونية بدولة اسرائيل . فهو يقول عن نتائج الدور الذي أعطي للمنظمة منذ البداية ، وجاء الميثاق ليسبغ عليه « الصفة القانونية » فقط ،

ما مفاده : « تمكنت المنظمة الصهيونية العالمية أو الوكالة اليهودية ، بالتعاون مع الحكومة ، من جلب ما يزيد على مليون ونصف المليون من المهاجرين الى اسرائيل ، ومن استيعاب معظم هؤلاء ، وانشاء مئات المستوطنات الجديدة ، والمشاركة في مجالات كثيرة من تنمية البلاد بواسطة الاموال المجباة لصالح اسرائيل في كافة بلدان العالم »(٢٦) .

ويخبرنا غولدمان في مذكراته ان المساعدات التي تلقتها اسرائيل عن طريق الحركة الصهيونية هي مساعدات سياسية واقتصادية وعسكرية . على الصعيد السياسي توفر للدولة اليهودية هذا الشرط : « قيام الملايين من اليهود في سائر انحاء العالم بممارسة كل ما استطاعوا امتلاكه من النفوذ والضغوط الاقتصادية » . ويمثل غولدمان على ذلك بقوله : « انه لمن النفاق أو خداع الذات ان ننكر على النفوذ السياسي لستة ملايين من اليهود الاميركيين دورا بارزا يلعبونه في تقرير السياسة الخارجية الاميركية بالنسبة لكل من اسرائيل والعرب »(٢٧) .

وليس النفوذ السياسي هو وحده مصدر التطلع الاسرائيلي الى يهود العالم عبر أجهزة المنظمة الصهيونية ومؤسساتها . فالدولة تعتمد اقتصاديا على المساعدات المالية التي تجمعها حملات الجباية الصهيونية . لقد اعتمدت على ذلك منذ قيامها ، وسوف يظل اعتمادها قائما في المستقبل . وغولدمان يشدد على الدور الاقتصادي ليهود العالم في مد اسرائيل بأسباب البقاء ، مؤكدا بانه « لولا الدعم المالي الضخم الذي تلقته اسرائيل من الخارج ، وبلغ في مجموعه على مدى السنين ٣½ ألف مليون دولار ، لكانت الدولة قد انهارت تحت أعباء مضاعفة سكانها أربع مرات خلال عقدين من السنين ، وادخال مليون ونصف المليون من المهاجرين المعدمين ، هذا بالاضافة الى تغطية النفقات العائدة لميزانيتها الهائلة في التسلح . . . ومن الواضح ان اسرائيل لن تستطيع ، على مدى عقود قادمة ، الاستغناء عن المساعدات الاقتصادية من يهود العالم »(٢٨) .

فهل كان بن غوريون يريد بالفعل ان يستغني عن خدمات الحركة الصهيونية ؟ وهل تستطيع اسرائيل الاستغناء عن المنظمة العالمية كأداة لتنفيذ احتياجاتها وتغطية سياستها وتوفير أسباب الدعم على كافة المستويات ؟ ان العلاقة العضوية بين المركز والاداة ، أو بين الدولة والمنظمة الصهيونية ، ليست وليدة الشكليات التي جاءت القوانين والمواثيق لانقاذ مظاهرها . ولا خلاف في الرأي بين غولدمان وبن غوريون من حيث جوهر العلاقة ونتائجها على الصعيد العملي وفي ميزان الواقع العيني . ان رئيس حكومة اسرائيل السابق يطالب بالمزيد ، ويتستر وراء مفهومه للشعب اليهودي لكي يتسنى له احراج الحركة الصهيونية وتطويعها في خدمة اغراض الدولة .

وناحوم غولدمان ، الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية ، يخاطبه بلغته التي يفهمها عندما يقول : « ان الحفاظ على اسرائيل لا يتم الا من خلال اعتبارها الصنيعة الاجماعية للشعب اليهودي بأسره . فالاسرائيليون هم جيش الجبهة الامامية ، واليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل ، في الشتات ، هم قوات الاحتياط الكبرى . واذا ما قدر لهذه القوات الاحتياطية ان تتخلى عن اسرائيل في يوم من الايام ، فاني لا أرى ثمة مستقبل لهذه البلاد »(٢٩) .

فالحركة الصهيونية لا تزال ، بعد مرور ثلاثة ارباع القرن على تأسيسها وفي ظل ربع قرن من وجود الدولة اليهودية بفلسطين ، تعمل جادة للاستئثار بنصيب اوفر من تأييد يهود العالم وتجيير هذا التأييد لمصلحة اسرائيل . والشعار الذي رفعه مؤسس الحركة عن « غزو الجماعات اليهودية » واجتذابها الى حظيرة المنظمة ما زال رائد الحركة الصهيونية العالمية في تسيير اعمالها ونشاطاتها لخدمة المركز الاستيطاني الذي تجسده اسرائيل .

١ — انظر على سبيل المثال مقالة « اسرائيل والشتات » في الموسوعة التالية :
Encyclopedia of Zionism and Israel, Ed. Raphael Patai (New York: Herzl Press, Mc Graw Hill, 1971), pp. 580-583.

٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٨٣ .

٣ — راجع النص الكامل لقانون « الوضع الشرعي » (Status Law) الذي أقره الكنيست بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ .

٤ — أنظر « موسوعة الصهيونية واسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨٣ .

٥ — *Jewish Agency Digest of Press and Events*, (November 18, 1949).

٦ — راجع التقارير المرفوعة من اللجنة التنفيذية لكل من المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية الى المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين (القدس، ١٩٥١) الترجمة الانجليزية للتقارير ، ص ٢١٨.

٧ — انظر : *Jewish Agency Digest*, (May 16, 1952).

٨ — **المصدر نفسه** .

٩ — راجع State of Israel, *Government Year-Book*, 5714 (1953-4), Government Printer, Nov. 1953, p. 57.

١٠ — انظر مقالة بن غوريون في **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ ("Jewish Survival")

١١ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٣ .

١٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٦ .

١٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٨ .

١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٤٦ .

١٥ — **المصدر نفسه** ، ص ٤٨ .

١٦ — انظر الطبعة البريطانية لمذكرات غولدمان: *Memories, The Autobiography of Nahum Goldmann*. Trans. by Helen Sebba, (London: Weidenfeld and Nicolson, 1970), p. 295.

وسوف نشير الى هذا المصدر بـ « مذكرات غولدمان » منذ الان فصاعدا .

١٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٦ .

١٨ — **المصدر نفسه** .

١٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٣١٩ .

٢٠ — **المصدر نفسه** .

٢١ — **المصدر نفسه** ، ٢٩٨ .

٢٢ — **المصدر نفسه** .

٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٣١٨ .

٢٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٣١٩ .

٢٥ — انظر المناقشات في دورة انعقاد المجلس الصهيوني العام ، من ١١ الى ١٨ كانون الثاني (يناير) ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

٢٦ — **مذكرات غولدمان** ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٩ .

٢٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ .

٢٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ .

٢٩ — راجع نص المقابلة التي أجرتها مجلة « دير شبيغل » الالمانية مع الدكتور ناحوم غولدمان : Der Spiegel, Nr. 53, 28/21/1970.

على ضوء لقاء مع الفيلسوف الفرنسي : سـارتر والمسألة الفلسطينية

داود تلحمي

كان اول لقاء لي بسارتر في اواخر ١٩٦٥ ، والاخير في مطلع ١٩٧٢ . في المرة الاولى كان اللقاء بصدد التحضير لعدد خاص من **مجلته** « الازمنة الحديثة » حول المشكلة الفلسطينية (الذي لم يصدر الا في اول حزيران ١٩٦٧ : وكانت صدفة غريبة ساعدت على رواجه) . والمرة الاخيرة ، كانت لتسجيل مواقفه الحالية **لمجلتنا** « شؤون فلسطينية » . وبين اللقائين ست سنوات ونيف حملت معها احداثا غيرت الكثير من المفاهيم . فالمقاومة الفلسطينية اكدت للعالم وجود الشعب الفلسطيني واستمرار رفضه للاغتصاب وتصميمه على النضال والتضحية ، واسرائيل « الحمل الوديع المحاط بذئاب جائعة » أصبحت تحتل من الاراضي العربية مساحة تزيد عن اربعة اضعاف ما احتلته في ١٩٤٨ . هذا على ارض المعركة (أي موضوعيا) ، أما ذاتيا ، فقد قام سارتر في مطلع ١٩٦٧ بزيارة مصر وقطاع غزة والارض المحتلة ، والتقى بالعديد من المثقفين وغير المثقفين واصحاب المسؤولية واللامسؤولين (يوضح هو نفسه ذلك في اللقاء الاخير) . ثم اصدر عدده الخاص من ألف صفحة الذي احتوى على اكثر من اربعين مقالة لعرب واسرائيليين بالاضافة الى مقالة مكسيم رودنسون الشهيرة ووثائق اخرى . والتقى بعد ذلك بممثلين عن المقاومة وبأنصارها في فرنسا ، وتابع اخبارها . وهو الآن اذا مطلع على المشكلة التي قال في عام ١٩٦٥ بتواضع انه يكاد يجهلها وان احدى فوائد العدد الخاص مساعدته على رؤيتها بشكل اوضح .

وسارتر ليس بحاجة الى تقديم فهو الفيلسوف الاديب الذي **رفض** جائزة نوبل ، وسار مع الطلبة في انتفاضة ايار ١٩٦٨ ويقف اليوم مع التنظيمات الماوية في عملها العنيف ضد النظام في فرنسا . وهو لا ينفك عن الكتابة في ميادين الفلسفة والرواية والقصة والبحث التاريخي والسياسي . ولسنا هنا بصدد تقييم هذا النتاج والحكم على مواقفه السياسية بشكل عام ، فموضوعنا اكثر تحديدا . الا أنه من الضروري التأكيد على بعض النقاط قبل الدخول في صلب الموضوع :

اولا : ان اسهام سارتر في اغناء الادب والفلسفة العالميين بشكل وافر امر لا مجال للنقاش فيه ، واطلاعه وثقافته في هذين المجالين لا جدال فيهما « بدأت حياتي كما لا بد انها ستنتهي : بين الكتب » (كتاب « الكلمات » ص ٣٧) .

ثانيا : على الصعيد السياسي ، اتخذ جان بول سارتر منذ شبابه (كما يروي في كتاب « قضايا منهجية » ص ٢٦ وما يليها) موقفا يساريا عاما ضد الاضطهاد والقمع ، وتبلور ذلك فيما بعد في مواقفه من حركات التحرر العالمية (وخاصة الحركة الجزائرية

وتم الفيتنامية) وفي الدعم الادبي الذي وفره لها متعرضا أحيانا لارهاب الاوساط اليمينية (كما حدث له مع التيارات الاستعمارية ومنظمة الجيش السري في اخر سنوات حرب التحرير الجزائرية) . وهو الآن يترأس المحكمة الدولية التي أسسها برتراند راسل للبحث في جرائم الحرب الامريكية في فيتنام . ويساهم في الدفاع عن الاسرى في ايران ودول امريكا اللاتينيه وغيرها . كما يعرب عن تضامنه مع حركات التمرد العنيفة ضد الاستغلال الرأسمالي في فرنسا نفسها . ومع العمال الاجانب — والعرب منهم بالذات — في مواجهتهم للعنصرية .

ثالثا : كل ذلك لا يمنع بالطبع ان بعض مواقفه السياسية وغير السياسية قابلة للنقاش (سواء بالنسبة لمواقفه الفرنسية او العالمية وبالذات فيما يخصنا لموقفه من القضية الفلسطينية) . وللتذكير ، وقف سارتر مثلا ضد التدخل السوفياتي في المجر عام ١٩٥٦ وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، واتخذ مؤخرا موقفا نقديا من الحكم في كوبا على أثر اعتقال بعض الادباء ، كما اتهم الحزب الشيوعي الفرنسي باجهاض انتفاضة أيار ١٩٦٨ ، ويقف الآن مدافعا عن المنظمات الماوية — كما ذكرنا — . كل هذه المواقف ومثلها جزء من رؤية فلسفية عامة سنقوم بطرحها باختصار .

رابعا : على الصعيد الفلسفي اذا ، اقترن اسم سارتر بالوجودية . وهذا التعبير يحمل لاذهان الكثيرين صورة مشوهة لمفاهيم أقرب الى البوهيمية والهيبية ، وسارتر أبعد ما يكون فكرا وممارسة عن هذه الصورة . وللتوضيح ، نذكر ان المدرسة الوجودية التي اوجدها الفيلسوف الدانماركي كيركغارد في النصف الاول من القرن الماضي تؤكد بشكل مختصر على اهمية الحياة الفردية تجاه المحاولات الرامية الى اغراق الفرد في نظام فلسفي شامل ومجرد (مدرسة هيغل بشكل خاص) .

الا أن الوجودية اليوم (وممثليها في المانيا وفرنسا بالذات) تقف على ارضيات مختلفة انطلاقا من الاعتبار العام الذي ذكرنا . فالالماني ياسبرز ينطلق من « مأساة الفرد » الذي يتنازعه واقعه المادي وطموحه الروحاني ليلجأ للدين . بينما يقف سارتر موقفا اقرب الى الماركسية . ويهمنا ان نوضح هنا نظرة سارتر في الموضوع منطلقين من تحليله في كتاب « قضايا منهجية » (دار نشر غاليمار ، باريس) .

يقول سارتر في فصل « الماركسية والوجودية » ان ليس هناك فلسفة وانما فلسفات أي ان كل حقبة مميزة تعطي فلسفة معبرة عن الحركة العامة للمجتمع (ص ٧) . ومن القرن السابع عشر وحتى العشرين لم تتبلور هناك الا فلسفات ثلاث يشير لها سارتر باسماء روادها : فالاولى هي « فترة » ديكارت ولوك والثانية « فترة » كانت وهيغل والثالثة فترة ماركس (ص ١٢) . « فالماركسية اذا هي فلسفة عصرنا : ولا يمكن تجاوزها لان الظروف التي اوجدتها لم يجر تجاوزها بعد » . وهي لم تشخ ، بل بالعكس ما زالت شابة ، في طفولتها تقريبا (ص ٤٤) . ويشير سارتر لتأكيد رأيه الى « ان الحجج ضد الماركسية ليست ، كما لاحظت مرارا ، الا تجديدا ظاهريا لافكار ما قبل الماركسية » (ص ١٢) .

« لماذا اذا بقيت الوجودية (مدرسة سارتر دون المدارس الاخرى كمدرسة ياسبرز التي يعتبرها سارتر رجوعا الى الوراء) مستقلة ؟ لماذا لم تحل نفسها في الماركسية ؟ » (ص ٣١) . ذلك لان « الماركسية توقفت : ولانها فلسفة ارادت تغيير العالم ... لانها تريد ان تكون **عملية** ولانها فعلا كذلك ، حدث فيها شرخ حقيقي بين النظرية من جهة والممارسة من جهة اخرى . » (ص ٣٢) . ويحلل سارتر تاريخ الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية على ضوء هذه الرؤية ويخرج بالاستنتاج ان « الفصل بين النظرية والممارسة كانت نتيجته تحويل هذه الى **تجريبية** بدون مبدأ ، وتلك الى **معرفة** مجردة

ومتحجرة » . ولا يعفي سارتر التروتسكيين من النقد في هذا الصدد ، لان معارضتهم للحركة الشيوعية تنطلق من نفس الاسلوب اللاتحليلي للأحداث الملموسة ، بل تستعمل الاحداث لتأكيد المفاهيم النظرية (ص ٣٤) . «فاليوم ، تقع التجربة الاجتماعية والتاريخية خارج المعرفة . فالمفاهيم البرجوازية لا تتجدد وتهترىء بسرعة ، وما يبقى منها تنقصه الاسس : فالمكتسبات الحقيقية لعلم الاجتماع الامريكي لا تستطيع تغطية ضعفه النظري . فبعد انطلاق صاروخي ، توقف علم النفس عن التطور » . (ص ٤١) . « وفي وجه هذا الجهل المزدوج ، استطاعت الوجودية ان تنبعث وتستمر لانها تؤكد واقع الانسان ... فالوجودية والماركسية تعملان في اتجاه واحد ، لكن الثانية احتوت الانسان في الفكرة بينما تبحث الاولى عنه حيثما كان ، في عمله ، في منزله او في الشارع » . (ص ٤٢) .

هذا باختصار شديد وعمومية موقف سارتر الفلسفي السياسي حاليا . وليس من شك ان كلمات قليلة كهذه لا تكفي لايفاء نظرة سارتر **وتطورها** عبر السنين حقها . الا انها تشكل اطارا نستطيع ان ننظر منه بشكل اوضح الى مواقف سارتر السياسية وبالذات لموقفه في قضية فلسطين (ونكرر اننا لسنا هنا بصدد الحكم على مواقف سارتر العامة وتقييم دورها الموضوعي ايجابا أو سلبا) .

هذه الرؤية العامة انعكست اذا في مواقف سارتر السياسية ، وبشكل واضح في نظرته للمشكلة اليهودية . ففي كتابه عن الموضوع (« المسألة اليهودية » دار غاليمار) ، اوضح سارتر موقفه كالتالي : اللاسامي ينظر الى اليهودي كانسان ذي خصائص شكلية واخلاقية محددة ، « والديموقراطي » من جانب آخر يدافع عن وجهة النظر الدمجية (أي ان اليهودي انسان كالآخرين وليس له خصائص مميزة) ، والاثنان برأي سارتر مخطئان ، فهو يرى ان انصاف اليهودي لن يكون الا بالاعتراف بحقه ليس فقط في العيش في بلد نشأته او اختياره وانما بحقه في التميز والاحتفاظ بخصائصه وشخصيته . وينهي كتابه بعبارته الشهيرة : « طالما وجد يهودي لا يمارس كافة حقوقه ، فلن يكون هناك انسان حر في فرنسا . ولن يكون هناك فرنسي آمن ، اذا وجد في فرنسا او في العالم يهودي يخشى على حياته » .

هذه المواقف تعكس حرص سارتر على الدفاع عن حرية اختيار الفرد لهويته ومصيره في موضوع محدد (التزم سارتر منذ فترة طويلة في الدفاع عن وجهة نظره فيه) . والكتاب (الذي صدر قبل خلق دولة اسرائيل) يظهر مدى حساسية سارتر للمشكلة اليهودية التي يعتبرها مشكلته كفرنسي واوروبي ، ومدى تأثيرها على مواقفه اللاحقة في المسألة الفلسطينية . وقد اكد ذلك في كل المناسبات التي التقى فيها بطرف فلسطيني أو عربي. وليس من الصعب فهم اسباب هذه الحساسية ، فالى جانب الموقف الفلسفي ، كانت المشكلة اليهودية بالنسبة لسارتر مشكلة ملموسة ، فقد عاش الاحتلال الالماني ، والتفرقة العنصرية والاضطهاد ضد اليهود ، ورأى العديد من معارفه اليهود يسيرون نحو معسكرات الاعتقال النازية . وبين معاونيه والمقربين منه — حتى الان — عدد من الفرنسيين اليهود .

وهذا يفسر رد فعل سارتر حين زار اسرائيل في آذار ١٩٦٧ . فهو لم ير في السكان (الذين بنوا دولتهم على حساب شعب فلسطين بوسائل لا تختلف من حيث الكيف عن الاساليب النازية نفسها) الا يهود معسكرات الاعتقال ويهود الغيتو والاضطهاد اللاسامي . ففي مؤتمر صحفي عقده في تل ابيب في ٣٠ آذار ١٩٦٧ قال : « ان اسرائيل هي البلد الوحيد في العالم الذي نستطيع نعت الانسان فيه بأنه يهودي دون ان نكون لاساميين . عندما يقال عن استاذ جامعي عندنا انه يهودي ، لا استطيع الا ان افكر ان

القائل ضد اليهود ... اما هنا فاننا نقابل يهودا بشرا . وفي اسرائيل ، لم يجر تحريركم فقط ، وانما تحريرنا ايضا . واذا استطاع الرجل الاسرائيلي الجديد ، اليهودي الجديد ان يتطور في سلام ويعي كافة تناقضاته ويتحملها ثم يتجاوزها بعمله ، فسيكون — وهو الان — من اغنى الرجال في التاريخ » . (لوموند ١٩٦٧/٣/٣١) .

هذا الموقف ، الذي جعل مراسل لوموند الاسرائيلي يقرب بين وجهة نظر سارتر وهرتزل في الموضوع (وهذا ما عمل سارتر على نفيه فيما بعد بشكل غير مباشر — لوموند ١٩٦٧/٤/٨) ، لا يعطي الصورة كلها عن موقف سارتر . هناك الجانب الاخر : فسارتر ورفيقته سيمون دو بوفوار كانا قد زارا قبل ذلك مصر وقطاع غزة ، وفي نهاية زيارتهما ، صرح سارتر بأن حديثه مع اللاجئين في القطاع اكد له مدى تصميمهم على العودة الى بلدهم . وكان قد قال قبل ذلك في جامعة القاهرة « ان الفلسطينيين لهم حق قومي في العودة الى الارض التي غادروها في حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٨ » (لوموند ١٩٦٧/٣/١٥) . وأعاد طرح رأيه في اسرائيل . فبعد ان قال في اجتماع مع بيغال ألون « ان حق اسرائيل في البقاء يجب ان يكون نقطة انطلاق اي حل للمشكلة الفلسطينية » (لوموند ٣/٢١/ ١٩٦٧) طالب في مؤتمره الصحفي في ٣/٣٠ بالاعتراف بحق العودة للاجئين وانتقد اسرائيل لتزمتها في هذا الموضوع (لوموند ٦٧/٣/٣١) .

هذا التناقض يعيه سارتر بالطبع ويعترف به ، هو الذي يعيش « النزاع اليهودي العربي كمأساة شخصية » (العدد الخاص من « الازمنة الحديثة » ص ٩) . ففي مقدمة العدد التي كتبها اسبوعا واحدا قبل العدوان الاسرائيلي ، أعاد سارتر طرح تمزقه في مواجهة الصراع ، هو الذي من خلال اكتشافه لمشكلة اليهودي اثناء الحرب العالمية الاخيرة لا يستطيع التصور « بأن مجموعة يهودية ، أنى كانت ، ومهما كانت ، معرضة من جديد لمثل هذه المآسي » وهو الذي من خلال دفاعه عن الجزائريين اثناء حرب التحرير أدرك « الاخوة التي تربطنا بالعرب ... الذين كانوا يقاتلون من أجلنا بقدر ما قاتلوا لانفسهم » (نفس المصدر ص ١٠) .

وفي جو مشحون ، غذته اجهزة الاعلام (او التجهيل) الصهيونية بصور « الدولة الصغيرة المسالمة المحاطة بمئة مليون حاقد متعطش للدم » ، وقع سارتر على عريضة (قبل الحرب بأيام) لصالح اسرائيل تنفي « امبرياليتها » وطبيعتها العدوانية . ثم جاءت الحرب ، وفتحت أعين الكثيرين ، وصمت سارتر . ولم يعبر منذ ذلك الحين عن مواقفه في الصراع الا نادرا .

واليوم أين يقف جان بول سارتر ؟

سارتر يتكلم

في بداية اللقاء ، أكد سارتر على تعاطفه مع **الفلسطينيين** (استعمل هذا التعبير عدة مرات بعد ذلك) : « ان عواطفي الى جانبكم » ، معيدا الى الاذهان تعاطفه مع حرب التحرير الجزائرية ومشاركته الحالية في النضال ضد العنصرية التي يعاني منها العمال العرب في فرنسا .

وكان أول استفسار لي حول تقييمه لتطور معرفة الفرنسيين والغرب بالمشكلة الفلسطينية ١٩٦٧ ، اي منذ زيارته الاخيرة للشرق الاوسط ، وصدور العدد الخاص من الازمنة الحديثة . وجاء رده تسجيلا لما رآه خلال زيارته ، وما يراه اليوم بعد خمس سنوات من الاحتلال الاسرائيلي الاخير . فأشار الى البؤس الذي وجده في مخيمات غزة والى المشاكل التي يعاني منها العرب في اسرائيل . فتحدث باسهاب عن انطباعاته هنا وهناك منتقدا تصرفات وتصريحات بعض « الوجهاء » الفلسطينيين الذين قابلهم في غزة،

ومعبرا عن أمله بمستقبل شباب المخيمات من جهة ، وموضحا من جهة اخرى لجذور التفرقة الاقتصادية والعنصرية في اسرائيل . واضاف في حديثه عن الشق الاخير ، ان الاقلية العربية غالبا ما تقوم بالأعمال الشاقة كالبناء وتعبيد الطرق تماما كعمال دول المغرب العربي في فرنسا ، ورغما عن انها تتلقى نفس المعاشات كاليهود العاملين في الميادين نفسها ، الا ان المسؤوليات العائلية وتعدد الاطفال تخلق تفرقة في الواقع بين حالة العامل العربي والعامل اليهودي . وتظهر آثار هذه التفرقة في ميدان التعليم حيث تنخفض النسب بين العرب واليهود مع ارتفاع مستوى التعليم . وانتقد سياسة اسرائيل في مصادرة اراضي الفلاحين العرب ، كما أشار الى بعض التصرفات العنصرية التي يواجهها العرب خاصة من قبل اليهود الشرقيين (لاسباب تاريخية اجتماعية) ، ولكنه اكد ان هناك بعض العناصر ، وخاصة في يسار المابام — تدافع بشدة وشجاعة عن المساواة بين العرب واليهود . (وهو يشير هنا في الغالب الى الاقلية في هذا الحزب التي تحفظت تجاه دخول الحزب في التآلف الحكومي) .

وانتقل الى الكلام عن حرب ١٩٦٧ وما أثارته من العواطف في فرنسا خاصة عند الذين عاشوا الاحتلال النازي وما رافقه من المواقف اللاسامية عند الفرنسيين أنفسهم ، كما أشار الى بعض التصريحات العربية آنذاك (وخاصة « تصريح الشقيري » على حد تعبيره ، والذي احدث ضجة كبيرة في فرنسا) . واضاف ان السنوات الاخيرة اظهرت بشكل واضح الطبيعة التوسعية للسياسة الاسرائيلية ، « رغم تطلع الشعب الاسرائيلي الى السلام » . وهنا يكمن التطور الاساسي في نظرة اليسار نحو اسرائيل . وانتهى الى الحكم « برجعية الحزب الحاكم وغالبية حزب المابام » وضعف اليسار الاسرائيلي المقاوم لهذه السياسة .

وفي معرض الحديث عن موقفه ، وردا على استفسار حول رأيه في برنامج « فلسطين الديموقراطية » الذي تطرحه المنظمات الفدائية ، كرر المفكر الفرنسي تعاطفه مع الجانب الفلسطيني واعترافه « بسيادة الفلسطينيين » . الا انه قرن هذا الاعتراف بالاقرار « بسيادة اسرائيل » (استعمل كلمة souveraineté في الحالتين) . وتجنبا للخوض في تفاصيل تحقيق هذا الموقف « المبدأي » ، أشار سارتر الى انه موقف « مفكر » intellectuel وليس موقف « رجل سياسة » اي انه يطرح المبادىء التي يرى ضرورة توفرها في أي حل ، دون التنبؤ بالشكل الملموس الذي ستعطيه في الواقع .

وهنا أعاد الى الاذهان موقفا معروفا حول رؤيته لطبيعة اسرائيل . فباعتقاده ان اسرائيل ليست استعمارا بالمعنى المتعارف عليه ، لان الاستعمار يحتل البلد ويستغل السكان ليجني منهم الربح ومن أرضهم المواد الاولية ، وليس هذا الحال حسب تقديره ، في حالة خلق اسرائيل التي أتت نتيجة عملية هجرة واستيطان كانت دارجة في اوروبا في القرون الماضية ، ولم تكن تحمل طابعا سلبيا في أذهان المعنيين آنذاك . كما اكد عدم تقبله للشعار الذي يطرح اسرائيل على انها « رأس حربة للامبريالية » ، ذلك انه يرى ان علاقة اسرائيل ليست مباشرة بالامبريالية وانما بيهود الدول الامبريالية (وخاصة يهود اميركا) الذين تعتمد عليهم الى حد كبير في مصادرها الاقتصادية وفي الضغط على سياسة الدول الامبريالية . وهو يعتبر ان هذه العلاقة (التي لها أسس عاطفية لا يدينها) أدت بالاشكال التي اتخذتها الى تحولات رجعية داخل اسرائيل (اتساع القطاع الخاص على حساب القطاع العام ، تضاؤل عدد الكيبوتزات) والى مواقف متعاطفة مع الامبريالية على الصعيد الخارجي (وهو يشير هنا الى مواقف الحكومة الاسرائيلية بالنسبة لقضايا التحرر وخاصة قضية فيتنام ، والى المواقف التي تعبر عنها الصحف الاسرائيلية وغالبية الرأي العام الاسرائيلي في نفس الاتجاه) .

ورغم عدم اتفاقه مع رؤية اسرائيل « كرأس حربة او جسر للامبريالية » ، فهو لا يسعه

الا ان يفهم جذور الرؤية العربية أمام السياسة الاسرائيلية التي اتخذت مثلا عام ١٩٥٦ موقف تحالف سافر مع الامبرياليتين البريطانية والفرنسية ، والتي تصر اليوم على الاحتفاظ بجزء كبير من الاراضي العربية المحتلة في حزيران ١٩٦٧ . فاسرائيل اذا حسب رؤيته تتبع سياسة رجعية توسعية ، الا انها لا تشكل رغما عن ذلك ، رأس جسر للامبريالية الامريكية .

هذا ، والعلاقة مع امريكا ، على حد تعبيره ، ليست مقتصرة في المنطقة على اسرائيل فهناك دول عربية لها ارتباطات وثيقة بالامبريالية ، بينما تقمع دول عربية اخرى أية حركات شعبية فيها (ووقفت اثناء مجازر ايلول ١٩٧٠ موقف المتفرج غير المستاء من الحد من نشاط الفدائيين) .

ويخلص سارتر الى القول بأن الحل في رأيه سيكون ضمن اطار اشتراكي يشمل المنطقة وفي لقاء البروليتاريا من كافة الشعوب في معركة واحدة .

وفي محاولة للعودة الى طبيعة اسرائيل ، وضعت أمامه الطرح التالي : « منذ سنوات ، صدر في فرنسا كتاب عن صحفي اسرائيلي بعنوان ذي مغزى : (اسرائيل في خطر السلام) . ومن عامين تقريبا صرح نائب ديغولي في معرض تبريره لصفقة الاسلحة مع ليبيا ان « الذي يهدد اسرائيل ليست الجيوش الحديثة وانما رجال العصابات الفلسطينية » (لوموند ١٤/١/١٩٧٠) . من كل هذا نستطيع الخروج بالرؤية التالية : ان ما يتهدد اسرائيل (كدولة صهيونية وليس كمجموعة انسانية) خطران ــ السلام (أي ، بمفهوم الكاتب الاسرائيلي ، احتداد التناقضات الداخلية) وحرب العصابات او بالاحرى حرب الشعب . وبشكل أدق فهذان وجهان لخطر واحد هو الثورة في المنطقة سواء على الصعيد العربي او في اسرائيل نفسها . والاستنتاج المنطقي هو ان الحكام الصهاينة لهم مصلحة في منع أي تحول ثوري في المنطقة باللجوء بين حين وآخر الى حرب خاطفة . » فأبدى سارتر موافقته بشكل عام على هذا الطرح ، الا انه لا يأخذ ــ برأيه ــ بعين الاعتبار احد الجوانب الاساسية في الحسابات الاسرائيلية وهو أهمية الخسائر البشرية . واضاف « لو حدثت مواجهة جديدة بين اسرائيل ومصر ، فان اسرائيل ستكسب مرة اخرى بلا شك ولكن بصعوبة اكبر . واذا افترضنا ان على دولة اسرائيل أن تواجه كل خمس او عشر سنوات حربا جديدة ، مهما قصرت مدتها ، فسيأتي وقت ، لن تتمكن فيه من الانتصار » . فهو يرى اذا انه « من مصلحتهم ومن وجهة نظرهم ان يتخلوا عن سياستهم الحالية التي هي سياسة حرب ، وينتهجوا من اجل استمرار وجودهم ، سياسة سلمية » .

ولكنه موافق على « ان الحكام يريدون ان يبقى الاسرائيليون في حالة تعبئة عامة . وهكذا فهم يستطيعون الضغط عليهم بالاشارة الى العدو الخارجي لتغطية البنية الحقيقية للمجتمع الاسرائيلي » . « الا ان عددا من الاضرابات الهامة كاضراب عمال ميناء حيفا ، تظهر انهم ليسوا مغررين تماما . فرغما عن حالة الحرب ، استمر العمال في اضرابهم مما أحرج الهستدروت التي لم تدرك كيف تتصرف ، وحقق الاضراب في النهاية أهدافه . وهذا يظهر على ان العمال ، رغم محاولات الحكام للابقاء على جو التهديد بالحرب بدأوا يدركون » . وهذا ما يعتبره سارتر أحد مصادر « الامل » بالنسبة له . « الا ان معظم هؤلاء العمال ، للاسف ، من أصل شرقي أو افريقي . وبحكم تواجدهم السابق في دول غير نامية اقتصاديا ، فان وعيهم الطبقي لم يكن متطورا . ولكن اذا بقي أبناؤهم ضمن البروليتاريا ، فسيشكل هؤلاء حينذاك بروليتاريا حقيقية » . واكد سارتر ثانية في نهاية تعليقه على الموضوع انه يعتقد « ان هناك امكانيات بناء علاقات جديدة بين هذه البروليتاريا التي تتحول الى بروليتاريا حقيقية والفلسطينيين » . ويرى اذا انه « في هذا المجال يمكننا البحث عن التحالفات » .

وكان الاستفسار الاخير حول العنصرية التي يمارسها قسم كبير من الفرنسيين تجاه العرب (والجزائريين منهم بشكل خاص) ومدى تأثيرها على الموقف المتعاطف مع اسرائيل (حتى من قبل المجموعات اللاسامية التي ترى في تجمع اليهود في مكان آخر تحقيقا لامانيها) . وجاء رد سارتر تحليلا لمشكلة العنصرية التي تشكل احدى آفات المجتمع الفرنسي الحالي واحدى القضايا التي يركز عليها اليسار الفرنسي في نضاله ضد الرأسمالية . فقال « هناك سببان لتصاعد العنصرية ضد العرب في فرنسا ، هناك أولا الحرب التي خسروها في الجزائر ، وبعض الفرنسيين ليسوا على استعداد لنسيانها . وهذا ما يفسر منطقهم : طالما اننا انهزمنا على أيدي العرب ، فاذا هزم الاسرائيليون العرب فنحن المنتصرون . وهناك ثانيا سياسة الحكم في التهجير التي تجلب الى فرنسا عددا من المهاجرين (من شمال افريقيا بشكل خاص) أكثر مما تستطيع اسكانه وتوفير الطعام له بشكل معقول . فيتكدس معظم المهاجرين في مناطق سكنية غير صحية (وهي مدن التنك bidonville) على مقربة من المناطق التي يعيش فيها عدد من الجنود القدماء والمستوطنين العائدين من الجزائر (pieds noirs) او المتعاطفين معهم ، مما يخلق جوا كريها من الصدمات المستمرة » .

ويضيف سارتر بأن « جذور هذا العداء تعود كذلك الى الفكر الاستعماري الذي يكرس تميز عنصر على آخر كمبرر للعملية الاستعمارية » ولهذا يرى « بأن الحل لن يكون الا سياسيا » أي بالقضاء على جذور العنصرية .

وأعرب عن اتفاقه مع اعتبار العنصرية ضد العرب مادة أحسن استغلالها دعاة الصهيونية . رغم ان العنصرية ضد اليهود كانت وما زالت موجودة (ويروي سارتر حادثة الفرنسي اليهودي الذي هنأه احدهم بانتصار « بلده » بعد حرب الايام الستة ، علما بأن بلده فرنسا وليست اسرائيل) . فهناك الكثيرون يعتبرون اليهود كأجانب جاؤوا الى أوروبا وهم في الواقع ينتمون الى بلد آخر . لكن العنصرية ضد العرب ، أكثر انتشارا من العنصرية ضد اليهود ، ذلك ان هؤلاء قلما يعيشون في الاحياء الشعبية ويعملون في المصانع ، مما يجعل اتصالهم أقل بالاوساط الواسعة . وهذا ما سهل مهمة أنصار اسرائيل .

وأعاد سارتر في الختام التأكيد على تعاطفه مع الفلسطينيين وأمله بحل عادل للمشكلة .

أين يقف اذا جان بول سارتر ؟

مرة اخرى ، علينا ان نتفادى الاحكام الاجمالية والاحادية الجانب . فالرؤية التبسيطية التي تقسم الاشياء الى أبيض وأسود والمواقف الى مؤيد ومعاد هي في النهاية رؤية مضللة ومناقضة للمنهج العلمي في التحليل . فسارتر ليس مناضلا في صفوف الثورة الفلسطينية ولا جنديا من جنود الحركة الصهيونية . موقفه نابع ، كما ذكرنا ، من منطلقه العام وذاتيته (التي هي ، على حد تعبيره ، ذات جذور تاريخية وموضوعية) . من هنا ، يمكننا أن نخرج بالاستنتاجات التالية :

١ ــ ان سارتر ليس مؤيدا للصهيونية بمفهومها الايديولوجي المتعارف عليه . في بعض تصريحاته الاخيرة ، اشار الى ضرورة التخلي عنها ، لمصلحة اليهود انفسهم ، لانها أصبحت الان تلعب دورا رجعيا وفي بعض الدول تحمل بذور عودة اللاسامية (مجلة نيو اوتلوك الاسرائيلية ــ آذار ١٩٦٩) . وهو في الوقت نفسه ليس معاديا لها بشكل مبدئي ، ويعتبر انها في ميادين محددة وفي ظروف معينة لعبت دورا ايجابيا بالنسبة لليهود (نفس المصدر) . بالنسبة لاسرائيل ، موقفه الآن نقدي أكثر من أي وقت مضى ، الا انه يرى امكانيات تطور ذاتي من الداخل ، وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية بين رؤياه ومنطلقات المقاومة الفلسطينية بكافة فصائلها ، التي لا ترى في التناقضات الداخلية

الاسرائيلية عنصرا **اساسيا** في الصراع الدائر الآن في المنطقة بين قوى الثورة والثورة المضـــادة .

٢ ــ من هنا نخرج الى القول ان سارتر يقف من الثورة الفلسطينية موقفا لا هو عدائي ولا مؤيد بشكل مطلق . فهو من جهة متعاطف مع الشعب الفلسطيني المشرد تعاطفه مع شعوب العالم الثالث التي تواجه الاضطهاد ، ومن جهة اخرى لا يتفق كليا مع الاهداف المعلنة للثورة الفلسطينية (فحين تولى منذ اشهر ادارة صحيفـــة « قضية الشعب » الماوية التي كانت تتعرض لقمع السلطات الفرنسية ، اشار في تبريره لهذه الخطوة انه في الوقت الذي يتضامن فيه مع المتعرضين للقمع فهو لا يتفق معهم في كل مواقفهم وبالذات بالنسبة للشرق الاوسط . وهذه الصحيفة ، والتنظيم السياسي المعبرة عنه يقفان موقف التأييد المطلق للمقاومة) .

٣ ــ ولا يسعنا في النهاية الا أن نسجل تطلعنا الى تفهم أكبر لمنطلقات ثورتنا مـــن قبل الفيلسوف والمفكر (أو « الايديولوجي » على حد تعبيره) الذي وقف بشكل عام الى جانب قضايا التحرر والثورة في العالم ، على أمل ان يساعد في ذلك توضيح مواقف المقاومة بالنسبة للمشكلة اليهودية (وقد أظهرت لقاءاته السابقة مع بعض ممثلي المقاومة اهمية مثل هذا التوضيح) .

أصدر مركز الابحاث في مطلع العام ١٩٦٨ كتاب

من الفكر الصهيوني المعـــاصر

يحوي الكتاب اثنتين وعشرين مقالة ترجمت كلها عن اللغة الفرنسية ، كما نشرت في مجلة « الازمنة الحديثة » الصادرة في باريس في عدد خاص عن « النزاع العربي الاسرائيلي » . والمقالات تعبر عن احدث ، وعن اوضح واصرح ما صدر عن العدو الصهيوني من تفكير موجـــه للعقلية الغـــربية والعقلية اليسارية في الغرب .

٥٢٩ صفحة ٨ ل. ل.

مسؤولية بريطانيا في حرمان الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره

الدكتور عبداللطيف الطيباوي

استخلصت مادة هذا المقال ، الذي وضعته بالاصل في اللغة الانجليزية ، من الوثائق المحفوظة في « مكتب السجلات العامة » في لندن ، وهو يشتمل على الاوراق السرية لوزارة الخارجية ورئاسة الوزارة البريطانية ، والتي لم يفرج عنها الا منذ عهد قريب . وكذلك ، استخلصت من وثائق هذا المكتب مادة الفصول (٨ ــ ١٠) من كتابي : « تاريخ سوريا المعاصر بما فيها لبنان وفلسطين » (دار ماكميلان للنشر ، عام ١٩٦٩) ، كما اعتمدت على هذا المصدر ذاته في اعداد دراسة ستصدر قريبا حول « العلاقات العربية ــ البريطانية (١٩١٤ ــ ١٩٦١) مع تركيز خاص على فلسطين » . وارجو ان يكون هذا المقال والكتاب حول تاريخ سوريا المعاصر حافزا للباحثين والاساتذة العرب للاستفادة من هذا الكنز الدفين من الوثائق ، الزاخر بالمعلومات . ولا يفوت المرء ان يلاحظ ان هنالك العديد من الباحثين الامريكيين والاسرائيليين ينكبون على دراسة هذه الوثائق منقبين بين ركامها عما يتعلق بموضوع فلسطين ، بينما لا يكاد يوجد احد من الباحثين العرب يفعل ذلك .

[١]

كان عام ١٩١٧ عاما حاسما في تاريخ الحرب العالمية الاولى : ففي ذلك العام ، دخلت الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء ، بينما انسحبت منها روسيا القيصرية نتيجة اشتعال الثورة البلشفية . وقد ساهم كلا هذين الحدثين في وضع نهاية سريعة لهذه الحرب وتفتح آمال عامة باقرار تسوية سلمية على أساس برنامج الرئيس الاميركي ويلسون « النقاط الاربع عشرة » ، كما حمل دخول اميركا الحرب وخروج روسيا منها في ثناياه سوء تفاهم عظيم بين العرب من جهة وبين كل من بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فقد بادر حكام روسيا الجدد الى فضح اسرار اتفاقية سايكس ــ بيكو التي تقاسمت ، بمقتضاها ، بريطانيا وفرنسا الولايات العربية من ممتلكات الامبراطورية العثمانية وجعلتاها ضمن مناطق نفوذهما المباشر وغير المباشر ، اذ أحدث فضح أسرار هذه الاتفاقية فجيعة كبرى بين العرب الذين انتعشت مطامحهم لنيل استقلالهم الوطني اثر اعلان الرئيس الاميركي مبادىء الليبرالية ، كما ساهمت أفكار الرئيس ويلسون في تشذيب مخططات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية ، وهما اللتان قبلتا ، على مضض ، مبدأي « حق تقرير المصير » و « موافقة المحكوم » عند النظر في بت اوضاع المناطق المستخلصة من العدو .

لقد بات معروفا ، على نطاق واسع الان ، أنه حالما بدأت الحرب العظمى الاولى سعت روسيا القيصرية الى اقرار كل من حليفتيها ، بريطانيا وفرنسا ، لمطالبها بضم استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور الى ممتلكاتها . وعندما تمت الموافقة على ذلك سعت فرنسا لدى روسيا ، ونالت اعترافها بالمطامع الفرنسية في سوريا ، بيد ان روسيا أبدت بعض التحفظات بخصوص فلسطين بداعي أهميتها الدينية الخاصة . وكانت فرنسا قد تلقت ، حتى قبل الحرب ، تطمينات من بريطانيا بعدم اكتراثها بسوريا بكاملها طالما ظلت هذه جزءاً من الامبراطورية العثمانية . ولكن عندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وعندما حظيت روسيا باعتراف حليفتيها ، رسميا ، بمطالبها الاقليمية في استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور ، فاتحت فرنسا بريطانيا في أمر تحديد وتعيين مصالح كل من الحلفاء في الولايات الاسيوية للامبراطورية العثمانية . وكان جواب بريطانيا ، بهذا الصدد ، أنه ، مع ملاحظة أن « التطلعات الاقليمية » لم تتبلور بعد ، قررت الحكومة البريطانية أنه : « عندما ينحسر سلطان تركيا عن استانبول والمضائق ، لا بد أن تتشكل ، لصالح الاسلام ، وحدة سياسية اسلامية مستقلة في مكان آخر ، وسيكون مقرها ، بطبيعة الحال ، الاماكن المقدسة ، وتضم الجزيرة العربية ، ولكن لا بد وأن نتفق على ما ينبغي ان تضمه الى جانب ذلك » .

كان هذا في شهر آذار (مارس) ١٩١٥ . ومن المهم ملاحظة تاريخ ودلالة هذه السياسة البريطانية التي سبقت في تاريخها مراسلات مكماهون في وقت لاحق من العام ١٩١٥ ، والمفاوضات التي توجت باتفاقية سايكس ــ بيكو في العام ١٩١٦ ، ووعد بلفور في العام ١٩١٧ . لقد كانت تراود الحكومة البريطانية ، بادىء ذي بدء ، آخذة بعين الاعتبار المشاعر الاسلامية في الهند وغيرها من انحاء الامبراطورية البريطانية ، فكرة انشاء « وحدة سياسية اسلامية مستقلة » غير تركية تتمركز حول مكة والمدينة (وربما القدس أيضا) ، وتسيطر على مناطق تشمل ، فيما تشمله ، الجزيرة العربية على أقل تقدير . واذا استبدلت ، في بيان الحكومة البريطانية المشار اليه ، كلمة « اسلامية » بكلمة « عربية » خرجت بصورة محددة لنوع الاستقلال السياسي الذي كان يرومه شريف مكة ، باسم العرب ، في تموز (يوليو) ١٩١٥ . والفرق الوحيد بين الحالتين هو ان شريف مكة كان اكثر دقة وتحديدا فيما يتعلق بالحدود الاقليمية ، ولكن لم تكن الحكومة البريطانية قد فرغت بعد من البت في هذه القضية .

[٢]

فلماذا ، اذن ، بدت مقترحات الشريف حسين بعد قرابة أربعة شهور أقل توافقا مع مخطط السياسة البريطانية المذكور آنفا ؟ لقد كانت مقترحات الشريف حسين قومية ، وليست دينية ، في مادتها ومبناها ، وتنطوي في ثناياها على احتمال أقل في أن تخلق مصاعب بالنسبة لمستقبل الخلافة ومطالب السلطان العثماني بها ، اذ ، كما تبين فيما بعد ، عند اعلان « الثورة العربية » في حزيران (يونيو) ١٩١٦ تعاطف مسلمو الهند مع السلطان بصفته الخليفة الشرعي ، واعتبروا الثورة خروجا على الوحدة الاسلامية . بيد ان هذا لم يكن السبب الرئيسي للتحول الذي طرأ على السياسة البريطانية ، وازدواجية نظرة بريطانيا الى غايات « الثورة العربية » . لقد انصب اهتمام بريطانيا الاساسي في نظرتها « للثورة العربية » كعنصر من عناصر المجهود الحربي ضد تركيا . ان ما أفسد فرص تحقيق تفاهم عربي ــ بريطاني دائم ، وأحبط بالتالي تحقيق أماني العرب في الاستقلال ، وعرّض ديارهم لسيطرة بريطانية او فرنسية ، حلت محل السيطرة التركية ، كان مجموعة مترابطة من العناصر التي ، عندما نتمعن فيها بعد انقضاء هذا الزمن الطويل ، ندرك أنه ما من قوة على الارض ، في ذلك الوقت ، كانت

قادرة على الوقوف أمامها . وهذه المجموعة المترابطة من العناصر هي مطامع فرنسا ، والمصالح الامبراطورية البريطانية ، والمطامع الصهيونية ، وخليط من الرومنطيقية والرياء لدى السياسيين البريطانيين النافذين .

وتظهر القراءة الدقيقة لمراسلات مكماهون ان مطالب فرنسا في سوريا كانت وراء التحفظ البريطاني الرئيسي حول الحدود الاقليمية التي وردت في مقترحات الشريف حسين ، اذ سرعان ما تبين ان فرنسا قد طالبت بأن تشمل منطقة نفوذها سوريا الجغرافية بكاملها بما فيها لبنان وفلسطين . ولكن بريطانيا التي كانت تتحمل ، عندئذ ، العبء الرئيسي في محاربة تركيا في العراق وجنوب سوريا ، كما كانت لديهـا بعض المخططات للاحتفاظ بوضع خاص في العراق ، سرعان ما تحولت عن موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث الى الرغبة العارمة في تأمين منفذ الى خليج عكا على البحر المتوسط وممر أرضي اليه .

وكان لكل من روسيا وفرنسا مصالح دينية وثقافية في فلسطين . وهذه الوقائع والمطالب الشاذة هي علة البنود الشاذة لاتفاقية سايكس ــ بيكو التي قضت ، بعد اشباع مطالب روسيا الاقليمية في جهة أخرى من تركيا ، بتقسيم الولايات العربية في العراق وسوريا الكبرى بين بريطانيا وفرنسا وأبقت فلسطين جانبا لنظام دولي يقام فيها بعد اجـراء مشاورات بشأنه بين الحلفاء وشريف مكة . ويدل هذا البند الاخـير على أن المصالح الدينية المسيحية والاسلامية وحدهما اعتبرتا جديرتين بالبحث .

وقد اصطدمت تطلعات الصهيونيين بعنصرين ، على الاقل ، من عناصر تركيبة المصالح هذه ، وهما المصالح العربية والفرنسية ، الى جانب المصالح الروسية قبل الثورة . وقد كان الصهيونيون على درجة كبيرة من الدهاء عندما سعوا الى التحالف مع أقل هذه العناصر المتصارعة تشددا وهم البريطانيون ، فاتجهوا ، بناء على ذلك ، الى التحالف مع المصالح الامبراطورية البريطانية التي كانت فلسطين تسيل لعابها كقاعدة ضرورية لحماية قناة السويس والدفاع عنها . وقد كان الصهيونيون يدركون أنهم يواجهون ، في مسعاهم للحصول على اعتراف بريطاني بانشاء وطن يهودي او دولة يهودية في فلسطين ، معارضة شديدة ومنافسين أقوياء ، ولكنهم جازفوا بتجاهل هذه جميعها . وكانت أعظم مقامرة أقدموا عليها هي تجاهلهم الصارخ لواقع الاشياء ، بغض النظر عما تقرره الدول العظمى مجتمعة أو منفردة ، وهو أن الغالبية الساحقة من سكان فلسطين هم مـن العرب المسيحيين والمسلمين الذين تغور جذورهم الدينية والثقافية والقومية عميقا في تربة البلاد ، وعلى مدى قرون عديدة ليس منذ الفتح العربي فحسب ، بل قبله بزمن بعيد .

ولسنا هنا في معرض سرد الملابسات التي جعلت الصهيونيين يفلحون ، رغم كل هذه الظروف والأوضاع المناقضة لجوهر تطلعاتهم ، في اقناع كبار الساسة البريطانيين بمزايا التحالف البريطاني ــ الصهيوني . ونكتفي في هذه العجالة بالقـول انه اثر نجـاح الصهيونيين في كسب رئيس الوزراء لويد جورج ووزير الخارجية بلفور الى جانبهم أطلقت يدا السير مارك سايكس ، الرومنطيقي الساخر وأحد واضعي اتفاقية سايكس ــ بيكو ، في اجراء الترتيبات لوضع فكرة الصهيونيين وخطتهم موضع التطبيق . وقد أشار عليه لويد جورج نفسه ان يعمل نحو « فلسطين بريطانية » ، وأن يقوم بالتوفيق بين مآرب الصهيونيين وتطلعات كل من فرنسا والفاتيكان .

[٣]

عندما أصدرت الحكومة البريطانية ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، وعد بلفور الشهير والذي يعرب عن عطفها على فكرة تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين كان نصف البلاد ما زال في ظل السيادة العثمانية **واقعيا وقانونيـا** . وكذلك ، ان وعـد

مكماهون للعرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ، وان لم يتضمن جهارا فلسطين بكاملها ، فانه لم يستبعدها استثناء ، وفي الاتفاق الذي تم في عام ١٩١٦ بين روسيا وبريطانيا وفرنسا أبقيت فلسطين جانبا لاقامة نظام دولي فيها بعد التشاور مع شريف مكة . وفي ضوء هذه الظروف والاحوال ، كان اعلان بريطانيا عن تحبيذها لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين خطأ سياسيا وأخلاقيا فاضحا ، اذ أنها أغفلت اغفالا تاما أن تأخذ في الحسبان أمر سكان فلسطين العرب أو استشارة أي من زعمائهم ، ناهيك عن حليفها المخلص شريف مكة .

كان اللورد كرزون وحده بين المسؤولين البريطانيين آنئذ، وهو نائب الملك في الهند سابقا والوزير البارز في وزارة الحرب ، الذي توقف بعض الوقت عند المضامين والمغازي التي ينطوي عليها وعد بلفور ، مبينا أثناء جلسة مناقشته في الوزارة البريطانية أن في اعطاء هذا الوعد افتئاتا على حقوق ومصالح اسلامية وعربية أساسية . فقد قال حسبما ورد في سجل وقائع الاجتماع الذي جرى في ١٩١٧/١٠/٤ : « كيف يعقل ان يقترح التخلص من أغلبية السكان الحاليين المسلمين واحلال يهود محلهم ؟ وهو يرى أن تأمين حقوق مدنية ودينية متساوية لليهود المقيمين في فلسطين سياسة أفضل من العمل على اعادة اليهود الى فلسطين على نطاق واسع ، وهو أمر يعتبره من مظاهر المثالية العاطفية التي ينبغي الا يكون لحكومة صاحب الجلالة شأن بها من قريب أو بعيد » .

وقد بلور كرزون وجهة نظره في مذكرة قدمها الى الوزارة ومؤرخة في ١٩١٧/١٠/٢٦ ، أوضح فيها بجلاء المكانة التي تحتلها مدينة القدس في دنيا الاسلام والمسيحية ، ويشير الى المشكلة الانسانية التي ينطوي عليها وعد بلفور اذ يقول : « يوجد هنالك ما يزيد على نصف مليون من العرب السوريين ... وقد استوطنوا هم وأجدادهم البلاد منذ قرابة ١٥٠٠ عام ، وهم أصحاب الارض التي يتقاسم ملكيتها الملاكون الفرديون والمجتمعات القروية ، ولن يرضى هؤلاء بمصادرة أراضيهم وانتزاعها منهم لتسليمها للمهاجرين اليهود ، او ان يكونوا مجرد حطابين وسقائين لهم » .

وفي اجتماع الوزارة البريطانية بتاريخ ٣١ تشرين الاول أوضح بلفور نفسه ما يفهمه من التعبير « وطن قومي يهودي » : يعني شكلا من أشكال الحماية البريطانية او الاميركية او غيرهما « تتوفر لليهود في ظلها مرافق وتسهيلات كافية تتيح لهم بناء مقومات خلاصهم الذاتي غيرسون بالمؤسسات التربوية والزراعية والصناعية قواعد مركز حقيقي للثقافة القومية وموئلا للحياة القومية . وهو لا ينطوي بالضرورة على تأسيس دولة يهودية مستقلة في أمد قريب ، اذ يتوقف هذا الامر على التطور التدريجي وفقا لسنة التطور السياسي المعهودة » .

لا ريب ان بلفور كان يتمتع بالقدرة على عرض الامور بوضوح ، ولكنه كان ايضا مبرزا في طمس الحقائق وتشويهها بشكل فاضح . ففي اجتماع مجلس الوزراء في ١٩١٧/١٠/٤ ادعى ، ضمن ما ادعاه ، ان الرئيس الاميركي آنذاك ، ودرو ويلسون ، كان يحبذ اصدار وعد بريطاني يعلن العطف على التطلعات الصهيونية . وفي الاجتماع ذاته تصدى اليهودي ادوين مونتاغو وزير الدولة لشؤون الهند لبلفور واظهر ما في ادعائه ذاك من مخاتلة وتناقض ، اذ بين ، مستشهدا بالكولونيل هاوس ، أن الرئيس الاميركي ويلسون كان ، عندئذ ، يعارض اصدار مثل هذا الوعد .

وقد تكون أفظع مغالطات بلفور وتشويهاته للحقائق تأكيده بأن غالبية اليهود في روسيا يؤيدون التطلعات الصهيونية متجاهلا ، بذلك ، تجاهلا تاما نصيحة السفير البريطاني في روسيا الذي طلب منه أن يبدي رأيه فيما اذا كان الوعد المقترح سيساعد قضية الحلفاء ، فكان جوابه انه « يشك شكا بالغا » في ذلك ، لانه « لا يوجد بين اليهود في

روسيا حماس كبير للصهيونية خصوصا منذ الاطاحة بالنظام القديم (القيصري) » .
لقد آثر بلفور اهمال نصيحة موفده ومندوبه الخاص في مسرح الاحداث وقبول تأكيدات الصهيونيين الذين يعيشون في لندن على بعد آلاف الاميال من يهود روسيا . وقد وصف ادوين مونتاغو هؤلاء الصهيونيين بأنهم من اليهود المولودين في الخارج ، وهم الوحيدون الذين يدعون الى انشاء وطن قومي يهودي .

وبالطريقة ذاتها بالغ بلفور كثيرا في اظهار العطف الفرنسي على التطلعات الصهيونية كما أثار مخاوف زملائه الوزراء من احتمال قيام ألمانيا بأخذ زمام المبادرة من الحلفاء باصدارها وعدا بالتعاطف مع التطلعات الصهيونية ، وصور لهم أن اصدار وعد بريطاني سيكون له وقع حسن لدى اليهود في الولايات المتحدة. ولم يقل أبدا أية كلمة عن العرب، وتجاهل ملاحظات اللورد كرزون ، ولم يحاول مطلقا أن يجيب على أسئلته . وقلما كان وزير خارجية بريطاني متعاميا الى هذا الحد عن الجانب الاخر من قضية هامة .

[٤]

لقد أوصد بلفور ومساعدوه في وزارة الخارجية منافذ عقولهم الى واقع الاشياء وعميت بصيرتهم بحيث أنهم أثناء مداولاتهم بشأن تقرير مصير فلسطين ظلوا على اتصال وثيق بالصهيونيين ، ولكنهم رفضوا ، بعناد واصرار ، أن يأخذوا بالاعتبار الاحتجاجات التي قدمها المسلمون المقيمون في لندن (لقد حالت ظروف الحرب دون الاستماع الى رأي العرب الذين يعنيهم الامر لان معظمهم كانوا يقيمون في مناطق العدو) . ففي حزيران ١٩١٧ ألقى مرمادوك بيكثول ، الذي اشتهر فيما بعد بترجمته للقرآن ، محاضرة في قاعة كاكستون نشرتها ، فيما بعد ، الجمعية الاسلامية المركزية في لندن في كراس بعنوان « المصالح الاسلامية في فلسطين » ، والغرض من هذه المحاضرة كما قال صاحبها هو ازالة الجهل الخطير المتفشي ، عندئذ ، في بريطانيا ليس بين عامة الناس فحسب بل حتى بين الوزراء ، بشأن ما ينطوي عليه تطبيق الخطة المقترحة « بانشاء دولة يهودية في فلسطين في ظل سيادة احدى الدول المسيحية » من مضامين ومخاطر . واشتملت تلك المحاضرة على عرض واف لمكانة فلسطين والقدس في الاسلام وفي التاريخ العربي . وقد قدم نص هذه المحاضرة المطبوعة في كراس الى وزارة الخارجية البريطانية كاحتجاج اسلامي ، واطلع عليها كبار المسؤولين في وزارة الخارجية ثم بلفور نفسه . أما ملاحظات السير مارك سايكس عندما اطلع على المحاضرة فتكشف الكثير من النوايا المبيتة ، فعندما لم يجد في نص المحاضرة ما يعيب هاجم صاحبها من الزاوية السياسية دامغا اياه بأنه موال لتركيا ، وهي تهمة سيئة في ذلك الوقت وان تكن قد فقدت معناها الان . وكانت هذه التهمة كافية لاهمال النصيحة الهادئة التي محضها للحكومة البريطانية ، وهي ان فلسطين مقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام ، وأن من الخطأ الاهتمام بمصالح الديانتين الاوليين فقط وتجاهل الثالثة .

وعادت الجالية الاسلامية في لندن الى الهجوم من جديد ، فبعد خمسة أيام من اصدار « وعد بلفور » قدمت احتجاجا الى وزير الداخلية البريطاني وطالبت بضمانات بشأن المسجد الاقصى وغيره من الاماكن الاسلامية المقدسة . ولكن ، في هذه المرة ، لم يعتبر السير مارك سايكس الموقعين على الاحتجاج مجرد موالين لتركيا فحسب ، بل «عملاء» لتركيا وحض بقوة على تجاهل احتجاجهم ، وكذلك لم تكن أسعد مصيرا من هذه رسالة الاحتجاج التي وجهها « السيد أمير علي » من مجلس شورى الملك في بريطانيا بتاريخ ١٩١٧/١١/١٠ الى اللورد هاردينج الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ومندوب الملك السابق في الهند . وقد رغب السيد أمير علي أن يسترعي انتباه بلفور الى واقع أن « فلسطين هي في نظر المسلمين أرض مقدسة دون أدنى شك ، وان مدينة القدس لا

يفوقها قدسية وطهارة عندهم سوى مكة والمدينة » وبين أن من « الغبن والاجحاف » بالاسلام وضع أحد « أقدس أقداسه » تحت السيطرة اليهودية .

ولكن لب الامر ولبابه انه لا بلفور ولا أي من مساعديه كان يجهل الحقائق وواقع الاشياء ، ان لم يكن عن اي طريق آخر ، فبفضل الوقائع الناصعة التي وضعها تحت أنظارهم اللورد كرزون ، سواء كان ذلك على الصعيد الديني او الصعيد القومي . ولكن بلفور آثر أن يضرب بالوقائع كلها عرض الحائط . وبمساندة رئيس الوزراء لويد جورج ومباركته سار بهذه السياسة الى النهاية الى أن أثيرت رسميا في مجلس الوزراء . ولم يؤخذ العرب بأي حسبان سوى اتخاذ الاحتياطات لاخراس ما قد يصدر عنهم من احتجاجات . ويتضح هذا من برقية أرسلت مع نص وعد بلفور في يوم صدوره الى الجنرال وينغيت المندوب السامي البريطاني في القاهرة حيث جاء فيها : « ينبغي عليك ان تراقب تعليقات الصحف مراقبة شديدة حتى لا تستثار الحساسيات العربية » . فلا عجب اذن ان اكتفت أوسع الصحف العربية انتشارا ، آنذاك ، وهي جريدة « المقطم » التي كانت تصدر في القاهرة والمعروفة بموالاتها لبريطانيا بمجرد نشر نص وعد بلفور على هيئة برقية صحفية وردت من مكتب وكالة رويتر في لندن بتاريخ ٩ تشرين الثاني .

[٥]

كان اصدار وعد بلفور ايذانا بانتهاء المرحلة الاولى من اقرار الظلم والاجحاف سياسة رسمية لبريطانيا . ولكي تضع بريطانيا هذه السياسة موضع التطبيق كان عليها انتظار انجاز عدد من المهمات منها : استكمال احتلال فلسطين ، والحاق الهزيمة بتركيا بصورة تامة ، ومراجعة بنود اتفاقية سايكس ــ بيكو واعادة النظر في بعضها ، واضفاء صفة الشرعية من ناحية القانون الدولي على موقف بريطانيا ، والتفاوض مع فرنسا للتنازل عن مطالبها في فلسطين ، وضمان تعيين بريطانيا دولة منتدبة على فلسطين .

وقد تم انجاز هذه المهمات جميعا قبل حلول شهر تموز ١٩٢٠ عندما جرى تعيين السير هربرت صموئيل السياسي البريطاني الصهيوني مندوبا ساميا في القدس ، وقد أوكلت اليه ، بموجب انتداب من عصبة الامم ، مهمة تنفيذ سياسة انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين . ولا حاجة بنا الى القول انه قد جرى الاقدام على اتخاذ هذه الخطوات الخطيرة دون موافقة ، او حتى ، في بعض الحالات ، دون علم سكان فلسطين العرب . وقد أخذت بريطانيا علما بعدم رضى شريف مكة الذي كانت بريطانيا قد اعترفت به ملكا على الحجاز .

وقد ظن ، في أول الامر ، ان البيان الانكليزي ــ الفرنسي الصادر في ١٩١٨/١١/٨ هو بيان للسياسة البريطانية موجه له ، بيد ان انتهاء الحرب مع تركيا بسرعة ، وانتشار التململ وعدم الرضى على نطاق واسع بين السكان العرب في المناطق التي احتلها البريطانيون والقوات الحليفة لهم حولت هذا البيان الى نداء عام مشترك من الحكومتين الانكليزية والفرنسية . لقد استهدف هذا النداء العام المشترك تخفيف وقع اتفاقية سايكس ــ بيكو على العرب ، وتهدئة خواطر « القوى الديموقراطية » في معسكر الحلفاء ، وبصورة خاصة ، الانسجام قدر الامكان مع نقاط الرئيس الامريكي ويلسون الاربع عشرة . وقد سبق اعلان هذا البيان العام المشترك كثير من الاخذ والرد الدبلوماسي . فقد اقترحت فرنسا ان لا يقتصر تطبيق هذا النداء على سوريا والعراق فقط ، بل أن يكون تطبيقه عاما وشاملا . ولكن اللورد روبرت سيسيل ساعد بلفور الايمن في المسألة الصهيونية رفض الاقتراح الفرنسي لانه « سيكون من العسير التوفيق بينه وبين سياستنا المعلنة (كذا !) في فلسطين » . لقد أيقن الفرنسيون الان بما ارتابوا بشأنه طوال الوقت ، وهو أن بريطانيا كانت تريد الاستئثار بفلسطين متخذة من

التطلعات والاماني الصهيونية ذريعة وغطاء لمطامعها . وكان أول تلميح رسمي بنوايا بريطانيا السعي الى بسط سلطانها السياسي على فلسطين وحرمان غالبيـــة سكانها العرب من حق تقرير المصير ومن الحكم الذاتي لتسهيل مهمة تأسيس وطن قومي يهودي فيها . ورغم ان النداء الانكليزي ــ الفرنسي المشترك قد عمم رسميا في فلسطين ، فانه لم يكن بوسع الحكام العسكريين البريطانيين في فلسطين جلاء أمر هو غامض في ذاته . فكتب كبير الضباط السياسيين في فلسطين الى وزارة الخارجية طالبا توضيح مضمونه وجلاء مراميه . وكان جواب وزارة الخارجية حلقة أخرى في سلسلة سياسة الازدواجية والخداع ، اذ أبلغته وزارة الخارجية أن فلسطين مستثناة من مضمون هذا النداء العام، وان هذا هو « لمعلوماته الخاصة » .

لقد بان الغرض من سياسة المواربة والمراوغة وانكشف أمرها . ففي الاسبوع الاول من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، أي بعد أقل من شهر من اصدار البيان العام ، عقد رئيس الوزراء البريطاني صفقة سرية مع رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو غيرت بمقتضاها بنود اتفاقية سايكس ــ بيكو فأطلقت يد بريطانيا في فلسطين مقابل اطلاق يد فرنسا في بقية سوريا . وقد تغافل المسؤولون البريطانيون تغافلا تاما عن مسألة التشاور مع شريف مكة بهذا الصدد ، كما ورد في النص الاصلي للاتفاقية .

وفي تلك الاثناء كانت فلسطين تفور بالقلق والاضطراب ، رغم مـــا فرضته السلطات العسكرية من حظر للنشاطات السياسية . وجدير بالذكر ان الملفات البريطانية تشتمل على توثيق وتسجيل للاحتجاجات العربية أفضل من أي مصدر آخر عرفته ، ولهذه السجلات قيمة كبيرة جدا بحيث انها تستحق دراسة خاصة . لقد كان بوسع السلطات العسكرية البريطانية ان تقيد وتضيق حجم عمليات الاحتجاج ، ولكنه لم يكن بوسعها ان تحجب الوقائع عن مرجعها في لندن . وقد أثارت موجة الاحتجاج الكبيرة هذه مخاوف أنصار القضية الصهيونية في وزارة الخارجية البريطانية بحيث ان السير مارك سايكس سعى عن طريق التهديد المبطن للامير فيصل ، الذي كان عندئذ في زيارة رسمية للندن ، لكي يستخدم « نفوذه » لاخماد حملة الاحتجاج والمعارضة ضد الخطط الصهيونية .

[٦]

وكانت آخر خطوات بريطانيا للقبض على خناق فلسطين فوزها بالانتداب عليها وتضمينها بنود الانتداب ليس وعد بلفور فحسب بل بنودا مفصلة حول تطبيقه وتنفيذه ايضا . وقبل ان يقر مؤتمر السلام في باريس هذه الاجراءات ارسل لجنة مستقلة للتحقيق الى سوريا، ووجدت هذه اللجنة ان عرب فلسطين يرفضون البرنامج الصهيوني وأي انتداب بريطاني يلتزم بتنفيذه . وقد خشي بلفور من نتيجة هذا التحقيق ، فاعترض على شمول فلسطين في التحقيق وبين في مذكرة قدمها الى رئيس وزرائه لويد جورج انه بالنسبة الى فلسطين « نرفض محقين وعن سابق اصرار قبول تطبيق مبدأ حق تقرير المصير » .

وأثناء صياغة بنود الانتداب كان المسؤولون في وزارة الخارجية البريطانية يعملون بتعاون وثيق مع الصهيونيين ، ولكنهم لم يستشيروا حتى مرة واحدة أية سلطة عربية، فلسطينية كانت أو غيرها . وهذا مناقض لروح ونص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم التي تضمنت ان تطوير مناطق الانتداب وتأمين الخير لها هو « أمانة مقدسة في عنق الحضارة » ، وأنه عند اختيار الدولة المنتدبة التي مهمتها تقديم المشورة الادارية يجب ان « توضع في المقام الاول » رغبات سكان منطقة الانتداب . ونتيجة لهذه المؤامرة الانكليزية ــ الصهيونية جاءت بنود الانتداب على فلسطين مختلفة عما هي عليه لسوريا ولبنان والعراق ، فهذه البلدان اعتبرت بمثابة بلدان مستقلة بحاجة الى مساعدة دولة منتدبة لعدد من السنين. اما فلسطين ، فقد أوكل أمر «ادارتها» الى بريطانيا دون اي تلميح او اشارة الى منحها

الاستقلال في المستقبل ، وذلك ، دون أدنى ريب ، نتيجة حرمانها من حق تقرير المصير وفرض سياسة انشاء وطن قومي يهودي فيها . هذا ، وقد ذهبت احتجاجات العرب الى مؤتمر السلام في باريس والى عصبة الامم ادراج الرياح .

وكان الناطق العربي الوحيد الذي له شأن وسلطة فيصل بن الحسين الذي قدم احتجاجاته بالحاح . وقد نفض اولا يديه ، في رسالة رسمية الى الحكومة البريطانية ، من مزاعم الصهيونيين بأنه « أقر » لهم بسياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وقال في رسالته : « ان كل ما اعترفت به هو ان أؤمن حقوق اليهود في تلك البلاد بالقدر الذي أؤمن به حقوق السكان العرب المحليين » . وجلب الانتباه الى معارضة سكان عرب فلسطين القوية ، وأكد وجهة النظر العربية بأن فلسطين هي ضمن المناطق التي وعدت بريطانيا بمنحها الاستقلال وعبر عن ثقته بأن ذلك الوعد البريطاني لا يلغيه وعد لاحق للصهيونيين . واضاف أن والده (الشريف حسين) مخول ، حتى بمقتضى اتفاقية سايكس ــ بيكو ، أن يؤخذ رأيه بصدد مستقبل فلسطين . ولكنه ، ومما يثير الدهشة ، لم يشر الى الرسالة البريطانية الى والده التي تلقاها بواسطة « هوغارت » والتي جعلت الوعد لليهود خاضعا لحرية عرب فلسطين السياسية والاقتصادية . وختم فيصل رسالته قائلا : اذا ما أمكن الابقاء على وحدة سوريا وفلسطين « فبوسعنا ان نتوصل الى حل يؤمن مصالح جميع من يهمهم الامر » .

لقد كان الامر بكامله اشبه بحوار الطرشان . فقد كانت بريطانيا مصممة على فصل فلسطين عن سوريا ، واتفقت مع فرنسا على ذلك . وكذلك فان زبائنها الصهيونيين كانوا غير راغبين في ان يكونوا تحت حكم أمير عربي ، حتى وان كانت سلطته اسمية ، في حين كان متاحا لهم حاكم من جنسهم وان تنكر بزي مندوب سام بريطاني . ومن جهة أخرى ، لم تكن فرنسا مرتاحة حتى لذلك القدر الضئيل من الاستقلال الذي كان فيصل يتمتع به في دمشق . لقد كان كل من مؤتمر السلام في باريس وعصبة الامم المتحدة تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بشؤون الشرق الادنى العربي ، ولذلك كان فيصل والعرب يواجهون خصوما جبارين ، وكان حالهم في هذا أشبه بحال المتظلم ، في الحكاية ، الذي تبين له ان المتهم هو نفسه القاضي الذي قدمت الشكوى له !

[٧]

لقد التزمت الحكومة البريطانية جانب العناد ، بصورة غير معهودة ، وضربت عرض الحائط بتحذيرات رجالها وممثليها في مسرح الاحداث . ففي ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ أرسل الجنرال غيلبرت كلايتون كبير الضباط السياسيين لدى قائد القوات البريطانية العام في سوريا وفلسطين برقية الى وزارة الخارجية بأن وضع نصوص اتفاقية سايكس ــ بيكو والسياسة الصهيونية موضع التطبيق « سيتطلب ، دون شك ، الاحتفاظ بجيش احتلال فعال لمدة سنوات كثيرة قادمة » . لقد أثبتت هذه النبوءة صدقها طوال مدة الانتداب على فلسطين ، كما أثبتت صدقها حتى بعد انتهاء الانتداب الذي استبدل الاحتلال البريطاني باحتلال اسرائيلي .

لقد مضت السلطات البريطانية قدما في تنفيذ السياسة التي استحدثتها في العام ١٩١٧ دون هوادة وفي وجه معارضة عربية شديدة باللجوء الى القوة القاهرة العمياء . وقد رفضت الحكومات البريطانية المتعاقبة حتى مجرد احتمال معاودة النظر في سياستها . ومن المفيد أن ندرج هنا اثنين من ردود الفعل البريطانية المبكرة تجاه الاحتجاجات العربية . فأما رد الفعل الاول ، فقد جاء على هيئة بيان رسمي أصدره هربرت صموئيل بعد وقت قصير من تسلمه منصب المندوب السامي في القدس في محاولة لتثبيط عزائم العرب والقضاء على أي بصيص أمل لديهم باحتمال اعادة النظر في السياسة البريطانية

اذ جاء فيه : « لم يطرأ ، **ولن يطرأ** ، اي تغيير على سياسة حكومة صاحب الجلالة » . أما رد الفعل الثاني فقد سجله احد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية على هيئة شرح وتذييل لاستلام طلب « انشاء حكومة تمثيلية تكون مسؤولة أمام جمعية تشريعية منتخبة» من المؤتمر العربي الفلسطيني الاول، اذ جاء في ذلك التذييل : « لا اظن اننا بحاجة الى ان نعير هذا الطلب اي اهتمام،حتى ولا مجرد ارسال اشعار بالاستلام» . مرة واحدة فقط في خلال ٣٠ عاما اعترفت حكومة بريطانية بامكانية اعادة النظر في سياستها . ففي عام ١٩٣٩ ، وبعد ثورة عربية مسلحة دامت ثلاث سنوات ، اقترحت الحكومة البريطانية اقامة حكومة تمثيلية بعد انقضاء فترة انتقالية مدتها عشر سنوات . وبغض النظر عن الاعتبارات الاخرى ، كان طول الفترة الانتقالية المغالى فيه غلطة كبيرة ، وقد ساهم كل من معارضة الصهيونيين لهذا الاقتراح ، وتردد العرب في قبوله ، ثم اشتعال الحرب العالمية الثانية ، الى تخلي بريطانيا عن هذه السياسة . وقبل ان تنفض الحكومة البريطانية يديها من المسؤولية وتحيل القضية الفلسطينية الى منظمة الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ ، كان قد اتضح بجلاء انه لم يكن هنالك انصاف للاغلبية العربية . فطوال ثلاثين سنة عمدت القوات البريطانية الى اكراه الاغلبية على قبول تأسيس واستمرار نمو الوطن القومي اليهودي الى أن أصبح اليهود ، الذين كان عددهم لا يتجاوز ٨ ٪ من السكان في العام ١٩١٧ ، يشكلون ثلث مجموع السكان ، ورفضت السلطات البريطانية ، رفضا باتا ، طوال الوقت ، الاستجابة الى طلب انشاء حكومة تمثيلية .

فاذا كان بالامكان اكراه الاغلبية ، **دون حق أو انصاف** ، واجبارها قسرا لصالح الاقلية، فلماذا لم يتيسر اكراه هذه الاقلية ، **بحق وانصاف** ، لقبول حكم الاغلبية ؟ ان التمعن في ما ينطوي عليه هذا السؤال من دلالات هو تعقيب حزين ومؤسف على العدالة البريطانية . ان نكران حق تقرير المصير على عرب فلسطين مدى ثلاثين عاما هو دون ادنى شك علة خسارتهم أرض آبائهم واجدادهم وسقوطهم في حمأة وضعهم الراهن المفجع .

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

تهويد فلسطين

اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم أبو لغد

ترجمة الدكتور أسعد رزوق

٤١٣ صفحة

٨ ل.ل.

تضاف اجور البريد : ١٠٠ ق. ل. في البلاد العربية
٢٥٠ ق. ل. في اوروبه ، ٥٠٠ ق. ل. في سائر دول العالم

الفكر الصهيوني في شعر بياليك

الدكتور عبد الوهاب المسيري
ورشاد الشامي

يعد الشاعر اليهودي الروسي حييم نحمان بياليك* (١٨٧٣ — ١٩٣٤) من أكبر شعراء أدب عصر الاحياء القومي اليهودي قاطبة . وقد ولد بياليك لابوين فقيرين عام ١٨٧٣ في قرية روسية بالقرب من زيتومير . وحينما توفي ابوه وهو لا يزال في السابعة ارسل بياليك ليعيش مع جده المتدين المتزمت . وفي هذه الفترة من حياته تلقى بياليك تعليمه الديني ، وقرأ كثيرا من الكتب الدينية (التي يشير اليها في قصائده) ولكنه قرأ في الوقت ذاته عديدا من كتب دعاة « الهسكلاه » مما سبب له صراعا فكريا لم يتمكن من حسمه طيلة حياته . وحينما بلغ بياليك السابعة عشرة من عمره التحق بأكاديمية فولوزحين الدينية حيث بقي لمدة ثمانية عشر شهرا وهناك بدأ في الكتابة الادبية والتحق بجماعة « أحباء صهيون » . وحينما تخرج بياليك عام ١٨٩١ ذهب الى اودسا التي كانت آنذاك مركزا للبحث الثقافي الروسي اليهودي . وقد شجعه المفكر الصهيوني احادهعام على الكتابة وساعده على نشر قصائده الاولى . وبعد ان اشتغل بعض الوقت في الاعمال التجارية التي باء معظمها بالفشل ، اضطر بياليك للاشتغال بتدريس اللغة العبرية للصغار . وقد هاجر بياليك من روسيا السوفييتية عام ١٩٢١ ومكث لمدة ثلاث سنوات في برلين ، هاجر بعدها الى تل ابيب حيث دفن بعد موته عام ١٩٣٤ .

وقد ساهم بياليك في احياء اللغة العبرية عن طريق تحرير المجلات وتصنيف المعاجم العبرية وترجمة روائع الادب العالمي وكتابة الشعر .

ويمكننا أن نقسم قصائد بياليك الصهيونية الى اربعة أقسام تناولت الابعاد الاربعة التي دارت في اطارها ارهاصات حركة الفكر الصهيوني في مستهل القرن العشرين وهي : ١) فكرة العودة الى الارض والطبيعة ، ٢) فكرة المسيح المخلص ، ٣) فكرة نبذ الهسكلاه أو بالتحديد نبذ الاندماج في الشعوب ، ٤) موقفه من التراث اليهودي .

١) **فكرة العودة الى الارض والطبيعة** : لقد كانت العودة الى الارض — ارض فلسطين — هي الركيزة الرئيسية لفكرة « محبة صهيون » والتي عبر عنها بياليك في عدد من القصائد . وقد كانت اولى قصائده التي تحمل هذه الروح هي قصيدة « الى العصفور » التي كتبها عام ١٨٩١ . في هذه القصيدة يستخدم بياليك العصفور كرمز يخاطب من خلاله رموز الارض المقدسة ، ويطلب منه ان يخبره عن امجاد الارض القديمة ويبثه اشواقه الى هذه الارض :

---

* المصدر الذي استقينا منه هذه المعلومات عن حياة بياليك هو كتاب ارثر هرتزبرج **الفكرة الصهيونية** (نيويورك ، ١٩٥٩) ص ٢٧٨ ، اما النصوص الشعرية التي سنعرض لها بالتحليل في هذا المقال فقد قام الاستاذ رشاد الشامي بترجمتها عن العبرية .

تحية دافئة لعودتك أيها العصفور الجميل
من البلاد الحارة الى نافذتي ؛
كم اشتاقت نفسي الى صوتك العذب
أتحمل لي السلام من اخوتي في صهيون ،
من اخوتي البعيدين القريبين ؟
يا أيها السعداء أتعلمون انني أعاني ،
نعم أعاني من الآلام .

وارتباط الشاعر بالارض ارتباط رومانسي حالم لا جذور له الا في وجدانه وذاته ولعل هذا هو السر في استخدامه لرموز مستقاة من الطبيعة ليس لها أية ابعاد اجتماعية أو تاريخية . ثم يسأل الشاعر العصفور عن حال كل ما تشتمل عليه الارض المقدسة من رموز ذات دلالات دينية لليهود :

أتحمل لي السلام من فاكهة البلاد
ومن السهل ، ومن الوادي ، ومن قمم الجبال ؟
كيف حال نهر الاردن ومياهه الصافية ؟
كيف حال كل الجبال وكل التلال ؟

والخلفية الطبيعية التي يصفها الشاعر في قصيدته تتصف بالعمومية فهو يسأل عن « كل الجبال وكل التلال » لانه ليس له علاقة مباشرة ومحسوسة وشخصية بهذه الطبيعة ، بل هي علاقة ذهنية مستقاة من الكتب الدينية والادبية اليهودية (وليقارن القارىء عمومية اللغة والصورة عند بياليك « نهر الاردن ومياهه الصافية » بخصوصيتها ومحسوسيتها البالغة في شعر محمود درويش « لن يصب النيل في الفولغا/ولا الكونغو ولا الاردن في نهر الفرات / كل نهر وله نبع ... ومجرى ... وحياة ») . والخلفية الطبيعية العامة هي خلفية الانعتاق من التاريخ اليهودي ومن المنفى بل ومن كل الآلام الانسانية . انها خلفية تمكن الذات اليهودية أن تطرح كل اعبائها التاريخية جانبا لتنطلق مثل العصفور نحو البعث الجديد .

والعودة للطبيعة وللارض التي سيكتب لذاته الانبعاث فيها تظهر بوضوح وجلاء في قصيدة « في الحقل » التي يعبر فيها الشاعر عن حرقة شوقه للتحرر والانطلاق باندماجه في الطبيعة الطلقة . فهو يعبر عن شوقه الى الحياة البسيطة في القرية نادبا حظه الذي لم يمكنه ان يكون بين اخوانه الذين حققوا حلمهم فغدوا يحيون من ثمار فلاحة الارض في ارض اسرائيل .

ويستهل الشاعر قصيدته هذه بالتعبير عن أنه وجد خلاصه وحريته في **الانطلاق** في الحقول التي **لا تحدها الاسوار** والتي **يخيم** عليها الامان ويباركها الرب ، وذلك لان مشاعره تنجذب اليها وسيل تفكيره مشدود نحوها :

هربت اليوم الى الحقل من حزني خائر القوى
هربت الى حيث تهفو مشاعري وتتدفق افكاري .

ثم يبدأ في التجاوب مع الحقل ومناجاته **والاختباء** بين سنابل القمح **والاصغاء** الى **صمت** الغابة مستمعا الى اسرارها التي ينبس بها ورق الاشجار :

آتي بين **القمح واختبىء** ،
واغرق بين سنابله **واندفع** مع سيقانه الوفيرة ،
وانجرف مع **فيضان امواجها** ،
وأصغي لصمت الغاب واسمع اسرار الدغل ،

وفي هدوء يترامى الى أذني همس الاشجار
فأسمع سر حديث أوراقهـــا .

ان معجم بياليك يتكون من مجموعة من الكلمات الرومانسية ذات الدلالة الواضحة مثل: ينطلق ، لا تحدها الاسوار ، هربت ، اندفع ، انجرف مع فيضان امواجها ، اختبىء ، أغرق ، اصغي لصمت . وهي كلمات ان دلت على شيء فهي تدل على رغبة الشاعر الدفينة في أن يلقي بذاته في احضان مطلق ما (الامـــة ، العمل اليـــدوي ، التوراة ، المسيح المخلص) مطلق لا علاقة له بوجوده اليهودي المحسوس في المنفى وذلك حتـــى يتسنى له ان يذيب كل همومه اليهودية ويصبح في براءة الاطفال وفي طهر الموتى .

وفي نفس القصيدة يستمر بياليك في استخدام الصور التي تعبر عن رغبته في « العودة » الى كل غير تاريخي يستوعب الذات الفردية فيتحدث عن الارض بنغمة حانية رامزا لها برمز الامومة راجيا اياها ان ترضعه من ثديها لان نفسه ظامئة اليها :

أغمر **وجهي وأهوي** على الارض الندية
وأسألها ذارفا الدمع فوق صدرها :
اماه : أيتها الارض **الرحبة الكبـــيرة**
قولي لي ، لم لا تخرجي ثديك لـــي
فأنا ايضا لي روح فقيرة متشبهة .

« أغمر وجهي » ، « وأهوي على الارض » هما استمرار لمعجم بياليك الهروبي وهما صورتان فيهما تعبير عن الرغبة في الانطلاق ولكنه انطلاق يشبه الموت الى حد كبير ولذلك فهو يهوي ويهوي على الارض الرحبة الكبيرة ، رحابة مطلقة تذكرنا برحابة القبر الذي يوجد خارج الزمان .

وبياليك مثل كل الشعراء الرومانسيين يذهب الى الطبيعة ليبثها همومه وليصب في قوالبها أفكاره . ولذلك حينما تهب الريح فجأة وترتعد السنابل ذعرا ، وتتطاير الغلال في الهواء مثل نعجات القطيع المذعور يفاجأ الشاعر بان حركة الطبيعة تشابه الى حد كبير حركة عقله وفكره . فسنابل القمح تركض مسرعة « الى حيث **ترحل** الغيوم » « الى حيث يشرق النهار **وتهرب** السحب » « الى حيث **تحمل الاحلام** نفوسنا » .

وينهي الشاعر قصيدته بتأكيد شوقه الى ان يكون مثل من سبقوه من اخوانه الى الهجرة ويختم القصيدة بأن يرسم صورة للمستعمرين الصهاينة في فلسطين يعيشون في وئام مع الطبيعة وعناصرها :

اخوتي العاملون في بيت أمـــي
الذين قد يرفعون أصواتهم في هذه اللحظة ،
من أعلى جبل أو تل ،
مجيبين على تحيتي المرسلة اليهم .

ان عمومية وصف بياليك للطبيعة تصل الى الذروة في تحيته المرسلة الى « أعلى جبل أو تل » ، اي جبل او اي تل ، يتصادف ويكون أعلى من زملائه . والصهيوني بياليك لا يملك الا ان يرسل هذه التحية الباهتة العامة ، لان علاقته بهذه الارض علاقة واهية ، علاقة بفكرة واهية ، علاقة بفكرة وليس بواقع معاش . اين هذا من شعر درويش الذي يمور بتفاصيل حبه المباشر لفلسطين التي يعرفها والتي عاش فيها، حب يصل به الى درجة تجعله يشعر بمذاق « ملح الخبز واللحن / وطعم الارض .. والوطن » ان درويش يعرف اسم فلسطين وعينيها ووشمها واحلامها وهمومها ومنديلها وقدميها وجسمها وكلماتها وصمتها وصوتها وميلادها وموتها ولذلك فهو لا يرسل تحيته ابدا « الى أعلى جبل أو تل » .

٢) **فكرة المسيح المخلص** : واذا كانت الطبيعة في شعر بياليك هي استعارة يستخدمها لوصف المطلق المجرد الذي يتخطى التاريخ ، ففكرة المسيح المخلص هي الاسطورة الدينية اليهودية التي يستخدمها ليعبر عن نفس الموقف . واذا كان ثمة اختلاف هام بينهما فهو يتلخص في ان استعارة الطبيعة تعبر عن الرغبة في الهرب الى مطلق غير يهودي يحرر الشاعر من ذاته اليهودية المنفية ، اما اسطورة المخلص فهو المطلق اليهودي الخالص الذي يساعد الشاعر على تحقيق الغرض ذاته عن طريق الذوبان في الامة التي تعيش في ارض الميعاد .

وقد عبر بياليك عن المسيانية في شعره بصور متعددة الوجوه ، وحينما كان يعبر عن فكرة المسيح المخلص فانه كان يقصد الخلاص من عبودية المنفى واعداد مملكة اسرائيل بالاضافة الى انه أبرز واكد ان الخلاص الكوني والانساني العام هو رهن بمجيء المسيح وتحقيق مثاليات الشعب اليهودي وان اساس المهمة التاريخية لليهود عبر كل الاجيال هو السعي لتحقيق الخلاص . وبما انه ليس هناك مغزى للتاريخ بدون حياة شعب اسرائيل ، فكذلك ليس هناك اي مغزى لاي مثالية معلنة للخلاص لا تضع في حسبانها أولا وقبل كل شيء خلاص شعب اسرائيل . وقد عبر بياليك عن هذه الرغبة في الخلاص بصورة مباشرة وصريحة في قصيدته « اثار المسيح » . وهذه القصيدة يستهلها الشاعر بالتعبير عن فقدان الامل في الخلاص لتأخر المسيح في المجيء :

لم يأت المسيح بعد ولم يقترب يوم خلاصنا ،
ولم يسحب كبش الضان بعد على قمة جبل الزيتون
لقد نفد الدرهم الاخير من جيبنا ،
ونفدت انفاسنا وصرنا جميعا امواتا .
لقد تحققت كل النبوءات
التي نطق بها الحكماء وتنبأ بها الانبياء .
هل تحدثوا بالباطل وبثوا الاكاذيب
والا فلم اذن تأخر قدوم المسيح ؟

وفي نفس القصيدة يواصل الشاعر النغمة اليائسة مشيرا الى الامل الذي غزا كل القلوب والاستعدادات من أجل يوم الخلاص بين كل الناس من مفكرين ورجال دين واناس عاديين وسفهاء . ولكنه في النهاية ينتابه اليأس من كل هذه الاستعدادات ومن قدوم أمل الخلاص مجسما في المسيح . وفي قصيدة « الى الهاجادا » (والهاجادا هو كتاب صلوات يهودي) يستعرض الشاعر المصائب التي حلت باليهود وكيف ان القيثارة كانت تواسيهم في محنتهم وتخفف عنهم عبء ما يعانون ، ولكن هذه القيثارة انتهى عهدها ومضى زمانها ولم يعد لها وجود وحلت بدلا منها « الهاجادا » التي تحكي عن روح البطولة اليهودية :

ومنذ ذلك الحين حتى اليوم
لا ملك في اسرائيل ــ لا ملك ولا قيثارة ولا عود ،
وانفلتت الاصوات التي صدرت من اوتار القيثارة
وكانت الهاجادا .
ومنذ ذلك الحين حتى اليوم .....
وأنا أنوح بالاحزان
وأتخذ من الهاجادا قيثارة لي .

وفي أحلى أحلامه في الصيف ، حتى في شكوكه وتخبطاته التي تصل الى الاعماق ، ولدى احساسه بانحدار شعبه ، ومع النوازع العاصفة التي جعلت ثقته وايمانه بالعصر

ينهاران ، حتى في تلك اللحظة كان الشاعر يشتاق الى يوم الخلاص « الى يوم العتق » . ان هذا الشوق هو كل مناه ، وهو « شمسه » التي تمنحه الاضواء في الايام الحالكة المظلمة ، في ايام حياة الكلاب المشبعة بالخزي والفاقة .

وظهور المسيح لن يتحقق الا في نهاية التاريخ والزمن اذ أن ظهوره هو في الواقع اللحظة التي سيحل فيها الزمان المطلق محل الزمان التاريخي ، وبظهوره يصل التاريخ نهايته . اذ أن التاريخ يحمل معنى التطور والتغيير والتعديل ، أما المسيح المخلص فهو ثابت لا يتحول . والمسيح لن يظهر الا اذا بلغ الفساد ذروته وبلغت تناقضات التاريخ منتهاها ، ووصل استشهاد الامة اليهودية من أجل مثلها مداه . وان المعاناة المستمرة ستكون السبب في دفع النهاية في تقريب يوم الخلاص . ولكن ولادة المطلق من النسبي ، واللاتاريخي الثابت من التاريخي المتغير ليست ولادة سهلة ، ولذا فاننا نجد ان الشاعر يستخدم صورة « النار المحرقة » بدلا من « الشمس المضيئة » لوصف ظهور المسيح :

من جبال الظلام سوف ينحت اللهب
وسوف تضيء وتتلألأ روحنا المقدسة .

وفي قصيدة « رسالة صغيرة » يصف الشاعر المسيح بأنه مثل « العمود الناري » (وهذه صورة مستقاة من العهد القديم الذي كان يعرفه الشاعر جيدا) . وفي قصيدة « موتى الصحراء الاخيرين » يستخدم الشاعر استعارة النار المحرقة المخربة مرة اخرى . يصف بياليك في القصيدة القائد العسكري للنبي موسى « يشوع بن نون » الذي يقف على قمة التل وصوته يهدر في مواجهة جيشه من اليهود وهو يستعد لغزو ارض كنعان ... والشاعر يرى ان المنفى اليهودي الحالي مثل الصحراء التي تاه فيها اليهود وماتوا ولذا فهو يدعو الجيل اليهودي الى الاستيقاظ والى رفض حياته ويطلب منه ان يمتثل صوت « يشوع بن نون » ويسير الى ارض الآباء لاعداد مملكة بيت داود كسابق عهدها :

صوته يخرج كالسهم مليئا بالقوة والطاقة
وكلمته **تخترق كالشعلة ، كالنار** ،
حتى الصحراء المخيفة ، الصحراء الخالية
تردد وراءه : « قم يا اسرائيل ، قم أيها المسكين » .

وفي قصيدته الشهيرة « حقا ان الشعب لعشب » يستخدم بياليك صورة اخرى لوصف ظهور المسيح : صورة النفير ، وهي صورة مرتبطة في اللاوعي الجماعي بنهاية الايام والنفير مثل النار المحرقة ينم عن العنف الذي لا بد وأن يصاحب التحول من الواقع التاريخي اليهودي المغرق في العفن حيث يرقص اليهود حول العجل الذهبي الى الواقع المثالي المفرط في المثالية واقع البعث القومي الجديد :

ورقة ذابلة في شجرة ، زبد متصاعد من موجة ،
كرم عفن ، هل يحييه الندى ؟
هل ينفخ النفير وترفع الراية
ليستيقظ الميت او يهتز ؟

وان لم يأت المسيح بنفسه يجب على اليهودي أن ينفض عن نفسه غبار السلبية . وبلغة تنم عن العنف الحتمي الذي يصاحب محاولة فرض الرؤية المثالية على الواقع المتغير ، يطالب بياليك اليهودي بأن يضرب على القلوب وأن ينقذ الشرارات من داخله ، وان يضيء كل ظلماتها . وفي قصيدة « مع الشمس » يقول :

ان بحثتم عن ضياء الشمس بلا جدوى ،
فامضوا واخلقوه **من العدم** .

من الرخام اقطعوه ومن الصخور انحتوه
ومن زوايا قلبكم اجذبـــوه .

ان مسيح بياليك المخلص لا يختلف كثيرا عن مسيح الروايات اليهودية الاسطورية ، وان كان المسيح المخلص التقليدي مجرد فكرة أخلاقية أو حلم بالعصر الذهبي ، فان مسيح الصهاينة هو فكرة مثالية تحولت الى برنامج سياسي يحاول ان يفرض نفسه على الزمان والتاريخ حتى وان أدى ذلك الى الدمار والخراب والنابالم .

وقد يبدو لاول وهلة ان صور « العودة » الرومانسية المتمثلة في كلمات مثل « الاختباء » و« الغرق » و« الاصغاء للصمت » و« الرضاعة مـــن ثدي الارض الرحبة الكبيرة » متناقضة مع صور الانطلاق والتدمير والخلق من العدم والمتمثلة في كلمات مثل « النار » « والنفير » « وقطع الرخام » (والافعى فيما بعد) . ولكن التناقض في صميمه سطحي لان الصور في مجموعها تعبر عن رغبة في عدم مواجهة المحسوس التاريخي ان كان عن طريق الانسحاب منه او تدميره كلية .

٣) **نبذ الاندماج في الشعوب** : في عام ١٩٠٥ كانت روح الحرية تكتسح روسيا وقد جرفت معها أكثر الشباب اليهود من الرجال والنساء وقد أعطى هؤلاء طاقتهم لقضية تحرير روسيا من الحكم القيصري ولم يلتفتوا بالمرة الى الدعـــوة العنصرية الى « القوميـــة اليهودية » التي كانت في مضمونها انفصالا عن جوهر الارتباط بالوطن الذي يعيشون فيه . وهال بياليك ما يحدث ، وهو الصهيوني الذي لا يمارس أي احساس بالولاء او الحب نحو الانسانية ، فانطلق يحذر اليهود بلغة قبلية متعصبة من قصاص الرب الذي سوف يحل بهم لانهم أعطوا أحسن ما لديهم للثقافات الاجنبية ورهنوا أرواحهم كالوديعة لدى الآخرين ، وشيدوا أبنية روحية وعقلية لكل شعب على الارض ثم أغرقوا فيها أرواح أطفالهم :

زرعتم دمعتكم المقدسة في كل المياه ،
ونظمتم من خيوط النور شعرا خادعا ،
وافضتم روحكم على كل رخام اجنبـــي .

ان علاقة اليهودي بالثقافة العالمية ـــ حسب تصور بياليك ـــ هي مثل علاقته بالجوييم(أي الاغيار)، علاقة تنطوي على الشك والخوف ، يلعب فيها اليهودي دور الشهيد والضحية، يعطي ولا يأخذ شيئا ، كأن الثقافة اليهودية استحدثت من العدم ونمت في أثير لا تاريخي. ثم يستطرد بياليك في نفس القصيدة قصيدة « حقا ان هذا قصاص الرب » فيصف كيف تقترب النسور الشابة من النور وتترك العش القديم وحينما تنمو اجنحتها تطير عاليا الى النور رأسا ، بينما لا يبقى أي شعاع يمكنهم أن يعيدوه الى « خيمة يعقوب الخاوية » :

وكلما كبر من ابنائكم نسر وأصبح له جناح
ترسلونه من عشه الى الابد .
وما ان يحلق في الاعالي متعطشا للشمس ومقتدرا
لا يدع النور ينزل اليكم ،
وما ان يجتاز السحاب بجناحيه ويشق طريقه للاشعة
لا يجعل الاشعة تهبط اليكم .
وهناك بعيدا على قمة الصخور يصرخ
ويصل صدى صوته اليكم ،
وتجلسون متكدرين ومكتئبين :
في الخارج مطر دائم وفي القلوب رماد وتراب ،
وعيونكم مأوى لذباب الموت الذي على نوافذكم
ومأوى للعناكب التي في الزوايا الخربة .

ان الصهيوني بياليك يرى حتى في عالم الثقافات العالمية الانسانية امتدادا لاستقطاب الفكر الصهيوني : « في الخارج الانساني » « مطر دائم » اما في « القلب » اليهودي الشهير « فرماد وتراب » . ان القيم الاخلاقية والانسانية لا تهمه على الاطلاق ان لم تأت له هو اليهودي بنتائج عملية مباشرة :

اذا كان ثمة عدالة في العالم — فلتظهر في التو واللحظة ،
ولكن اذا ظهرت العدالة ،
بعد ان يكون قد زال اثري من تحت السماء
فليقتلع كرسيها من جذوره .

وفي عام ١٩٠٦ عام المعاناة الكبيرة ليهود روسيا ، حيث قامت ضدهم بعض المذابح في معمعة الثورة الروسية ، كتب بياليك قصيدة أخرى فجر فيها غضبه المتجمع على المنصهرين من اليهود الذين ذهبوا ضحية قضية ليست هي قضيتهم ، ولم يحققوا بما قدموه أي أمل من آمال بني دينهم . وقد عبر بياليك في هذه القصيدة المعنونة « نادوا الافاعي » عن عمق الاحتضار الروحي ، واستخدم اللازمة المتنوعة والتي تحمل نفس الفكرة . ففي المقطع الاول من القصيدة تكون اللازمة :

نادوا الافاعي لتنقل غضبكم الى أقاصي الارض .

وفي المقطع الثاني تصبح اللازمة :

نادوا النسور لتحمل صرختكم الى كبد السماء .

ويختتم القصيدة باللازمة التالية :

نادوا الغيوم لتحمل حزنكم الى ارجاء البحار .

وفي الجزء الاول من القصيدة يصور بياليك حالة اليهود في المنفى وحياتهم الخالية الخاوية التي يعانون فيها شتى أنواع الهوان وهو ذلك الهوان الذي يراه من خلال احتجاجه على انصهار هؤلاء اليهود في مجتمعاتهم ، ويرى ان الموت في هذه الحالة أحسن بالنسبة لهم ، لانهم لا يقدمون شيئا لقضية البعث القومي اليهودي :

وتتعب اعينكم من التحديق الى اجواز الفضاء والارض
حيث لا شيء من أجلكم يحيي المهجة والعين
وحيث بخلت يد الرب وتغاضت عيناه
عن ان تبعث هناك غيمة أو طرفة من ريح
وذبلت حياتكم في البين من القحط والجفاف
وتمنيتم الموت لانفسكم وصرختم من ألم حياتكم .

وفي الجزء الثاني يعبر عن سخطه الشديد للتخاذل الذي يبديه اليهود ولعدم تجاوبهم مع الحركة القومية اليهودية ولانجرافهم في تيار الحركات الأخرى ويتوعدهم بالمصير السيىء:

وبسطتم اكفكم للحب وتلهفت عيونكم للمطر
ولكن سحب البركة ستمر ، وكما جاءت ستمضي ،
وصلاة اخيرة ذابلة كاللعنة تتردد على شفاهكم
وتمنيتم الموت لانفسكم واستهنتم بهول حياتكم .

لان حب اليهودي يجب ألا يكون الا ليهودي مثله نجد أن رب الامة القومي لا يرسل المطر أو البركات الى اليهود المندمجين في القوميات الاخرى .

٤) **بياليك والتراث اليهودي** : لا يملك قارىء أدب بياليك الا أن يلاحظ عمق التناقض في موقفه من التقاليد وعظم تخبطاته النفسية بين كونه رجل النهضة القومية العلمانية من

جهة وكونه في نفس الوقت رجل التراث اليهودي من جهة أخرى . وهذا التناقض في شعر بياليك يتضح في العديد من قصائده . ففي قصيدة « ان شئت أن تعلم » يتحدث عن الدين باعتباره مصدر القوة والبأس لدى اليهودي ويؤكد ان « بيت همدراش » (البيت التوراتي القديم الذي كان مصلى ومنتجعا للعلم الديني ، وكان بمثابة البؤرة التي حفظت التراث الروحي للشعب اليهودي على مر الايام جيلا بعد جيل لكل من طلب التعمق في الدين) ، اذ كان الشباب يتوفرون فيه على استطلاع صفحات التلمود بياض أيامهم وسواد لياليهم ، وقد حافظوا بانكبابهم هذا على فتيل الحياة الروحية للشعب واستمدوا من معينهم التاريخي قوة الحياة . وهذه المعاني تؤكدها الابيات على النحو التالي :

ان شئت ان تعلم
من اي نبع استمد اخوتك المقتولون
ايام بؤسهم ، قوتهم وبأسهم ،
وكيف ساروا نحو الموت باسمين
وكيف قدموا اعناقهم
لكل سكين وكل مقصلة
وصعدوا لكل موقد ومحرقة
وماتوا جميعا ميتة القديسين هاتفين « الرب واحد » ...
فسر الى « بيت همدراش » القاهر للدهور ...
وسترى بعض يهود واجمين
وجوههم معروقة معقودة الجبين
هم يهود المهجر الذين يحملون نيره الثقيل
يحاولون ان ينسوا عذابهم
في صفحة بالية من صحف التلمود ،
يحاولون ان ينسوا املاقهم
في قصص قديمة يروونها ،
ويطردون همومهم بلحن مزمور يرتلونه .

ونلاحظ في هذه القصيدة نفس التيار الاساس في شعر بياليك (وفي الفكر الصهيوني عامة) « تيار العودة » الى المطلق . والمطلق هنا هو الماضي متمثلا في بيت همدراش . ونفس هذا التيار يتضح جليا في قصيدة « الى الهاجادا » التي يعبر فيها الشاعر عن تمسكه بمثل الحياة اليهودية التقليدية متمثلة في « الهاجادا » التي تحكي عن روح البطولة لدى اليهود عبر العصور والتي ما زالت تحف بها الانغام الحزينة لمنشدي بابل :

فيكم يا صفحات التلمود فيكم أيتها الاوراق البالية
اساطير بديعة وقديمة .
وفي أيام جنوني حينما اتأمل المحزونين
تجد نفسي فيكم السلوى .

وفي قضيدة « على عتبة بيت همدراش » التي كتبها عام ١٨٩٤ نجد بياليك وقد وقف على عتبة « بيت همدراش » الذي يستخدمه كرمز للحياة اليهودية الدينية عبر العصور لان المثالية اليهودية تصل الى ذروتها بدراسة التوراة — ويحاول بث أحزانه فيه ولكنه يجده خاليا خاويا ، ويصف الشاعر الدمار الذي يسود بيت اسرائيل حيث تخيم العناكب على السقف والسطح محطم والاعمدة التي تسند القبة متهاوية والحوائط متشققة ... انه انهيار روحي حل « ببيت همدراش » ، تماما كما حل بنفس الشاعر ذاته في نفس الوقت:

نسيج العنكبوت يتمايل على سقفك
وافراخ الغربان تتصايح على سقفك المزق

يا جـــدران « بيت همدراش » .
يا حوائط المحراب يا ملاذ الروح القويـــة
ويا ملجـــأ الشعب الابـــدي .
لم تقفون هكذا صامتين وكالبائسين ؟
ها أنذا عائد الآن من الوادي النكـــد
هربت لأقول لكم ان الضربات قد زادت
وأننا حاربنا كالابطال ولكننا ضربنا من الخلف ،
انني يتيم بلا رعاية ومحتاج لرعايتكم
وسأعود اليكم مرة أخرى مسكينا وخجلا ومهزوما .
ومرة أخرى « يا بيت همدراش »
اقف على بابك ذليلا كالفقير وخاويا مثلك ،
أأبكي على خرابك أم أبكي على خرابي ؟
أم على كليهما معا أبكي وانـــوح ؟

(وليلاحظ القارىء مرة أخرى تكرر الكلمات الادبية رغم تغير الموضوع : « السلوى » « الملاذ » « الملجأ » « عائد » « هربت » « تقيم بلا رعاية ») . ثم يشير الشاعر الى أن كثيرين قد تركوا عشهم بحثا عن حقول أوسع آملين في العثور على السعادة هناك . ويرى الشاعر ان النصر لم يكن حليفهم ، فقد تحطم بعضهم وظل البعض الاخر هائما في مساكن غريبة ، ولا شك انه يقصد بذلك الاتجاه لدى كثير مـــن شباب اليهود نحـــو « الهسكلاه » وتخليهم عن مثل الدين اليهودي البالية :

وفي الحقول ما زال كثيرون تائهين
هل سيموتون ميتة الصالحين أم سيجدون الراحة
في حياة الطالحين وسينسونك الى الابد ؟

وبعد هذا الصراع وتلك الحيرة والتخبط الواضح بين الخواء الذي يستشعره بارتمائه في أحضان الملاذ الروحي اليهودي وبين الروابط الوثيقة التي ما زالت تربطه بهذه الرموز الآخذة في التداعي والانهيار ، يحاول الشاعر تأكيد تمسكه بالبقية الباقية مـــن الايمان والحفاظ عليها :

لقد تغلب علي عدوي ، وخلفني مجردا
ولكنني انقذت الهي فأنقذني الهي .
لن تنهاري يا خيمة الرب وسأعيد بناءك
وسأحيي الجدران من أكوام ترابك
جف العشب وذبل الزهر ولكن الرب سيبقى الى الابد .

وفي قصيدة « وحدي » التي كتبها في يوليو ١٩٠٢ يعبر الشاعر عن آلام «الروح المقدسة» رمز الروح اليهودية التي تئن مثله في حسرة بينما الجميع قد تخلوا عنها . ومع انه يحس بكل جوارحه بآلام « الروح المقدسة » فانه يذوب شوقا الى ذلك العالم الساحر عالم « الهسكلاه » ولكن روابطه بعالم التقاليد تجعل الفراق عسيرا فتبقى نفسه مجزأة بين العالمين :

كلهم حملتهم الريح ، كلهم جرفهم النـــور
وترنم صباح حياتهم بنشيد جديد
وأنا فرخ وديع في القلب والمهجـــة
تحت اجنحة الروح المقـــدسة ،
وحـــدي أنـــا بقيـــت
وبقيت مثلي وحدها الروح المقدسة .

وقد بكتني بهدوء وانحنت علـي
كأنما يحرسني جناحها المهيض هامسا الي
جميعهم مضت بهم اجنحـة الرياح
جميعهـم طاروا
ووحـدي قـد بقيـت .

وفي هذه القصيدة يتضح تماما تأثير كتب الهسكلاه التي كانت تؤثر فيه باطراد وتجعله يشعر بالغثيان حينما يقرب الكتب الدينية حسبما يعبر عن ذلك في خطاب سيرته الذاتية الى يوسف كلاوزنر : « لقد أصبحت الكتب الدينية بالنسبة لي مقززة كالوجبة الثقيلة ، وقد حاولت ببقايا قواي أن أصمد على كرسي ولكن وهنت مثابرتي يوما بعد يوم » . ونحن نجد بياليك في الحالة النفسية الرافضة لمثل الدين اليهودي وتراثه في قصيدته «أمام دولاب الكتب » (١٩١٠) . وفي هذه القصيدة يسترجع الشاعر الايام الغابرة حينما كانت الكتب الباهتة والصفراء هي كل ما يعرفه . وكان يظل يمعن النظر فيها ليل نهار لدرجة ان جزءا من روحه كان ينغمس في مضمونها ولكنه بعد سنوات من التيه في العالم الكبير ، عالم المعرفة والثقافة ، يقف مرة أخرى أمام الدولاب حيث الاوراق الثمينة — مرتبة فيه ويحاول أن يستعيد صلته بها ولكنه يشعر ان مفتاح عالمه القديم قد ضاع وان لغـة الاسرار مع هذه الكتب قد فقدت . ويدخل الشك قلبه في أنه ربما يكون التمسك بروح الماضي شيئا لا طائل منه وانه اضاعة للوقت فيما لا منفعة من ورائه وان كنوز الماضي لا يمكن ان تثريه ، واخيرا يعرب عن حيرته وشكه لانه فقد القدرة على فهم لغة الاسرار الخاصة بهذه الكتب :

الم أدرك شبابي معكم انتم فقـط
وكنتم لي كالحديقة في حر يوم الصيـف
وكنتم لرأسي كالوسادة في ليالي الشتاء
وتعلمت ان احفظ في اوراقكم تذكار روحي
وأن أضمن سطوركم احلامي المقدسة .
وانا الآن بعد مرور وقت طويل
بعد ما صرت معقد النفس ، مقطب الجبين .
ها هي دورة حياتي تعيدني وتضعني امامكم ثانية
أيتهـا الكتب المكنـوزة في الدولاب
ويا نازحات من لافوف وسلفتيا وامستردام وفرانكفورت*
يا عجائز الكتب انني انظر فيك ولا أعرفك ،
ومن بين حروفك لم تعد تنظر الى أعماق نفسي
الأعين اليقظة ، تلك الاعين الحزينة لشيوخ غابرين
ولم أعد اسمع هناك همس شفاههم
ينسل من قبور نسيت ولم تعد تزار
وانت يا كواكب السماء يا حب روحي
ويا فاهمـة مكنونات قلبـي
ما بالـك صامتة ، صامتـة ؟
أحقا لم يعد لدى جفنك الذهبي قـول
أو اشارة خفية تقولينها لي ولقلبـي ؟
أم أن هناك الكثير وانا الذي نسيت لغتك

---

* مدن اوروبية كانت فيها مراكز يهودية هامة وقد طبعت بها كتب دينية يهودية ذات قيمة .

ولم أعد أسمع بعد لغتك ، لغة الاسرار
أجيبي يا كواكب السماء ، فانني حزين !

وهذه الحالة من الصراع الذي تعلوه نغمة الرفض للتراث اليهودي والتي تعبر عن التحلل الروحي اليهودي يعبر عنها بياليك بصورة رمزية من خلال خلفية الثورة الروسية عام ١٩٠٥ في قصيدته الكبيرة « سفر النيران » :

« ... وفتحت عيني على سعتهما محدقا في السماء ، ورفعت رأسي وأنا منحدر هابط الى النهر ، وفجأة اذا بصوت ماء وضجة واستحمام يتناهى الي كأنه تيار بلور ويرن في اذني كرنين قيثارة . ونظرت فذهلت : هنالك في الجدول قبالتي رأيت شبح فتاة تستحم يلمع صفاء بشرتها فأراه من خلال العتمة فيسكرني ... وكدت اندفع اليها اندفاع النمر ، لكن صورة الشيخ القديس لمعت امامي — فخنقت شهوتي وأنا أزأر كالليث ثم اختفيت وراء صخرة ورحت اتلصص من مكاني على الجسد الرائع ، أكلت بعيني لحم الفتاة العاري الابيض وحملقت نفسي في ترجرج نهديها البكرين ، وضممت قبضتي وألقيتها في الهواء لا اعرف في وجه من : في وجه السماء التي تبلوني أم في وجه الشيطان الذي يتحداني — واذا بقبضتي تقع على نتوء الصخرة كأنها المطرقة فتفتتها بينما راحت قدماي تطحن احجار الحصى ... ولما فارقني سكري احاطني ظلام رهيب فخفت من نفسي خوفا شديدا . فزعت من الفراغ ومن كفة المقلاع ، وشاهدت نفسي فاذا بها سوداء بيضاء معا ، وقد اختلط فيها النور بالظلام . ورأيت قلبي فاذا هو حجر لافعوان وعش لنسر ... »

وهنا نجد بياليك يرمز للهسكلاه وللانفتاح على عالم الثقافة الاوسع الارحب الذي أطل عليه من عتمة الحياة الدينية المتعصبة بالفتاة العارية ، ويحاول ان يبين مدى الصراع الذي اجتاحه حينما حاول الاقتراب منها ، وتحديه للشيخ القديس الذي يرمز به لقيم الدين المتحجرة متمثلا اياه في صورة جده العجوز التقي الورع الذي طالما شدد عليه في هذه الناحية . (ويمكننا القول ان دولة اسرائيل هي الشيخ القديس محاولا السير مثل الفتاة العارية ، او الفتاة ذات النهدين البكرين تحاول التحدث بنبرات الشيخ القديس . أليست هي دولة الانبياء المحاربين والقديسين الذين يلبسون الكاكي ؟)

ان عالم بياليك يظل عالما مغلقا بالنسبة لنا لان الشاعر لا يوجه الدعوة لنا كبشر للتعاطف معه وأحزانه ، فثنائية الرؤية اليهودية والصهيونية الحادة تصدنا وتمنعنا ولذا تظل الرموز والطلاسم مجرد اشارات لافكار مجردة ، ليس لها معنى أو عمق انساني، وكذلك تظل الصراعات الحادة بين القديم والجديد ، بين العلماني والغيبي ، بين الدين والقومية، صراعات غريبة علينا لانها تدور في صدر شاعر فصل نفسه عن بقية البشر . ومن الملاحظ ان الشاعر عالم كل العلم بأن الصراعات التي يواجهها لا يمكن حسمها لانه غارق في الاساطير اليهودية التي يعرف انها ماتت ولكنه لا يملك ان يعلن موتها بل انه يتحسر من أجلها ويبكي ويدافع عنها بعدوانية وشراسة . ولعل هذه الشراسة في الدفاع تفسر استخدامه لصور النار والنفير والعناكب والافاعي وهي صور تدل على ان الشاعر يفكر في الموت أكثر من تفكيره في الحياة ، أو يفكر في حياة مبنية على رؤية صميمها الموت .

دراسة حول الاتجاهات السياسية لدى بعض وحدات الميليشيا الفلسطينية

باسم سرحان

كلف مركز الابحاث باحثين في العلوم السياسية باعداد دراسة ميدانية عن بعض ظواهر التهيئة السياسية والعضوية لاعضاء الميليشيا في المنظمات الفدائية في مخيم عين الحلوة . وقد تمكن الباحثان من القيام بهذه الدراسة مع اعضاء الميليشيا في منظمتين فدائيتين في المخيم هما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وطلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة) . كما شمل البحث مجموعة من شباب المخيم الذين لم ينضموا الى اي تنظيم للميليشيا بهدف استعمال هذه المجموعة كمجموعة مقارنة مع مجموعتي الميليشيا لمعرفة تاثير التنظيم على فكر الفرد السياسي وعلى نظرته الى عدة أمور سياسية واجتماعية . وقد تم البحث في صيف عام ١٩٧١ . وسيقدم الباحثان بحثا متكاملا لمركز الابحاث عن هذه الدراسة . وقد طلب المركز من الاخ باسم سرحان ان يدرس النتائج الاولية لهذه الدراسة من وجهة نظر سوسيولوجية وان يستخلص المؤشرات التي تدل على التغير في المجتمع الفلسطيني . اما مدى التغير وطبيعته واتجاهاته فان الباحثين الاصليين سيعالجان ذلك في دراستهما المقبلة .

قبل الانتقال الى معالجة موضوع البحث أرى ضرورة اعطاء تعريف للميليشيا الشعبية وكلمة موجزة عن تاريخ ميليشيا حركة المقاومة الفلسطينية : الميليشيا الشعبية هي تنظيم شبه عسكري يتالف من المدنيين الذين لا يستطيعون التفرغ للقتال او الثورة نظرا لمسؤولياتهم العائلية او لارتباطهم بالدراسة او العمل . هذا التنظيم يضم عادة الرجال والنساء من مختلف الاعمار ، ويؤدي دورا هاما في حروب التحرير ، والدفاع عن مكاسب الثورة ، ويشكل درعا واقيا يحمي ظهر الثورة . ودور الميليشيا الشعبية لا يقتصر على الجانب العسكري ، انما يمتد بنفس الدرجة الى الجانب السياسي . فالمفروض في أفراد الميليشيا ان يكونوا عناصر سياسية تعبىء الجماهير وتشرح فكر الثورة وتخدم جماهيرها .

أنشىء أول تنظيم للميليشيا الشعبية الفلسطينية في الاردن عام ١٩٦٨ ، بعد معركة الكرامة وبعد التدفق الجماهيري الهائل للالتحاق بصفوف الثورة . ثم انشىء تنظيم آخر للميليشيا الفلسطينية في لبنان في اواخر عام ١٩٦٩ . وقد لعب تنظيم الميليشيا في الاردن دورا اساسيا وكبيرا في الدفاع عن الثورة والجماهير ضد هجمات النظام الهاشمي العميل . وكان مقدرا لتنظيم الميليشيا أن يلعب دورا تعبويا سياسيا هاما في اوساط الجماهير الفلسطينية ، وفي مجال توعية الجماهير وتثويرها لولا ضرب الكفاح المسلح في الاردن . اما الميليشيا الشعبية في لبنان ، فقد دافعت عن الجماهير الفلسطينية في اكثر من مناسبة ، وهي ما تزال الدرع الواقي للمخيمات . كما انها تلعب دورا سياسيا هاما

في اوساط الجماهير الفلسطينية . ومن المفروض ان توجه جهود الميليشيا أكثر فأكثر لخدمة الجماهير ومساعدتها في حل مشاكلها الحياتية اليومية ، وخاصة في مجال التثقيف والتعليم .

بعد مراجعة الاسئلة التي تضمنتها الدراسة كان لي تعليقان عليها هما : أ) الامور العديدة التي شملتها الدراسة ، مما يوحي بأن هدف الدراسة كان استكشافيا واستطلاعيا اكثر منه دراسة او اختبار فرضيات معينة . ب) عانت بعض الاسئلة من عدم الدقة في صياغتها بحيث لم يكن من الممكن لهذه الاسئلة قياس الموضوع المطلوب بالتحديد .

وقد عمدت الى استخلاص بعض النتائج الاحصائية الاولية لاجابات عناصر الميليشيا على الاسئلة المطروحة والتوصل الى بعض الاستنتاجات التي أرى من المفيد ان تنشر على القارىء العربي . وقد استطعت ان استخلص من هذه النتائج اربعة جوانب رئيسية تتعلق بالنواحي الفكرية السياسية والنواحي التنظيمية لعناصر الميليشيا ، نوردها فيما يلي : ١ ــ دراسة الفكر السياسي للميليشيا ، او بكلام اخر مواقف الميليشيا من قضايا سياسية اساسية تتعلق بمسيرة الثورة الفلسطينية ، يجري طرحها خارج الثورة وداخلها . ٢ ــ دراسة مدى رسوخ الروح العشائرية في علاقات افراد الميليشيا ببعضهم وبالاخرين . ومعرفة ما اذا كانت الثورة قد استبدلت هذه العلاقات بعلاقات ثورية . ٣ ــ دراسة دور الميليشيا الشعبية التابعة لحركة المقاومة ، والعلاقات التنظيمية داخل الميليشيا . ٤ ــ دراسة العلاقة بين ميليشيا التنظيمات المختلفة .

سيقتصر تحليلي على النقطتين الاولى والثانية لانها امور تهم القارىء المهتم بالقضية الفلسطينية اكثر من النقطتين الثالثة والرابعة . اما تحليل الجزء المتعلق بالنقطتين الثالثة والرابعة من البحث فسيقدم الى مركز الابحاث لتوزيعه توزيعا محدودا .

ولا يمكن اعتبار الدراسة الحالية دراسة حول « الميليشيا التابعة لحركة المقاومة في لبنان » ، انما هي دراسة حول « مجموعة من ميليشيا التنظيمات في مخيم واحد » . فالدراسة لم تشمل ميليشيا فتح ، وهي الفصيل الرئيسي في ميليشيا حركة المقاومة ، كما انها لم تشمل ميليشيا قوات التحرير الشعبية ، والجبهة الشعبية الديمقراطية ، والجبهة الشعبية القيادة العامة ، وجبهة التحرير العربية . وبالتالي لا يمكن **اطلاقا** التعميم على اساس نتائج هذه الدراسة . وتبقى قيمة الدراسة في انها اول بحث ميداني حول جزء من الميليشيا الشعبية يزودنا بمعلومات جمعت بأسلوب علمي وبشكل منتظم. وهي بالتالي تشكل مرجعا اوليا لدراسة علمية اكثر دقة وشمولا حول تنظيم الميليشيا الشعبية التابع لحركة المقاومة الفلسطينية .

تحليل للنتائج الاولية

ينقسم التحليل الى قسمين رئيسيين : القسم الاول يحلل الفكر السياسي لمجموعة الميليشيا التي شملها البحث ، من خلال تحليل مواقفها من مسائل سياسية مصيرية تتعلق بالثورة الفلسطينية ويدور حولها جدل كثير داخل الساحة الفلسطينية وخارجها . ويحلل القسم الثاني مدى رسوخ العلاقات العشائرية (او العائلية ــ الشخصية) في اوساط الميليشيا الشعبية . هنا يمكن وجود افتراضية تقول بأن العشائرية تتحكم في علاقات افراد الميليشيا بعضهم ببعض وبالاخرين .

قبل ان ننتقل الى تحليل كل قسم بالتفصيل ، نرى ضرورة اعطاء صورة عن توزيع افراد المجموعة التي شملتها الدراسة حول عاملي السن والمهنة : تتراوح أعمار افراد المجموعة بين ١٦ عاما و ٥٥ عاما . لكن ٩٥٪ منهم يقعون في فئة العمر ١٦ ــ ٣٥

عاما . (راجع الجدول رقم ١) . ومهنيا ، ينتمي نصف افراد المجموعة تقريبا الى العمال (٤٧،٦ ٪) ، وربعهم من الطلاب (٢٣،٨ ٪) ، وخمسهم تقريبا من المدرسين (١٩،٥ ٪) . هذه الفئات الثلاث تشكل الاغلبية الساحقة من عناصر الميليشيا . (راجع الجدول رقم ٢) .

الجدول رقم ١

فئة العمر	العدد	النسبة المئوية
١٦ — ٢٠	١٣	١٩،٥
٢١ — ٢٥	١٩	٢٦،٨
٢٦ — ٣٠	١٦	٢٣،٨
٣١ — ٣٥	١٦	٢٣،٨
٣٦ — ٤٠	١	١،٤
٤١ — ٤٥	—	—
٤٦ — ٥٠	١	١،٤
٥١ وما فوق	١	١،٤
المجموع	٦٧	٩٩،١

الجدول رقم ٢

المهنة	العدد	النسبة المئوية
عامل غير مهني	١٥	٢٢،٣
عامل مهني	١٧	٢٥،٣
طالب	١٦	٢٣،٨
مدرس	١٣	١٩،٥
موظف	٤	٥،٩
صيدلي ، طبيب ، مهندس	١	١،٤
لا يعمل	١	١،٤
المجموع	٦٧	٩٩،٦

القسم الاول : الفكر السياسي للميليشيا : يمكن فهم الفكر السياسي لافراد الميليشيا من خلال مواقفهم من قضايا سياسية معينة وارائهم في قضايا اخرى . وقد برزت في الاجابات مواقف وآراء الميليشيا من القضايا التالية : ١ — الثورة الفلسطينية : هدفها ، قيادتها ، دورها عربيا ، الثورة والايدولوجية ، بعدها العربي ، بعدها العالمي ، علاقتها بالانظمة العربية ، اولويات المعركة ، واعداؤها . ٢ — حل المشكلة الفلسطينية (الحل السلمي بشكل خاص) . ٣ — دور اسرائيل في المنطقة . ٤ — حرب التحرير الشعبية . ٥ — مستقبل الدولة بعد التحرير .

القسم الثاني : العلاقات العشائرية في اوساط الميليشيا .

تحليل القسم الاول من الدراسة :

هدف الثورة : سألت الدراسة السؤال التالي حول هدف الثورة : « الثورة الفلسطينية هدفها تحرير فلسطين فقط » . قال (٦٧ ٪) من افراد المجموعة انهم لا يوافقون على

هذه الجملة ، بينما قال ٢٦،٨٪ منهم انها جملة صحيحة ، ولم يعط ٤،٤٪ جوابا . ثم انتقلت الى محاولة معرفة اهداف الثورة (أو اهداف الشعب الفلسطيني الثائر) بواسطة السؤال التالي : « هدفنا كشعب فلسطيني ثائر : ــ ازالة اسرائيل ــ ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ ــ ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية ــ ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية ــ ازالة اسرائيل والانظمة الرجعية العربية ومحاربة الامبريالية في المنطقة العربية ومساندة ثورة التحرر في العالم » . قال ٦٤،١٪ من افراد المجموعة ان هدف الشعب الفلسطيني الثائر هو ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية ومحاربة الامبريالية في المنطقة العربية ومساندة ثورة التحرر في العالم . وقال ٢٠،٨٪ ان هدفه هو ازالة اسرائيل فقط . وقال ٨،٩٪ ان هدفه هو ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية . بينما قال ٥،٩٪ ان هدفه ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية . ولم يقل اي فرد ان هدف الشعب الفلسطيني هو ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ .

قيادة الثورة : سألت الدراسة سؤالين حول قيادة الثورة او من يقود الثورة هما : « يجب ان تكون قيادة الثورة بيد الكادحين فقط » . و « يجب ان تكون قيادة الثورة الفلسطينية بيد : أ) الكادحين فقط . ب) المثقفين ابناء الكادحين والكادحين . ج) مثقفين مخلصين لديهم كفاءة من اي طبقة كانت . د) لا مانع اذا كانت القيادة بيد اطباء او مهندسين او تجار اذا كانوا مخلصين ولديهم الكفاءة . هـ) اي شخص فلسطيني تتوفر فيه الكفاءة .

لقد انقسم افراد الميليشيا الى مجموعتين متساويتين تقريبا حول السؤال « أ » ، اذ قال ٤٩،٢ ان قيادة الثورة يجب ان تكون بيد الكادحين فقط ، بينما قال ٤١،٧٪ منهم انها لا يجب ان تكون بيد الكادحين فقط، ولم يعط ٨،٩٪ جوابا على السؤال . وبالنسبة للسؤال الثاني ، قال ٤١،٧٪ من افراد المجموعة ان قيادة الثورة يجب ان تكون بيد المثقفين ابناء الكادحين والكادحين ، وقال ٢٣،٨٪ انها يجب أن تكون بيد اي فلسطيني تتوفر فيه الكفاءة والاخلاص ، وقال ١٦،٤٪ انها يجب ان تكون بيد مثقفين مخلصين من أي طبقة كانت ، وقال ١٤،٩٪ انها يجب ان تكون بيد الكادحين فقط . قال ١،٤٪ انه لا مانع اذا كانت القيادة بيد مهندسين وأطباء وتجار مخلصين ولديهم كفاءة ، ولم يعط ١،٤٪ جوابا . لقد رجحت الكفة لصالح الذين يؤيدون وجود الطبقة الكادحة وأبنائها المثقفين في قيادة الثورة على الذين يريدون القيادة لاي فلسطيني مخلص وكفوء بغض النظر عن طبقته ، اذ بلغت نسبة الفئة الاولى ٥٧٪ ونسبة الفئة الثانية ٤٠٪ .

الثورة والايديولوجية : سئلت ثلاثة اسئلة حول الايديولوجية والثورة الفلسطينية، الاول حول ضرورة وجود خط ايدولوجي للثورة ، والثاني حول ضرورة اتباع الخط الماركسي ــ اللينيني ، والثالث حول ضرورة اتباع خط عقائدي اشتراكي .

قال ٧٣،٣٪ من افراد الميليشيا انه من الضروري ان يكون هناك خط ايدولوجي محدد للثورة الفلسطينية كي تسير عليه ، بينما قال ١٤،٩٪ ان وجود الخط الايدولوجي ليس ضروريا للثورة . ولم يعط ١١،٩٪ جوابا . قال ٥٣،٧٪ من افراد الميليشيا ان الخط الماركسي اللينيني هو الخط السليم الذي يجب ان تسير عليه الثورة الفلسطينية ، بينما قال ٣٤،٣٪ منهم ان ذلك الكلام ليس صحيحا . ولم يعط ١١،٩٪ منهم جوابا . اما حول الخط الاشتراكي ، فقد قال ٦٧٪ من افراد الميليشيا ان الثورة الفلسطينية يجب ان تلتزم بعقيدة حزبية واحدة تسير على الخط الاشتراكي . وقال ٢٠،٨٪ ان هذا الكلام ليس صحيحا ولم يعط ١١،٩٪ جوابا .

دور الثورة عربيا : اهتم الباحث بمعرفة جانب واحد من دور الثورة الفلسطينية عربيا ،

وهو دور النواة في ثورة عربية شاملة ضد الاستعمار . قال ٨٨ ٪ من افراد الميليشيا انهم يوافقون على كون الثورة الفلسطينية نواة ثورة عربية شاملة ضد الاستعمار ، بينما قال ٨،٩٪ انهم لا يوافقون على ذلك الدور . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

البعد العربي للثورة : هناك سؤالان حول البعد العربي للثورة . الاول يحدد اذا كان للشعب العربي حق المشاركة فيها ، والسؤال الثاني يحدد مستوى او درجة هذه المشاركة . السؤالان هما : « معركة فلسطين يجب ان يشترك فيها : الفلسطينيون وحدهم ، الفلسطينيون والشعب العربي ، كل قوى التحرر والثورة في العالم ، كل هؤلاء » . و « ما هو برأيك الدور الذي يجب ان يلعبه الشعب العربي في المعركة : ان يشارك فعليا في المعركة ، ان يقدم الدعم المالي والمعنوي للفدائيين ، ان يحمي الفدائيين اذا تعرضت لهم السلطات العربية ، ليس له أي دور في المعركة » .

يعتقد ١،٤٪ فقط من افراد الميليشيا ان معركة فلسطين يجب ان يشترك فيها الفلسطينيون وحدهم . ويعتقد ٢٩،٨٪ انها معركة مقصورة على الفلسطينيين والشعب العربي ، بينما يعتقد ٦٥،٧٪ انها معركة يجب ان يشارك فيها الفلسطينيون والشعب العربي وكل قوى التحرر والثورة في العالم . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

البعد العالمي للثورة : وضع الباحث الجملة التالية « الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العالمية ضد الامبريالية » . قال ٨٨،٠٪ من افراد الميليشيا ان هذه الجملة صحيحة وانهم يوافقون على هذا الكلام . بينما قال ٥،٩٪ انهم لا يوافقون على كون الثورة الفلسطينية جزءا من الثورة العالمية ضد الامبريالية . ولم يعط ٥،٩ ٪ جوابا . هذه النتائج تتطابق مع اعتقاد ٦٥،٧٪ من افراد الميليشيا ان كل قوى التحرر والثورة في العالم يجب ان تشترك في معركة تحرير فلسطين .

علاقة الثورة بالانظمة العربية : عالجت الدراسة موضوع علاقة الثورة الفلسطينية بالانظمة العربية من ثلاثة جوانب : اولا ، هل تثق الثورة بأي نظام عربي ام لا . ثانيا ، مستوى العلاقة بين الثورة والانظمة . ثالثا ، الموقف الذي يجب ان تقفه الثورة من الانظمة التي تعارض الثورة . سأل الباحث سؤالين حول الثقة بين الثورة والانظمة العربية هما : « يجب على المنظمات الفدائية ان لا تثق بأي دولة عربية تقدمية كانت ام رجعية » . و « هل يجب ان تثق المنظمات الفدائية بدعم : أ) الدول العربية التقدمية فقط . ب) كل الدول العربية . ج) ولا دولة عربية ؟ » .

قال ٤٦،٢ ٪ من افراد الميليشيا ان على المنظمات الفدائية الا تثق بأي دولة عربية تقدمية كانت ام رجعية ، بينما قال ٤١،٧٪ منهم ان هذا الكلام خاطىء ولا يوافقون عليه . ولم يعط ١١،٩ ٪ جوابا . وحول السؤال الثاني ، قال ٤٧،٧٪ من افراد المجموعة ان على المنظمات الفدائية ان تثق بدعم الدول العربية التقدمية فقط ، وقال ١٧،٩٪ منهم ان عليها ان تثق بكل الدول العربية ، بينما قال ٣١،٣٪ منهم ان عليها الا تثق بدعم اي دولة عربية ، ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

سأل الباحث السؤالين التاليين حول مستوى العلاقة التي يجب ان تقوم بين التنظيمات الفدائية والانظمة العربية التقدمية (وكان المفروض فيه ان يسأل حول مستوى العلاقة مع الانظمة العربية الرجعية ايضا لكي تكتمل الصورة) : « يجب على فصائل الثورة الفلسطينية ان تقبل المساعدة المالية والعسكرية من الدول العربية التقدمية » . و « يجب على الثورة الفلسطينية ان تستمع الى النصائح والارشادات التي توجهها لها الدول العربية التقدمية مثل سوريا » .

وافق ٧٤،٦٪ من افراد المجموعة ان تقبل التنظيمات الفدائية المساعدة المالية والعسكرية من الدول العربية التقدمية . وعارض ١٣،٤٪ تلك المساعدات . ولم يعط

١١،٩ ٪ جوابا . وقال ٤٦،٢ ٪ من افراد المجموعة انه لا يتوجب على الثورة الفلسطينية ان تستمع الى النصائح والارشادات التي توجهها لها الدول العربية التقدمية مثل سوريا . بينما قال ٣٢،٨ ٪ منهم ان عليها ان تستمع الى تلك النصائح والارشادات . ولم يعط ٢٠،٨ ٪ منهم جوابا .

حول الموقف الذي يجب ان تقفه الثورة من الانظمة العربية التي تعارض الثورة ، سأل الباحث السؤال التالي : « يجب على المنظمات الفدائية ان : — لا تتصادم مع الانظمة العربية — ان تحاول القضاء على الانظمة العربية التي تقاوم العمل الفدائي الفلسطيني في اراضيها — ان تتصادق مع الدول العربية التقدمية مثل سوريا ومصر وتحاول قلب نظام الحكم في الانظمة العربية الرجعية والمجيء بسلطة تؤيد العمل الفدائي » . ويعتقد ٤٩،٢ ٪ من افراد المجموعة ان الموقف الافضل للمقاومة هو ان تتصادق مع الدول العربية التقدمية وتحاول قلب نظام الحكم في الانظمة العربية الرجعية والمجيء بسلطة تؤيد العمل الفدائي . بينما يرى ٣٧،٣ ٪ منهم ان على المقاومة ان تحاول القضاء على الانظمة العربية التي تقاوم العمل الفدائي الفلسطيني في اراضيها (نلاحظ ان الموقف الثاني ليس سوى جزء من الموقف الاول وامتداد له) . ويعتقد ١٠،٤ ٪ منهم ان على المقاومة الا تصطدم بالانظمة العربية . ولم يعط ٢،٩ ٪ جوابا .

اولويات المعركة : سأل الباحث سؤالين حول اولويات المعركة هما : « يجب ان نركز جهودنا الان في المعركة على : — اسرائيل — اسرائيل والدول العربية الرجعية — الدول العربية الرجعية — اسرائيل والرجعية العربية والمصالح الامبريالية » . و « نظرا لقوتهم المحدودة ، يجب على الفدائيين ان يوجهوا جهودهم لمحاربة : اسرائيل فقط ، اسرائيل والدول العربية الرجعية في نفس الوقت — اسرائيل والدول العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية » . وتعتقد الاغلبية (٧١،٦ ٪) من افراد المجموعة ان علينا ان نركز جهودنا في المعركة على اسرائيل والرجعية العربية والمصالح الامبريالية . ويعتقد ١٧،٩ ٪ منهم ان علينا ان نحارب اسرائيل والدول العربية الرجعية في نفس الوقت . ويعتقد ١٠،٤ ٪ منهم فقط ان علينا ان نركز جهودنا على محاربة اسرائيل لوحدها .

اعداء الثورة : سأل الباحث السؤال التالي حول اعداء الثورة الفلسطينية : « ان عدونا هو : اليهود — اسرائيل — الصهيونية — الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية والصهيونية — الدول العربية الرجعية واسرائيل » . تعتقد الاغلبية الساحقة (٩١،٠ ٪) من افراد المجموعة ان عدونا هو الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية والصهيونية . ويعتقد ٤،٤ ٪ منهم انها الدول العربية الرجعية واسرائيل فقط . بينما يعتقد ٢،٩ ٪ منهم انها الصهيونية فقط . ولم يعط ١،٤ ٪ جوابا .

استنتاج : حول مفهوم مجموعة الميليشيا السياسي للثورة الفلسطينية :

المفهوم السياسي لجماعة ما هو المفهوم الذي يأخذ به ويتفق عليه معظم افراد تلك الجماعة . لذلك فان المفهوم الحالي الذي نستنتجه من دراسة مجموعة الميليشيا في مخيم عين الحلوة هو مفهوم اغلبية عناصر هذه المجموعة . ولا بد من الاشارة قبل عرض مفهوم هذه المجموعة الى ان عناصر فئتين منها ينتمون الى منظمتين فدائيتين يساريتين ، وبالتالي فمن المتوقع ان يكون المفهوم السياسي للمجموعة يساريا اكثر منه قوميا او اقليميا ضيقا .

تعتقد هذه المجموعة ان هدف الثورة الفلسطينية ليس تحرير فلسطين ، بل تحرير فلسطين وازالة الانظمة العربية الرجعية ومحاربة الامبريالية في المنطقة العربية ومساندة ثورة التحرر في العالم . كما تعتقد المجموعة ان قيادة الثورة يجب ان تكون في

يد الكادحين والمثقفين ابناء الكادحين . غير ان هناك فئة قوية في المجموعة تعتقد بان لكل فلسطيني مخلص وكفؤ الحق في قيادة الثورة مهما كانت طبقته . وتعتقد هذه المجموعة انه لا بد من وجود خط ايديولوجي محدد للثورة الفلسطينية كي تسير عليه ، وتريد ان يكون هذا الخط خطا اشتراكيا . كما ان هذه المجموعة تؤمن بان الثورة الفلسطينية هي نواة لثورة عربية شاملة ضد الاستعمار .

تعتقد هذه المجموعة ايضا ان الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العالمية ضد الامبريالية، وبالتالي فهي ترى ان القوى التي يجب ان تشارك في تحرير فلسطين هي : الفلسطينيون انفسهم ، الشعب العربي ، وكل قوى التحرر في العالم .

يبدو ان هناك هوة ثقة بين افراد هذه المجموعة من الميليشيا وبين الانظمة العربية اذ تعتقد فئة قوية من هذه المجموعة ان على التنظيمات الفدائية الا تثق بأي نظام عربي سواء كان تقدميا او رجعيا . اما الهوة بين هذه المجموعة والانظمة العربية الرجعية فكبيرة جدا ، خاصة وان افراد هذه المجموعة يدعون الى محاربة الانظمة الرجعية واسقاطها لانها تعارض العمل الفدائي .

لا يرى افراد هذه المجموعة ان هناك اولويات في معركة تحرير فلسطين نركز عليها جهودنا ثم ننتقل لغيرها . فهم يحددون اعداء الثورة باسرائيل والدول العربية الرجعية والامبريالية والصهيونية . هؤلاء الاعداء بالنسبة لهذه المجموعة يشكلون عدوا واحدا وبالتالي لا مجال هناك لمحاربة احدهم وترك الاخرين لما بعد . لذلك ، ورغم معرفتهم لقوة الثورة المحدودة ، يعتقد افراد هذه المجموعة ان على الثورة ان تحارب اسرائيل والدول العربية الرجعية والمصالح الامبريالية في البلاد العربية في آن واحد .

هذا هو الفكر السياسي لمجموعة الميليشيا الذي اظهرته النتائج الاولية للدراسة . وصفاته المميزة انه فكر ثوري ، وانه يعكس خطا واضحا متماسكا ، ويدل على درجة عالية من الوعي السياسي عند اصحابه . اما اذا نظرنا الى داخل مجموعة الميليشيا التي شملتها الدراسة فنجد ان المنتمين الى تنظيم كالجبهة الشعبية او الصاعقة يتلقون تثقيفا وتوجيها سياسيا يخلق بينهم تجانسا في الفكر السياسي والمواقف السياسية اكثر مما هو الحال بالنسبة للمستقلين الذين لا يجمعون على موقف معين والذين تسود بينهم تيارات واتجاهات مختلفة ، رغم ان هذه التيارات والاتجاهات لا تخرج عن الاطار الوطني .

وتظهر صحة هذا الكلام من خلال مقارنة مجموعة الجبهة الشعبية مع مجموعة المستقلين حول عدة امور منها : وجود اجماع تام عند اعضاء الجبهة الشعبية حول هدف الثورة الفلسطينية (اي انه ليس تحرير فلسطين فقط) بينما يظهر الانشقاق في وسط المستقلين اذ يعتقد ٣٥٪ منهم ان هدف الثورة هو تحرير فلسطين فقط ، مقابل ٦٥٪ منهم لا يوافقون على هذا الكلام . وهناك ايضا اجماع تام عند افراد الجبهة الشعبية على ضرورة واهمية العمليات الخارجية مثل ضرب مستودعات البترول في الدول العربية او خطف الطائرات ، بينما نجد انشقاقا متكافئا (٥٠٪) عند المستقلين حول هذا الموضوع. والامر نفسه صحيح بالنسبة لقيادة الثورة اذ يجمع افراد الجبهة الشعبية على وجوب كونها بيد الكادحين فقط ، بينما يتخذ ثلثا المستقلين فقط الموقف نفسه . ويظهر اجماع المجموعة الموجهة سياسيا حول موضوع ضرورة اتباع الخط الماركسي اللينيني ، بينما ينقسم المستقلون الى مجموعتين احداهما تؤلف ٦٥٪ والاخرى ٣٥٪

الاساسية التي يمكن استنتاجها من هذه الملاحظات هي ضرورة التنظيم السياسي لاية ثورة وضرورة التثقيف والتوجيه السياسي لعناصر الثورة حول خط الثورة واهدافها لكي يزول اي شك او تردد حول الخط والاهداف مما يفسح المجال امام التراجع عنها او

تحويلها وهو ما يحصل عادة لمجموعات المستقلين ولا يمكن ان يحصل لمجموعة منظمة وموجهة سياسيا ضمن اطار او مفهوم موحد .

٢ ــ **موقف الميليشيا من حل المشكلة الفلسطينية (الحل السلمي)** : تناولت الدراسة موضوع الحل السلمي بدقة . فقد سألت اولا عن امكانية التوصل الى حل سلمي لقضية فلسطين . ثم سألت عن امكانية التوصل الى حل سلمي يرضي العرب واسرائيل . ثم سألت عن عدالة الحل السلمي الذي قبلت به الدول العربية حتى الان . ثم سألت عن امكانات وأسباب نجاح او فشل مشروع روجرز . ثم سألت عن الامر الوحيد الذي يعتقد افراد الميليشيا انه يشكل حلا لقضية فلسطين .

حول امكانية التوصل الى حل سلمي لقضية فلسطين قالت الاغلبية (٧٩،١ ٪) من افراد المجموعة انه لا يمكن التوصل الى حل سلمي لقضية فلسطين . بينما قال ١٦،٤ ٪ منهم انه يمكن التوصل الى حل لقضية فلسطين . ولم يعط ٤،٤ ٪ منهم جوابا . وحول امكانية التوصل الى حل سلمي يرضي العرب واسرائيل ، تعتقد الاغلبية الساحقة من افراد المجموعة (٩٧،١ ٪) انه لا يمكن التوصل الى حل كهذا . ولم يقل أي واحد بامكانية التوصل الى هكذا حل . اما النسبة المتبقية ٢،٩ ٪ فلم تعط جوابا . وحول عدالة الحل الذي قبلت به الدول العربية ، تعتقد الاغلبية الساحقة (٨٩،٥ ٪) انه حل غير عادل ابدا . ويعتقد ٧،٤ ٪ انه يمكن ان يكون حلا عادلا اذا اجريت عليه بعض التعديلات . ولم يعط ٢،٩ ٪ جوابا . وحول امكانات وأسباب نجاح او فشل مشروع روجرز ، يعتقد ٥٢،٢ ٪ من افراد المجموعة انه سيفشل نتيجة مقاومة الفلسطينيين له . ويعتقد ٢٣،٨ ٪ منهم ، في المقابل ، انه سينجح اذا قبله الفدائيون . بينما يعتقد ١٧،٩ ٪ انه سيفشل لان اسرائيل لن تطبقه . ويعتقد شخص واحد فقط (١،٤ ٪) ان المشروع سينجح لان الدول الكبرى وبعض الدول العربية وافقت عليه . ولم يعط ٤،٤ ٪ جوابا . اما حول المخرج الذي يعتقد افراد المجموعة انه يشكل الحل الوحيد للقضية الفلسطينية، فقد توزع افراد المجموعة كالتالي : الاغلبية الساحقة (٩١،٢ ٪) منهم يعتقدون ان الحل الوحيد هو حرب تحرير شعبية تشترك فيها الجيوش العربية والفدائيون. ويعتقد ٥،٩ ٪ منهم ان الحل الوحيد هو حرب نظامية خاطفة تقوم بها الجيوش العربية وحدها . ويعتقد ٢،٩ ٪ منهم ان الحل الوحيد هو حرب تحرير شعبية يقوم بها العمل الفدائي وحده .

استنتاج : يعتقد معظم افراد مجموعة الميليشيا التي شملتها الدراسة انه لا يمكن التوصل الى حل سلمي للقضية الفلسطينية ، ناهيك عن التوصل الى حل يرضي العرب واسرائيل . ويعتقد هؤلاء ان الحل السلمي الذي قبلت به بعض الدول العربية هو حل غير عادل اطلاقا . كما يعتقدون انه سيفشل اساسا لان الفلسطينيين يقاومونه ، ثم لان اسرائيل لن تطبقه . ويعتقد بعضهم (٢٣،٨ ٪) ان الامل الوحيد في نجاح هذا الحل هو قبول الفدائيين له .

٣ ــ **دور اسرائيل في المنطقة** : سأل الباحث سؤالين حول دور اسرائيل في المنطقة العربية هما : «اسرائيل اداة استعمارية ينفذ بها الاستعمار اغراضه في الوطن العربي» . و « اسرائيل ليست اداة استعمارية ولكنها قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالح الدول الاستعمارية الكبرى » . قال ٨٣،٥ ٪ من افراد المجموعة انهم يوافقون على الجملة القائلة بأن اسرائيل اداة استعمارية ينفذ بها الاستعمار اغراضه في الوطن العربي . بينما قال ٧،٤ ٪ منهم انهم لا يوافقون على هذا الكلام . ولم يعط ٨،٩ ٪ جوابا. وقال ٦١،١ ٪ منهم ان اسرائيل ليست اداة استعمارية لكنها قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالح الدول الاستعمارية الكبرى . بينما قال ٢٦،٨ ٪ منهم انهم لا يوافقون على هذه الجملة . ولم يعط ١١،٩ ٪ جوابا .

استنتاج : قد يبدو ان هناك تناقضات بين الذين قالوا ان اسرائيل اداة استعمارية (٨٣،٥٪) ثم عاد بعضهم (٦١،١٪) وقال انها ليست اداة استعمارية انما هي قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالح الدول الاستعمارية الكبرى . لكن في الواقع ان هذه الفئة المشتركة تود ان تقول ان اسرائيل هي الامران معا : أداة استعمارية وقوة مستعمرة (وهذا هو البديل الثالث الذي كان يتوجب على الباحث طرحه) . تبقى هناك فئتان : الاولى (٧،٤٪) تعتقد ان اسرائيل ليست اداة استعمارية انما قوة مستعمرة . والثانية (٢٦،٨٪) تعتقد ان اسرائيل ليست قوة مستعمرة انما اداة استعمارية فقط .

٤ ــ **حرب التحرير الشعبية** : عمدت الدراسة الى معرفة الرؤية عند افراد الميليشيا عن حرب التحرير الشعبية كتصورهم مثلا للرقعة الجغرافية التي ستشملها هذه الحرب ، والطبقات او الفئات التي ستشترك في هذه الحرب . تعتقد الاغلبية الساحقة (٩١،٢٪) من افراد المجموعة ان فلسطين لا يمكن ان تتحرر الا اذا شملت حرب التحرير الشعبية كل المناطق العربية المحيطة باسرائيل بما فيها سوريا ومصر والاردن والعراق . ويعتقد ٢،٩٪ منهم ان هذا الشرط ليس ضروريا لتحرير فلسطين . ولم يعط ٥،٩٪ جوابا . وحول من يشترك في الحرب الشعبية ، فان معظم افراد المجموعة (٦٨،٨٪) يعتقدون ان كل طبقات الشعب الفلسطيني يجب ان تشترك في حرب التحرير الشعبية ، بينما يعتقد ٢٢،٣٪ منهم ان العمال والمثقفين هم الذين يجب ان يشتركوا في تلك الحرب . ويحصر ٥،٩٪ منهم حرب التحرير الشعبية بالطبقات الكادحة . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا.

استنتاج : يعتقد معظم افراد المجموعة التي شملها البحث ان حرب التحرير الشعبية هي الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ، وأن هذه الحرب يجب ان تمتد لتشمل كل دول « الطوق » او الدول العربية المحيطة بأسرائيل ، وان على كل طبقات وفئات الشعب ان تشارك في هذه الحرب .

مستقبل الدولة بعد التحرير : لقياس تصور افراد الميليشيا لمستقبل فلسطين بعد التحرير ، سأل الباحث السؤال التالي : « اذا تم تحرير فلسطين يجب ان تقوم فيها : ــ دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود ــ دولة ديمقراطية يعيش فيها المسلمون والمسيحيون العرب واليهود من الاصل العربي والاوروبي ــ دولة لا يسمح لليهود مهما كان اصلهم من العيش فيها ــ دولة عربية على ان تكون القدس مفتوحة لكل الناس من مختلف الاديان » .

قال معظم افراد المجموعة (٦٤،١٪) انه اذا تم تحرير فلسطين فهم يريدون ان تقوم فيها دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود . وقال ٢٥،٣٪ منهم انهم يريدون ان تقوم فيها دولة عربية على ان تكون القدس مفتوحة لكل الناس من مختلف الاديان . وقال ٧،٤٪ منهم انهم يريدون دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب المسلمون والمسيحيون واليهود من الاصل العربي والاوروبي . وقال ٢،٩٪ منهم فقط انهم يريدون دولة لا يسمح لليهود مهما كان أصلهم من العيش فيها .

استنتاج : معظم افراد المجموعة يريدون دولة عربية ديمقراطية في فلسطين بعد التحرير.

دور الميليشيا الشعبية : هناك اعتقاد منتشر في اوساط الناس بأن دور الميليشيا هو حراسة المخيمات فقط (اي دور عسكري صرف) . لذلك سأل الباحث افراد الميليشيا اذا كانوا يوافقون على الاعتقاد الشائع : « دور عنصر الميليشيا هو الدفاع عن المخيم فقط » . قال معظم افراد المجموعة (٧٦،١٪) ان هذه جملة خاطئة ، بينما قال ١١،٩٪ منهم انها جملة صحيحة . ولم يعط ١١،٩ ٪ منهم جوابا . وبعد ذلك عدد الباحث ادوارا ليرى أي منها يختار افراد الميليشيا وهذه الادوار هي : الصاق البيانات ، الحراسة ، ونشر فكر المنظمة بين الجماهير . قال ٥٩،٧ ٪ من افراد المجموعة انهم سيختارون

نشر فكر المنظمة بين الجماهير ، بينما قال ١٦،٤ ٪ منهم انهم سيختارون الحراسة . لم يختر أي واحد الصاق البيانات . وقال ١٧،٩ ٪ انهم لا يعرفون ماذا سيختارون . ولم يعط ٥،٩ ٪ منهم جوابا .

استنتاج : يعتقد معظم افراد الميليشيا ان دورهم الاساسي هو نشر فكر منظماتهم السياسي بين الجماهير ، وان دورهم الاخر هو حراسة المخيمات والدفاع عنها . ان تصورهم لدورهم هو كونه دورا ذا شقين سياسي وعسكري .

تحليل القسم الثاني

مدى رسوخ العشائرية في علاقات افراد الميليشيا ببعضهم بعضا وبالآخرين :

العشائرية نمط من العلاقات الانسانية يركز على التصاق الفرد بعائلته او جماعته الى حد يجعله يتقبل ويدافع عن كل ما تقوله عائلته او جماعته سواء كان صحيحا او خاطئا. كما ان هذا الارتباط بالعائلة او الجماعة (او التنظيم او الحزب على مستوى اخر) يحد من تفكير الفرد ويجعله غير قادر على تخطي او مخالفة تفكير الجماعة . اخيرا ، تخلق العشائرية في نفس الفرد زخما عاطفيا يبرز بقوة في حال وجود أي خلاف بين جماعته وجماعة اخرى . وفي الاوقات العادية تطبع هذه العاطفة القوية علاقات افراد المجموعة نفسها بعضهم ببعض . العلاقات العشائرية تجعل الجماعة او العائلة او التنظيم محور حياة الفرد ومرجعه في كل الامور ، بحيث تمنعه من تخطيها والتعاطف مع سلطة مركزية لا شخصية كالدولة او القضاء ، او في هذه الحالة الكفاح المسلح .

سأل الباحث بضعة اسئلة حول مستوى الولاء عند عناصر الميليشيا أهو ولاء للمنظمة الفدائية او للعائلة او للقرية او للمخيم ككل او للثورة الفلسطينية تعتبر مؤشرات جيدة لمدى رسوخ الروح العشائرية في نفوس افراد الميليشيا وتأثيرها على علاقاتهم الشخصية والتنظيمية . وهذه الاسئلة هي : ١ ــ « لو حصل خلاف بين أحد اقربائك وأحد عناصر الميليشيا في منظمة تنتمي اليها او تؤيدها ولم تستطع ان تعرف من هو المذنب وكلاهما طلب منك المساعدة فماذا تفعل ؟ » . ٢ ــ « اذا حصل خلاف بين عنصر ميليشيا وشخص اخر لا ينتمي الى اية منظمة فدائية ، فالى من تعتقد يجب ان ترفع القضية لحل الخلاف ؟ » . ٣ ــ « اذا حصل خلاف بين اثنين من عناصر الميليشيا وطلب حق التدخل كل من المنظمتين الفدائيتين اللتين ينتميان اليهما وافراد عائلة كل منهما ، فمن تعتقد له حق التدخل ؟ » ٤ ــ « اذا وقعت في ضائقة مالية فمن اين تطلب المساعدة : ــ الاقرباء، الكفاح المسلح ــ المنظمة الفدائية التي انتمي اليها ــ الاصدقاء » . ٥ ــ « اذا الم بك مرض ولم تملك نقودا للمعالجة ، فمن اين ترغب في طلب المساعدة : ــ المنظمة الفدائية التي انتمي اليها ــ افراد عائلتي او اقربائي ــ اصدقائي » . ٦ ــ « يجب على عضو الميليشيا ان : ــ يدافع عن وجود المنظمة الفدائية التي ينتمي اليها فقط ــ عن المخيم بكامله ــ عن اي مخيم للشعب الفلسطيني اذا احتاج الامر الى ذلك » .

١ ــ قال معظم افراد المجموعة (٥٩،٧ ٪) انهم سيطلبون تدخل اقربائهم والمنظمة التي ينتمي اليها عنصر الميليشيا ، اذا حصل خلاف بين احد اقربائهم واحد عناصر منظمتهم . وقال ٢٦،٨ ٪ منهم انهم سيطلبون تدخل منظمتهم فقط. وقال ٧،٤ ٪ منهم انهم سيطلبون تدخل اقربائهم فقط . وقال شخص واحد فقط (١،٤ ٪) انه سيدافع عن قريبه . ولم يعط (٤،٤ ٪) جوابا .

٣ ــ قال معظم افراد المجموعة (٦٤،١ ٪) انه اذا حصل اي خلاف بين عنصر ميليشيا وشخص اخر لا ينتمي الى أية منظمة فدائية فان القضية يجب ان ترفع الى الكفاح المسلح لحل الخلاف . بينما قال (١٩،٥ ٪) انها يجب ان ترفع الى المنظمة التي ينتمي

اليها عنصر الميليشيا . وقال (١١،٩ ٪) انها يجب ان ترفع لعائلة او اقرباء كل من عنصر الميليشيا والشخص الاخر . قال شخص واحد (١،٤ ٪) ان القضية يجب ان ترفع الى وجهاء المخيم . ولم يعط (٢،٩ ٪) جوابا .

٣ ــ قال معظم افراد المجموعة (٥٨،٢ ٪) انه اذا حصل خلاف بين اثنين من عناصر الميليشيا وطلب حق التدخل كل من المنظمتين الفدائيتين اللتين ينتميان اليها وافراد عائلة كل منهما فان الحق في التدخل يكون للمنظمتين فقط . بينما قال (٥،٩ ٪) ان حق التدخل يكون للعائلتين فقط . وقال ٣٥،٨ ٪ ان حق التدخل يكون للمنظمتين والعائلتين معا .

٤ ــ قال نصف افراد المجموعة ٥٠،٧ ٪ انهم اذا وقعوا في ضائقة مالية سيطلبون المساعدة من اصدقائهم ، بينما قال ٢٥،٣ ٪ انهم سيطلبونها من اقربائهم . وقال ١٤،٩ ٪ انهم سيطلبونها من المنظمة التي ينتمون اليها . وقال ٤،٤ ٪ انهم سيطلبونها من الكفاح المسلح . ولم يعط ٤،٤ ٪ جوابا .

٥ ــ قال ٣٤،٣ ٪ من افراد المجموعة انهم اذا مرضوا سيطلبون نقودا للمعالجة من المنظمة الفدائية التي ينتمون اليها ، بينما قال ٢٦،٨ ٪ انهم سيطلبونها من عائلتهم او اقربائهم . وقال ١٩،٥ ٪ انهم سيطلبونها من اصدقائهم . ولم يعط ١٧،٩ ٪ جوابا .

٦ ــ قالت الاغلبية الساحقة (٨٨،٣ ٪) من افراد المجموعة ان على عضو الميليشيا ان يدافع عن اي مخيم للشعب الفلسطيني اذا احتاج الامر لذلك . وقال ٤،٤ ٪ ان على عضو الميليشيا ان يدافع عن المخيم بكامله . ولم يقل اي فرد ان على عضو الميليشيا ان يدافع عن وجود المنظمة الفدائية التي ينتمي اليها فقط . ولم يعط ٧،٣ ٪ جوابا .

استنتاج :

يبدو ان معظم افراد مجموعة الميليشيا التي شملتها الدراسة قد تخطوا الولاءات العشائرية في مجال الخلافات الشخصية بين اقرباء لهم وزملاء في التنظيم ، او بين زميل في التنظيم وشخص من خارج التنظيم . فهم يدعون ، في هذا المجال ، الى رفع القضية الى الكفاح المسلح للبت فيها ، او يقصرون حق التدخل على المنظمات الفدائية . لكنهم لا يبادروا الى اخذ القضية بأيديهم ، ولا يعطوا عائلتهم اولوية التدخل او يحصروا حق التدخل بها . لكن ما زال للعائلة مكانة تلي مكانة السلطة اللاشخصية الجديدة . كما تخطى افراد هذه المجموعة العشائرية بمفهومها الجغرافي الضيق فلم يقل اي منهم ان واجبه هو الدفاع عن وجود منظمته فقط ، بينما قال معظمهم ان واجبه الدفاع عن اي مخيم فلسطيني يحتاج الى حماية . غير ان العائلة والصديق ما زالا يحتلان المكانة الاولى كمرجع لحاجات الفرد الشخصية ، كالنقود او العلاج . وهذا امر مفهوم لان التنظيم لا يستطيع ان يكون البديل في مجال تلبية الحاجات الشخصية لافراده .

هناك نقطة يجب ان ننبه اليها . فقد بدا ان معظم افراد المجموعة قد تخطوا العلاقات الشخصية والعشائرية وذلك بتطلعهم الى السلطة الجديدة والى تنظيمهم العسكري ــ السياسي . لكن نخشى ان تكون العلاقات داخل التنظيم والسلطة الجديدة علاقات شخصية ، فيكون كل من التطور الذي حدث عندئذ هو استبدال العائلة بالتنظيم دون تخطي العلاقات الشخصية . وجلاء هذه النقطة يحتاج الى دراسة طبيعة العلاقات داخل التنظيم والكفاح المسلح .

المسألة الفلسطينية في الادب العربي الحديث

صالح ج. الطعمة

ان قضية فلسطين لا تجاريها أية قضية أخرى كمصدر للمواضيع الادبية في الادب العربي الحديث . وطيلة ما ينيف على خمسين عاما ، أي منذ صدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، استأثرت فلسطين بانتباه عدد متزايد من الشعراء والمسرحيين والروائيين والنقاد الادبيين وغيرهم من الكتاب(١) . لكن المرء يفتش عبثا عن محاولات غربية جدية تهدف الى دراسة هذا المظهر في الادب العربي . حتى ان تلك المختارات او الترجمات القليلة ، والتي اختارها وأعدها الباحثون البريطانيون والاميركيون عن الاعمال الادبية العربية خلال العشرين سنة الماضية ، يبدو عليها التملص الكلي تقريبا من القصائد والقصص والمسرحيات المتصلة بالمسألة الفلسطينية(٢) . وهي بذلك لا تقصر عن تحقيق نظرة متزنة الى الادب العربي الحديث فحسب ، بل تفشل في تطوير تبصر لعقل الشعب العربي وروحه ، من خلال تصدي هذا الشعب للتغلب على واحدة من اكبر مشكلاته الحديثة . فالقيمة العائدة لمثل هذا المنحى الادبي ليست بحاجة الى مزيد من التوكيد . ومع ذلك ، ما فتىء الكثيرون من دارسي العالم العربي يشعرون برغبة تدفعهم لالتماس الشيء الذي صار مألوفا : في دراسة الادب العربي كأداة نحو فهم أفضل للعالم الذي يعكسه هذا الادب . ولفترة حديثة العهد فقط شعر احد كبار المستشرقين الايطاليين — اومبرتو ريتزيتانو — بالحاجة الى التشديد على هذه النقطة . حيث قال : « ليس باستطاعة اي عمل من اعمال البحث في التاريخ القديم والحديث للشعوب العربية ، ولا أية دراسة عن السياسة الغربية في الشرق الادنى ، ادعاء الشمول والاستنفاد فيما لو أهمل مؤلفها معرفة روح هذه الشعوب ، وتغافل عن الحدود والنواحي المتصلة بما يدعى « وجدان الجماهير » — هذا الوجدان الذي يحاول الكتاب تقديمه لنا من خلال رواياتهم وقصائدهم ومسرحياتهم . ان هذا النتاج الادبي هو المعين الحقيقي والثمين للتاريخ »(٣) .

ودراسة الادب العربي الذي يدور حول النزاع الفلسطيني تتكشف عن عدد من الخصائص أو الاتجاهات العامة . فمن زاوية الانواع الادبية ، يتقدم عليها الشعر باعتباره الوسيط الاوسع انتشارا . ليس لان الشعر كان على مدى قرون طويلة بمثابة النوع الادبي الاول في العربية فحسب ، بل ولانه يمثل الاداة الاشد فعالية للوصول الى جمهور أوسع ولايقاظ الرأي العام أو تكوينه . وكما قال الناقد الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا : « يمكن ادانة الشعر باعتباره لعبة ضعيفة للغاية أمام البنادق ، لكنه في الواقع الفعلي غالبا ما كان يضاهي الديناميت من حيث الجودة . لقد أعطى الاتجاه لغضب وآلام أمة بأسرها . وقام على بلورة المواقف السياسية في سطور معبرة حفظها الشيب والشبان ، لكي تزيد في صلابة المقاومة الشعبية وتزودها بالشعارات الحماسية »(٤) . لذا ليس هناك ما يبعث على الدهشة في الملاحظة بأن الكثير من هذا الشعر هو خطابي

---

* وضع هذا البحث ، في الاصل ، باللغة الانجليزية . ويرغب كاتبه الاعراب عن تقديره لجامعة انديانا التي قدمت له منحة أتاحت له القيام بدراسة عامة للادب العربي الحديث .

ونضالي او تعليمي، وانه يتناول موضوعات تبدو للذوق الغربي مفرطة في طابعها العملي بحيث لا تصلح كمضمون مشروع للشعر . أما الانواع الادبيـــة الاخرى ، مثل الادب القصصي أو المسرحي، فقد لعبت حتى الان دورا ثانويا في ابراز الموضوعات الفلسطينية. ويمكن تفسير ذلك بالرجوع الى عدد من الاسباب ، منها ان هذين النوعين مستحدثان في العربية وما برحا في مرحلة النمو والتطور . بناء عليه ، فان رد الفعل الصادر عـــن الروائيين وكتاب القصة القصيرة والكتاب المسرحيين ازاء المشكلة يبدأ متأخرا ، وربما ليس قبل الاربعينات . بينما أخذ الشعر في تناولها منذ فترة باكرة يرجع عهدها الى سنة ١٩١٧ .

وفيما يتصل بالتمثيل القطري لدى الادب ذي التوجه الفلسطيني ، لقد شارك الادباء من جميع البلدان العربية بدرجات متنوعة . لكن البلدان المتورطـــة اشد التورط هي ، بالاضافة الى فلسطين ، البلدان التالية : سوريا ولبنان والعراق ومصر . وتوحي دراسة صدرت مؤخرا بالعربية حول فلسطين في الشعر العربي (١٩١٧ ــ ١٩٥٥) بأنه خلال الفترة السابقة لقيام اسرائيل استأثرت سوريا بالنصيب الاكبر من النتاج الادبي ، يليها لبنان والعراق ، وثم مصر . أما الفترة اللاحقة لقيام اسرائيل ، فيبدو ان العراق يحتل المقدمة فيها، ثم تليه سوريا ومصر ولبنان(٥). ورغم التساؤلات التي قد يثيرها المرء حول المقاييس التي تستند اليها هذه الاستنتاجات ، فانه ليس بعيدا عـــن المألوف ان تكون البلدان المحاذية لمسرح النزاع هي الاكثر انشغالا به عما عداها . والى جانب الدور الذي لعبته الدول العربية ، فان الكتاب الاميركيين من أصل عربي ، في كل من الولايات المتحدة وأميركا الجنوبية ، أسهموا في نمو هذا الادب ، وان يكن الدور الذي قام به فريق أميركا الشمالية دورا ثانويا لدى مقارنته بدورهم في اميركا الجنوبية . من الولايات المتحدة تأتينا أصوات أمين الريحاني (١٨٧٦ ــ ١٩٤٠) وايليا ابو ماضي ، الشاعر والصحافي الكبير (١٨٩٤ ــ ١٩٥٧) . لكن أميركا الجنوبية تزودنا بآثار ما ينيف على عشرة من الادباء الراسخين ، من الذين مارسوا الكتابة بنشاط حتى الوقت الحاضر .

فلو نظرنا الى هذا الادب من الزاوية الدينية أو الايديولوجية ، لتبادر الى ملاحظتنا ان جميع الظلال تتمثل فيه . والحق يقال انه ليس هناك من قضية أخرى نالت مثل ذلك الاهتمام الجامع ، فتخطت الحدود السياسية أو الدينيـــة : فالمسيحيون والمسلمون والدروز ، واليهود في بعض الاحيان ، والعروبيون والاشتراكيون والشيوعيون وغيرهم ، قد استجابوا للمأساة في أعمالهم الادبية بصوت واحد تقريبا في ادانة الظلم الذي اعتبروه مقترفا بحق العرب . ولكي يتسنى تقديم نظرة شاملة لهذا الادب ، من المستحسن أن تجري دراسة خط تطوره على مرحلتين : المرحلة السابقة لقيام اسرائيل ، والمرحلة اللاحقة .

[١]

تتميز الفترة الاولى بعدد من الموضوعات والبواعث التي تعكس استجابة الكتاب العرب للاخطار الخارجية ، واكتشافهم المؤلم للآفات التي تشل مجتمعهم ، بالاضافة الى رؤيا مأساوية للنكبات التي كان من المقدر حدوثها مع انشاء اسرائيل وعقب قيامها . ومن بين هذه الموضوعات تأتي في الطليعة الفكرة القائلة بأن تصريح بلفور الذي يعد باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين،كذلك السياسات الغربية حيال الاماني العربية المتطلعة صوب كيان مستقل وموحد ، كلاهما يمثل اخلالا بالوعود السابقة ونكرانا للمعروف وجحودا . فالشاعر العربي في استطراده حول هذا الموضوع يستحضر صور الحملات الصليبية لكي يوحي بأن الغرب يقتفي خطوات الصليبيـــين في لقائه الجـــديد مع الشرق العـــربي والاسلامي . ويمكن الاستشهاد بثلاثة شعراء ، من سوريا ولبنان والعراق ، لتبيان هذا الموضوع في مرحلته الباكرة . ان خيرالدين الزركلي (١٨٩٣ ــ) ، وهو شاعر

سوري وبحاثة بارز في مراجع التاريخ العربي ــ الاسلامي ومصادره ، كان من بين الاوائل الذين عبروا عن شعورهم بالخيبة ونقمتهم ضد سياسة التفرقة والانقسام التي تسير عليها كل من بريطانيا وفرنسا . ففي قصيدة له كتبها عام ١٩١٩ ، نجده يتحسر على لامبالاة العرب التي تبدت بينما كان « الوطن السوري » يقتطع الى أجزاء وكيانات: لبنان وسورية وفلسطين . وهو يسعى ، من خلال استحضاره لامجادهم الماضية ، الى أن يخلف لديهم الانطباع بالحاجة الملحة الى الاتيان بعمل بطولي جديد . ان الزركلي يردد أصداء روح القصيدة التقليدية (المعلقة الجاهلية) لكي يلتمس في البداية تلك الجذور التاريخية العربية للارض كمقدمة لرفضه المزاعم الغربية في ادعاء أي جزء من وطنه . ثم يتحدث عن محاولة شعبه لصيانة حقوقهم عن طريق المفاوضات السلمية على أمل اهتداء الغرب ــ الذي ترمز اليه الشراهة ــ الى جادة الرشاد . ويلجأ اخيرا الى أسلوب شعري قديم هو قسم اليمين ، حيث يقسم بأنه لو غادر المعتدون وطنه ، فان شعبه سوف ينظر الى بادرتهم بعين الود والصداقة . اما اذا استمروا في عدوانهم ، فالسيف هو الحد الفاصل في ثورة عربية متجددة(٦).

ان وديع البستاني (١٨٨٦ ــ ١٩٥٤) ، المسيحي اللبناني الذي انضم الى الادارة البريطانية في فلسطين عام ١٩١٧ ، اعترته الصدمة لدى وصوله اذ رأى مكتبا للوكالة اليهودية ، مما حمله على النظر الى ذلك المكتب كعلامة تنذر بالشؤم . فقد عبر عن مشاعره في قصيدة خاطب فيها البريطانيين مذكرا اياهم بقوله :

فتحنا لكم صدرا مددنا لكم يدا ... واني لاخشى ان تديروا لنا ظهرا

ثم يتحدث عن هوة سحيقة تزداد عمقا بين شعبه والبريطانيين ، ويطلق تحذيره لرؤية « الوطن القومي يعلو بناؤه » . ان سوء ظنه بالسياسة البريطانية وارتيابه بالاطماع الصهيونية هي موضوعات استمرت تتخلل شعره طيلة ما يزيد على ثلاثين عاما. وديوانه الذي يحمل عنوان « فلسطينيات » (١٩٤٦) هو خير شاهد على ذلك(٧).

ويحاول الموضوع الثاني أن يدلل على كون المعارضة ليست موجهة ضد اليهود او ضد الهجرة المحدودة ، بل هي موجهة بالاحرى ضد فرض حل أوروبي وأجنبي يضير بحقوق الاكثرية في فلسطين . فباستطاعة المرء ان يذكر أمثلة عديدة لا تبرهن على هذه النظرة فحسب ، بل تبين الاحترام للتراث الديني اليهودي . وقبل شهرين من صدور تصريح بلفور قام أمين الريحاني ، وهو شخصية مسيحية بارزة في أوساط الجالية العربية ــ الاميركية بمدينة نيويورك ، بنشر مقالة في احدى المجلات الدورية الاميركية تحت عنوان « البلاد المقدسة : من يمتلكها ويحتفظ بها »(٨)، حيث كرر النقطة ذاتها . ان الريحاني رفض الصهيونية باعتبارها غير عملية ومشحونة بالاخطار ، لكي يتراءى له كحل مثالي : قومية سورية تشمل جميع العناصر الدينية في البلاد السورية بأكملها . فهو يقول : « اليهود السوريون والمسيحيون السوريون والمحمديون السوريون سوف يكونوا جميعا مواطنين لبلاد واحدة ، لبلاد تبقى موحدة وغير قابلة للتجزئة ، ومما يرتجى لها ان تتمتع في القريب العاجل ببركات حكم ليبرالي وعادل ، حيث كل امرىء ... يشارك بالتساوي في الحقوق الدينية والسياسية نفسها ، وينعم بالمساواة اياها في الحرية والحماية »(٩). وفي العام ١٩٢٠ ، عندما كان المناخ السياسي في فلسطين متوترا ، قام الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي (١٨٧٣ ــ ١٩٤٥) بتوجيه قصيدة الى هربرت صموئيل ، المندوب السامي اليهودي ، مشددا فيها على صلات القربى بين العرب واليهود ، لكنه حذر أيضا من انتهاك الحقوق العربية(١٠). أما أحمد شوقي (١٨٦٨ ــ ١٩٣٢)، الشاعر العربي الوحيد الذي جرى تتويجه اميرا للشعراء ، فانه يعتز في قصيدة وطنية له يعظم بها مصر بحقيقة كون التراب المصري قد باركه موسى الذي اجترح معجزة العصا . وفي مناسبة أخرى يأتي شوقي من جديد على ذكر موسى في معرض تغنيه بنهر النيل . والحق

ان شوقي ذهب الى أبعد من ذلك ، فعمد ابان وجوده في المنفى الى التوحيد بين ذاته وبين موسى ، جاعلا مصر مقام أم موسى(١١).

من هذه الامثلة وغيرها يتضح ان الادب العربي الحديث في مرحلته الباكرة لا يتكشف عن صورة مناوئة لليهود(١٢). لكن هذا الادب بدوره ، مع زوال التشديد على الهوية الدينية لليهود أنفسهم وانغماسها التدريجي في خضم الصهيونية ، سرعان ما أخذ في تطوير صورة جديدة لليهود ، تقوم على انتقادهم بشدة والارتياب بأمرهم ، ليس بصفتهم ينتمون الى ديانة ، بل في كونهم دعاة يروجون لارتكاب ظلم سياسي .

ومما تجدر ملاحظته ان الشخصيات اليهودية غير الصهيونية في رواية آرثر كوستلر « لصوص في الليل » (١٩٤٦) تقدم صورة لا تختلف كثيرا عن النقطة الواردة أعلاه . فالرواية ، مثلا ، ترسم صورة لاحد اليهود الارثوذكسيين بفلسطين جاعلة اياه يقول ما يلي : « على أيام الاتراك القديمة كان بضعة الاف من اليهود في البلاد ينعمون بالتساهل من جانب المسلمين ، فيما عدا بعض الحوادث الطفيفة من حين الى اخر ، وهي غير جديرة بالذكر . أما الان ، ولدى مجيء الصهيونيين ومجاهرتهم بدولة عبرية ، فقد صار العرب يناصبونهم العداء »(١٣). ويمكن قول الشيء ذاته عن شخصية أخرى تقدمها رواية كوستلر لاستاذ في الجامعة العبرية ، اذ يشعر هذا الاستاذ انه لولا وجود المتطرفين على الجانبين ، « لاستطاع كل من العرب واليهود ان يعيشوا سعداء جنبا الى جنب ، كما عاشوا منذ ألف سنة في اسبانيا » ثم يرد الكلام التالي على لسان الاستاذ : « المتعصبون الشبان عندنا يريدون اكثرية يهودية . ما هذا الكلام ؟ استفزاز . ما هي الاعداد ؟ ما هي الكميات ؟ الروح هي التي تدخل في الحساب . يجب علينا الدخول بروح المودة والتفاهم على اصدقائنا العرب . فاليهود يمقتون العنف . انها رسالتنا التاريخية »(١٤).

والموضوع الثالث الذي جرى التشديد عليه باستمرار هو الحرمة الدينية لمدينة القدس . هذا النوع من الاستهواء يستمد دعامته من مكانة القدس المحورية في التفكير الديني الاسلامي . بينما لا يسمح المجال هنا سوى ببعض التلميحات القصيرة . فالقدس تمثل تاريخيا « اولى القبلتين » ، أي المكان الاول الذي اتجهت صوبه انظار المسلمين الاوائل ابان تأدية الصلاة . وهي تمثل ، بنظر المسلم المؤمن عن حق ، تلك البقعة المقدسة التي زارها النبي محمد في ليلة اسرائه وانطلق منها في صعوده الى السماء . ونتيجة لذلك لا يتقدم عليها في مجال التقديس سوى توأم مكة والمدينة (القدس هي ثالث الحرمين) . كما يجري اعتبارها ، فضلا عن ذلك كله ، بمثابة « عرصة القيامة » ومشهد يوم الدينونة(١٥). ان الشاعر العربي ، في تناوله لبعض من هذه الموضوعات ، غالبا ما يلمح الى الصليبيين لكي يوحي بأن الغرب يسير على طريق مماثلة في اللقاء الجديد مع الشرق العربي الاسلامي ، ومن هنا كان الاستحضار الحتمي لشخص صلاح الدين ، الذي انتصر على الصليبيين عام ١١٨٧ . لقد جيء على ذكر هذا البطل المعظم قبل ظهور النزاع الفلسطيني ، لكن التواتر الذي يستحضر به اسمه جعل من صلاح الدين موضوعا أدبيا بارزا عبر استمرار الادباء العرب في تصوير المأزق الحاضر وفي تفتيشهم عن منقذ جديد أو حل للازمة(١٦).

رابعا ، وبالاضافة الى هذه الموضوعات الخارجية ، جرى التعريض مرارا وتكرارا بمختلف العلات والامراض الداخلية التي تراوحت بين أنانية الملاكين في بيع أراضيهم من العدو وبين الانقسام الذي أعاق الكثير من مسيرة المقاومة العربية . فالشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان (١٩٠٥ ــ ١٩٤١) كرس العديد من قصائده لهذه الموضوعات ، وأجرى في بعض تلك القصائد مقارنة بين المنجزات التي حققها

المستوطنون اليهود وبين الاعمال الهدامة التي صدرت عن الاحزاب العربية من خلال انغماسها في الخلافات التافهة والتناحر الاناني .

وأخيرا ، حيال ادراكه لقيام « العدو » على التنفيذ الهادىء لخطة مرسومة بعناية فائقة بغية احتلال فلسطين ، وفي ازدياد وعيه للنقص الذي يعتري رد شعبه على التحدي ، وجد الشاعر العربي نفسه عالقة بين عالمين متصارعين : عالم من التفاؤل القائم على احساسه بعدالة قضيته ، وعالم الواقع العاجز عن تحقيق تفاؤله ، نظرا لما يعتريه من فساد وانانية ، وللقيم البالية التي تسوده . فهو يبدو ، من جهة ، مدفوعا بروح العزيمة المصممة على الصمود بوجه العدوان الاجنبي الجديد ، يحركه ايمان صوفي بالنصر النهائي لقضيته في فلسطين . ومن جهة ثانية ، تجتاحه رؤيا نبوئية ومحزنة لاقتراب حدوث النكبة . ان الشعراء الفلسطينيين وغير الفلسطينيين على السواء كانوا ذا أثر في استنباط رؤيا مأساوية للتطورات المنتظرة . فالجواهري ، وربما كان اكبر الشعراء الاحياء من المدرسة التقليدية ، وغالبا ما اشتهر بأبياته التنبوئية ، تنبأ بضياع فلسطين منذ ما ينيف على ثلاثين عاما(١٧). لكن بما ان الشاعر الفلسطيني امتاز عن غيره من الشعراء العرب بالعيش الفعلي وسط الاحداث الجارية في بلده ومعاناة هذه الاحداث ، فان هذه الرؤيا المأساوية تتحول لديه الى هاجس يستحوذ على نفسه والى سمة تميز شعره . فالشاعر عبد الرحيم محمود (توفي ١٩٤٨) القى قصيدة أمام الامير سعود بن عبد العزيز أثناء زيارة هذا الاخير لفلسطين عام ١٩٣٥ ، وتصور فيها احتمال ضياع المسجد الاقصى(١٨). فقال مخاطبا الزائر :

المسجد الاقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه ؟
وغدا وما أدناه لا يبقى سوى ... دمع لنا يهمى وسن نقرعه

ان هذا الشاعر المؤمن بتضحية الذات في سبيل قضيته القومية لاقى حتفه عام ١٩٤٨ في معركة دارت رحاها بالقرب من القدس . وكأننا به قد وفى بالقسم المتجسد في قصيدته « الشهيد » والتي يبدأ مطلعها كالآتي(١٩):

ساحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق ... واما ممات يغيظ العدا

أما طوقان فقد وضع أمام أبصار بني وطنه رؤيا عن يوم أسود ، يوشك وقوعه لتضيع معه أرض الوطن . وقصيدته الاستهزائية بعنوان « أنتم » ، والتي يخاطب بها زعماء فلسطين ، ربما كانت خير تعبير عن مرارته وخوفه من المستقبل(٢٠). فهو يقول :

انتم المخلصون للوطنية ... انتم الحاملون عبء القضية
انتم العاملون من غير قول ... بارك الله في الزنود القوية
وبيان منكم يعادل « جيشا » ... بمعدات زحفه الحربية
و « اجتماع » منكم يرد علينا ... غابر المجد من فتوح أمية
وخلاص البلاد صار على الابوا ... ب وجاءت اعياده الوردية
ما جحدنا أفضالكم غير انا ... لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كي لا تطير البقية

وكطريق للخروج من هذا المأزق لم يكن أمام الشاعر من بديل سوى الالتفات صوب القوة المادية . ان عبثية الحجج والمفاوضات أو البيانات قد تبرهنت بما لا يرقى اليه الشك . وما تستدعيه الحاجة الان هو الاعمال البطولية ، ولا سيما تلك البطولات التي يجسدها كل من أبطال الماضي وقدوات الحاضر في الاستشهاد . كما برزت ، بالاضافة الى الشخصيات المعينة كأمثلة للبطولة ، صورة الشهيد كما رسمها عبد الرحيم محمود ، وصورة الفدائيين التي رسمها طوقان في فترة باكرة ترجع الى سنة ١٩٣٠(٢١).

عقب خلق اسرائيل ونتائجه المأساوية ، أخذ ينبوع الموضوعات الفلسطينية بالطفح ، ولا سيما بالنسبة لتلك الموضوعات التي لم تستخرج تماما من منابعها . ولم تجر متابعة الموضوعات السابقة بأسلوب مكثف فحسب ، بل أخذت تتبدى قضايا جديدة وأفكار جديدة ورموز جديدة في الادب خلال العشرين سنة الاخيرة . فالرؤيا النبوئية عن خسارة فلسطين للعدو ليست الان رؤيا ، بل هي واقع . هناك حوالي المليون من الفلسطينيين ، ومن بينهم اولئك الكتاب أصحاب النبوءات ، يجدون أنفسهم لاجئين في بلاد عديدة . ولقد كان من الحتمي ان يتكرس الكثير من الادب الجديد لموضوعات من طراز استعادة الفردوس المفقود ، ومصير اللاجئين والعذابات الجسدية والعاطفية والروحية التي تتخلل حياة العرب المقيمين في اسرائيل . ان هذه الموضوعات واخرى متصلة بها تنعكس في أعمال الكتاب العرب عموما أو يجري تناولها في تلك الاعمال . ومع ذلك ، فانه يستحسن ولوجها من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، كما يلي : موضوعات النفي والتشرد الفلسطيني ، وموضوعات العرب في اسرائيل ، والعرب غير الفلسطينيين . تتميز كل مجموعة من هذه الموضوعات بنبرة سائدة ، هي على التوالي : التوق والمقاومة والنقد الذاتي .

ـ أ ـ

يشدد أدب المنفى بطبيعة الحال على حس من الاغتراب وشعور عميق بالحنين . وكما ألمح عبد اللطيف الطيباوي في مقالته عن « رؤى العودة »(٢٢) (١٩٦٣) ، فان العاطفة العربية الحاضرة لا تقل في زخمها وشدتها عن المشاعر التي يعرب عنها ناظم المزامير اذ يرنم قائلا : « ان نسيتك يا اورشليم تنس يميني ليلتصق لساني بحنكي ان لم اذكرك ، ان لم أفضل اورشليم على أعظم فرحي »(٢٣) . (المزمور ١٣٧ : ٥ ـ ٦) .

ثمة قصائد لا تحصى ، وكثير من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات التي تعمد باستمرار الى ابراز صور الماضي وذكرياته التي ما زالت نضرة وحية . كما تصف في الوقت نفسه آلام اللاجئين وعذاباتهم . ولكي أمثل على هذا الموضوع ، سوف أشير باختصار الى آثار عدد من الكتاب البارزين . ان محمود الحوت ـ وهو من مواليد يافا ، وتلقى تعليمه في الجامعة الاميركية في بيروت ـ كان من بين الاوائل في تكريس قصيدة طويلة بعنوان « المهزلة العربية » (بغداد ، ١٩٥١) لتجربته الجديدة كـ «عربي فلسطيني ضائع في بلاد أخرى » . تتألف هذه القصيدة من ٢٨ مقطعا في ثمانية أسطر للمقطع الواحد ، وتشمل عددا من الموضوعات التي تتراوح بين شجاعة الفلسطينيين في الدفاع عن وطنهم بمفردهم وبين الوصف الساخر لـ « الدول العربية الجبارة وعددها سبع دول » في محاولتها الرامية الى انقاذ فلسطين . لكن القصيدة تتميز على الاخص برؤيا الشاعر الحنينية والزاخرة لبلدته الام ـ يافا ـ وفردوسه المفقود . وعلى غرار شعراء اخرين من قبله ، أو من بعده ، يكرر الحوت وضع فلسطين على قدم المساواة مع جنة الله . ففي هذا الصدد يردد الكتاب العرب الفلسطينيون صدى أحاسيس أعرب عنها اوائل المستوطنين اليهود بفلسطين . ان يشوع بارزيلاي (١٨٥٥ ـ ١٩١٨) ، مثلا ، ينقل عنه القول التالي : « انني عاجز عن وصف الاشجار في أرض اسرائيل ، وكيف لي ان أتحدث عن جمال اشجار النخيل ، واشجار الزيتون والتين ... اذا كانت الجنة تشبه اريحا ، فانها حتما رائعة الجمال(٢٤) » .

واذا كان بارزيلاي واخرون من أبناء جيله قد حركهم مناخ توارتي على الشعور البديلي بجمال البلاد المصطنع ، فان الشعراء العرب يتملكهم جمال بلادهم الطبيعي ، وتستحوذ عليهم ذكراها الحية في نفوسهم ، كما يزخرون بوفرة من التجارب الحقيقية لمناظرها

الطبيعية . من هنا تتبين تلك الشدة المضاعفة التي تطالعنا في اسقاطهم لفلسطين باعتبارها فردوسا مفقودا . ان معين بسيسو في مجموعته الاخيرة ، **فلسطين في القلب** (١٩٦٥) ، يزودنا بتنويعات على الموضوع ذاته . فهو يصدر المجموعة مستشهدا بالبيت التالي للشاعر التركي ناظم حكمت :

« وضع الشاعر في الجنة
فصرخ قائلا :
آه يا وطني ... »

ثم يوجز حنينه للوطن في قصيدة قصيرة تنتهي بالابيات التالية :

« يا وطني ، من لي
من لي
وبجرعة برق من سحبك
وبكسرة رعد ؟
لو جمعوا كل الانهار بكأسي
لصرخت ، والقيت بنفسي ،
من عطشي لعيونك في الشمس »(٢٥)

وفي قصيدة مؤثرة أخرى بعنوان « قصيدة الى الاسلاك الشائكة » يعبر هذا الشاعر عن توق الى التضحية ، فيقول :

« لو قدر يا وطني
أن القاك
كالارض البكر المولودة
من قبلة زلزال ،
كشراع قد تاه
وهاد به الاعصار ،
لسقطت على سيفك
يتمزق قلبي
من قبلة سيفك ، واراك »(٢٦).

ان قصة اللاجيء الذي يتقبل الموت أو يسعى اليه ثمنا يدفعه لقاء رؤية أرضه تسردها أعمال مختلفة . لكن قصيدة فدوى طوقان هي واحدة من أفضل القصائد التي تمثل على ذلك خير تمثيل . هذه الشاعرة من نابلس ، ولها مجموعات عديدة ، نذكر منها « وحدي مع الايام » (١٩٥٢) و « وجدتها » (١٩٥٩) . أما قصيدتها «نداء الارض» فانها تصف عجز اللاجيء عن القبول بمصير التائه الذي يلازمه العار في بلاد اجنبية ، وتصور تصميمه على العودة مهما كان الثمن . ثم نرى اللاجيء متابعا سيره كمن يمشي أثناء الحلم . فيحقق قسمه بالعودة الى أرضه ، لكي يسمع للمرة الاخيرة أصوات طلقات نارية تمزق سكون الليل(٢٧).

وتتناول شاعرة اخرى ، هي سلمى الجيوسي ، في ديوانها « **العودة من النبع الحالم** » (١٩٦٠) ، موضوع العودة التي لا يتم تحقيقها الا عبر عملية طويلة ومضنية من الخلاص . ان قصيدتها التي تحمل عنوان تنتهي بنغمة يسودها الامل وتندمج فيها صورة الشهداء الذين تباركوا بنداء الخلاص وشمس الامل التي تشع بنورها الساطع فوق مسيرتهم الطويلة والصخرية(٢٨). والشاعر اللاجيء في غزة ، هارون هاشم رشيد، أصدر على الاقل ستة دواوين شعرية : « مع الغرباء » (١٩٥٤) ، و « عودة الغرباء » (١٩٥٦) ، و « غزة في خط النار » (١٩٥٧) ، و « ارض الثورات » (١٩٥٩) ، و « حتى

يعود شعبنا » (١٩٦٦) ، بالاضافة الى مجموعته الصادرة في أعقاب ١٩٦٧ بعنوان « سفينة الغضب » (بدون تاريخ) . تدور هذه المجموعات كلها تقريبا — ويسودها النغم المحارب — حول الفكرة القائلة بأن اللاجئين لن يتمكنوا من استرجاع حياة ذات معنى الا من خلال اتحادهم مع ارض الوطن . ومن هنا ينبع ايمانه بحتمية العودة(٢٩) . وفي قصيدة له عنوانها « مسافرون » يصف عذاب اللاجئين الباحثين عبثا عن حياة جديدة خارج أرضهم بمزيج من النغم المحزن والنصح التحذيري(٣٠) . فاللاجىء يطالعنا من خلال تتابع سريع للمشاهد وهو يتصارع مع القرار الصعب والذي لا مفر منه ، بترك مخيمه وشأنه والتطلع في أحلامه صوب أرض اكثر وعدا . ويقضي أبواه المسنان وزوجته وأطفاله الابرياء سواد ليلهم بالنواح على رحيله الوشيك ، ثم يحتشد الجميع قبل طلوع الفجر لوداعه في محطة القطار ، التي يصفها الشاعر بمثابة رصيف للدموع . وبعد مغادرة القطار ، تجد الاسرة نفسها في حالة من الذهول ، فتعاني أثناء الليل من « قسوة الصمت » الذي يستحوذ على « مخيمها الجريح » . أما اللاجىء المرتحل ، فيجد نفسه الان في مكان ما من ارض غريبة ، تطارده خطيئته بلا هوادة ، دون ان يعثر على مكافأة سوى التجوال أو يسمع شيئا غير كلمة الازدراء « لاجىء » ! وتتفجر رسائله الى عائلته بالشوق والحزن ، بينما يأخذ الاطفال التائقون في تعذيب أمهم بأسئلتهم الملحاحة عن اخبار عودته . وأخيرا ، كأن هذا العذاب كله لا يكفي ، يضفي الشاعر من عنده على اللاجىء احساسا بالاثم مذكرا اياه بأنه في الاقدام على الرحيل ، قد خان دوره كمدافع عن وطنه .

ان من بين الرموز التوكيدية التي يستخدمها هارون هاشم رشيد وغيره من الشعراء للدلالة على مقصدهم في العودة هو « مفتاح البيت » الذي يحمله اللاجئون معهم اثناء تجوالهم في المنفى . وفي قصيدة مكرسة كليا لهذا الموضوع(٣١) يكتسب المفتاح هالة من القداسة ويصبح هدفا للتبجيل والعبادة .

هذا التعلق اياه بالمفتاح يوجد ايضا في شعر محمود درويش ، الذي يعبر في احدى قصائده : « خلف الاسلاك »(٣٢)، عن توقه للاحتفاظ بمفاتيحه حتى الموت ، وبالاسلوب التالي :

« احج اليك يا حيفا
وانفض عن مصابيحي
غبار الليل والزمن
فما زالت مفاتيحي
معي . في الجيب والعينين والكفن » .

ومن الرموز الملهمة الاخرى التي أخذت تزداد تكرارا في الادب العربي المعاصر بشكل عام ، رموز مستقاة من المصادر التوراتية . فالصلب هو الرمز الغالب ، بيد انه يجري استحضار رموز أخرى مثل قايين وهابيل وأيوب . ثمة قصيدة حديثة العهد كتبها الشبعاوي من غزة بعنوان « فلسطين » ، وهي تتناول المأساة بطريقة حادة الذكاء دون أية اشارة الى الحاضر . انها تحكي ، من خلال مقاطعها الثلاثة والمكرسة على التوالي لكل من المسيح وهابيل وأيوب ، قصة التضحية والذنب والانتصار النهائي للمستعبدين (بفتح الباء)(٣٣) .

— ب —

اذا كان أدب المنفى يشغله هاجس رئيسي هو الاوضاع المؤلمة التي بات عليها الفلسطينيون ، وموضوع العودة بنوع خاص ، فان أدب المقاومة الذي كتبه عرب الارض المحتلة قد أولى اهتمامه في الدرجة الاولى للحفاظ على الهوية الفلسطينية العربية . واذا كان الادب الاول يمتاز على العموم بتلك الروح من الانتحاب او

الحماس المحارب والمرتفع ، فان الثاني يتسم على الغالب بنغمة يسودها الايحاء والهدوء والامل . بيد ان أدب المنفى استجاب على الفور للوضع الجديد ، بينما انتظر أدب المقاومة ما يزيد على عشر سنوات قبل ان يتمكن من اثبات وجوده . هذا التباطؤ يمكن تفسيره بالرجوع الى عدد من العوامل ، ومن جملتها الحقيقة بأن جميع الكتاب الفلسطينيين تقريبا كانوا قد تركوا البلد . والاهم من ذلك هو المناخ السياسي الذي وجده العرب تحت الاحتلال مناوئا لنشاطاتهم الادبية . ففي مرحلة متأخرة تعود الى ١٩٥٨ أشارت كاتبة عربية ، هي نجوى فرح ، لدى مراجعتها لمجموعة شعرية في المجلة الاسرائيلية « نيو اوتلوك » الى هذا المناخ بقولها : « ان الكاتب العربي عليه أن يحوم حول الموضوع ويكتم الجزء الاعظم من قصته ، فكأنه يعتمد على فطنة القارىء ومقدرته في الاستيعاب » . ثم استشهدت من الكتاب موضوع المراجعة بعدة أسطر توحي بذلك المناخ :

« عبد أنا ، ولا استطيع التمتع بحريتي
لان هناك مأساة فظيعة تجعلني أتلعثم ،
هناك جريمة تمت بدقة متناهية
انا لا استطيع الكلام ، ولساني عاجز عن النطق »(٣٤).

ومع ان الصوت العربي أصبح أقل عرضة للاسكات والقمع في أواخر الخمسينات ، فلا نشهد الا خلال الستينات فقط انتفاضة من الاثار الادبية التي جرى تكريس المقدار الاكبر منها لتناول محنة العرب داخل اسرائيل . فالناقد الاسرائيلي شموئيل موريه (المولود في بغداد) كتب في مقالة له عن « النهضة الادبية العربية في اسرائيل » (١٩٦٧) ليقول بأن الاسرائيليين بذلوا الجهود لاقناع الشعراء العرب بمعالجة قضايا أوسع ، مثل القضايا التي تواجه الاقلية العربية ، بدلا من موضوعات الحب التي سيطرت على أعمالهم الباكرة . ومن البادي انه يتذمر ، لا سيما حين يستطرد لابداء الملاحظة بأن هذه الجهود « أسفرت عن نجاح زائد للغاية . فاليوم يكاد لا يوجد أي حدث تنقله الصحف الا ويتحول هذا الحدث موضوعا لقصيدة » . كما يبدو ان هذه الظاهرة تعرضت للنقد من جانب شاعر عربي في اسرائيل ، هو راشد حسين ، الذي يستشهد بقوله التالي : « أنا لا أنكر على شعرائنا كتابة الشعر السياسي ، لكن هذا لا يعني القول ان كل شيء يكتبونه يجب أن يكون سياسيا . ومعظم شعرائنا اليوم في اسرائيل ينتظرون وقوع الاحداث المؤسفة او السياسية لكي يقوموا بنظم قصيدة عنها »(٣٥). لكن انتقادات من هذا القبيل تتجاهل دون مبرر حقيقة كون هؤلاء الشعراء لا يحتاجون الى الاحداث المأسوية كي يكتبوا عنها ، اذ يعيشون تلك الاحداث ويحسونها يوميا . وكونهم لا يختلفون ، في رؤياهم المكثفة للمأساة ، عن غيرهم من الكتاب أمثال الشاعر الاسرائيلي اسحق لامدان (١٩٠٠ — ١٩٥٤) الذي يعتنق الفكرة الاتية : « انه لمن الاجرام انشاد الاغنيات التافهة أو الكتابة عن الطبيعة والصداقة أو الحب ، بينما شعبه يتعرض للذبح »(٣٦). واذا كان الشعراء العرب في اسرائيل « يلتقطون » الاحداث او الحوادث أو الاخبار ، فذلك لانهم يجدون فيها وسيلة أدبية او اداة فنية لعرض قضيتهم . هناك مثالان حديثان للتدليل على استخدام الشاعر للاحداث بغية تصوير مأزقه الحرج : قصيدة موجهة الى أفريقي من روديسيا ، والاخرى الى الشاعر السوفياتي يفتوشنكو ، صاحب قصيدة « بابي يار » . ففي القصيدة الاولى يجد الشاعر ، لدى سماعه بأن رئيس حكومة روديسيا — ايان سميث — قد أعلن انه لن يسمح للافريقيين بتسلم الحكم طالما هو على قيد الحياة ، مأساة انسانية لا تختلف عن مأساته . مما يحركه لكتابة قصيدة تتمازج فيها صورة الافريقي الروديسي بصورة العربي في اسرائيل(٣٧). والمثال الثاني يحاول تذكير الشاعر السوفياتي الذي كتب عن

مذبحة « بابي يار » بأن هناك مثيلات لها تنتشر فوق رقعة وطنـــه ، مثل دير ياسين وكفر قاسم وغيرها من أماكن الذكرى المحزنة(٣٨) .

من بين الدعاة البارزين في أدب المقاومة نجد أمثال : محمود درويش (١٩٤١ —) وسميح القاسم (١٩٣٩ —) وتوفيق زيـــاد (١٩٣٢ —) . ان هؤلاء الشعراء الشبان الثلاثة أصدروا ما يزيد على عشر مجموعات شعرية خلال فترة قصيرة نسبيا . ولاجل تبيان الروح التي تتجلى لديهم فان ملاحظاتي سوف ترتكز بشكل رئيسي على آثار محمود درويش ، وهي تشمل ما يلي : « **عصافير بلا أجنحة** » (١٩٦٠) ، « **أوراق الزيتون** » (١٩٦٤) ، « **عاشق من فلسطين** » (١٩٦٦) ، « **آخر الليل نهار** » (١٩٦٧) ، « **يوميات جرح فلسطيني** » (١٩٦٩) ، و « **حبيبتي تنهض من نومهـــا** » (١٩٦٩) .

والموضوع الاول الذي يسترعي انتباهنا على الفور عند قراءتنا لهذا الادب هو اعتزاز بالعروبة وحب متفان لهوية الوطن الفلسطينية . فالشاعر يخشى على هويته القومية من الضياع ، كما تقض مضجعه مختلف أشكال التمييز ضد شعبه ، ولذا يجد نفسه مرغما على التعبير عن اعتزازه بعروبته — دون غطرسة أو الطعن في الشخصية القومية لاخصامه . ان موقفه هو موقف الدفاع تقريبا ، ويخلو عادة من الشوفينية. ومن بـــين القصائد التي تعكس هذا الشـــعور قصيدة « بطاقة هوية » التي تصف حياة عامل عربي وأحاسيسه اذ يعمل في محجر (مقلع للحجارة) ويتهدده خطـــر البطالة ، فيأخذ بالحديث في لغة بسيطة ومباشرة عن شعوره بالاعتزاز والتحدي(٣٩). والقصيدة الطويلة « عاشق من فلسطين » — لدرويش ايضا — تبين ايمانا رومانسيا بالروح الفلسطينية التي تتغلغل في كل موقع وحركة من مواقع الوطن وحركاته(٤٠). ثانيا ، رغم ان هذا الادب يزخر بأمثلة عن الوحشية والالم وغيرها من الاعراض السلبية، فانه نادرا ما يؤدي الى اليأس والاستسلام أو يسفر عن نظرة عبثية . بل على العكس من ذلك ، فهو تفاؤلي يزخر بالامل والتحدي . هذا ما تمثله قصيدة درويش « تموز والافعى » خير تمثيل . ونحن نرى في هذه القصيدة خيبة أمل بعودة اله الربيع البابلي دون الخصب الموعود . لكنها لا تخلو من ايمان بالتوق الابدي . واذا كان هذا الادب يتكشف من حين الى آخر عن شعور بالاستسلام — كما في « نشيد بنات طروادة » — فهو ذلك النوع من الاستسلام الذي يدعو الى العمل ، بأسلوب بارع الذكاء :

« وداعا يا ليالي الطهر
يا أسوار طروادة
خرجنا من مخابينا
الى أعراس غازينا
لنرقص فوق موت رجال طروادة
سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا
وما شاؤوا
لانهم أشـــداء
ونرقد في مضاجع قاتلي ابطال طروادة
وداعا يا ليالي الطهر والاحلام
يا ذكرى أحبتنا
سبايا نحن منذ اليوم
من آثار طرواده ! »

ان روح التحدي تبدو غير مكبوحة الجماح أحيانا ، وربما عانت من جراء افراطها — كما يتضح ذلك من قصيدة توفيق زياد « أهون الف مرة »(٤١):

أهون ألف مرة !
أن تدخلوا الفيل بثقب ابره
وأن تصيدوا السمك المشوي ..
في المجرة
أهون ألف مرة !
أن تطفئوا الشمس ، وأن
تحبسوا الرياح
أن تشربوا البحر ، وأن ..
تنطقوا التمساح
أهون ألف مرة ..
من أن تميتوا ، باضطهادكم ،
وميض فكره
وتحرفونا ، عن طريقنا الذي اخترناه
قيد شعره !!

لكنه ينجح على الاقل في الدلالة على درجة الاذلال والاضطهاد الذي يحسه العرب أو يعانون منه في اسرائيل .

وأخيرا ، هناك توقع بهيج للموت ، وهاجس ديني صوفي بالصلب على انه الامل الوحيد لخلاص الشاعر وشعبه . لذا فان السجون والقيود والتعذيب التي تتكرر صورتها في هذا الادب لا تبدو وكأنها عاجزة عن اخماد روح الشاعر فحسب، بل في الاحرى هي ذات تأثير في تصعيد ايمانه وتجديده بانتصار قضيته . ولكي يبقي على قوته الروحية وكبريائه وتحديه وايمانه ، يلجأ الشاعر الى عدد متزايد من الوسائل أو الرموز ، ومن جملتها الرموز المستقاة من مناظر الطبيعة والاحداث الماضية في التاريخ العربي الاسلامي ، بالاضافة الى التلميحات لمجموعة من الابطال والاساطير ، والقضايا المنتصرة لدى أمم أخرى في التاريخ القديم والحديث ، والى صلب المسيح ، فوق كل شيء .

فالصخور والجبل ، وجذور الاشجار المختلفة من الزيتون والتين الى النخيل ، كلها توحي للشاعر بصور تؤكد على صلته العميقة الجذور والتي يتعذر انقطاعها مع التراب في وطنه ، وعلى انتصار هذا الوطن . وكما أعلن درويش بنفسه ، فان الشجرة بنظر الشاعر تنتصب كرمز لاستمرارية الحياة والامل والصمود والوجود الاصلي في البلد . لذا نراه نتيجة لذلك يسقط وطنه على صورة شجرة النخيل ، هذه الشجرة التي لا تنحني أمام العاصفة ولا تعبأ بضربات فأس الحطابين ، وتتبع بمنأى عن وحوش الصحـــراء والغابة . أو نجده يذكر أمه الا تيأس اذا طواه الموت ، لان جذور شجرة التين الممتدة في تلابيب الصخور سوف تنبت أغصانا جديدة الى الابد . ففي قصيدة بعنوان « مطر » تنقلب سفينة نوح ، وهي رمز للخلاص ، الى رمز للموت ، لانها تعني الاقتلاع من الجذور ، وسلامة الشاعر لا يمكن الحفاظ عليها الا فوق التراب الذي يمد جذوره بالغذاء(٤٢) .

الجبل والبحر يجري استخدامهما بمثابة رموز متغايرة . فالاول يرمز الى التصميم على البقاء وللحياة ، اما الثاني فهو رمز للموت او بؤس التجوال . وفي قصيدة عنوانها « في انتظار العائدين » يضع درويش نفسه مكان ابن عوليس الذي ينتظر فوق الجبل عودة التائهين :

وأنا ابن عوليس الذي أنتظر البريد من الشمال
ناداه بحار ، ولكن لم يسافر .
لجم المراكب ، وانتحى أعلى الجبال .

يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلي
أنا لن أسافر ..
لن أسافر ..
لن أسافر(٤٣) !

ان الامثلة الدالة على استخدام الصليب هي كثيرة العدد لكي نستشهد بها . والسطور التالية المأخوذة من قصائد ثلاث(٤٤) تقوم مقام الدليل على التكرار المتواصل لهذا الرمز.

١ ــ قال المغني

المغني على صليب الالم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء .. سوى الندم
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر !
هكذا يصبح الصليب
منبرا .. أو عصا نغم
ومسامير .. وتر !

٢ ــ شهيد الاغنية

ما كنت أول حامل اكليل شوك
لاقول للسمراء : ابكي
يا من أحبك ، مثل ايماني ،
ولا سمك في فمي المغموس
بالعطش المعفر بالغبار
طعم النبيذ اذا تعتق في الجرار
ما كنت أول حامل اكليل شوك
لاقول : ابكي !
فعسى صليبي صهوة
والشوك فوق جبيني المنقوش
بالدم والندى
اكليل غار !
وعساي آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

٣ ــ جواب

سدوا علي النور في زنزانة
فتوهجت في القلب ..
شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتي
فنما على الجدران
مرج سنابل
والفاتحون على سطوح منازلي
لم يفتحوا الا وعود زلازلي

فاذا احترقت على صليب عبادتي
ساعود قديسا بزي مقاتل .

— ج —

لدى انتقالنا الى رد فعل الكتاب العرب من غير الفلسطينيين ، نلاحظ انهم أولوا المقدار نفسه من الاهتمام لمأساة الفلسطينيين ، ولا سيما قضية اللاجئين . ومن بين الشعراء البارزين ، في المدرسة الجديدة من الشعر الحر ، والذين تصدوا لهذه المحنة في شعرهم، يطالعنا الشاعران العراقيان بدر شاكر السياب (١٩٢٦ — ١٩٦٤) وعبدالوهاب البياتي (١٩٢٨ —) . ان صور الوحشية التي تعرض لها النازحون لا تتبدى في الشعر العربي الحديث على ذلك المقدار من القوة مثلما تتبدى في قصيدة السياب التي عنوانها « قافلة الضياع »(٤٥). فهي قصيدة طويلة نسبيا ، بيد ان السطور التي اخترناها ادناه من أجزائها المختلفة كفيلة على ما أعتقد بأن توحي للقارىء بالجو العاطفي المكثف الذي يصعده الشاعر في القصيدة :

أرأيت قافلة الضياع ؟ أما رأيت النازحين ؟
الحاملين على الكواهل ، من مجاعات السنين
آثام كل الخاطئين
النازفين بلا دماء
السائرين الى الوراء
كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب ركام طين ؟
— « قابيل » ، أين اخوك ؟ أين اخوك ؟
جمعت السماء
آمادها لتصيح . كورت النجوم الى نداء :
« قابيل ، أين اخوك ؟ »
— أيرقد في خيام اللاجئين
السل يوهن ساعديه ، وجئته انا بالدواء
والجوع لعنة آدم الاولى وارث الهالكين

. . .

النار تتبعنا ، كان مدى اللصوص وكل قطاع الطريق
يلهثن فيها بالوباء ، كان ألسنة الكلاب
تلتز منها كالبارد وهي تحفر في جدار النور باب
تتصبب الظلماء كالطوفان منه ، فلا تراب
ليعاد منه الخلق ، وانجرف المسيح مع العباب
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق
يسد ما حفرته السنة الكلاب
فاجتاحه الطوفان : حتى ليس ينزف منه جنب أو جبين
الا دجى كالطين تبنى منه دور اللاجئين

. . .

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنام
عيونها وأبي على ظهري ، وفي رحمي جنين
عريان دون فم ولا بصر تكور في الظلام
في بركة الدم وهو يغرق أنفه بيد . وكالجرس الصغير
يرن ملء دمي صداه — تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير

عريان دون فم كافقر ما يكون : بلا عظام
وبلا آب ، وبدون حيفا دون ذكرى ــ كالظلام !

. . .

بين الكهوف وبين حيفا من ظلام ألف عام أو يزيد
بين الكهوف وبين أمس هناك بئر لا قرار
لها ، كهاوية الجحيم تلز فاها دون نار
تتعلق الاجداث فيها كالجلامد في جدار .

والبياتي ، في المقابل ، يميل الى تقديم رؤيا رعوية للعودة في أمثلة عديدة من شعره ، ولا سيما في ديوانه : **المجد للاطفال والزيتون** (١٩٥٤) ــ كما تبين الابيات التالية :

وكان معركة تدور
بيني وبين الموت في صمت واصرار حزين :
أنا لن أموت
ما دام في مصباح ليل اللاجئين
زيت ونار ، عبر مقبرة الحدود
حيث الخيام الباليات
كانها في الريح ، لافتة ، تشير
الى طريق العودة ، الدامي ، القريب

. . .

الليل تطرده قناديل العيون
عيونكم ، يا اخوتي المتناثرين الجائعين
تحت النجوم .
وكان حلمت بانني بالورد افرش والدموع
طريقكم .
وكان يسوع
معكم يعود الى (الجليل)
بلا صليب(٤٦).

ان أبرز ناحية في هذا الادب هي تقييمه الذاتي وانتقاديته . وهنالك مزيد من الاعمال الادبية التي تتوجه صوب الداخل ، بحثا عن المصدر الجواني لمأساة الهزيمة العربية . فالشاعر العربي في أميركا الجنوبية ، موسى حداد ، ذهب في نقده الذاتي الى حد تبرئة بلفور أو اسرائيل من كافة المسؤوليات. والكاتب المسرحي العراقي ، خالد الشواف(٤٧)، يحاول في مسرحيته **الاسوار** (١٩٥٦) اقامة التوازن بين كفتي الاسباب الداخلية والخارجية للهزيمة ، مع ان الجانب الداخلي يحظى بتشديد أكثر . المسرحية تاريخية وبابلية في اطارها العام لكنها معاصرة وعربية من حيث الروح ، وهي تحاول ارجاع سبب الهزيمة الى الفساد والخيانة التي استشرت في البلاط . اما علي أحمد باكثير ، فانه لا يجد شيئا يوازي خطيئة العرب سوى قصة اوديب . ولذا فهو يكيف المأساة الاغريقية الكلاسيكية لتصوير الخطيئة التي اقترفها العرب في فلسطين . ففي مسرحيته **ماساة اوديب**(٤٨) (الصادرة عام ١٩٤٩ ؟) يقاد البطل الاغريقي الذي يرمز الى العربي نحو هزيمته المؤقتة من خلال تحديه للكاهن الاعلى ، وهذا الاخير يمثل العدو الخارجي الى حد ما ، كما يمثل المؤسسات الاقطاعية والدينية الفاسدة . وعندما يخرج اوديب في النهاية منتصرا ، ويحلله الشعب من مسؤولية الجريمة التي ارتكبها عن غير عمد ضد أبيه ، فانه يعمد الى تخليص طيبة من المجاعة والوباء بمصادرة ثراء الهيكل وتوزيع الاراضي على الشعب .

ويوسف السباعي ، الضابط السابق في الجيش المصري ومن أغزر الروائيين انتاجا ، يسلط الضوء على عدد من النواحي السلبية في الحرب العربية — الاسرائيلية عام ١٩٤٨ . ان روايته **طريق العودة** (القاهرة ، ١٩٥٨) تدور بمقدار كبير حول حياة بطل رومانسي يقرر الالتحاق بالجيش في الجبهة، ليس بدافع الوطنية بل تحدوه رغبة شخصية في الهروب من فشله بالقاهرة ، وفي الحصول على راتب أفضل . وعلاوة على ذلك ، فالرواية تقدم ادانة للعهد البائد لمسؤوليته عن الهزيمة بسبب فضائح الاسلحة الفاسدة . وتشير شخصية رئيسية في رواية جبرا ابراهيم جبرا — الصادرة بالانجليزية تحت عنوان « صيادون في شارع ضيق » (لندن ، ١٩٦٠) — الى « الكذب والخداع يمنة ويسرى » باعتباره سببا رئيسيا وراء الهزيمة . فيضع المؤلف على لسان هذه الشخصية الروائية الكلام التالي :

« المآثر التي صنعناها في سبيل فلسطين ! كلها تلاشت وانجرفت مع النفايات . الكذب والخداع يمنة ويسرى ، في الداخل والخارج ... صحفنا تجد في فلسطين مصدرا زاخرا بالمواد لملء أعمدتها . يا له من تكرار ممل ، يعوزه الاطلاع ، ويغلب عليه التهور واللفظ الطنان . والناس سئمت ذلك . لكن كيف لنا ان نبرهن لهم عن وطنيتنا ؟ »(٤٩).

ان هذا الاتجاه المتطلع نحو الداخل يصبح أكثر بروزا في أعقاب حرب ١٩٦٧ . فالشاعر السوري نزار قباني ، وهو ديبلوماسي سابق وسيد الشعر الايروسي ، يقدم لنا أقسى ادانة وربما كانت أعنفها للكيفية التي يمارس بها الاسلام ولفساد النظم السياسية وخيانة الادباء لرسالتهم . ومن بين قصائده الاخيرة تطالعنا قصيدة « الاستجواب » وقصيدة « الممثلون » (١٩٦٩)(٥٠) بتعبير عن ضيق ذرعه بكافة أسباب اللامبالاة والجمود والهزيمة . ففي القصيدة الاولى يتم مقتل الامام باعتباره رمزا للقدرية والاستسلام ، ويجري الدفاع عن القاتل من خلال الشهادة التي يدلي بها حول عبثية الركون الى الامام وخداع الاعتماد عليه . ان قاتل الامام يشعر بأنه قتل « كل الطفيليات في حديقة الاسلام» اذ قتل الامام ، وكل الذين يستريحون على ارصفة الاحلام . اما القصيدة الثانية فتعكس خيبة امل الشاعر من جراء الحقيقة القائمة بأنه رغم الهزيمة المدوخة في حزيران ١٩٦٧، فان العقلية نفسها والممثلين اياهم والموقف ذاته — وهي التي ادت الى الهزيمة — ما زالت سائدة . والمقاطع المختارة ادناه تبين لنا ايقاع القصيدة :

حين يصير الحرف في مدينة
حشيشة ..
يمنعها القانون ..
ويصبح التفكير كالبغاء .. واللواط ..
والافيون ..
جريمة يطالها القانون ..
حين يصير الناس في مدينة
ضفادعا مفقوءة العيون
فلا يثورون ولا يشكون ..
ولا يغنون ولا يبكون
ولا يموتون ولا يحيون
تحترق الغابات ، والاطفال ، والازهار
تحترق الثمار ..
ويصبح الانسان في موطنه
أذل من صرصار ...

حرب حزيران انتهت ..

وحالنا ــ والحمد لله ــ على أحسن ما يكون
كتابنا .. على رصيف الفكر عاطلون
من مطبخ السلطان ياكلون
بسيفه الطويل يضربون
كتابنا ..
ما مارسوا التفكير من قرون
لم يقتلوا
لم يصلبوا
لم يقفوا على حدود الموت والجنون
كتابنا ..
يحيون في اجازة ..
وخارج التاريخ يسكنون
احترق المسرح من اركانه
ولم يمت ــ بعد ــ الممثلون ..

مع استمرار هذه العملية المؤلمة من تفحص الذات ، تنمو قائمة العلات المكتشفة على صعيد الافراد او المؤسسات . فالانانية والكذب ، وانعدام الانضباط الجماعي او العمل كمجموعة ، وهاجس الكلام وافلاس النظام السياسي والقيم البالية ــ كل هذه تغدو بشكل متزايد هدفا للتصوير الادبي . ومن بين أفضل الروايات التي عالجت المشكلة الفلسطينية وهاجمت امراض المجتمع وعلاته بأسلوب اكثر اتساقا نذكر الروايتين اللتين وضعهما حليم بركات ، الكاتب الشاب ، وهما : **ستة ايام** (١٩٦١) و**عودة الطائر الى البحر** (١٩٦٩)(٥١).

تتميز رؤيا بركات بتوتر مستمر بين الواقع والوهم ، وبرفض للقيم السائدة والتقاليد والمؤسسات ، كما تتسم ببحث عن شيء يتعذر الوصول اليه انطلاقا من مأزقه . ان شخصياته تميل ، على غرار خالقها ، نحو تلقي القيم الثقافية الغربية وفي الوقت نفسه صوب خيبة الامل بتلك القيم . والاشخاص الغربيون ، من تاريخيين واسطوريين ، غالبا ما يبرزون في حوارهم أو مونولوجهم ويؤدون وظيفة كمصدر للقوة يضيف الشدة الى مشاعرهم أو يزودهم بوسائل لاستيعاب وضعهم . فرواية **ستة أيام** تقدم لنا ما جرى وصفه برؤيا نبوئية لحرب الايام الستة في حزيران ١٩٦٧ .ورواية **عودة الطائر الى البحر** تكشف الاحاسيس والافكار الجوانية لدى الشخصيات في معايشتها لاحداث حرب ١٩٦٧ . الرواية الاولى هي قصة بلدة عربية صغيرة ــ يسردها المؤلف على صورة المفكرة بمدى ستة ايام ــ ابان صراعها مع انذار موجه من العدو : اما الاستسلام أو التدمير عن بكرة ابيها . ولدى اعطائها مهلة من ستة أيام لكي تتخذ قرارها ، تنتهي البلدة الى القبول بموقف البطل : اما الموت أو النصر . ويبدو عليها انها عقدت العزم للدفاع عن نفسها . ان سهيل هو مثقف يعاني الاغتراب النفسي ، والتمزق بين حبه لشعبه واشمئزازه من عالمهم ، بين توقعه للهزيمة التي يوشك وقوعها والرغبة في توريث الخلف « اسطورة من التحدي والبطولة والاستشهاد » علها توحي لهم برفع مستوى وجودهم. والبلدة التي يصفها المؤلف ، مثل معظم بلدان العالم العربي ، هي فسيفساء من الخوف والجهل والفقر والمنافسات والفوضى والجشع ، الى جانب واجهة غربية ، عصرية وانما غير مندمجة . ففي عدد من الاحداث والمحاورات نجده يشدد على النقطة بان شعبه أخفق في مواجهته مع عدوه من الخارج ، لانه تجاهل اعداءه من الداخل لمدة طويلة . والتراث الذي تلقاه هذا الشعب يأوي اولئك الاعداء الداخليين . أما الحل الاساسي فيكون برفض الامور المفروضة من فوق واحترام حق كل فرد من الناس في تقرير مصيره

وفي مواجهة امراض المجتمع بدون خوف او تردد . وعبر منظور بطل الرواية في المقام الاول تتبدى أنماط للسلوك وعقليات يصعب التوفيق بينها عندما تقبل البلدة بالتحدي : فتاة ترتدي البنطال بقرب أمرأة محجبة ، وفتاة مثقفة لا تتعاطف مع بلدتها وتغلق على نفسها في البيت لكي تستمع الى الموسيقى الغربية ، وعم البطل في تقواه ليس لديه ما يقدمه سوى الصلاة بينما يقوم العدو بتخريب البلدة ولا يتوانى عن نحر زوجته الحبلى . والجشع الذي يظهر على أفراد يبيعون ممتلكاتهم لكي يتسنى لهم الهرب ، والسائقون الذين يحملون الناس الى مكان أمين لقاء أجور خيالية ، والفورات السلبية أو العبثية من الاستجابات العاطفية ، وخيانة مواطن خداع يهرب بالاموال المجموعة لاجل الدفاع ثم يفشي خطة البلدة الى العدو قبل الموعد المحدد ، واخيرا الطريقة التي يباغت بها العدو المدافعين عن البلدة وهم على غير استعداد ، وقبل وصول التعزيزات المنتظرة . ان القصة تنتهي بخاتمة مستبقة ، انما ليس بدون مرحلتين وثيقتي الصلة من مراحل المقاومة البطولية : المرحلة الاولى عن رفقاء سهيل المقاتلين والذين ظلوا حتى الموت مخلصين لمثلهم العليا ، ورفض سهيل في ان يقبل الواقع كما هو وأن يهرب منه أو ان يبوح بسر مهمته للعدو لدى اعتقاله وتعرضه للتعذيب . هاتان المرحلتان من البطولة هما النتيجة الحاصلة من ارادة فردية ، وليس عن روح جماعية في القتال . فالبلدة تحولت الان الى رماد وركام — كما يقول الآسر للبطل — لكن البطل يوحي بان الرماد سوف يسمد الارض ويخصبها . ويرد الاسر بقوله : « سوف نستغلها » . بينما يأتيه الجواب الاخير من سهيل دون تراجع : « لكن ذلك لن يدوم طويلا » .

ان هاجس بركات في الاسقاط القاتم لبيئة بطله الاجتماعية يصل الى درجة مفرطة . ومع ذلك فهو يحدث أثرا مفيدا اذ يلفت انتباه قارئه الى الامراض الاساسية التي تفتك بالمجتمع العربي ، مشددا على الحاجة الملحة الى تقييم جديد ومخلص ، ليس فقط لتلك الامراض بل وأيضا للطريقة التي عولجت بها . ان أحد البواعث التي يستخدمها في وصف المعضلة العربية هو باعث غربي : عن الهولندي الطائر . ففي رواية سهيل عن اليوم الاول ترد الاشارة الى موت الهولندي الطائر ، لدى عثوره على المرأة المخلصة التي تضحي بنفسها من أجله ، والى الفكرة القائلة بان شعبه يمضي في ابحاره ، على غرار الهولندي ، من دون حيلة . هذا الباعث يتحول الى موضوع رئيسي في رواية بركات الاخيرة : **عودة الطائر الى البحر** . وهنا ايضا يجد رمزي في اليوم الاول من الحرب متوازيات بين بلاده والاسطورة الغربية . ان بلاده تشبه الهولندي الطائر ، الذي يتحتم عليه الابحار عشوائيا في بحار الخوف والرعب والجهل . ويبدو ان وصولها الى شاطىء للامان هو ضرب من المحال . فالبحارة غير كفوئين ، ولم يلقوا الموت او يعثروا على الشاطىء ، بل يواجهون الحرب الان ، بعد انهاك قواهم اكثر من السابق نتيجة التجوال المتواصل . فلا يبقى هناك سوى الغضب : ليتمردوا بوجه الشياطين والالهة (وهذه ترمز الى الدول الغربية) المسؤولة عن محنتهم ، مهما كانت العواقب . والبطل يشعر ان بلاده يرفضها الموت بقدر ما ترفضها الحياة ، وانها سفينة بلا دفة او ربان . أشد ما يؤلمه : رؤية ابناء بلاده يخدعون انفسهم بدفة غير موجودة ، لكن وطنه ليس بدون غضب . هنا يكمن مستقبله ، رغم ان الامه سوف تستمر الى حين عثوره على منقذ ، وهذا المنقذ سوف يبقى مخلصا للوطن حتى الموت . ان رمزي لا يبحث عن قائد يفرض قراره على شعبه ويصهرهم في قالب معين ، ثم يخدعهم ويعمل على تهدئة المؤسسات البالية . بل هو يريد قائدا يشع بريقه ويتحدى . ويوحي الى الشعب بالتفكير والاحساس والبحث والتخاطب في حرية مع انفسهم ومع قادتهم .

تقع الرواية ذاتها في ثلاثة اقسام . فالقسم الاول عنوانه « العتبة » ، والقسم الثالث يحمل عنوان « أيام عديدة من الغبار » . وهذان القسمان هما في مرتبة ثانوية نسبيا

ويغطيان الفترة الممتدة من ١١ الى ٢٠ حزيران ، ١٩٦٧ . أما القسم الاوسط ، والرئيسي ، فعنوانه « أمواج الاصوات والريح الجنوبية » ، ويجري تقسيمه الى ستة أيام لكل يوم منها عنوان يوحي بموضوع رئيسي أو حالة رئيسية . هذه العناوين الستة هي كما يلي : (١) رعد في أصوات الاطفال (٢) الهولندي الطائر يعود الى البحر ، (٣) الموت حقل ، (٤) مرة اخرى يختن يعقوب الفلسطينيين فيتهدم المسرح ، (٥) ولن تكون للموت سيطرة ، و (٦) سيول في الشوارع والنمل يدب في شرايين القلب .

ينتقل القسم الاول بكل من رمزي والمرأة الاميركية باميلا ، التي تمثل صوت الغرب المتعاطف والمتفهم ، وغيرهما من الاختصاصيين والاطباء العرب الى الاردن . وهناك يحيط بهم عالم مهزوم ومرتعب ، فيجري رمزي حوارا قصيرا مع باميلا ويتكشف هذا الحوار عن عمق الصراع العنيف في داخله :ـ

« يقول رمزي لباميلا : العرب يعبرون المطهر مع دانتي .
ـ ما هي خطاياهم ؟
ـ كثيرة . أهمها الجهل .
ـ قد تكون الحرب مطهر العرب .
ـ ترى يصلون الى الفردوس الارضي
ـ تقول الاسطورة أن الذي يدخل المطهر لا بد لا يصل الى الفردوس الارضي .
المطهر رحلة أمل .
يتساءل رمزي : ترى هذه الحرب كانت بدء رحلة نحو الامل ؟
ـ اعتقد ... مرحلة لا بد منها . سيجتازونها ، على ما اعتقد » .

ان الحزن في أعماقه وفقدان ايمانه يجري التدليل عليهما عبر حوار متخيل يدور بين رمزي وبين رأسين حجريين يتساندان فوق قمة الجبل المطل على وادي الاردن :

« الرأس الاول يسأله : من أين جئت .
رمزي : جلبت جسدي من شاطىء عربي . عبثا اخبرك من انا .
اسمي غير معروف حتى أكاد أنساه انا نفسي وأشك في انني موجود . نفيت وأنا صغير
ـ وماذا جرى للانهر الكبيرة ؟
ـ نضبت .
ـ في روما كنا ناكل من ثمارها
ـ ماتت الثمار وماتت روما
ويتساءل الرأس الثاني بتعجب : روما ماتت ؟.
ـ منذ احتلها المسيحيون
ـ انت مسلم !
ـ لا . انا رافض ومرفوض . لست مؤمنا ، لكني لست ملحدا .
ـ انت شيوعي ؟
ـ لا ، ولكني لست رأسماليا .
...
ـ ماذا انت ، اذن ؟
ـ لست جزءا من أي شيء . الذي اعرفه عن نفسي انني رافض ومرفوض » .

ان رمزي ، رغم فقدانه لايمانه ، يبدو مصمما على عبور المطهر وثمة بارقة أمل تلوح أمامه . وفضلا عن ذلك ، فان القسم الاول يحاول ، من خلال الارتجاع الفني في الزمن ، التقاط الخراب الذي أحدثته الحرب والمستشفيات المزدحمة بالوجوه التي احرقها النابالم ، والمدارس الغاصة باللاجئين وغير ذلك من مظاهر الرعب . وينتهي هذا القسم

تاركا البطل في حالة من الذهول والقلق ، اذ لا يجد أحدا يتعمد في نهر الاردن ، سوى الرصاص وحده . فترتفع موسيقى معزوفة « هاندل » المسيا بنهاية جديدة من « هلليلويا للرصاص يتعمد في نهر الاردن » .

والقسم الرئيسي من الرواية يغطي جذور المشكلة عن تصميم العرب على استعادة حقوقهم المسلوبة في فلسطين ومختلف القضايا او العوامل المتصلة بهذا الامر . لقد اصبح رمزي الان استاذا جامعيا ، وعاش فلسطينيا في المنفى طيلة عشرين عاما ، فراح يتعجب ازاء الخطر الجديد عما اذا كانت قصة منفاه سوف تشارف نهايتها . ورغم انه مأخوذ بالحس الطاغي من الثقة المفرطة ، فهو يشعر بأن واقعه لا يبرر ذلك . وعبر حواره مع ذاته وأحاديثه مع الاخرين يتقدم تدريجيا بالموضوع بأن بلاده متخلفة ومقطعة الاوصال ، يعوزها التخطيط ، كما تعوزها رؤيا واقعية الى المستقبل . فيهاجم اسطورة الوحدة بين العرب ، مشيرا الى كون العرب يعيشون كل ضمن قوقعته ، ومنفصلا عن الاخر . لا التعاون الحقيقي ولا التنسيق الصحيح موجود بين العرب ، على صعيد الدول أو الجماعات أو الافراد . حتى الخبراء فانهم من الفرديين في سعيهم ، وتعوزهم روح العمل التضامني . الثورات التي تعتبر تطورا ايجابيا اخفقت ، بنظر البطل ، في احداث تغييرات جذرية . ثم يلتفت الى الدور الذي قام به في الازمة الحاضرة كل من الطلاب والاساتذة والمثقفين على العموم ، فيجدهم رمزي على غير استعداد كليا ، وغير قادرين على الاتيان بعمل ما ، فيما عدا قتل وقتهم مثل سائر افراد الشعب ، بقراءة الصحف والاستماع الى الاذاعات ومشاهدة التلفزيون ، أو استنضاب حيويتهم في فورات انفعالية غير مجدية ، انهم يستحقون الملامة جزئيا ، لكن المدارس والجامعات والحكومات هي المسؤولة في المقام الاول ، لانها فشلت في اعداد هؤلاء المثقفين لمثل هذه الازمة ، بحؤولها دونهم والمشاركة الحرة في تحويل مجتمعهم وتغييره — كما فشلوا هم في استخدام طاقاتهم المخزونة على النحو الصحيح . ويتذكر وجود الالاف من الخبراء والتقنيين والاختصاصيين الذين يشلون عن العمل بطريقة ما أو غيرها : الاضطهاد ، الوضع في مكان غير ملائم ، انعدام التشجيع أو الحوافز .

أما النقطة الاخرى الهامة في هذا التقييم الناقد للذات فهي تتصل بالتقدير غير الواقعي الذي يقدره العربي للقوى العاملة او الفاعلة في مجتمعه أو غيره من المجتمعات ، والعالم الخادع والوهمي الذي يسهم في تكوينه أو يقع ضحية له . ويتصاعد هذا الامر جدا حين يستمع رمزي الى الروايات المبالغ فيها عن الحرب والى أخبار الجيوش العربية الزاحفة في اراضي العدو . بينما كانت الهزيمة العربية مقررة أو متوقعة منذ اليوم الاول للحرب. ومع ان رمزي يبدو اكثر اهتماما بأخطاء المجتمع العربي وآفاته ، فانه لا يحلل الغرب من المسؤولية في خلق اسرائيل وايجاد مشكلة النازحين ، كما يلقي عليه تبعة التقدير غير الواقعي لتصميم العرب على استعادة حقوقهم المسلوبة ، فالغرب والصهيونيون كلاهما يعاني من جراء عدد من الاساطير أو الافتراضات الخاطئة : بان العرب سوف يتخلون عن كفاحهم ، وبانه حالما يتم ارغام النازحين على الاستيطان في مكان اخر ، سوف يزول التوتر ، وانه كلما تكررت هزيمة العرب عسكريا ، كلما ازداد استعدادهم للتسوية . ان هذه الافتراضات ليست خاطئة فحسب بنظر البطل ، بل سوف تولد ردا أشد تعلقا بالنضال والقتال . ولذا فلا عجب هناك انه يرى الفدائيين ، في أعقاب الحرب ، بمثابة بارقة الامل الوحيدة التي تعيد الى العربي كرامته ، وايمانه بالمستقبل . ومن قبيل السخرية ، ان رمزي المتوجه نحو الغرب يختار الاعتماد الى حد كبير على الاصوات الغربية للاعراب عن غضبه ضد الغرب — وللتعبير عن ايمانه بالنصر النهائي لشعبه . ويبدو ان ت. س. اليوت والهولندي الطائر ودانتي واناشيد حركة المطالبة بالحقوق المدنية في اميركا (لا سيما انشودة « سوف نحرز الغلبة ») ، والاهم من ذلك كله : ديلان

طوماس في قصيدته « ولن تكون للموت سيطرة » ــ تعكس المزاج النفسي للعرب في الهزيمة والتحدي .

ان بركات ، من خلال هذا الاسلوب ، يبدو عليه الايحاء بأن شعبه ليس مناوئا للغرب في الصميم ،وانه حالما تزول اسباب التوتر ، سوف يرجع الحوار أكثر ايجابية بين العرب والغرب .

وختاما ، ثمة مقدار واسع من الادب والشعر والروايات والمسرحيات ، برز كاستجابة للرد على النزاع الفلسطيني . يمكن انتقاد الكثير من هذا الادب لكونه خطابيا أو ينطوي على التكرار في اللغة والمواضيع والاساليب . لكن الكاتب العربي نجح من خلال هذا الادب في تقديم روح شعبه وفي الكشف عن أعماق بحثه المحزن عن الحل . وهو يستحق التقدير لثلاث خصائص ايجابية على الاقل : رؤياه النبوئية للاحداث كما جاءت في سياق تطورها ، وروحه وايمانه الذي يأبى التراجع والخضوع ، واخيرا ، الحدة والشجاعة المتزايدة التي يهاجم بها اخطاء شعبه ونقاط ضعفه .

---

١ ــ ان القاء نظرة خاطفة على بضعة عناوين لدراسات صدرت مؤخرا يشير الى غلبة الموضوعات الفلسطينية والاهتمام العلمي المتزايد بالموضوع

Naseer Aruri and Edmond Ghareeb, *Enemy of the Sun: Poetry of Palestinian Resistance* (Washington, D.C.: 1970).

ــ ناصر الدين الاسد ــ **الشعر الحديث في فلسطين والاردن** (القاهرة ، ١٩٦١) .

ــ صالح الاشتر ــ **في شعر النكبة** (دمشق ، ١٩٦٠) .

ــ غسان كنفاني ــ **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة : ١٩٤٨ ــ ١٩٦٦** (بيروت ، ١٩٦٦) . وانظر مقالة كنفاني بعنوان « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » ، في

Afro - Asian Writings 1 (Nos. 2-3, Summer 1968). pp. 65 - 79.

ــ يوسف الخطيب (محرر) ــ **ديوان الوطن المحتل** (دمشق ، ١٩٦٨) .

— Shmuel Moreh, "The Arab Literary Revival in Israel", *Ariel* 2(1962)14-27.

— Emile Nakhleh, "Wells of Bitterness A Survey of Israeli-Arab Political Poetry", *The Arab World* 16 (No. 2, Feb. 1970), 30 - 36.

ــ م. ح. الصفير ــ **فلسطين في الشعر النجفي المعاصر : ١٩٢٨ ــ ١٩٦٨** (بيروت ، ١٩٦٨) .

ــ كامل السوافيري ــ **الشعر العربي الحديث في ماساة فلسطين : ١٩١٧ ــ ١٩٥٥** ، (القاهرة، ١٩٦٣).

A. L. Tibawi, "Vision of the Return: The Palestine Arab Refugees in Arabic Poetry and Art", *Middle East Journal* 17 (1963) 507 - 526.

ــ عبد الرحمن ياغي ــ **حياة الادب الفلسطيني من أول النهضة الى النكبة** (بيروت ، ١٩٦٨) .

ــ **دراسات في شعر الارض المحتلة** (القاهرة ، ١٩٦٩) .

٢ ــ انظر على سبيل المثال ما يلي :

Arthur Arberry, *Modern Arabic Poetry* (London: 1950).

— *Arabic Poetry: A Primer for Students*, (London: 1965).

James A. Bellamy and al (ed.) — *Contemporary Arabic Readers: IV Short Story* (Ann Arbor: University of Michigan, 1963), & *V Modern Arabic Poetry* (1966).

William M. Brinner & Mounah Khouri, — *Advanced Arabic Readers,* Vol. I, (Berkeley: University of California, 1961).

James Kritzeck, — *Modern Islamic Literature from 1800 to the Present*, (New York, 1970).

وفي جميع هذه الاعمال لا نعثر سوى على مادتين تعالجان موضوع النازحين الفلسطينيين ، هما قصة قصيرة وقصيدة . أنظر : Bellamy's IV, Part I, pp. 52-60. V, Part I, pp. 88-90.

٣ ــ راجع مقالة اومبرتو زيتزيانو عن « ردود الفعل تجاه التأثيرات السياسية الغربية ــ مسرحيات علي أحمد باكثير » في المجموعة التالية :

Historians of the Middle East, (ed.) Bernard Lewis and P. M. Halt (London: 1962), p. 442.

٤ ــ جبرا ابراهيم جبرا : « المتمردون والملتزمون والاخرون : انتقالات في الشعر العربي الحديث اليوم »

(مقالة منشورة بالانجليزية في مجلة **ميدل ايست فورم** ، العدد ١ ، ١٩٦٧ (ص ٢٠) .

٥ — السوافيري — **المصدر السابق** ، ص ٣٤٦ — ٣٥٥ و ٦٢٧ — ٦٣١ .

٦ — بالنسبة لقصيدة الزركلي انظر : سامي الدهان — **الشعر الحديث في الاقليم السوري** (القاهرة ، ١٩٦٠) ص ١٥٩ — ١٦٠ .

٧ — انظر ديوان **الفلسطينيات** (بيروت ، ١٩٤٦) ، ص ٨٢ . والى جانب نشاطاته الادبية ، كان وديع البستاني كثير النشاط في ميدان السياسة الفلسطينية ، لا سيما خلال العشرينات . حتى ان أحد المراسلين البريطانيين قد اعتبره في فترة باكرة تعود الى ١٩٢٣ بمثابة « شاب غوغائي ، كثير النشاط وسريع الاثارة ، يحظى بتساهل المسلمين . ومن المحتمل ان يصبح خطيراً ، لكنه لا يبدو من الاشخاص البنائين على الاطلاق» .
راجع ما يلي : Philip Graves — *Palestine, The Land of Three Faiths* (London: 1923), p. 111.
وللاطلاع على ملاحظة غير مستحبة بشأن دوره في « اتفاقية بيسان » عام ١٩٢٣ ، انظر :
Chaim Weizmann — *Trial and Error* (New York: 1949), pp. 275-76.

٨ — انظر *The Bookman*, 46 (1917/18) 7-14.

٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢ .

١٠ — انظر ديوانه ، الطبعة السابعة (القاهرة ، ١٩٦٣) ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

١١ — أحمد شوقي — **الشوقيات** ، ج ٢ ، (القاهرة ، ١٩٦٤ م) ، ص ٧١ و ١٠٤ على التوالي .

١٢ — هناك أمثلة اخرى يعكس فيها الشعراء أو القادة العرب رؤيا انسانية للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين واليهود . منها مثال الشاعر المصري الكبير حافظ ابراهيم (١٨٧١ — ١٩٣٢) الذي يتصور عالما تسوده المساواة ويضم المسيحيين واليهود والمسلمين — كما تدل على ذلك قصيدته « تحية الشام » ، التي القاها في بيروت عام ١٩٢٩ . انظر **ديوان حافظ** ، ج ١ ، الطبعة السادسة (القاهرة ، ١٩٥٤) ، ص ٩٤—٩٥ . والملك فيصل الاول (ملك سوريا والعراق) ناشد في خطاب القاه بمدينة حلب (١١ تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩١٨) وحدة العرب بغض النظر عن اديانهم ، بقوله : « ان من يسعى لبذر الشقاق بين المسلمين والمسيحيين واليهود ليس بعربي » . انظر عزيزة مريدن — **القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي** (القاهرة ، ١٩٦٦) ص ٢٧١ .

١٣ — Arthur Koestler — *Thieves in the Night : Chronicls of an Experiment*, (New York: 1946), p. 208.

١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٣ — ٢١٨ .

١٥ — فيما يتعلق بمكانة القدس في الاسلام ، انظر ما يلي :
Charles D. Mathews — *Palestine — Muhammedan Holy Land*,(New Haven Yale University Press, 1949).
Heribert Busse — "The Sanctity of Jerusalem in Islam", *Judaism* 17 (1968), 441-468.

١٦ — للاطلاع على عرض موجز لمكانة صلاح الدين في الشعر العربي الحديث ، أنظر مقالة المؤلف : « صلاح الدين الايوبي في الشعر العربي المعاصر » ، مجلة **الاداب** ، السنة الثامنة عشر (العدد ١١ ، تشرين الثاني ، ١٩٧٠) ١٧ — ٢٢ ، ٧٣ — ٧٨ .

١٧ — السوافيري ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

١٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٣ .

١٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٢٣ .

٢٠ — طوقان — **ديوان ابراهيم** (بيروت ، ١٩٥٥) ص ٨٠ .

٢١ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٥ — ٦٦ .

٢٢ — الطيباوي ، **المصدر السابق** ، ص ٥٠٨ .

٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٥١٣ .

٢٤ — Reuben Wallenrod, — *The Literature of Modern Israel*, (New York: 1956), p. 10.

٢٥ — معين بسيسو — **فلسطين في القلب** (بيروت ، ١٩٦٥) .

٢٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٢٧ ــ الطيباوي ــ **المصدر السابق** ، ص ٥١٧ ــ ٥١٩ .

٢٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٥١٨ .

٢٩ ــ هارون هاشم رشيد : **سفينة الغضب** (الكويت ، بدون تاريخ) ، ص ٣٠ ــ ٣١ . والمجموعات الاخرى هي : **مع الغرباء** (القاهرة ، ١٩٥٤) ، **عودة الغرباء** (بيروت ، ١٩٥٦) ، **غزة في خط النار** (بيروت ، ١٩٥٧)، **أرض الثورات** (بيروت ، ١٩٥٩) و **حتى يعود شعبنا** (بيروت ، ١٩٦٦) .

٣٠ ــ رشيد ــ **حتى يعود شعبنا** ، ص ٣٧ ــ ٤٢ .

٣١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١١٩ ــ ١٢١ .

٣٢ ــ محمود درويش . « خلف الاسلاك » ، مجلة **الجديد** ١٣ (العددان ٤ ــ ٥ ، ١٩٦٦) ص ٨ ــ ٩ .

٣٣ ــ عبد الكريم الشبعاوي ، مقالة « فلسطين » في مجلة : *The Arab World* 14 (Nos. 5-6, May - June 1968), p. 12.

٣٤ ــ Najwah Farah, — "A Poet of Galilee: Songs from Galilee by Jamal Kawar," *New Outlook* 1 (No. 11, June 1958), pp. 48-49.

٣٥ ــ موريه ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٣٦ ــ Wallenrod **المصدر السابق** ، ص ٦٩ ــ ٧٠ .

٣٧ ــ هايل عساقلة ــ « انت مني » ــ **الجديد** ١٥ (كانون الاول ، ١٩٦٨) ص ٣٤ .

٣٨ ــ سميح القاسم ــ **دمعي على كفي** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ص ١٥٩ ــ ١٦٧ .

٣٩ ــ انظر ترجمته في عروري ــ **المصدر السابق** ، ص ٢ ــ ٤ .

٤٠ ــ درويش ــ **عاشق من فلسطين** (بيروت ، ١٩٦٨) ص ٥ ــ ١٥ ، وانظر ايضا مقالة صالح ج. الطعمة: "A Lover from Palestine : A Poetic Vision of Palestine's Tragedy," *The AMARA Newsletter* (Boston: The American Arabic Association) 2 (No. 1, January, 1969), pp. 12-16. و عروري ، **المصدر السابق** ، ص ١٥ ــ ١٩ .

٤١ ــ سلافه الحجاوي : **شعر المقاومة في فلسطين المحتلة** ــ بالانجليزية (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ١٦ ــ ١٨ .

٤٢ ــ درويش ــ **عاشق من فلسطين** ، ص ٦٤ ــ ٦٥ .

٤٣ ــ **المصدر نفسه** . وانظر مقالة الطعمة : « أبعاد التحدي في شعر محمود درويش » ، مجلة **مواقف** ، السنة الثانية ــ عدد ٧ (كانون الثاني ــ شباط ، ١٩٧٠) ص ٢٢٢ ــ ٢٣٢ ولا سيما ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

٤٤ ــ **عاشق من فلسطين** ، الصفحات التالية ١٨ ــ ١٩ ، ٤٠ ــ ٤١ . وانظر درويش ــ **اخر الليل** (دمشق ، ١٩٦٨) ص ١١١ ــ ١١٣ .

٤٥ ــ بدر شاكر السياب ــ **انشودة المطر** (بيروت ، ١٩٦٠) ص ٥٩ ــ ٦٥ .

٤٦ ــ عبد الوهاب البياتي ــ **المجد للاطفال والزيتون** (بيروت ، ١٩٥٤) ، ص ٧ ــ ٨ و ١٣ .

٤٧ ــ خالد الشواف ــ **الاسوار** (بيروت ، ١٩٥٦) .

٤٨ ــ علي أحمد باكثير ــ **ماساة اوديب** (القاهرة ، ١٩٤٩ ؟) وانظر رسالة الدكتوراه التي أعدها ابراهيم حماده وموضوعها : *Treatments of Sophodes' Oedipus : The King in Contemporary French and Egyptian Drama*, Ph. D. Thesis, Bloomington: Indiana University, 1968, pp. 128-170 esp. 163-164.

وبالنسبة لاعمال باكثير الاخرى ذات الصلة بالموضوع ، انظر ريتزيتانو ، **المصدر السابق** ، ص ٤٤٢ ــ ٤٤٨ .

٤٩ ــ Jabra I. Jabra, — *Hunters in a Narrow Street*, (London: 1960), p.27.

٥٠ ــ نزار قباني ــ **الاستجواب والمثلون** ، مجلة **مواقف** ــ السنة الاولى ، العدد الاول (تشرين الاول ، تشرين الثاني ، ١٩٦٨) ص ٤١ ــ ٥٠ .

٥١ ــ ومن المحاولات الاخرى التي تستحق اهتماما خاصا روايات ثلاث للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني : **رجال تحت الشمس** (بيروت ، ١٩٦٣) ، **ماتبقى لكم** (بيروت ، ١٩٦٦) ، **عائد الى حيفا** (بيروت ، ١٩٧٠ ؟) .

للاطلاع على معالجة مقتضبة للرواية الاولى وعلى صيغة مختلفة بعض الاختلاف لبحثي عن حليم بركات ، انظر مقالتي: "Socio Political Themes in the Contemporary Arabic Novel: 1950-1970". وسوف تظهر في الكتاب التالي :

Cultural Nationalism and the Modern Writer, ed. by H. Ernest Lewold Knoxville: (The University of Tennessee Press).

أزمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية دراسة مقارنة مع بعض الاحزاب الشيوعية العربية

اسامة الغزي

احتلت القضية الفلسطينية ، بأبعادها الجديدة التي اكتسبتها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، مكانة مركزية في أزمة الحزب الشيوعي السوري الفكرية والسياسية . وبلغت هذه الازمة ذروتها في أوائل نيسان الماضي ، عندما أذاع الامين العام للحزب ، خالد بكداش ، بيانا علنيا ، اتهم فيه « كتلة » داخل الحزب ، بالعمل على « تبديل سياسة الحزب في كل الميادين الفكرية والسياسية والتنظيمية » وبأنها « تخلت عن النظرة الطبقية والموقف الاممي للحزب الشيوعي من القضايا القومية ... ففي **القضية الفلسطينية** ، عارض أفراد الكتلة افكار النضال من اجل ازالة آثار العدوان الاسرائيلي وتحرير الاراضي المحتلة وضمان حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه ، وتبنوا عوضا عنها شعارات متطرفة »(١). بعد أربع وعشرين ساعة من بيان الامين العام ، أذاعت « الكتلة » التي عناها في بيانه بيانا مماثلا ردت فيه على اتهاماته ، واعتبرت عمله « بادرة انشقاقية خطيرة عرضت وحدة الحزب للخطر »(٢). وقد وقع البيان الاخير اكثرية اعضاء المكتب السياسي للحزب (٥ من اصل ٧) ، وبذلك تكون ازمة الحزب الشيوعي السوري ، قد خرجت الى العلن رسميا ، لاول مرة في تاريخه الطويل الذي يقارب نصف قرن .

وبالرغم من أنه لم يرد في أي من البيانين سوى اشارات عامة حول القضية الفلسطينية ، فان الرجوع الى وثائق الحزب ، وبخاصة الى الكلمات التي ألقيت في مجلسه الوطني العام المنعقد في أواخر العام الماضي ١٩٧١ ، يبين بجلاء أن القضية الفلسطينية ، في جميع ابعادها الجديدة التي اكتسبتها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، قد كانت محورا مركزيا من محاور الخلاف الفكري داخل الحزب . فمن بين القضايا الفكرية المطروحة في المجلس الوطني العام المذكور ، احتلت قضية عدوان حزيران وتقييمها ، وقضية الوجود الاسرائيلي وتحليله ، وقضية الحل السياسي والحل العسكري وحرب التحرير الشعبية والموقف من فصائل حركة المقاومة وظاهرة العمل الفدائي ككل ، معظم مناقشات هذا المجلس ، وحول هذه القضايا كانت المواقع الفكرية ، والمواقف السياسية ، أكثر ما تكون تمركزا وتباعدا ، بين الفريقين المتنازعين داخل الحزب .

المرحلة الجديدة بعد هزيمة حزيران

لقد بات واضحا اليوم ، اكثر من أي وقت مضى ، أسباب هذه الظاهرة بحد ذاتها . فبعد مضي خمس سنوات ونيف على هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، تتأكد ، بالوقائع والاحداث ، عمق الاثار التي ولدتها وما زالت تولدها الهزيمة في بنى الحياة العربية كلها ، مما يؤكد التحليل القائل بأن ما حدث في حزيران ١٩٦٧ لم يكن مجرد هزيمة عسكرية منيت بها الجيوش العربية فقط ، كما لم يكن ، بنفس الوقت ، هزيمة نهائية لحركة التحرير الوطني العربية . ان الوقائع والاحداث ، تؤكد ان هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، كانت نقطة انعطاف حاسمة ، سقطت فيها مرحلة كاملة ، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ كفاحنا الوطني التحرري ضد الحلف الامبريالي — الصهيوني — الرجعي .

أولا : طرحت الهزيمة أبعادا جديدة للقضية الفلسطينية ، فلم تعد مجرد قضية مليون من

النازحين ، المشردين في المخيمات في ضواحي المدن العربية الكبرى فقط ، كما لم تعد قضية سياسية، روتينية ميتة، في أروقة الامم المتحدة، من الجمعية العامة الى وكالة الغوث الى مجلس الامن الدولي. فعلى الصعيد العربي أضحت قضية فلسطين **قضية المصير العربي كله** ، ليس فقط لان اسرائيل ، مدعومة من الامبريالية الاميركية ، قد احتلت اراضي ثلاث دول عربية جديدة ، بالاضافة الى فلسطين كلها ، بل لما ينطوي عليه هذا العمل من معان ، ولما يترتب عليه من نتائج ، تؤكد دور اسرائيل كرأس حربة للامبريالية العالمية ذات المصالح الثابتة في المنطقة العربية ، والمهيأة دائما لقمع حركة التحرر الوطني العربية، ولتطويع المنطقة كلها سياسيا واقتصاديا لخدمة أهداف ومصالح الاحتكارات الرأسمالية في البلدان العربية، بالاضافة الى المطامع التوسعية للرأسمالية الصهيونية فيها.

ثانيا : اكدت الهزيمة ، التي جاءت على شكل هجمة امبريالية ــ صهيونية مشتركة ، أن القضية الفلسطينية هي **واجهة الصدام** في عملية الصراع بين حركة التحرر العربية وبين أعدائها الامبرياليين والرجعيين ، وان عملية الصراع هذه ، تزداد احتداما وحدة كلما ازدادت مصالح الامبريالية توسعا ، وكلما ازدادت الحركة الوطنية صلابة والتحاما بحركة التحرر العالمي لشعوب البلدان المتخلفة كلها وبسائر قوى التحرر في العالم .

ثالثا : وعلى الصعيد الذاتي ، أفرزت الهزيمة **حركة سياسية جديدة** في الواقع العربي ، هي حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، التي مثلت الرد الطبيعي المباشر على الهجمة الامبريالية الشرسة ، والتي استقطبت حركة الكفاح الوطني العربية في المرحلة الجديدة ، يؤكد ذلك الالتفاف الجماهيري الواسع ، العربي والفلسطيني ، حول هذه الحركة المسلحة ، منذ نشوئها .

كان طبيعيا ، بعد كل هذا ، ان تطرح المرحلة الجديدة ، أمام حركة التحرر الوطني العربية ، **مهمات جديدة** ، وأن تفرض عليها ، **عملية مراجعة فكرية وسياسية شاملة** ، تتناول فيما تتناول ، القضية المركزية في النضال العربي ، قضية فلسطين في أبعادها الجديدة . وقد استلزم كل ذلك ، اعادة النظر في تحليل طبيعة الوجود الاسرائيلي في قلب المنطقة العربية ، وفي طبيعة ارتباطه بالسياسة الامبريالية العالمية ومصالحها الاقتصادية ، وفي الحل الثوري للقضية الفلسطينية، وفي أساليب العمل الجديدة ، وفي الموقف من حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة .

تلك هي ، باختصار ، الاثار والنتائج الاساسية لحرب حزيران ، الفكرية والسياسية ، التي فرضت نفسها على كافة المؤسسات السياسية العربية القائمة ، ومن ضمنها الحزب الشيوعي السوري. وهذا هو تفسير الظاهرة الجديدة ، ظاهرة حجم القضية الفلسطينية في الحياة السياسية العربية بعد عام ١٩٦٧ .

بالنسبة للاحزاب الشيوعية العربية ، هناك عامل آخر له خصوصية معينة ، كان عليها ان تواجهه في المرحلة الجديدة ، فقد أفرزت حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، **قيادات برجوازية صغيرة ذات أفق وطني عام** ، **وقيادات برجوازية صغيرة ذات أفق ماركسي لينيني** ، والقيادات الاخيرة ساهمت الى حد بعيد ، بما طرحته من خطوط سياسية جديدة ، بتعميق وتأصيل عملية المراجعة في صفوف بعض الاحزاب الشيوعية العربية ، وباحتدام الازمة في صفوف بعضها الاخر .

اذا ، لم يكن الحزب الشيوعي السوري هو الحزب الشيوعي العربي الوحيد الذي فرضت عليه الظروف الجديدة عملية المراجعة لخطوطه الفكرية والسياسية ، وان كان هو الحزب الوحيد الذي تأخرت فيه عملية المراجعة الى اليوم . لقد واجهت الاحزاب الشيوعية العربية ، في السودان والعراق ولبنان ، والاردن والمغرب ، مثل هذه المراجعة ، في مراحل مختلفة بعد ٥ حزيران ، وانتهت الى نتائج هامة ، عدلت كثيرا من خطوطها الفكرية والسياسية والتنظيمية ، تعديلا جوهريا.

لذلك قبل التعرض بالتفصيل لازمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية ، سنعرض بايجاز ، للخطوط الكبرى في عملية المراجعة التي قامت بها الاحزاب الشيوعية في كل من السودان والعراق ولبنان .

موقف الحزب الشيوعي السوداني : قام الحزب الشيوعي السوداني ، بأول عملية مراجعة فكرية وسياسية ، بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ . فبعد خمسة أشهر من وقوع العدوان ، عقد الحزب المذكور مؤتمره الرابع ، تحت ضغط والحاح الظروف الجديدة ، وبالتجاوب معها . صدر عن

هذا المؤتمر تقرير عام ، شامل ، تناول في جزء منه قضية الوجود الاسرائيلي من الاساس . تبنى الحزب التحليل الجديد القائل بأن اسرائيل قاعدة استعمارية وأداة في يد الامبريالية لضرب الثورة العربية التحررية منذ قرار التقسيم حتى الان : « لقد استخدمت اسرائيل عام ١٩٤٨ لوقف المد الثوري الذي أعقب الحرب العالمية الثانية ، واستخدمت عام ١٩٥٦ لضرب مصر بعد تأميم قناة السويس ، واستخدمت عام ١٩٦٧ بعد فشل الردة الرجعية السياسية لوقف حركة التغيير الاجتماعي »(٣).

ويلاحظ الحزب أنه رغم الوضوح السياسي في فهم دور اسرائيل ، فان **غموضا فكريا** قد اكتنف هذه القضية ، وينطلق في محاولته جلاء هذا الغموض بالدعوة الى اعادة النظر من قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وبالعودة لتحليل الاساس الذي قامت عليه دولة اسرائيل : « ان مشكلة اليهود لم تنشأ في فلسطين ولا في العالم العربي ولكنها نشأت في أوروبا مع نشأة الرأسمالية ، وتفاقمت بتفاقم الحياة في المجتمعات الاوروبية الرأسمالية »(٤).

كان الحزب الشيوعي السوداني أول حزب شيوعي عربي ، يطرح المسألة اليهودية وفق أسس التحليل الماركسية ، باعتبارها وليدة أزمة البرجوازية اليهودية في فترة النهوض الرأسمالية في العالم . وفي التزاوج الذي حصل بين الرأسمالية اليهودية والرأسمالية الاحتكارية العالمية ، من أجل اقامة دولة صهيونية — امبريالية في فلسطين . ومن المهم ملاحظة نقطة أساسية في موقف الحزب الشيوعي السوداني من « مسألة القومية اليهودية » ، فبعد ان يحدد الحزب مقومات القومية التاريخية والاجتماعية المتمثلة في الارض والحياة الاقتصادية المشتركة والتاريخ المشترك واللغة الواحدة والطابع النفسي والثقافة واللغة ، يتساءل : « هل يمكن الزعم بأن فلسطين هي الارض التي نشأت عليها تلك العناصر ، وخلقت قومية يهودية في يوم ما ؟ »(٥)، ويصل الى الجواب التالي : « ليس هناك في تاريخ اليهود ما يثبت ان اليهود فيما بعد صاروا قومية مميزة في ارض فلسطين او غيرها »(٦). ويرد على الزعم القائل بأن اكتساب دولة اسرائيل ارض فلسطين سيكمل عناصر الامة اليهودية ، بأنه مناف للعلم ، ويعزل الارض كعنصر من عناصر تكوين الامة عن العوامل الاخرى من اجتماعية وتاريخية ، ويستشهد على ذلك بمقالة لينين « خوف التمثل القومي » التي جاء فيها « ان اليهود المقيمين في العالم المتمدن لا يشكلون أمة فقد تمثلوا أكثر من غيرهم كما يقول كاوتسكي وبادير ، كذلك لا يشكل اليهود القاطنون في روسيا وغاليسيا أمة ، فليسوا في هذين البلدين سوى فئة منغلقة ومعزولة . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به أولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي يقين المعرفة » . وحول مسألة الامة اليهودية في الاصل ، يرى الحزب أن عهد تكون الامم قد انتهى بعد انهيار النظام الاقطاعي وانتصار الرأسمالية على النطاق العالمي ، بالاضافة **الى ان اليهود لا يشكلون أمة** ، لانعدام اي سمات مشتركة تجمع بينهم ، فهم يقيمون في أنحاء مختلفة من العالم ، ومشكلتهم مرتبطة بمشكلة الامم التي يعيشون بينها، وتحررهم مرتبط بتحرر تلك الامم سواء من القهر القومي او الطبقي ، وهنا ايضا يستشهد التقرير بمقالة لينين المذكورة : « ان الذين يستطيعون وحدهم دون غيرهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد **التمثل** ، انما هم اولئك اليهود الرجعيون التافهون، الضيقو الافق الذين يريدون ان يرجعوا عجلة التاريخ الى الوراء » . ويخلص الحزب من كل ذلك الى **ان قيام دولة اسرائيل لم يحل مشكلة اليهود**، بل ربما سعرها أكثر ، فهناك **تمييز عنصري** داخل اسرائيل ، بين اليهود القادمين من المجتمعات الاوربية واليهود القادمين من المجتمعات الاسيوية والافريقية المتخلفة ، وبينهم وبين اليهود القادمين من المجتمعات العربية ، سببه وأساسه هو « نفس المفهوم الرجعي العنصري الذي عارض في السابق ذوبان اليهود في مجتمعاتهم المختلفة التي كانوا يعيشون فيها في الماضي ، لان نفس المفاهيم تعوق اليوم الذوبان داخل اسرائيل »(٧).

وللحزب الشيوعي السوداني رأي واضح في **حل المشكلة الفلسطينية** ومشكلة وجود اسرائيل فوق الارض العربية . فهو يتبنى موقف قيام **الدولة العربية الديمقراطية** فوق أرض فلسطين ، فهذا وحده يصحح الموقف الشاذ الذي نشأ منذ عام ١٩٤٨ : « داخل هذه الدولة الفلسطينية العربية سيجد المواطنون الاصليون ، عربا وأقلية يهودية حقوقهم الكاملة »(٨). ويرى بأن هذه الدولة بكامل حقوقها المشروعة في السيادة تستطيع أن تصفي آثار الاضطهاد الصهيوني الاستعماري وفي مقدمتها مشكلة اللاجئين العرب ، ومشكلة الهجرة

اليهودية ، « اذ على أساس التحديد الواضح لما هو المواطن الفلسطيني تجري اعادة تسكين اللاجئين ، وتحفظ الحقوق الوطنية لليهود الفلسطينيين ، اما المهاجرون من الجنسيات الاخرى فالدولة العربية الفلسطينية هي التي تحدد مصيرهم »(٩). وهذا الموقف نابع من قناعة ثابتة لدى الحزب بأن امكانية التغيير الاجتماعي داخل اسرائيل ، ليست الا **وهما** لا يأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة التي أدت لقيام دولة اسرائيل ، وهي افتقادها السمات الاساسية للدولة الوطنية. فهي قد قامت على أساس الاغتصاب المسلح ، وليست لها حدود معينة ، وتبني سياستها على اساس التوسع . بالاضافة الى ان بنية اسرائيل الاجتماعية غير الثابتة ، نتيجة التوسع من جهة والهجرة المستمرة والهجرة المضادة من جهة اخرى، وبنيتها الاقتصادية القائمة على اقتصاد غير منتج ، أساسه الخدمات والبناء والتمويل الخارجي ، يجعل منها مجرد « جيش احتلال قائم مستعد في اي وقت »(١٠).

لذلك كله ، فان الحديث عن التغيير الاجتماعي داخل اسرائيل ، حديث ينافي علم الثورة ، وان الشعارات الزائفة التي تزعم امكانية تغيير اشتراكي في الوطن القومي لبني اسرائيل « ليست الا شعارا للمصالح الرجعية والصهيونية »(١١).

وفي اطار تصور الحزب الشيوعي السوداني لحل المشكلة الفلسطينية عن طريق اقامة دولة عربية ديمقراطية فوق أرض فلسطين ، يدعو الحزب القوى الاشتراكية الى **اعادة النظر في قرار ١٩٤٧** المتعلق بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لان « **الافتراضات** التي بررت التقسيم واعتبرته حلا لتحقيق التعايش السلمي بين الاقليات اليهودية والعرب في فلسطين قد اثبتت التجربة خطأها »(١٢).

ويدعو الحزب اخيرا الى موقف موحد للحركة الاشتراكية العربية والعالمية ، في مواجهة حقيقة اسرائيل ، والى « فك عزلة قوة عالمية ضخمة كان يمكن كسبها لصالح الحركة الثورية العربية ومطلب الشعوب العربية العادل في **ازالة الوجود الاسرائيلي الطفيلي** »(١٣).

موقف الحزب الشيوعي العراقي «القيادة المركزية»: احتلت القضية الفلسطينية ، في مختلف مراحل تطورها ، مكانة هامة في التاريخ السياسي للحزب الشيوعي العراقي . غير أن التطور الهام الذي حدث داخل الحزب جاء في أعقاب هزيمة حزيران. ففي أيلول من عام ١٩٦٧ ، أي بعد الهزيمة بثلاثة اشهر ، واجه الحزب أزمة حاسمة انتهت بانشقاقه . وتقيم « القيادة المركزية » ، وهو الاسم الذي اتخذه أحد طرفي الانشقاق ، الازمة بأنها : « انتفاضة اقترنت بالعمل من اجل تصحيح خط الحزب من المسألة الفلسطينية»(١٤)، وميز هذا الفريق موقفه بوضوح من قضية الوجود الاسرائيلي والحركة الصهيونية والمقاومة الفلسطينية . فالصهيونية ليست الا « حركة توسعية قائمة على ايديولوجية فاشية ، وأداة في يد الامبريالية »(١٥). ودولة اسرائيل ليست الا « تحقيقا لاغراض المخطط الامبريالي ــ الصهيوني » في خلق منطقة احتلال دائم مدججة بالسلاح لمجابهة الحركة التحررية التقدمية العربية ، ولتثبيت وتوسيع المصالح الاستعمارية ، وهي بحكم طبيعتها وتركيبها الاقتصادي وتبعيتها للاحتكارات العالمية وخصوصا الاميركية ليست الا « جزءا من النظام الامبريالي العالمي ، وشريكة ثانوية للدول الامبريالية »(١٦) في خططها الموجهة ضد الحركات التحررية الثورية وضد القوى الاشتراكية في العالم . لذلك فان القضية الفلسطينية ــ قضية الوجود الاسرائيلي ــ هي « قضية فلسطينية وقضية عربية في آن واحد »(١٧). ولن تستطيع البلدان العربية ضمان استقلالها الحقيقي ولا تحقيق وحدتها الثورية مع بقاء الكيان الاسرائيلي . وتعتبر القيادة المركزية أن أهم ردود الفعل على هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ هو **ظهور وتطور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة** ، والتزمت تجاهها بالموقف العملي التالي : ١ ــ تقديم جميع اشكال العون المادي ــ السلاح والمال ــ ، ٢ ــ تعزيز الروابط الكفاحية بين القوى التقدمية والمنظمات الفدائية والمساهمة الفعلية في الكفاح المسلح الذي تشنه على الارض الفلسطينية المغتصبة(١٨).

اما عن البرنامج لحل القضية الفلسطينية ، فقد تبنت « القيادة المركزية » موقف **ازالة كيان دولة اسرائيل وتشكيل دولة فلسطين الديمقراطية الثورية** ، التي ترفض التمييز العنصري والديني ، وتضمن المساواة للجميع ما عدا الطغمة الصهيونية المسيطرة ، وتحرم هجرة اليهود الى فلسطين تحريما نهائيا وقاطعا ، وتسهل عودة اليهود الذين

يرغبون في الرجوع الى أوطانهم الاصلية « فبذلك وحده يمكن تصفية بؤرة الاستفزاز والعدوان من الاساس »(١٩).

موقف الحزب الشيوعي اللبناني : بعد حرب حزيران بأكثر من عام ، في تموز عام ١٩٦٨ ، عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره الثاني. ويمكن القول بأن هذا المؤتمر شكل تحولا أساسيا في منطلقات الحزب الفكرية ومواقفه السياسية تجاه القضية الفلسطينية . فلأول مرة يحدد الحزب بوضوح معنى اسرائيل كجزء من حركة الامبريالية العالمية ، قامت على اغتصاب الارض العربية ، بهدف تقسيم العالم العربي واعاقة حركة الوحدة العربية ، « ان اسرائيل اليوم هي الهراوة التي تلوح بها الامبريالية وتستخدمها ضد الانظمة التقدمية العربية »(٢٠). واتخذ الحزب من حركة المقاومة موقفا مبدئيا في اعتبارها « حركة ثورية لشعب اغتصبت أرضه وكامل حقوقه في وطنه ، تشارك فيها كل القوى الوطنية والتقدمية بمن فيهم الشيوعيين »(٢١).

وتصور الحزب في تلك الفترة ، دور العمل الفدائي اذا تطور واتسع — وهو يتطور ويتسع بسرعة فائقة — بأن من شأنه « ان يضعف مواقع الرجعية والصهيونية والامبريالية ، ويدفع الحركة الوطنية نحو **نهوض** جديد يشتد فيه النضال لازالة آثار النكسة ولتحقيق منجزات جديدة في طريق التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي الكامل للبلدان العربية »(٢٢).

وكذلك شكل المؤتمر تحولا اساسيا في تصور الحزب لحل القضية الفلسطينية ، بالاعتراف الكامل بحق العرب الفلسطينيين الذي لا ينازع في أرضهم ووطنهم ، ورفض الامر الواقع « فان وجود اليهود في فلسطين اليوم لا يمكن ان ينال من حق عرب فلسطين الطبيعي والتاريخي في وطنهم »(٢٣).

وفي أوائل عام ١٩٧١ ، عقد الحزب مؤتمره الثالث، وأقر برنامجا سياسيا تناول في جزء منه عدوان حزيران والقضية الفلسطينية ، وقد أعاد فيه الحزب تثبيت خطوطه الاساسية السابقة ، **وعدل بعض الخطوط الاخرى ، وخاصة فيما يتعلق بموقفه من حركة المقاومة** ، وتقييمه لدورها : يلاحظ الحزب ، ان حركة المقاومة قد جوبهت منذ نشوئها، بحقد وحشي ، من قبل الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، واستخدمت جميع الاساليب للتضييق عليها وضربها وتصفيتها ، غير انه يرى ان حركة المقاومة الفلسطينية « بالطبيعة الطبقية البرجوازية الصغيرة لقياداتها » قد ظلت « اسيرة الشعارات العامة » وبدون « برنامج مرحلي موحد » وبدون « أسس صحيحة لعلاقاتها بالجماهير العربية والقوى التقدمية العربية » و« بالانظمة العربية » وان « سلسلة من الاخطاء الاستراتيجية والتكتيكية هي التي قادت الى عزلتها وساعدت على ضربها »(٢٤). والحزب الشيوعي اللبناني قد عمل على « دعم المقاومة بكل الوسائل السياسية والمعنوية والمادية والبشرية » بما في ذلك «المشاركة في عملياتها المسلحة » . وركز نضالاته مع القوى التقدمية الاخرى من اجل « حماية المقاومة في وجه التآمر الرجعي ومحاولات التصفية التي تعرضت لها »(٢٥). ويعلن الحزب انه قد عارض بشدة « المواقف الخاطئة الانتهازية اليمينية واليسارية » في هذه الحركة والتي كانت تلتقي على « الفصل بينها وبين حركة التحرر الوطني العربية » سواء بالنظر اليها بمعزل عن المحتوى الاساسي المعادي للامبريالية والتقدمي ، الذي يميز حركة التحرر الوطني العربية في مرحلتها الراهنة ، ام بمحاولة تحميلها « اكثر مما تستطيع ان تحمل ، وجعلها بصورة اعتباطية ، **طليعة** لحركة التحرر العربي ككل ، وأحيانا **بديلا** عن هذه الحركة »(٢٦). ويعتبر الحزب ان الشيوعيين **مسؤولون** « عن عدم تأديتهم واجبهم منذ البداية في لعب دور اكثر فعالية في حركة المقاومة مما كان من شأنه ان يزيد في قوتها ويخفف من أخطائها وثغراتها »(٢٧). ويرى الحزب ان العلاقة التي كانت يجب ان تسود بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية والتقدمية داخل كل بلد عربي بما في ذلك الحركة الوطنية والتقدمية في لبنان ، تتجسد في « رفض ومقاومة كل محاولات عزل المقاومة عن هذه الحركة او محاولات احلال المقاومة محل الحركة الشعبية والتقدمية في الداخل وجعل هذه الاخيرة تابعة الاولى »(٢٨).

اما موقف الحزب الاستراتيجي من القضية الفلسطينية فهو في « ارتباط **الحل النهائي للقضية الفلسطينية** بمجمل التطورات اللاحقة لحركة التحرر الوطني العربية ، وان استعادة الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني ، رهن **بتغيير جذري** في ميزان القوى لصالح حركة التحرر الوطني العربية، وان مثل هذا التغيير ، يمكن للاشتراكية وحدها ان توصل اليه في ظروف عصرنا وفي الوضع الملموس

لبلداننا العربية »(٢٩).

وقد تبنى الحزب موقفا من قرار مجلس الامن ، يتلخص في **تأييد القرار** ، لما تضمنه من « نص صريح يقضي بعدم القبول بضم الاراضي بالقوة ، ولكون تطبيقه ، في ظروف نسبة القوى في المنطقة ، يساعد على تخطي النكسة »(٣٠). ويذهب الحزب الى حد **ادانة** مواقف بعض اجنحة حركة التحرر الوطني العربية « برفض الحل السياسي جملة وتفصيلا » ويتهمها « بالعمل على ايجاد تعارض مصطنع بين النضال على الصعيد السياسي والنضال على الصعيد العسكري »(٣١).

الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية :

حتى حزيران عام ١٩٧٠ ، وهي الذكرى الثالثة لهزيمة عام ١٩٦٧ ، كان حوار التغيير والتطور الفكري والسياسي تجاه القضية الفلسطينية ما زال يجري داخل صفوف الحزب . ولم يطرأ اي تغيير في سياسة الحزب العلنية . فالمؤتمر الثالث الذي عقده الحزب في صيف عام ١٩٦٩ كان بداية التفاعل داخل صفوفه ، وقد خرج المؤتمر المذكور بمشروع برنامج سياسي ، لم يطرح على قواعد الحزب الا في صيف عام ١٩٧٠ .

جاء مشروع البرنامج ببوادر التغيير والتطور في موقف الحزب الشيوعي السوري ، فقد تناول القضية الفلسطينية في جزء أساسي منه ، وطرح لاول مرة خطوطا جديدة تجاه القضية ، اذ اعتبر اسرائيل عدوا امبرياليا — صهيونيا اغتصب حق الشعب العربي في أرضه ووطنه ، وأقر بحق الشعب العربي الفلسطيني في تحرير وطنه المغتصب من الاستعمار والصهيونية وحقه في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه وبناء دولته بالشكل الذي يريده ، اما الموقف الذي اتخذه الحزب من المقاومة كما عبر عنه مشروع البرنامج ، فهو اعتبار نضال الشعب العربي الفلسطيني نضالا تحرريا عادلا يشكل جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية وبالتالي من الحركة الثورية العالمية ، لذلك فان الجماهير العربية عموما ، وقواها التقدمية خصوصا ، مدعوة ليس لتقديم المزيد من الدعم المادي والمعنوي لحركة المقاومة فحسب ، بل انها « مدعوة ايضا لبذل المزيد من المساهمة والمشاركة العملية في هذا العمل الوطني والقومي الكبير . فالاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية يمس مصالح الشعوب العربية بمجموعها».

اما عن موقفه الجديد من حل القضية الفلسطينية فقد تبنى الحزب موقف « **تصفية الصهيونية ومؤسساتها العدوانية التوسعية** فذلك هو وحده الكفيل بتمكين الشعب العربي الفلسطيني من تحقيق اهدافه»(٣٢). وللشعب العربي الفلسطيني ملء الحق في استخدام مختلف اساليب واشكال النضال من أجل تحقيق هذه الاهداف بما في ذلك الكفاح المسلح.

أثار هذا الموقف ردود فعل كبيرة في قواعد الحزب وكوادره القيادية ، ورغم انه أقر بالاجماع ، من قبل لجنة تمثل فيها الطرفان المتنازعان اليوم ، باستثناء تحفظ واحد لا يتعلق بالقضية الفلسطينية مباشرة ، فان جذور الخلاف في الحزب يمكن ردها الى هذا المشروع .

لقد أصبح مشروع البرنامج مركز الحوار بين اطراف النزاع في الحزب ، الذي استمر في التصاعد الى حد هدد وحدة الحزب ، مما دعاه الى عقد مجلس وطني عام في نهاية عام ١٩٧١ ، وفي مناقشات هذا المجلس تبين أن هناك تيارين متمايزين واضحين حول أغلب القضايا التي تناولها مشروع البرنامج ومن ضمنها القضية الفلسطينية . وقبل استعراض مناقشات المجلس المذكور حول القضية الفلسطينية نريد أن نسجل الملاحظات الضرورية التالية :

١ — جاءت مناقشات المجلس الوطني، بعد الاحداث الهامة التي طرأت على صعيد المنطقة ، والقضية الفلسطينية ، وتحديدا بعد طرح مشروع روجرز وبعد مجزرة أيلول ١٩٧٠ ، وتصفيات جرش ١٩٧١.

٢ — مع أن مشروع البرنامج المعتمد كان محور المناقشات في المجلس ، فقد تجاوز كل من الفريقين المواقف المطروحة في هذا البرنامج الى مواقف أكثر وضوحا وبلورة تجاه كافة جوانب القضية الفلسطينية . ٣ — كان من المفترض ان ينهي المجلس الوطني الخلافات داخل الحزب ، أو أن يجمدها على أقل تقدير ، ولكنه في الحقيقة فجرها.

٤ — بات واضحا اكثر ، أن هناك فريقين مستقلين متماسكين في الحزب ، فريق يقوده الامين العام نفسه ، وفريق آخر يقوده اغلبية اعضاء المكتب السياسي ، لذلك فاننا سنعرض لازمة الحزب ، من خلال عرض مواقف وآراء الفريقين تحت تسمية فريق الامين العام وفريق المكتب السياسي .

موقف الامين العام : لم يرد في كلمة الامين العام أمام المجلس الوطني الموسع تحليل مباشر لطبيعة الصهيونية، ولا لدور اسرائيل وارتباطها بالامبريالية

العالمية ، ذلك رغم الموقف الواضح الذي ورد في مشروع البرنامج حول هذه النقاط . غير انه ورد في هذه الكلمة تحديدات واضحة للموقف من حل القضية الفلسطينية ، والموقف من العمل الفدائي ، يمكن بالاستناد اليها فهم موقف الامين العام من مجمل القضية الفلسطينية . يرى الامين العام ان المهمة الكبرى الرئيسية المطروحة الان هي « ازالة آثار العدوان الاسرائيلي الاستعماري في حزيران ١٩٦٧ وتحرير الاراضي العربية التي احتلت نتيجة لهذا العدوان »(٣٣) وذلك يتم « عن طريق النضال في سبيل حل سياسي عادل على اساس قرار مجلس الامن في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، لان القرار يقضي اول ما يقضي بانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة » . ويلاحظ الامين العام أن اسلوب النضال هذا « ليس بالشيء القليل » لانه يعتبر المناخ الدولي في صالح العرب. ويستكمل الامين العام رأيه حول انجاز المهمة الكبرى الرئيسية ، **ازالة آثار العدوان** ، فينادي بالاضافة الى النضال السياسي من اجل حل عادل عن طريق قرار مجلس الامن ، بضرورة **رفع القدرة القتالية للقوات العربية** ، ويرى ان رفع القدرة القتالية وحده بمعزل عن الحل السياسي مضر ويترك مجالا للدعاية الاستعمارية الصهيونية الزاعمة بأن رفع القدرة القتالية العربية غايته محو اسرائيل كدولة ورمي اليهود في البحر . ويبرر الامين اخذه بهذا الحل بأنه « هو الحل الذي يأخذ به الاتحاد السوفييتي مدعوما من مصر ومن دول عربية أخرى »(٣٤).

ويتهم الامين العام الذين يهاجمون قرار مجلس الامن ويرفعون شعار تحرير فلسطين كلها عوضا عن شعار ازالة آثار العدوان ، بأنهم **قوميون تقدميون**، وانهم أخذوا يعيدون النظر في موقفهم . لذلك يستطرد بأنه « لا يمكن لحزبنا أن يتخذ المواقف التي أخذت الحركات القومية التقدمية نفسها تتخلى عنها وتنتقل الى مواقف أكثر واقعية لا تدع مجالا للاستغلال ضد الشعب العربي من قبل الدعاية الاستعمارية الصهيونية » . وفي معرض تحديد رأيه من **حل قضية فلسطين** ، ينتقد منذ البداية فكرة العودة الى الوضع الذي كان قائما في فلسطين قبل عام ١٩٤٧ ، ويتهم مرة اخرى ان هذه هي افكار القوى التقدمية ، وانها « ستؤدي بالنتيجة الى شعار ازالة دولة اسرائيل » ، وهو شعار « غير صحيح وغير واقعي وليس له أي أساس طبقي »(٣٥)، ويتهم ايضا الذين يطالبون بشعار تحرير فلسطين انما يساعدون شاؤوا أم أبوا الجهات الاستعمارية التي تعمل لرفع الامور الى حرب عالمية ثالثة .

ويخلص من كل ذلك الى ان الطريق لحل القضية الفلسطينية هو النضال في سبيل حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه ، **وهذا شعار يكفي الان** ، ولا يرى ضرورة لوضع صيغة تفصيلية لحل القضية الفلسطينية لان ذلك شيء صعب : « من الصعب اليوم تحديد الاشكال الواقعية التي سيأخذها حق تقرير المصير والمراحل الملموسة التي سيمر فيها لان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة يتوقف على ميزان القوى في المنطقة وفي العالم »(٣٦).

ويرد على المطالبين بموقف استراتيجي من القضية الفلسطينية بأن « شعار الحق في العودة وتقرير المصير هو شعار استراتيجي كبير »(٣٧) وان تحقيقه يحتاج بالاضافة الى التغييرات العميقة في ميزان القوى بين الاشتراكية والرأسمالية العالمية، والتغييرات العميقة في البنية السياسية والاجتماعية في المنطقة ، **الى تغييرات في اسرائيل نفسها** .

ما هي التغييرات التي يتصور الامين العام للحزب الشيوعي السوري حدوثها داخل اسرائيل ؟ والتي يعتبرها احدى الضرورات لتحقيق شعار العودة وتقرير المصير ؟ يورد الامين العام في كلمته المشار اليها ، المثال التالي ، لايضاح هذه القضية : « لقد ذهبنا وفدا الى بلغاريا لتمثيل حزبنا في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي البلغاري الشقيق. وخلال وجودنا اقترح رفاقنا الطلاب تنظيم لقاء مع الطلاب العرب الذين يدرسون هناك . وفعلا جرى اللقاء وكان مفتوحا للجميع وحضره اكثر من خمسماية طالب عربي من مختلف البلدان العربية ومن مختلف الاحزاب والاتجاهات . وكان لقاء ناجحا ، ألقيت فيه حسب طلب الرفاق تقريرا عن سياسة حزبنا في سوريا وكذلك مواقفه من مختلف القضايا العربية . ثم فتح باب الاسئلة وجاءنا ما يقرب من خمسين سؤالا جرت الاجابة عليها جميعا وكان بينها السؤال التالي : اذا وصل الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى الحكم فماذا يكون موقفكم من اسرائيل ؟ وقد أثار هذا السؤال أخذا وردا بين الرفاق الطلاب المسؤولين القاعدين على منصة

الاجتماع واقترح بعضهم تجاهل السؤال وعدم الاجابة عليه. ولكننا رأينا في النهاية ان من الواجب الاجابة عليه وايضاح موقف حزبنا المبدئي . وكان الجواب الذي ألقيته كما يلي : اذا وصل الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى الحكم انحلت المشكلة ، لان معنى ذلك هو أولا : انه تم القضاء على سلطة البرجوازية اليهودية الكبرى وكبار ملاكي الاراضي اليهود ، ثانيا : انقطعت السلسلة التي تجمع بين اسرائيل وبين الصهيونية العالمية والامبريالية العالمية . ولا يبقى هناك سيطرة استعمارية ولا صهيونية ولا عدوان وينفتح المجال لعودة الشعب العربي الفلسطيني الى وطنه وتقرير مصيره بنفسه وتبقى القضية بين كادحين عرب وكادحين يهود ومن الواضح أنهم في ظل الاشتراكية يمكن ان يتفقوا بسهولة على كل شيء بما في ذلك التسمية نفسها. هكذا كان الجواب وقد استقبلته القاعة بالتصفيق. ودلالة ذلك أن جماهير الشعب العربي والشباب العربي اصبحوا واعين ولا يؤخذون بالمزاودات والكلام المتطرف فالحياة نفسها ووعيهم وتجاربهم تدلهم على الطريق . »

يكتفي الامين العام بهذا المثال لتوضيح رأيه حول هذه القضية الهامة ، ويرد على منتقديه بأن شعار حق تقرير المصير يحتاج الى تحديد وتوضيح للخروج من دائرة العموميات بقوله « المهم في القضايا القومية هو اتخاذ الموقف المبدئي الصحيح ، واذا كان يبدو في مرحلة معينة انه غير عملي فالمهم انه صحيح ، وسوف يبين التطور نفسه كيفية تطبيقه عمليا . »

وحول الموقف من العمل الفدائي وحركة المقاومة يرى الامين العام ان « من الطبيعي الواضح ان من الواجب تأييد حركة المقاومة الفلسطينية والدخول فيها والعمل لتقويتها والمسعى لتوجيهها في الاتجاه الصحيح » . ويوضح ما هو هذا الاتجاه الصحيح ، « أي أن تكون حربتها موجهة بشكل اساسي رئيسي ضد المحتلين الاسرائيليين وقواتهم ». ومع هذا يورد تحفظا أساسيا بأنه لا ينبغي تأييد جميع أشكال حركة المقاومة ، بل ينبغي النضال « لتوجيهها في الاتجاه المفيد والضروري والصحيح » ودون أن يوضح ما هي اشكال حركة المقاومة التي يؤيدها فقط ، وما هو الاتجاه المفيد والضروري والصحيح الذي ينبغي النضال من أجله في حركة المقاومة ، يكتفي الامين العام بالتعقيب : « حتى المنظمات الفدائية تنتقد اليوم العديد من مواقفها السياسية وشعاراتها وأساليب عملها . فكيف يمكن ان نقول نحن الشيوعيين بتأييد جميع شعارات وأشكال وأساليب نضال حركة المقاومة الفلسطينية ».

موقف المكتب السياسي : يعلن المكتب السياسي عن تمسكه بقرارات المؤتمر الثالث وبالنقاط الواردة في مشروع البرنامج ، الا أنه يدعو الى اعادة النظر ببعض المواقف المتعلقة بالقضية الفلسطينية ، وخاصة حول الموقف من الحل السياسي وجدوى قرار مجلس الامن : « تجري الان مناقشات حول جدوى ومدى فائدة قرار مجلس الامن وامكانية وطريق تحقيقه ». ويرى هذا الفريق بأن هذه القضية « من اكثر القضايا تعقيدا من بين جميع مهمات حركة التحرر الوطني العربية »(٣٨).

وينطلق هذا الفريق في تحديد مواقعه السياسية من مواقف فكرية مبدئية في نظرته للوجود الاسرائيلي ودوره ومعناه . فهو يرى ان اسرائيل دولة عدوانية عنصرية صهيونية ، بل هي قاعدة الامبريالية في منطقتنا ، وتعمل للتوسع على حساب الاراضي العربية ، وقد نشأت وتكونت في الاصل بدعم من الامبريالية العالمية وعلى اساس القتل والاغتصاب وتصفية الشعب العربي الفلسطيني(٣٩).

ويستنكر المكتب السياسي ، في معرض مناقشته الطرف الاخر ، محاولة تبرير الوجود الاسرائيلي « لا يجوز اطلاقا ايجاد اي تبرير لوجود اسرائيل أو الدفاع عنها ، حتى ولو بشكل غير مباشر او غير مقصود ، لان ذلك ليس في مصلحة الحزب ولا في مصلحة حركة التحرر الوطني والحركة الثورية العالمية . ان تبرير وجود اسرائيل ليس مهمتنا ، وليس مهمة الشيوعيين والقوى الوطنية التقدمية ، وانما هو مهمة الامبريالية والصهيونية »(٤٠).

ويذهب هذا الفريق في رده على الامين العام ، بصورة غير مباشرة ، حول احتمالات التغير من داخل اسرائيل ، بأن ذلك مستحيل ، لان اسرائيل ستبقى أداة في يد الامبريالية ، وهي لا تملك مستقبلها كدولة مستقلة ، وعندما تكف عن كونها أداة تلعب دور الدركي في قمع حركة التحرر العربية ، « ستقضي عليها الامبريالية الاميركية نفسها »(٤١).

ويتابع رده على فريق الامين العام ، مشككا في

واقعية شعار حق تقرير المصير ، فينفي في البداية اعتراضه على مبدئية الشعار ، ولكنه يتساءل « بصراحة هل هو شعار واقعي ؟ » وهل يصلح بديلا لشعار التحرير . ويعود الى الفترة التاريخية التي صيغ فيها هذا الشعار ليميزها عن الفترة الراهنة ، فيرى ان شعار مبدأ تقرير المصير قد صيغ من أجل تحقيق انشاء الدول الوطنية المستقلة للشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار ، بعد انفصالها عن الدول الامبريالية ، ومن اجل تعبئة الجماهير والشعوب والامم المظلومة ضد الامم الظالمة ، ولكن « ما من أحد الان ، لا عربيا ولا دوليا ، الا ويفهم أن الاقتصار على طرح شعار تقرير المصير بالنسبة للشعب الفلسطيني انما يتضمن بصورة جوهرية ، الاعتراف بدولة اسرائيل »(٤٢). لان اسرائيل نفسها هي التي « ستسمح لان يعطى الشعب العربي الفلسطيني امكانية تحقيق هذا المبدأ » . وينطلق من هذه النقطة الهامة ليحذر من مخاطر تبني مثل هذا الموقف من حل القضية الفلسطينية لانه « يعرض الحزب للعزلة الجماهيرية » .

اما عن موقف الامين العام حول امكانية حدوث التغيير من داخل اسرائيل ، وأثر ذلك على المساعدة في حل القضية ، فيرى هذا الفريق انه وان كان ذلك مشروعا من الناحية المبدئية ، الا أنه غير واقعي ، لان مستقبل الحركة الثورية في اسرائيل مرتبط « بعمق الضربات التي توجهها حركة التحرر العربية الى العسكرية العدوانية الاسرائيلية » . ثم ، من ناحية اخرى يتساءل « أيحق للشعب العربي الفلسطيني ولحركة التحرر الوطني العربية أن تقعد منتظرة نعيم تلك التغييرات ! »(٤٣). ويرد ايضا على موقف الامين العام في انكاره الصفة المبدئية والطبقة لشعار ازالة دولة اسرائيل ، بأن ازالة اسرائيل هو في النتيجة ليس ضد الشعب اليهودي والجماهير اليهودية ، بل على العكس سيكون لمصلحة الجماهير اليهودية، ويدعم هذا الموقف بتحليل لدور الدولة في المفهوم الماركسي ، ولخصوصية بناء الدولة في اسرائيل ، من حيث منشئها ومن حيث علاقتها بالشعب ، واخيرا في العلاقات الطبقية داخلها .

فمن الناحية النظرية ، يرى بأنه من الممكن عند البحث في التركيب السكاني والطبقي لشعب معين، أن يجري تقسيمه الى عمال وفلاحين وبرجوازية كبيرة وصغيرة الخ ... ولكن من الناحية السياسية ، **يجب النظر الى المحصلة السياسية لنشاط هذا الشعب** وهل هي « ايجابية أم سلبية »، لانه اذا كانت هذه المحصلة ايجابية ، يمكن القول ان هذا الشعب يلعب دورا ايجابيا ، وان كانت سلبية فيمكن القول أن هذا الشعب يلعب دورا سلبيا ، ويرى أن هذا الاسلوب في التقييم يصح اجراؤه على شعب كامل كما يصح اجراؤه على طبقة معينة ، ويستشهد على ذلك برأي ماركس في الطبقة العاملة الانكليزية « لقد سارت في ذيل الاتجاهات اليمينية ردحا من الزمن ، بالرغم من وجود عناصر اشتراكية — ديمقراطية وتجمعات غير يمينية » ولذا فان وجود عناصر وقوى وطبقات تقدمية لا يكفي لوحده لتقييم شعب من الشعوب من الناحية السياسية « ان تقييم شعب من الشعوب أو أمة من الامم من الناحية السياسة ، يعتمد بالدرجة الاولى على النهج السياسي الداخلي والخارجي الذي تنتهجه دولة هذا الشعب »(٤٤). وان دولة اسرائيل — بحكم تركيبها الخاص — ليست من حيث المنشأ والتكون والدور الذي تلعبه في الشرق الاوسط شبيهة بأي دولة من دول العالم ، فهي قد نشأت على العدوان ، وتكونت من اناس لا يجمعهم غير الدين والصهيونية ، وتمدهم الامبريالية بكل اسباب الحياة ووسائل العدوان ، وهي تلعب دور **« الدركي والسمسار الدولي »** لصالح الامبريالية في الشرق العربي وفي افريقيا .

ويعزو هذا الفريق — الاستنتاجات الخاطئة — حول الدولة والشعب في اسرائيل ، الى « خلط بعض الرفاق » بين مفهوم الدولة ومفهوم الشعب ، وان من يخلط بين هذين المفهومين هو الذي « يحمل الشعب اليهودي باسرائيل جريمة دولته »(٤٥).

وحول حركة المقاومة ، يرى المكتب السياسي ان الثورة الفلسطينية هي حركة تحرر وطني وليست حركة لاجئين فلسطينيين ، لان جوهر حركة التحرر لاي شعب يكمن في انشاء دولة مستقلة فوق ارضه، وان ارض الشعب الفلسطيني ودولته هي فلسطين التي اغتصبتها الحركة الصهيونية بغزواتها الاستيطانية . لذلك فان العمل الفدائي ، هو التجسيد الثوري المسلح لحركة التحرر الفلسطينية — بالاضافة لكونه عنصرا اساسيا وهاما في قضية النضال لازالة آثار العدوان — ويصرح فريق المكتب السياسي بأن احدى النواقص الكبرى في

حركة المقاومة هو ان الشعب العربي لم يساهم بصورة عملية وجدية في هذه الحركة ، فكادت الحركة تقتصر على الشعب الفلسطيني ، بالرغم من ان اراضي دول عربية ثلاث قد احتلت في حزيران ١٩٦٧ ، واراضي دول اخرى مهددة بالاحتلال .

ويلاحظ هذا الفريق ان انتقاد ممارسات بعض المنظمات الفدائية الفلسطينية قد اتخذ في الحزب الشيوعي السوري « **طابع التجريح والتفخيت بالعمل الفدائي ككل**»(٤٦) ويرى ان بعض الممارسات السياسية الخاطئة الطبيعية ، في حركة تخطو أولى خطواتها ، لا تبرر مثل هذا الموقف ، خاصة وان الانتقاد وطبيعته ودوره مرتبطان بدور وموقع الحركة المنتقدة (بالفتح) من قضية النضال ضد الامبريالية والصهيونية . وبما ان الحركة الفدائية قوة حليفة لمجموع القوى الثورية في الوطن العربي، وتلعب بصورة جوهرية وعامة دورا ايجابيا في العملية الثورية الوطنية والقومية للشعب العربي، فانه ينبغي عند التعرض الى بعض نواقصها، التأكيد اولا على **الجوهر الايجابي** لهذه الحركة . ويضيف منتقدا دور الحزب في العمل الفدائي المسلح ، « وبالنسبة لنا نحن الشيوعيون السوريون الذين ليس لنا الان في منظمة الانصار الا رفيق واحد فقط ينبغي ان نكون متواضعين بدرجة غير محدودة عند التحدث عن نواقص العمل الفدائي »(٤٧). وبدلا عن ذلك يرى ان الانتقاد الاساسي يجب ان يوجه الى الحزب نفسه لان احدى النواقص التي عانى منها العمل الفدائي هو « **حضورنا الضئيل والمتأخر** » . ويرى اخيرا ان ابشع انواع الانتقاد هو ذلك الذي يقوم حين تكون الحركة الفدائية تتعرض لامتحان رهيب كما هو الحال في مجزرة أيلول ، ويؤكد الحقيقة النضالية ، في ان مجزرة ايلول لم تسببها النواقص التي كانت تعانيها الحركة الفدائية . بل المؤامرات التي حاكتها الامبريالية والصهيونية واسرائيل والرجعية العربية . ويتساءل بهذه المناسبة عن ماهية المساعدات التي يقدمها الحزب — السياسية والمعنوية والمادية — للحركة الفدائية وفصائلها في محنتها الراهنة ؟ ويجيب على سؤاله **لا شيء ابدا**، غير اللامبالاة .

مما لا شك فيه ، ان الاحزاب الشيوعية العربية، ومن ضمنها الحزب الشيوعي السوري ، قد واجهت مرحلة حاسمة بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ ، وان القضية الفلسطينية قد شكلت جانبا اساسيا من جوانب هذه المرحلة . ومما لا شك فيه ، ايضا ، ان ردود الفعل ، نتيجة لهذه المواجهة ، لم تكن متطابقة دائما ، بالرغم من السمات الاساسية التي تجمع بينها ، وهذه الظاهرة لها اسبابها الموضوعية والذاتية ، الكامنة في البنية الطبقية لهذه الاحزاب، وفي تفاوتها من حزب لاخر ، وفي تاريخ الكفاح الوطني لكل حزب في البلد الذي يعمل فيه ، وفي موقفه من المسألة القومية وتحليله لها .

واخيرا ، فان طرحنا لاراء ومواقف الحزب الشيوعي السوري من القضية الفلسطينية ، كان ضمن اطار قناعتنا بأن اطلاع الجماهير العربية ، وطبقتها العاملة وسائر قواها الثورية ، على الحوار الدائر ، هو عملية ثورية تساهم في مساعدة الحزب على تجاوز ازمته ودفعها الى ذروتها الثورية . ان الموقف الداعي الى ابقاء الخلاف داخل صفوف الحزب واخفاء مضمونه عن الجماهير ليس مفيدا على الاطلاق ، بل يشكل خطرا كبيرا على اي امل في التغيير ، او في الخطو الى الامام باتجاه بلورة قضايا المرحلة ، خاصة وان الاحزاب الشيوعية العربية فصيل اساسي من فصائل حركة التحرر الوطني العربية .

---

١ — بيان خالد بكداش ، ٣ نيسان ١٩٧٢ .
٢ — بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري ، ٥ نيسان ١٩٧٢ .
٣ — **الماركسية وقضايا الثورة السودانية** ص ٥٦ — نص التقرير العام المجاز في المؤتمر الرابع في الحزب الشيوعي السوداني اكتوبر ١٩٦٧ — دار الفكر الاشتراكي ، الخرطوم ، فبراير ١٩٦٨ .
٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٦ .
٥ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ .
٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ .
٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٠ .
٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ .
٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ .
١٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٦١ .
١١ — **المصدر نفسه** ، ص ٦١ .

١٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٢ .
١٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٢ .
١٤ — **الحزب الشيوعي العراقي والمسألة الفلسطينية** « القيادة المركزية » ص ٥٦ . ١٩٧١ ، من منشورات الحزب .
١٥ — **الحزب الشيوعي العراقي والمسألة الفلسطينية** ، بيان تشرين الاول ١٩٦٨ .
١٦ — **المصدر نفسه** .
١٧ — **المصدر نفسه** .
١٨ — **المصدر نفسه** .
١٩ — **المصدر نفسه** .
١٠ — **نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه** — الجزء الاول ، ص ٤٣ .
٢١ — **المصدر نفسه** ، ص ٤٤ .
٢٢ — كريم مروه ، العمل الفدائي جزء هام من حركة النضال العربي ضد الامبريالية والصهيونية، مجلة **الطريق** — العدد ١٠ — ١١ تشرين الثاني — كانون الاول ١٩٦٨ .
٢٣ — **نضال الحزب الشيوعي اللبناني** ، ص ٤٤.
٢٤ — **الشيوعيون اللبنانيون ومهمات المرحلة المقبلة** ، ص ١٤٩ — منشورات الحزب الشيوعي اللبناني .
٢٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٨ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ .
٢٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥١ .
٣٠ — **المصدر نفسه** ، ١٤١ .
٣١ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤١ .
٣٢ — **مشروع البرنامج السياسي للحزب الشيوعي السوري** ، ص ٤٩ .
٣٣ — كلمة الامين العام للحزب الشيوعي السوري (خالد بكداش) امام المجلس الوطني العام للحزب المنعقد في تشرين الثاني عام ١٩٧١.
٣٤ — **المصدر نفسه** .
٣٥ — **المصدر نفسه** .
٣٦ — **المصدر نفسه** .
٣٧ — **المصدر نفسه** .
٣٨ — مداخلة بدر الطويل امام المجلس الوطني العام ١٩٧١ .
٣٩ — كلمة ظهير عبد الصمد (عضو المكتب السياسي) امام المجلس الوطني العام ١٩٧١.
٤٠ — **المصدر نفسه** .
٤١ — مداخلة بدر الطويل .
٤٢ — **المصدر نفسه** .
٤٣ — **المصدر نفسه** .
٤٤ — **المصدر نفسه** .
٤٥ — **المصدر نفسه** .
٤٦ — **المصدر نفسه** .
٤٧ — **المصدر نفسه** .

المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية

(ماتسبن)

ليلى سليم القاضي

من منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف.

٢٠٠ صفحة ٢ ل.ل.

تقـــرير :
اوضاع العمال العرب في الارض المحتلة بعد العام ١٩٦٧ واضطهادهم

عبدالله الصفدي

اعتمد هذا التقرير اعتمادا مباشرا على مذكرة وضعهـا الكاتب ، بتكليف من مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، وقدمها الاتحاد العام لعمال فلسطين الى مؤتمر العمل الدولي في جنيف .

يهدف هذا التقرير الى اعطاء صورة عامة واولية عن الاضطهاد المباشر الذي مارسته اسرائيل ضد العمال العرب ، ولاوضاعهم واستغلال الرأسمالية الاسرائيلية لهم في الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ . كما يحاول رصد أهداف السياسة الاسرائيليـة وتحديد الخطوط العريضة للاطار الذي تعمل ضمنه هذه السياسة في التعامل مع العمال العرب . واعتمادا على هذا الرصد يمكننا القول ان اسرائيل :

أ ـ قامت بتشغيل العمال العرب على نطاق واسع لهدف محض استغلالي ألا وهو الاستفادة من رخص قوة عملهم ، ب ـ عملت على تشغيل عمال المناطق المحتلة لانها وجدت في ذلك طريقة ملائمة تساعدها « على امتصاص النقمة والتوتر ضـد الاحتلال وبالتالي عزل حركة المقاومة عن مجموع السكان »، جـ ـ تعمل على تنمية شروط موضوعية لضم الاراضي المحتلة في المستقبل اذا ما سمحت لها الظروف ، فهي باستخدامها سكان المناطق المحتلة كعمال تحاول تفريغ القرى من الفلاحين وتربط اقتصاد هذه المناطق بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي ، د ـ تستغل اوضاع العمل العربي هـذا لدعم قدرة تحركها العسكري .

القمع الاسرائيلي ضد العمال

قام العمال العرب بعد وقوعهم تحت نير الاحتلال في عام ١٩٦٧ ، وكبقية ابناء الشعب الفلسطيني ، بمقاومة قوات الاحتلال الصهيونية . وقد قامت اسرائيل بقمع جميع حركات احتجاجهم السياسية وعمليات المقاومة ، كما قامت بايقاع « العقاب القاسي والسريع » بالمشاركين في تنظيمها أو بالذين قدموا المساعدة لمن قاموا بها ، بالاضافة الـى « معاقبة » حتى أولئك الذين لم يقوموا « بأعمال شغب». ولكن استضعافهم واضطهادهم لم يكن أمرا مستغربا . وقد استخدمت السلطات الاسرائيلية أساليب مختلفة في عمليات القمع هذه تراوحت بين الاعتقال والقتل مرورا بالتعذيب ونسف البيوت وشتى اشكال التفرقة . ونورد فيما يلي أمثلة عن بعض هذه الحوادث كما روتها وسائل الاعـلام الاسرائيلية ، مرفقة أيضا بجدول صغير بأسماء بعض النقابيين الذين اعتقلوا او أبعدوا الى الضفة الشرقية لاشتراكهم بمقاومة الاحتلال أو لانتمائهم لحركة المقاومة . فقد نشرت صحيفة دافار بتاريخ ١٩٦٩/٢/١١ نبأ طرد سبعة من الشبان العرب الذين « ساهموا بتنظيـم وادارة الاضطرابات الطلابية » الى الاردن عن طريق جسر « دامية » ، ومن بين هؤلاء ، سمير نايف ابو شرف ، البالغ من العمر ١٨ عاما ، ويعمل نجارا في نابلس . وقد اعتقل اثناء اشتراكه بالتظاهرة ، كما قذف بالحجارة سيارة تابعة لقوات الامن الاسرائيلية . ومن بين المبعدين كذلك ، محمد طالب محمود ، البالغ من العمر ٢٢ عاما ، ويعمل خياطا في نابلس . وقد اعتقل أيضا اثناء اشتراكه بالتظاهرة ، كما قذف بالحجارة سيارة عسكرية اسرائيلية . وفي تاريخ

١٩٦٩/٦/١٠ نشرت الصحيفة ذاتها انه صدرت أوامر بطرد تسعة من المحرضين العرب من الضفة الغربية لنهر الاردن ، موقعة باسم وزير الدفاع موشى دايان ، ومن بين هؤلاء المبعدين ، زكريا حمدان البالغ من العمر ٢٧ عاما ، ويشغل منصب سكرتير نقابة العمال في نابلس ، وقد اتهم بعدم تشغيل عمال من وراء « الخط الاخضر » .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٢ ، ذكرت صحيفة دافار أيضا، أنه صدر عن المحكمة العسكرية في نابلس الحكم بالسجن المؤبد ضد سائق سيارة من نابلس ، وذلك لنقله قاذف قنبلة ألقيت على مبنى الحاكم العسكري في المدينة في شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٨ .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/٧ ، قالت صحيفة دافار ، أنه تم في نابلس اعتقال نعمة الشربيني ، البالغة من العمر ٢١ عاما ، وهي شقيقة سكرتير رابطة العمال في قضاء نابلس الذي تم اعتقاله قبل اسبوعين من ذلك التاريخ بتهمة ايواء شابة تدعى سلوى (رشيدة عبيدو) والمتهمة بوضع مادة متفجرة في « السوبرسال » في القدس .

وبتاريخ ١٩٦٩/٤/٢٠ ، ذكرت صحيفة هآرتس ، بأن اثنين من سكان الضفة الغربية قتلا في نهاية الاسبوع باطلاق النار عليهما من قبل اشخاص مجهولين . « ويقول اهالي الضفة الغربية بأن القتل يعود لاسباب سياسية » . وأحد هذين القتيلين هو ابراهيم سعيد المصري ، البالغ من العمر ١٩ عاما ويعمل في مصنع نسيج ، وقد قتل اثناء ذهابه الى بيته .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/١ ذكرت صحيفة يديعوت احرنوت ، أنه في يوم ١٩٦٩/٤/٣٠ قتل شاب من نابلس رميا بالرصاص عندما لم يذعن لنداءات رجال حرس الحدود ودعوتهم اياه بالتوقف . وقد وقع الحادث في احد احياء نابلس القديمة في حوالي الساعة الثامنة والنصف ليلا ، والشاب هو أحمد قنزع ، ويعمل في قسم التنظيفات في بلدية نابلس، ويبلغ من العمر الثامنة والعشرين . وقد ادعت الصحيفة بأنه كان مخمورا حين قتل .

وبتاريخ ١٩٦٧/١٢/٣١ ، ذكرت صحيفة هآرتس ، (نقلا عن نشرة « اسراكا » ، عدد ابريل ١٩٦٩ ، ص ٩) ، انه حدث بعض الهرج ، استعملت فيه لغة الشتائم ، بين صفوف بعض الباحثين عن عمل من سكان رفح ومن بعض اللاجئين ، والذين كانوا يقفون امام مكتب العمل المحلي في رفح . وقد قام جنود الحراسة الاسرائيليين باطلاق النار عليهم مما أدى الى اصابة احد المجتمعين اصابة خطيرة فقد على اثرها الحياة .

وبتاريخ ١٩٧٠/١٢/٢ ، ذكرت صحيفة معاريف ، بأن قوات الامن الاسرائيلية قامت بنسف ثلاثة بيوت في غور الاردن « لقيام اصحابها بتقديم العون للفدائيين » . واصحاب هذه البيوت هم من العمال الزراعيين الذين يعملون في مزارع المدعو حسن الخطيب .

ونقدم على الصفحة التالية جدولا بأسماء بعض النقابيين الذين اعتقلوا أو أبعدوا الى الضفة الشرقية للاردن ، وكانت التهم الموجهة اليهم هي الاشتراك في مقاومة الاحتلال او التعاون مع الفدائيين .

استغلال العمال : على الرغم من وجود معارضة اسرائيلية في بادىء الامر ، وبعد الاحتلال مباشرة، بالسماح للعرب من سكان المناطق المحتلة بالعمل في اسرائيل « خشية تلويث العمل العبري » ، وكامتداد لسياسة « يهودية العمل » التي نفذتها الحركة الصهيونية أيام الانتداب البريطاني ، فقد انتصر الرأي الداعي لسياسة «الدمج الاقتصادي»، وسمح للعمال العرب من المناطق المحتلة العمل داخل اسرائيل منذ أواخر عام ١٩٦٨ بالنسبة لاهالي الضفة الغربية ، ومنذ نيسان ١٩٦٩ بالنسبة لاهالي غزة . واشترطت السلطات الاسرائيلية عند سماحها بذلك « سلسلة من الاجراءات ، من بينها أن يتم تشغيل العمال العرب بواسطة مكاتب العمل التابعة للهستدروت ووفقا لقوانين العمل المعمول بها في اسرائيل ، وهذا يعني ان تتساوى معاشاتهم مع معاشات العمال الاسرائيليين ، وأن يتم الدفع بواسطة مكتب العمل ، وأن يأتي العمال العرب الى أماكن عملهم ويعودون الى أماكن سكناهم برحلات منظمة »(١). وفي الظاهر ، تبدو هذه الاجراءات وكأنها تتسم بالانصاف ، ولكن عند تفحصنا لها على ضوء الواقع نرى أنها في الحقيقة عملية نهب منظمة للعمال العرب . فبالنسبة لاجور العمال العرب مقارنة بأجور العمال في اسرائيل ، نكتشف ان هناك مفارقة كبرى في هذا المجال على صعيدين ، الاول على صعيد مقارنة أجور العمال الاسرائيليين بأجور العمال العرب من المناطق المحتلة الذين يعملون في اسرائيل ، والثاني على

جدول باسماء بعض النقابيين من العمال الذين اعتقلوا أو أبعدوا من قبل السلطات الاسرائيلية

الاسم	العمر	المركز النقابي	العمل	تاريخ الاعتقال او الابعاد
محمود محمد شربيني	٣٢	امين سر نقابة عمال المطابع	عامل مطبعة	أيار ١٩٦٩
زكريا خليل حمدان	٢٨	امين سر فرع الاتحاد بنابلس	متفرغ للعمل النقابي	١٩٦٩/٦/٥
نعيم قبلاني	٢٢	عضو اداري لنقابة عمال الخياطة	خياط	١٩٦٩/٦/١
ميشيل سنداحه	٣٧	سكرتير نقابة شركة الكهرباء	محاسب	١٩٦٩/٦/١٠
يعقوب فراح	٢٢	سكرتير نقابة الخياطين	خيـــاط	١٩٦٩/٦/٣
محمد جاد الله	٤٥	سكرتير نقابة الفنادق عضو الهيئة الادارية لنقابة المصارف	عامل فنادق	١٩٦٩/٦/١٠
أحمد نبيل النمري	٢٣	بالقدس	مراقب بنك	١٩٦٩/٦/١
حسن دندليس	٢٤	عضو نقابة المطابع	عامل مطبعة	١٩٦٩/٦/١
عايش فايز نعمان	؟	عضو هيئة ادارية لنقابة صناعات الجلود	عامل أحذية	١٩٦٩/٧/١

صعيد مقارنة أجور العمال الذين يعملون في اسرائيل بأجور العمال العرب في المناطق المحتلة ذاتها. فلكي تحافظ السلطات على المبدأ الذي أقرته بشأن مساواة اجور العمال العرب من المناطق المحتلة الذين يعملون في اسرائيل بأجور الاسرائيليين، قامت بانشاء صندوق خاص ، « حيث تحول اليه الحسومات التي تخصم من العامل العربي والتي تشابه الحسومات التي تخصم من العامل الاسرائيلي (باستثناء ضريبة الدخل وضريبة التأمين الوطني) ، وذلك لانفاق هذه المبالغ على مشاريع الانعاش في المناطق المحتلة »(٢). ويبلغ مقدار هذه الحسومات حوالي ٤٠ ٪ من أجر العامل الاصلي، « تعود الى العامل الاسرائيلي في نهاية المطاف على شكل أيام عطل مدفوعة واجازات مرضية، وعلاوات للاولاد وتعويضات وتقاعد ، بينما لا يعود شيء من هذه الامور الى العامل العربي ، الذي يدفع له فقط عن يوم عمله . واكثر من ذلك تحسم من معاش العامل العربي اجور النقل الى مكان عمله . وهذا يعني ، حتى لو افترضنا صحة كلام تقرير السلطات الاسرائيلية بالنسبة للاجور ، ان أجر العامل العربي في واقع الامر أقل بكثير من أجر العامل الاسرائيلي، وليس مساويا له كما تدعي سلطات الاحتلال »(٣). ولكي تتضح الصورة بشكل أوضح ، نورد على سبيل المثال نسبة الحسومات على أجر العامل الزراعي العربي الذي يعمل في اسرائيل ، وذلك كما ورد في مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية(٤). تقول المذكرة : « ان اجر العامل العربي في الاراضي المحتلة ، الذي يستخدم في اسرائيل ، يخفض تخفيضا مريعا بواسطة اجراءات ادارية . فأجر العامل العربي والعامل الاسرائيلي هو ذاته اسميا ، غير ان العرب لا يتلقون اجورهم مباشرة بل من خلال الحاكم العسكري للمنطقة التي يعيشون فيها ، فيقوم هذا بحسم ما يربو على نصف الاجر ... فالاجر الاسمي للعامل الزراعي في اسرائيل هو ١٥،٧٥ ليرة اسرائيلية يحسم منها ٤،٠٥ ليرة اسرائيلية للضمان الاجتماعي والتأمين الصحي ، و٢،٢٠ ليرة للنقل ثم يحسم ٢،٢٠ ليرة اسرائيلية للتنظيم . بذلك يصبح الاجر الفعلي للعامل العربي ٧،٢٥ ليرة اسرائيلية فقط في اليوم الواحد ، وهو لا يتمتع بأي شكل بالتأمين الصحي والضمانات الاجتماعية».

وفيما يتعلق بأجر العامل العربي المستخدم في المناطق المحتلة ذاتها ، فهناك فارق كبير في اجره اذا ما قورن بأجر العامل الذي يعمل داخل اسرائيل ، بحيث يصل هذا الفارق الى حوالي النصف . فمتوسط أجر العامل الصافي في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ يتراوح بين ٦ الى ٧ ليرات يوميا ، بينما تتضارب الارقام بشأن متوسط أجر العامل من المناطق المحتلة الذي يعمل في اسرائيل. فقد ذكر وزير العمل الاسرائيلي في مقابلة أجرتها معه صحيفة دافار بتاريخ ١٩٧١/٦/١٨، ان متوسط أجر العامل العربي من المناطق يبلغ ١٦ ليرة

اسرائيلية يوميا ، قبل الحسومات على ما يبدو ، بينما تذكر معظم الدراسات والاحصاءات ان متوسط أجره الصافي يتراوح بين ١٠ — ١٢ ليرة اسرائيلية يوميا .

علاقات وأوضاع العمل : والى جانب هذا العمل المنظم عن طريق مكاتب العمل ، وهروبا من عملية النهب المنظمة هذه ، يوجد هناك أمام العامل العربي طريقان آخران للعمل في اسرائيل عن طريق العمل غير المنظم . الاول يتم بواسطة المتعهدين العرب ، حيث يتعرض العمال لنهب من معاشاتهم من قبل المتعهد ، والثاني يعتمد على المبادرة الفردية ، أي العمل دون الالتجاء الى مكتب العمل وبدون الحصول على تصاريح عمل ، مما يجعل هذه الفئة من العمال تعاني من وطأة الخوف من السلطات(٥).

يتعرض هؤلاء العمال الذين يعملون عن طريق العمل غير المنظم ، الى استغلال شديد ، حيث أنهم لا يعملون بشكل قانوني رازحين تحت طائلة العقاب. فبدلا من الذهاب الى مكاتب العمل ، يلجأ بعض العمال الى المتعهدين العرب الذين يؤمنون لهم العمل مقابل مبلغ معين ، بعد ان يتفق هؤلاء المتعهدون مع صاحب المشروع او المزارع الاسرائيلي ، او يقوم العمال بالاتفاق مباشرة مع الاسرائيلي صاحب العمل الذي يأتي اليهم في قراهم. ويتلقى هؤلاء العمال أجورا ضئيلة ، لانهم يدفعون حصة كبيرة منها قد تصل الى النصف الى المتعهد العربي الذي توسط لتشغيلهم . « كما انهم يبيتون تحت ظروف سيئة جدا ، ويستغلون أيضا من قبل الاشخاص الذين يؤمنون لهم المبيت ، وعندما يلقى القبض عليهم يتعرضون للجزاء »(٦). وتذكر صحيفة معاريف الاسرائيلية (١٩٧١/٧/٢١) في تحقيق عن هذه الفئة من العمال ، أن معظم هؤلاء العمال ، والذين يبلغ عددهم حسب تقدير المصادر الرسمية حوالي ٦ آلاف عامل ، هم من الصغار الذين لم يتجاوزوا سن الخامسة عشرة . وورد في التحقيق على لسان أحد المسؤولين عن مكافحة هذا النوع من العمل من قبل الدوائر الاسرائيلية ان هؤلاء الاولاد يشتغلون في المزارع الاسرائيلية من الصباح حتى المساء مقابل ٤ — ٥ ليرات اسرائيلية يوميا ، تدفع في معظم الاحيان لاولياء أمورهم عن طريق المتعهد ، وفي بعض الاحيان لا تدفع نقدا ، وانما بشكل حساب عند بقال القرية . وتصل احيانا أرباح المتعهدين او « الريسين » الذين يعمل هؤلاء العمال بواسطتهم ، من ٤٠٠ — ٥٠٠ ليرة اسرائيلية يوميا .

على الرغم من معرفة السلطات الاسرائيلية المسؤولة بهذه الاوضاع «اللاشرعية» الاستغلالية ، فانها لا تعمل على التصدي لها وايقافها بشكل جدي ، وانما تتغاضى عنها . فقد ذكرت صحيفة هآرتس بتاريخ ١٩٦٩/٥/١ ، بأن اسحق هوندك ، مساعد وزير العمل الاسرائيلي ، صرح بتاريخ ١٩٦٩/٤/٣٠ بأنه « بالامكان منع تشغيل العمال بصورة غير نظامية ، الا أن الامر مرتبط بمصاعب جمة ، وأنه يجب ان ينظر لهذا الامر نظرة ايجابية لا سلبية » . والنظرة الايجابية هي كما تراها السلطات الاسرائيلية وكما يتفق مع مصالح الرأسمالية الاسرائيلية . فنمو فئة من المستغلين العرب تحت الحماية الاسرائيلية سوف يربطهم بسلطة الاحتلال — مشكلين « ركائز اجتماعية » لهذا الاحتلال — ويكون ايضا عامل فرقة بين السكان . كذلك فان ابقاء هذه الحالة من « لاشرعية » العمل سيبقي هؤلاء العمال تحت رحمة الرأسمالية الاسرائيلية ، مسخرين دوما لخدمة أهداف الاقتصاد الاسرائيلي الذي يستفيد من رخص هذه الايدي العاملة ، مهددين بالابعاد في أي وقت يتعرض فيه الوضع الاقتصادي لاية هزات .

لقد أدى هذا الوضع (العمل بواسطة المتعهدين والعمل الفردي وتغاضي السلطات عن ذلك) الى خلق نوع من « أسواق العمل » — تشبه الى حد كبير « أسواق النخاسة » — في بعض الاماكن الهامة التي تحتاج للايدي العاملة بكثرة . ففي بعض هذه الاماكن خلق نوع من « أسواق العبيد العصرية » ، نذكر منها على سبيل المثال ، سوقا يقع في الرملة بالقرب من البلدية،وآخر يقع في حديقة في شارع « يافت » في يافا ، وثالث قرب «الساعة» في بتاح تكفا(٧). وفي هذه الاسواق يتجمع العمال بانتظار المتعهدين او اصحاب العمل ، الذين يأتون لاختيار عمال يقومون بأعمال تخصهم . ويصف تحقيق عن تلك الاسواق في ملحق هآرتس بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٦ ، ما يجري في سوق العمال في يافا بالاتي : « يفتح سوق العمل طيلة النهار ، وتعقد فيه الصفقات بشكل علني ، حيث يأتي متعهدون ، ومساعدو متعهدين ، ومواطنون عاديون يملكون بضاعة ويرغبون في نقلها او حديقة ويودون

الاعتناء بها ، ويختارون لهم عاملا ، حسب الشكل، وحسب العضلات ، وحسب السن ، ويشبه ذلك الى حد كبير اسواق النخاسة في كانو ، في القرن التاسع عشر » . وكثيرا ما يحدث بعد أن تتم عملية « الشراء » هذه ، تنافس بين المتعهدين « لخطف » العمال عن طريق الاغراءات ، فيترك العامل المتعهد الاول أمام اغراءات المتعهد الجديد(٨).

ظروف المعيشة السيئة : يعيش العمال العرب من الاراضي المحتلة الذين يعملون في اسرائيل ويبيتون هناك بالقرب من اماكن عملهم ، في ظروف سيئة للغاية . فنظرا لبعد أماكن عملهم عن أماكن سكناهم ، يضطر بعض العمال وخاصة العمال العرب من قطاع غزة ، الى المبيت في اسرائيل ، والعيش هناك لفترة معينة تحت اقسى الظروف . وتذكر مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية بتاريخ ١٩٧٠/٦/٨ ، بأن معظم المصانع في اسرائيل أنشأت معسكرات مغلقة يعيش فيها العمال الفلسطينيون من الاراضي المحتلة وخاصة من قطاع غزة ، رجالا ونساء في خيام وأكواخ لمدد طويلة .

ويذكر تحقيق نشرته صحيفة معاريف بتاريخ ١٩٧١/٧/٢١ ، بأن معظم العمال العرب من قطاع غزة يبيتون في شروط سيئة جدا ، اذ يتكدس بين الـ ٤٠ ـ ٥٠ منهم في حظائر الماشية و«البراكيات» القريبة من الرملة ، وينامون على الارض مقابل ليرة اسرائيلية لليلة الواحدة ـ بانتظار طلوع النهار للسفر الى أماكن عملهم . ولا يقومون بزيارة أهاليهم الا مرة واحدة أو مرتين كل شهرين . وتقول صحيفة هآرتس بتاريخ ١٩٦٩/٧/١١ أن هناك آلافا من العمال العرب من قطاع غزة ومن الضفة الغربية العاملين في اسرائيل في مناطق دان والساحل يعودون يوميا للنوم في قرى المثلث الاسرائيلي . ويشكو هؤلاء العمال من ظروف السكن الصعب جدا ، ويقول هؤلاء بأنهم يبيتون في بيوت قديمة وفي مخازن و« عرائش » في الخلاء بجانب زرائب البقر.

أهداف السياسة الاسرائيلية : اعتمدت اسرائيل في الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، سياسة ذات جانبين يرتبطان مباشرة بأوضاع العمل العربي : جانب اقتصادي وآخر سياسي ، يتلخصان بتسخير قوة العمل العربية لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي من ناحية ، وخلق ظروف سياسية مؤاتية لخدمة مصالح وأهداف اسرائيل الآنية والبعيدة من ناحية ثانية.

ففيما يتعلق بالجانب الاقتصادي ، فان رخص الايدي العاملة العربية شكل حافزا للرأسمالية الاسرائيلية لاستغلالها على أوسع نطاق ، ودفعها الى استخدام قوة العمل هذه والاستفادة منها في العديد من المجالات الاقتصادية . وفيما يتعلق بالجانب السياسي ، ترى اسرائيل في استخدام وتشغيل العمال العرب وسيلة مناسبة للقضاء على حركة المقاومة وعزلها عن الجماهير ، بالاضافة الى أنها باتباعها سياسة دمج اقتصاد المناطق المحتلة باقتصادها ـ اي بتحويلها للبنية الاقتصادية للاراضي المحتلة وربطها بعملية الاقتصاد الاسرائيلي ـ انما تقوم بذلك تمهيدا لضم هذه الاراضي رسميا اليها اذا ما سمحت الظروف بذلك ، أو لاخضاعها منذ الان لاهداف تنميتها الاقتصادية ومن ثم الهيمنة عليها في المستقبل ، هذا الى جانب ما يوفر لها استخدام العمال العرب من دعم لاقتصادها وبالتالي زيادة لقدرة تحركها العسكري .

ـ الجانب الاقتصادي : يصل عدد العمال العرب من الاراضي المحتلة الذين يعملون في اسرائيل الى ما يربو على ٤٠ ألف عامل(٩). ومن أجل استفادة أكبر من القوى العاملة العربية ، واستغلال هذه الايدي العاملة لصالح الاقتصاد الاسرائيلي ، قام بعض الاسرائيليين باستثمار عدد من المشاريع في المناطق المحتلة ، وافتتحت مراكز للتدريب المهني لتغطية حاجة هذه المصانع . فقد لجأ بعض أصحاب المشروعات الاسرائيلية الى تحويل جزء من استثماراتهم الى المناطق المحتلة نظرا لرخص الايدي العاملة ، وقاموا بالتعاقد مع صناعات ومشاريع محلية لانتاج منتوجات لحساب الاقتصاد الاسرائيلي . وقد بلغ عدد المشاريع العاملة لحساب مشروعات اسرائيلية في المناطق المحتلة في عام ١٩٧٠ ، ٦٥ مشروعا . وتذكر صحيفة معاريف بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٥ ، أن هذه المشاريع انتجت للصناعة الاسرائيلية عام ١٩٦٩ بما قيمته ٩٠٠ ألف ليرة اسرائيلية ، وارتفع هذا الرقم عام ١٩٧٠ ليصل الى ٢،٩ مليون ليرة . كما أن « حاجة أصحاب العمل الاسرائيليين الى أصحاب المهن » وحسب « متطلبات السوق » دفعت مكاتب العمل لاقامة مراكز للتدريب المهني لتخريج عمال يتمتعون بالمهارة الفنية ، متذرعة بالحاجة الى تحسين وضع السكان وتأمين مستقبل آلاف الشباب . وقد كشف تحقيق نشرته صحيفة دافار بتاريخ ١٩٧٢/١/١٩ ،

عن الهدف الاستغلالي لهذه المراكز ، اذ ورد فيه أنه تم عام ١٩٧١ تدريب أكثر من ١٣٠٠ شخص في مراكز التدريب بقطاع غزة في المجالات المتعددة لقطاع البناء (تبليط ، صنع قوالب خشبية ...الخ) الذي هو في حاجة ماسة لايد عاملة في اسرائيل ، « وحسب عدد المشتركين في الدورات المختلفة يمكن معرفة المهن المطلوبة في الاقتصاد الاسرائيلي » .

الى جانب هذا ، قامت اسرائيل بتنفيذ خطة لتفريغ مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ونقلت بين ١٠٠ — ١٥٠ ألف لاجيء الي أماكن أخرى في الضفة الغربية والعريش ، مستهدفة تسخيرهم لخدمة اقتصادها عن طريق استغلال رخص قوة عملهم ، وساعية في الاساس القضاء على حركة المقاومة وتحقيق غايات سياسية أخرى سنأتي على ذكرها . « فهؤلاء اللاجئون الذين سينقلون الى الضفة ، سوف يشكلون تجمعا حيويا من الطاقة البشرية ، وذلك للعمل بمشاريع انتاج في اسرائيل وفي بناء أماكن « سكنهم الجديدة » ، بما في ذلك مشاريع صناعية في ضواحي أماكن سكنهم . فبسبب بعد المسافة بين القطاع ووسط البلاد لا يوجد مجال لاستغلال تجمع الطاقة البشرية في القطاع (٢٣٠ ألف لاجيء) لتشغيلهم في الاقتصاد الاسرائيلي ، مقابل أجر ملائم ، وفقط وضع هذه الطاقة البشرية في أماكن قريبة من مراكز العمل في البلاد يمكن أن يكون حلا للقضية »(١٠).

عند تفحص هذه الاجراءات (الاستثمارات ، مراكز التدريب المهني ، نقل اللاجئين) ، يتضح أنها تترك آثارا تخريبية على اقتصاد الاراضي المحتلة كما أنها تلحق ضررا أكبر بهذا الاقتصاد في المستقبل . فالاقتصاد الاسرائيلي الان بحاجة لايد عاملة ، وذلك نتيجة للتوسع الكبير الذي شهده في سنوات ما بعد الحرب ، والذي نجم عن الانفاق الكبير على الاغراض العسكرية بما في ذلك توسيع الصناعات الحربية ، وعن الانفاق على عمليات البناء لاستيعاب المهاجرين الجدد الذين تدفقوا الى اسرائيل بعد الحرب(١١). وقد أدى هذا الانفاق ، الى نقص في الايدي العاملة ، مما دفع الى الاستعانة بأيد عاملة عربية من المناطق المحتلة . وأصبح تشغيل العمال العرب في اسرائيل يتم الان بعد تدريبهم في مجالات تناسب « حاجة السوق » ليكونوا مؤهلين « فنيا » ، ويحصلون اسميا على نفس أجر العامل الاسرائيلي (بينما يحصلون على معاشات أقل بعد الحسومات ، كما بينا سابقا) ، وفي الوقت نفسه فان القطاع العربي لا يستطيع المنافسة في الاجر فيؤدي ذلك الى « تدفق » العمال للعمل في اسرائيل مما يلحق ضررا باقتصاد المناطق المحتلة ويعرقل نموه ، ويؤدي الى استفادة الاقتصاد الاسرائيلي على حسابه . ان النتيجة المترتبة على ذلك هي قيام مجتمع اسرائيلي متطور ، يعتمد على قوة عمل عربية رخيصة ، والى جانبه قطاع اقتصادي عربي متخلف . وهنا يبرز سؤال اجتماعي — سياسي يتعلق بمستقبل هؤلاء العمال ، حيث الجانب الاكثر خطورة في عمل اسرائيل هذا . والسؤال هو : ماذا سيحدث لهؤلاء العمال اذا نتج انخفاض في النشاط الاقتصادي الاسرائيلي ، خاصة بعد ربطهم بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي واستغلال الرأسمالية الاسرائيلية لهم لصالح هذا الاقتصاد ؟ والجواب على ذلك هو « ان عشرات الآلاف من العمال سيعودون الى أماكن سكناهم»(١٢) ليواجهوا بوضع اقتصادي متدهور . والتقارير الواردة من الاراضي المحتلة تشير الى أن الفرعين الاساسيين اللذين لحق بهما أكبر ضرر حتى الان من جراء العمل العربي في اسرائيل ، هما الزراعة والبناء .

الجانب السياسي : ان حاجة العمال العرب الى العمل لتأمين الحد الادنى لمعيشتهم ، جعل اسرائيل تستعمل الاغراءات المادية وتستغل أوضاعهم الفقيرة ، عن طريق تشغيلهم في مجالات اقتصادية معينة وزيادة أجورهم مقارنة بالسابق « ورفع مستوى معيشتهم » ، لتستطيع تحقيق الاهداف السياسية المتعددة التي تتوخاها من وراء ذلك . ونضع فيما يلي بعض المعلومات والاحصاءات المتوفرة والمتصلة بهذا الموضوع مع الاشارة الى بعض التحليلات والتصريحات الاسرائيلية التي تبين أهداف هذه السياسة .

انخفضت نسبة البطالة في العام السابق (١٩٧١) في الضفة الغربية المحتلة الى أقل من ٣ ٪ ، وفي قطاع غزة الى أقل من ٥ ٪ ، بينما كانت قد وصلت هذه النسبة عام ١٩٦٨ الى حوالي ١٧ ٪(١٣). « وقد ارتفع مستوى المعيشة في المناطق المحتلة خلال عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ بنسبة ١٥ ٪ سنويا ... كما زاد أجر العمال خلال عام ١٩٧٠ بنسبة ١٨ ٪ في الضفة الغربية المحتلة وبنسبة ١٦ ٪ في قطاع غزة . وقد كان معدل الكسب

اليومي خلال عام ١٩٧٠ ، ٧٠٩ ليرة اسرائيلية ، بينما تقل هذه الارقام بنسبة ٧٠ ٪ لعمال الضفة الغربية و١١٠ ٪ لعمال قطاع غزة »(١٤).

وفيما يتعلق بتوزيع قطاعات العمل ، يقوم العمال العرب بالاعمال التي تحتاج الى جهود شاقة مثل أعمال البناء ، التي أضحت تعتمد أساسا على العمال العرب ، كما يستخدمون في المشاريع الفرعية في مجال الصناعة ، ولا يسمح لهم بالعمل في المشاريع الصناعية الكبرى او الاساسية لاعتبارات اقتصادية وأمنية(١٥). ففرع البناء يستوعب اكبر نسبة من هؤلاء العاملين ، يليه قطاع الصناعة ، فالزراعة ومن ثم المجالات الاخرى . وعلى سبيل المثال ، واستنادا الى تقرير وزارة العمل ، كان يعمل في اسرائيل في أيلول ١٩٧١ ، ٣٤٧٤٠ عاملا عربيا من المناطق المحتلة ، حوالي ٦٠ ٪ منهم يعملون في مشاريع البناء ، و٤٣٠٠ في الزراعة ، و٧٦٠٠ في الصناعة ، و٢٥٠٠ في مجال الخدمات(١٦).

يبدو ظاهريا أن هدف هذه السياسة الاسرائيلية هو تنمية اقتصادية اجتماعية وعامة في المناطق المحتلة ، لكن في الحقيقة « كان هدف هذا النشاط لرفع مستوى الحياة ومستوى الخدمات ، ولخلق ظروف مريحة والتوصل بالسكان الى وضع ، حيث يرفضون بأنفسهم نشاط المخربين ويضعون حدا في الوقت ذاته لجو التخريب والارهاب ، التي تحاول المنظمات المعادية فرضه »(١٧). وقد كان المسؤولون الاسرائيليون يربطون دائما بين انخفاض العمليات الفدائية وعدد القتلى في الاراضي المحتلة من جهة ، وبين تحسين الاوضاع « والركض وراء النقود » من جهة ثانية . « فعدم وجود البطالة قد قضى على مصدر خطير للتوتر »(١٨)، والانخفاض الذي طرأ على عدد القتلى سنة ١٩٧٠ ، حسب « ما تقوله المصادر الامنية (الاسرائيلية) الموثوقة ، لم يحدث بطريقة الصدفة ، وانما يعود سبب ذلك الى توفر الاشغال ، حيث تأكد من جديد الفرضية القائلة ، أنه اذا ما توفر لعرب « المناطق » الاكل ، فانهم لا يعملون في الامور التخريبية وأعمال التجسس . واذا ما منحوا الفرص لتحسين أوضاعهم أو مستوى معيشتهم ، فانهم لن يسرعوا في التعاون مع الجهات المتطرفة سواء كان في الضفة الغربية أو خارجها »(١٩).

الى جانب هذا ، هناك ظاهرة سياسية خطيرة نتيجة السماح للعرب بالعمل في اسرائيل ، تتصل باهمال الفلاحين العرب لاراضيهم من أجل العمل في مشاريع اسرائيلية . ان الظاهرة الخطيرة في هذا الموضوع هي ترك هؤلاء المزارعين لاراضيهم واقتلاعهم منها وتفريغ القرى من سكانها للعمل كعمال زراعيين أو غير زراعيين في مناطق اخرى ، بالاضافة الى ما ستلحقه التقلبات الاقتصادية في المستقبل من انهيار في القطاع الزراعي في المناطق المحتلة ، الذي هو عصب اقتصادها . ان لعملية التفريغ هذه مغزى وانعكاسا سياسيا في المستقبل، حيث أن ترك هؤلاء الفلاحين لقراهم سيؤدي الى التقليل من ارتباطهم بأراضيهم وتمسكهم بها ، وهذا ما يسهل على اسرائيل الاستيلاء على القرى التي تشكل أهمية بالنسبة اليها وزرع مستوطنات صهيونية جديدة مكانها . وتأتي المشاريع الاسرائيلية المختلفة المتعلقة بمستقبل الاراضي العربية المحتلة، وعلى رأسها مشروع ايغال آلون ، لتكشف وتكمل خطة اسرائيل . فقد أخذت اسرائيل منذ أن أقرت الشروع في تنفيذ الجزء العملي من مشروع آلون في شباط ١٩٦٩ ، تتمركز في الاراضي المحتلة بشكل يمكنها مع مرور الوقت من ضمها اليها . وقد استولت على أراض واسعة في غور الاردن وأقامت مستعمرات في مرتفعات الجولان السورية ، وقامت بتفريغ مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ونقلتهم الى أماكن أخرى في العريش والضفة الغربية ، متوخية بالاضافة الى الاهداف الاخرى التي ذكرناها سابقا، « ترتيب الاوضاع » منذ الان لضمها في المستقبل. كما تعمل اسرائيل الآن على انشاء مدينتين مجاورتين لمدينتي أريحا والخليل ، لتكميل مشروع آلون هذا. ان هذه الصورة « لخارطة اسرائيل الجديدة » ، برهان واضح لخطتها في توسيع حدودها . ولكن حيث انه « وفقا للمعطيات الراهنة ، ليس في امكان اسرائيل عمليا تكوين وتعزيز أكثرية ديمغرافية يهودية في الضفة الغربية »(٢٠)، فان حزام الامن هذا الذي تقيمه اسرائيل الآن ، هو تمهيد لخطوة الضم في المستقبل ، عندما يصبح لديها العدد الكافي من السكان بعد جلبها لمستوطنين جدد من الخارج. ولكي تكتمل الصورة بشكل أوضح يجب ربط ذلك بعملية تفريغ القرى التي تحدثنا عنها ، عن طريق تشغيل سكانها خارج قراهم ، وبعملية تحويل البنية الاقتصادية للاراضي المحتلة وربطها بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي . فالخطتان تسيران في اتجاهين متوازيين تكمل احداهما الاخرى .

قبل الختام لا بد من الاشارة الى نقطة هامة ترتبط بقدرة التحرك العسكري الاسرائيلي Military Mobilization وعلاقة ذلك باستغلال العمل العربي وتسخيره لخدمة التحرك العسكري هذا . فاسرائيل تقوم أيام الحرب بتعبئة جيش « من حوالي ٣٠٠ ألف مقاتل » أي نحو ٣٠ ٪ من قوة العمل فيها »(٢١). ويأتي ربط العمال العرب بالاقتصاد الاسرائيلي ليخدم اسرائيل وقت الحرب ، بحيث يتيح للاداة العسكرية الاسرائيلية الضاربة قدرة أكثر على التحرك والضرب ، ولكي يخفف من أزمة النقص في اليد العاملة بسبب الخدمة العسكرية في الاوقات الاخرى ، كما يقدم خدمة جلى في مجال البناء لاستيعاب أعداد أكثر من المستوطنين الجدد الذين سيساهمون في دعم القوة العسكرية ايضا .

فالعمال العرب سيقومون بالعمل في شتى المجالات الاقتصادية — عدا المشاريع الصناعية الكبيرة او الاساسية — ليحلوا محل العمال اليهود الذين سيذهبون للخدمة العسكرية او للحرب ، فيقومون بتعويض جزء من نسبة قوة العمل التي ستخرج من نطاق الانتاج خلال فترة الحرب ، ويقللون من تأثير ترك هؤلاء العمال للمصانع على الانتاج . بمعنى آخر ، ان ذلك سيزيد من قدرة التحرك العسكري الاسرائيلي ، كما يمكن اسرائيل من المحافظة على تفوقها العسكري . وهكذا فان العامل العربي في اسرائيل لا يستغل من الرأسمالية الاسرائيلية فحسب ، بل أن نتاج عمله يستخدم لدعم قوة غاصبة حتى تستمر في استعباده واستغلاله .

---

١ — عبد الحفيظ محارب ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٧ ، ص ٢٦٤ .

٢ — وزارة الدفاع الاسرائيلية ، **ثلاث سنوات من الحكم العسكري ، ١٩٦٧ — ١٩٧٠** ، ١٩٧٠ ، ص ١٥ .

٣ — أحمد خليفة ، **مذكرة مقدمة الى المؤتمر الرابع لاتحاد عمال فلسطين** ، مركز الابحاث الفلسطينية .

٤ — مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية — تل أبيب والمنشورة في **شؤون فلسطينية** ، عدد ١ ، ص ٢٢٧ ، مقدمة الى الامم المتحدة وعصبة حقوق الانسان ، ٦/٨/ ١٩٧٠ .

٥ — عبد الحفيظ محارب ، **المصدر السابق** .

٦ — احمد خليفة ، **المصدر السابق** .

٧ — عبدالحفيظ محارب ، **المصدر السابق** .

٨ — **المصدر السابق** .

٩ — **صوت اسرائيل** ، ١٩٧٢/٤/٣ ، الساعة ٢٣،٠٠ (من تصريح لوزير العمل الاسرائيلي).

١٠ — **معاريف** ١٩٧١/٤/١ .

١١ — أحمد خليفة ، **المصدر السابق** .

١٢ — **دافار** ١٩٧١/٩/٢ .

١٣ — *The Israel Economist*, June, 1971.

١٤ — **نفس المصدر** .

١٥ — أحمد خليفة ، **المصدر السابق** .

١٦ — *The Israel Economist*, Oct. 1971.

١٧ — **دافار** ، ١٩٧٢/١/١٠ .

١٨ — **جويش ابزرفر** ، ١٩٧١/١٢/٣ .

١٩ — **معاريف** ١٩٧١/١/١٣ .

٢٠ — أحمد خليفة ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٩ ، ص ٢٦٣ .

٢١ — **يوسف صايغ** ، « استنزاف » اسرائيل نتيجة الصراع العسكري ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٤ ، ص ٦١ .

الصهيونية في خمسة وسبعين عاما

ندوة

ادارها وحررها

الدكتور صادق جلال العظم

في مثل هذا الوقت قبل ثلاثة ارباع القـرن (اي في اغسطس ١٨٩٧) عقد المؤتمر الصهيوني الاول ، في مدينة بازل السويسرية ، الذي جسد الدعوة الصهيونية ، وكانت حتى ذلك الحين مجرد كتابات متناثرة وافكار متقطعة ، في مؤسسة رسمية ، تعمل على الاصعدة السياسية والدبلوماسية والمالية والثقافية والاجتماعية وحتى العسكرية ، وفي حركة منظمة لها اهدافها المحددة ، المرحلية والبعيدة ، ولها اساليبها ووسائلها ومشاريعها ولجانها ورجالها . ففي ذلك المؤتمر ، وحسبما اعترف هرتزل صاحب فكرة المؤتمر وزعيمه ، وضع الاساس العملي لدولة اسرائيل .

وقد دعت « شؤون فلسطينية » احد عشر مفكرا عربيا للنظر في الصهيونية كما تبدو لهم الان بعد مسيرتها الفتاكة ثلاثة ارباع القرن ، في ندوة امتدت ثماني ساعات ، تناولوا الموضوع خلالها من زوايا مختلفة باختلاف تخصصاتهم ومعتقداتهم . ويسر شؤون فلسطينية ان تنشر الندوة بنصها الكامل .

المشتركون في الندوة :

الدكتور ابراهيم ابو لغد : استاذ العلوم السياسية في جامعة نورث وسترن (الولايات المتحدة) .

الاستاذ البير فرحات : عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي اللبناني ومن مفكري الحزب .

الاستاذ الياس سعد : من باحثي قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث .

الدكتور الياس شوفاني : استاذ التاريخ في جامعة ماريلاند (الولايات المتحدة) .

الاستاذ الياس مرقص : المؤلف والمفكر السوري .

الاستاذ جبران مجدلاني : الكاتب والمفكر اللبناني .

الدكتور صادق جلال العظم : مستشار قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث .

الدكتور فايز صايغ : مستشار وفد الكويت في الامم المتحدة ومؤسس مركز الابحاث .

الاستاذ فؤاد قازان : عضو الحزب الشيوعي اللبناني ومؤرخ معروف .

الدكتور هشام شرابي : استاذ التاريخ في جامعة جورج تاون (الولايات المتحدة) .

الدكتور وليد خدوري : مدير الابحاث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

صادق جلال العظم : باسم مركز الابحاث و« شؤون فلسطينية » ارحب بكم جميعا في هذه الندوة . هدفنا هو الدخول في مناقشة حول الحركة الصهيونية بمناسبة مرور ٧٥ سنة على انطلاقها بصورة رسمية . أما الموضوعات التي سنتناولها فيمكن تلخيصها بما يلي : ١) المسألة اليهودية باعتبارها الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية ، ٢) طبيعة الحركة الصهيونية في مناخها الاوروبي وارتباطاتها الدولية ، ٣) التأثيرات التي انتجها نجاح الحركة وقيام اسرائيل محليا وعالميا . وسيقدم كل من الدكتور فايز صايغ والاستاذ الياس سعد والاستاذ وليد خدوري وجهة نظر عامة تتناول جانبا من جوانب الموضوع لتشكل كلها الاساس الذي سينطلق منه النقاش ويدور حوله . وبما أنني انوي المشاركة في النقاش ايضا، ضمن حدود مسؤولياتي في ادارة الندوة طبعا ، سأبدأ بادلاء رأي مختصر حول المسألة اليهودية باعتبارها قضية هامة من القضايا المرتبطة عضويا بالحركة الصهيونية .

من المعروف ان الحركة الصهيونية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمسألة اليهودية في اوروبا الحديثة وطرحت نفسها على أنها الحل الحقيقي والعصري لهذه المسألة . هنا اريد ان اطرح موضوعة معينة حول ما اعتقد بأنه الاساس التاريخي المادي للمسألة اليهودية لان التفسيرات الشائعة والمتداولة قد شددت دوما على قضايا مثل العنصرية والشوفينية بأنواعها ، العداء الديني التاريخي ، السيطرة المالية اليهودية ، الى غير ذلك من التفسيرات المعروفة . الا ان الامر الذي اريد التشديد عليه هو أن كل هذه الظواهر هي في الواقع اعراض تبحث عن تفسير تاريخي ومادي أعمق لها وليست أسبابا اولية يمكن ان تفسر لنا الواقع التاريخي الكامن خلف بروز المسألة اليهودية . ومن اجل ايضاح ما أعنيه والتمثيل عليه لن الجأ ، في هذه المناسبة ، الى التحليلات المجردة بل الى عمل أدبي مشهور جدا اعتقد أنه التقط، بصورة واقعية وملموسة وتصويرية ، الواقعة الجوهرية الكامنة خلف تجليات المسألة اليهودية واعراضها وذلك طبعا على طريقة الشاعر والاديب في اقتناص حقيقة تاريخية والتعبير عنها بصدق ودقة بحيث تغنينا عن التحليلات المعقدة والمطولة . واعني بذلك مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » . اذا دققنا في حقيقة الصراع القائم داخل المسرحية بين انطونيو التاجر المسيحي الثري الواسع النفوذ وبين المرابي اليهودي شايلوك اعتقد اننا سنفهم شيئا مهما جدا حول أصول المسألة اليهودية وجذورها . يوضح شكسبير بكل بساطة وقوة ان الصراع بين هاتين الشخصيتين الرمزيتين ليس في حقيقته صراعا دينيا او عنصريا او ما شابه ذلك مما هو شائع . هذا واضح من قول شايلوك في مقطع شهير من المسرحية :

« أليس لليهودي عينان ؟ أليس لليهودي يدان واعضاء وجسم وحواس ومودات وشهوات ؟ اليس غذاؤه مما يتغذى به النصراني ؟ اليست الالة التي تجرح احدهما تجرح الاخر ؟ اليس العلاج الذي يشفي ذاك يشفي هذا ؟ اليس الشتاء والصيف واحدا لكليهما ؟ ألسنا اذا وخزتمونا ننزف دما ، واذا دغدغتمونا نضحك ، واذا سقيتمونا السم نموت ، واذا آذيتمونا ننتقم ؟ فنحن نشبهكم بهذا كما نشبهكم بكل ما سواه . أما جزاء اليهودي الذي يضر بمسيحي ان يثار منه ؟ اذن فلليهودي وقد اقتسى باسوة النصارى ان يثار منهم ان اضروا به . ساعاملكم بمثل الشدة التي تعاملونني بها او أزيد . »

انطونيو تاجر كبير في جمهورية البندقية التي تسيطر على حياتها البورجوازية التجارية الصاعدة في عصر توسع التبادل التجاري والرحلات الى العالم الجديد. انطونيو يعرف هذه الحقيقة كل المعرفة وهو مستعد للتضحية بنفسه من أجل استمرارها ومن اجل حماية المصالح التجارية التي يمثلها . لذلك نجده يحث الدوق للاسراع باصدار الحكم باقتطاع كمية من لحمه لان عدم تنفيذ العقد بينه وبين شايلوك يشكل ، على حد قول انطونيو ، « خطرا على مدينة كالبندقية قوام ثروتها تجارتها مع الامم الاخرى » . اجواء انطونيو هي اجواء أية قوة اجتماعية صاعدة تنظر بثقة وانفتاح وتفاؤل الى مستقبلها ، مطمئنة ، على المدى الابعد ، الى مصير اندفاعها ونتائجه . تصارع اعداءها وهي واثقة من أنها ستدمرهم في النهاية . لقد أرسل انطونيو سفنه المحملة بالبضائع الى جهات الارض الاربع في مغامرة محسوبة او كما يقول « ان ثروتي جميعها تحت رحمة المحيط » ، وهو على قدر من التفاؤل والاطمئنان والثقة بالنفس يسمح له باقتراض المال من شايلوك — على اساس عقد

غريب — من أجل مساعدة صديقه الذي يريد التودد من بورشيا الغانية الثرية ووارثة الجاه الكبير .

من ناحية اخرى شايلوك مراب من مخلفات العصور الوسطى كان يمثل في يوم من الايام عنصرا هاما يعيش في مسامات مجتمع الاقطاع والاقتصاد الطبيعي (على حد وصف ماركس) بسبب تخصصه في التعامل بالرأسمال السائل . ولكنه تحول في الوقت الحاضر الى عقبة في وجه البورجوازية التجارية الجديدة التي تعمل بحكم مسارها الطبيعي على تدميره واستئصاله لصالح أساليبها الجديدة في انتاج الثروة وتعمل للحلول محله بحيث يتم اخضاع الرأسمال الربوي الى مصالح الرأسمال التجاري الجديد . اي ما يسميه ماركس في المجلد الثالث من «رأس المال» «بمطلب اخضاع الرأسمال الربوي ووسائل الانتاج القابلة للتسليف عامة الى نمط الانتاج الرأسمالي »(١). ولا تتم مثل هذه العملية بطبيعة الحال ، الا عبر صراع اجتماعي واقتصادي مرير تنتصر فيه فئات وتذهب ضحيته فئات اخرى ومن هنا مأساة شايلوك ودماره في نهاية المسرحية. ومن هنا بروز المسألة اليهودية . يقول ماركس في وصفه لهذه الظاهرة في المجلد الثالث من « رأس المال » ما يلي : « لقد نشأت مؤسسات التسليف في القرنين الثاني عشر والرابع عشر في البندقية وجنوا من حاجة التجارة البحرية وتجارة الجملة المرتبطة بها الى تحرير انفسهما من سيطرة الربا المتخلف ومن احتكار السوق المالي ... وينبغي الا ننسى ان التجار الذين أنشأوا هذه المؤسسات كانوا مواطنين بارزين في هذه الدول وكانوا مهتمين بتحرير حكوماتهم بقدر اهتمامهم بتحرير أنفسهم من مطالب المرابين بالاضافة الى ممارسة سيطرة أشد واضمن على الدولة »(٢).

لذلك نجد أن اجواء شايلوك تتسم بالانقباض والضيق والتدهور ، بالشك والخبث والتكتم ، وبالتمسك بما هو كائن في محاولة من قبل من يدافع عن نفسه ووجوده واستمراره من موقع الضعيف والخاسر والمضطر لذلك الى اللجوء الى الحيلة والخبث والاساليب الملتوية في مواجهة القوى العاتية التي يستشعر أنها ستجرفه . ان طبيعة الصراع بين القوى الاقتصادية والاجتماعية التي يمثلها انطونيو (الرأسمالية الناهية) من ناحية والتي يمثلها شايلوك (الرأسمال الربوي الذي احتكره اليهود لفترة طويلة) من ناحية اخرى واضحة في مسرحية شكسبير وهي كامنة خلف كل مظاهر الكراهية والاحتقار والرغبة في الانتقام التي تطبع العلاقة بين الشخصيتين في المسرحية .

يفسر شايلوك بغضبه لغريمه بقوله ان انطونيو « جاهل أبله ، يقرض المال بلا ربح ، ويسقط قيمة النقد في البندقية . لئن اخذت بتلابيبه يوما لقد شفيت حزازاتي القديمة منه . هو يبغض امتنا المقدسة ويسخر — حتى في المصفق الذي يجتمع فيه التجار عادة — مني ومن معاملاتي ومن ارباحي المحللة التي ينعتها بالربوية . لعنت عشيرتي ان كنت غافرا له هذه الذنوب . »

في الواقع لقد طلب انطونيو القرض لاسباب تافهة لا تدل في الواقع الا على تدني نوعية المناسبة التي يضطر فيها مثل هذا التاجر الصاعد لخدمات خصمه المحتقر والمنبوذ في الاوساط المالية الجديدة، كما يدل قبول انطونيو رهن قطعة من لحمه مقابل المال على حقيقة نظرة طبقته الى خصمه وما يمثله من مصالح سائرة في طريق الاندثار ، بالاضافة الى ثقته اللامحدودة بانتصار تجارته وارباحه في المستقبل .

عندما طلب انطونيو المبلغ من شايلوك أكد شكسبير مرة اخرى طبيعة الصراع بينهما وحقيقته بقوله على لسان المرابي مخاطبا التاجر : « يا سنيور انطونيو طالما صادفتني في مصفق الريالتو فسخرت من اعمالي المالية ومن مراباتي ، فلم اقابل ذلك الا برفع الكتفين ، وجميل الصبر لان الالم هو احدى الافات التي خصت بها امتنا . وطالما نعتني بالكافر، أو الكلب الكلب (بفتح الكاف وكسر اللام) ، وبصقت على عباءتي التي يعرف منها النساس يهوديتي ، كأنك تعيبني لاستعمالي ما هو ملكي . أما الان فيظهر انك في حاجة الي : « شايلوك نريد منك نقودا » من يقول لي هذا ؟ انت يا من ينفث في لحيتي لعابه ، ويطردني من حضرته ركلا ، كما يطرد الكلب الغريب من عتبة البيت . تطلب مني مالا ! فيم ينبغي ان اجيب ؟ أيحرز الكلب نقودا ؟ أيعقل ان كلبا يقرض ثلاثة الاف دوقي ؟ ام يتعين علي ان أخر الى الذقن ، وان ارد عليك بصوت خافت ، وقلب خاشع « يا مولاي الجميل ! يوم الاربعاء المنصرم بصقت

١ — الطبعة الانكليزية ، دار التقدم ، موسكو، ص ٥٩١ .
٢ — المرجع السابق ، ص ٥٨٨ .

في وجهي ، ويوما قبله طردتني ضربا برجليك ، ويوما قبله دعوتني بكلب ، فقياما مني بحق تلك المكارم كلها سأقرضك نقودا » ؟!.

وقد أشار ماركس بدقة الى هذا الصراع الشرس بين الرأسمالية الناهضة والرأسمال الربوي الموروث من العصور السابقة في المجلد الثالث من « رأس المال » بقوله : « ان هذه المعركة العنيفة ضد الربا ، وهذا الاصرار على اخضاع الرأسمال الربوي للرأسمال الصناعي، هو النذير بالمؤسسات العضوية التي تضع شروط الانتاج الرأسمالي في النظام المصرفي الحديث . ان هذا النظام ينزع من الرأسمال الربوي احتكاره عن طريق تركيز كل الإحتياط المالي العاطل وقذفه في السوق المالية من جهة ، وتحديد احتكار المعدن الثمين نفسه بواسطة خلق التسليفات المصرفية من جهة اخرى »(٣).

ان نتيجة المعركة العنيفة التي أشار اليها ماركس معروفة جيدا ورمزت لها مسرحية شكسبير بالدمار التام تقريبا الذي لحق بشايلوك ليس بخسارته ثروته ووظيفته الاجتماعية كمراب فقط بل ايضا بفقدانه ابنته التي فرت مع حبيبها المسيحي لورنزو .

بديهي أن مسرحية شكسبير لا يمكن ان تكون مصدرا للتأريخ لبروز المسألة اليهودية في العصور الحديثة وفي حقبة صعود الرأسمالية ، الا ان التجاهل السائد للوقائع التاريخية والصراعات الاجتماعية التي صورها شكسبير في « تاجر البندقية » على طريقته يعني أن فهمنا للمسألة اليهودية سيبقى **مثاليا طوباويا ومشوها** ، مما يعني بالتالي انه سيتعذر علينا ايضا فهم بعض النواحي الهامة ، على أقل تعديل ، من الحركة الصهيونية فهما علميا دقيقا يمكن أن يرتكز عليه النضال الثوري ضدها .

فايز صايغ : سوف أبحث في كلمتي ، بصورة عامة وقد تكون مبسطة ، في اوجه الصلة ومواطن الشبه والاختلاف بين الحركة الصهيونية من جهة وبين بعض المفاهيم والمبادىء التي كانت تعصف في مكان قيام الصهيونية وزمانه (اي في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر) من جهة اخرى . اي اوجه الصلة — شبها واختلافا — بين الحركة الصهيونية، كحل قيل أنه الحل الوحيد « للمسألة اليهودية »، وبين حركات اوروبية عاصرت قيامها ، واهمها الحركة القومية وحركة الاستعمار الاستيطاني والحركة الامبريالية .

وعلينا ، بادىء ذي بدء ، ان نشير الى الصلة القائمة بين الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية، كقاعدة لفهم الصلة القائمة بين الصهيونية والمفاهيم والحركات الاوروبية التي قامت الصهيونية ضمن اطارها والتي اقتربت منها واختلفت عنها في الوقت عينه . تميزت المسألة اليهودية اواخر القرن ١٩ بعودتها الى الظهور من جديد بعد أن كانت قد غابت عن الساحة بشكل عام منذ مطلع ذلك القرن ، اذ بعد قيام حركات التحرر والعلمنة كان هناك اتجاه نحو تغطية المسألة اليهودية وعدم ظهورها الى ان جاء الربع الاخير من القرن فبرزت هذه المسألة من جديد وبحلة جديدة . ووجد بعض اليهود أجوبة مختلفة لها لانها طرحت نفسها عليهم من جديد وبعنف جديد . فوجد بعضهم حلا لها في **الاندماج والذوبان** ، أي في المزيد من القضاء على ما يميز اليهودي عن غيره في المجتمع الذي يعيش فيه . وقال هذا النفر انه فقط بالاندماج والذوبان يمكن للمسألة اليهودية ان تزول نهائيا . وذهب اخرون الى حل سموه حل **النزوح** . أي : عندما تنتفض الاوساط التي يقيم اليهود بينها ضدهم ، وتنشأ لاسامية جديدة في مجتمع ما ، فما على يهود ذلك المجتمع الا ان ينزحوا الى مجتمع اخر لا يكون فيه للاسامية مكان . وذهب نفر آخر الى **التمرد** ، فكانوا يعتقدون أنه بمجاراة الحركات الثورية بل والفوضوية القائمة في ذلك الوقت في اوروبا ومساندتها يمكن لليهود ان يضعوا ثقلهم مع تلك الحركات الرامية الى تحطيم المجتمع وكافة تركيباته ، حتى يقضوا على ذلك المجتمع الذي تقوم ضمن اطاره اللاسامية . جاءت الصهيونية رفضا لهذه الحلول الثلاثة كلها . وكانت رفضا يقوم على الاعتقاد بأن اللاسامية ليست امرا عارضا وليست امرا زائلا يمكن ان يتصور الانسان زواله بشكل نهائي ، بل على أنها عنصر ثابت لا يمكن أن يختفي الا باختفاء أسبابه . وأسبابه ، في تقييم الصهيونية للمسألة اليهودية ، هي كون اليهودي وحده يحيا حياة غير طبيعية في حمى مجتمعات لها حياة طبيعية . واذن فلا حل نهائي للمسألة اليهودية الا قيام دولة خاصة باليهود .

---

٣ — المرجع السابق ، ص. ٥٩٠ .

(ونستطرد هذا لنشير الى ان هدف الحركة الصهيونية لم يكن خلق دولة يهودية بل اقامة دولة لليهود . وهذا التمييز كان يؤكد عليه هرتزل دائما . فالمقصود ليس بناء دولة يهودية الطابع وانما هو بناء دولة اهلها يهود ، مواطنوها يهود). بعبارة اخرى ، عن طريق انشاء دولة اليهود ، وبهذه الطريقة فقط ، يصبح وضع اليهود وضعا طبيعيا ، فتزول اللاسامية زوالا نهائيا من تاريخ الانسانية . باعتقادي ان هذا هو محور الحركة الصهيونية : خلق وانشاء وتدعيم واستدامة دولة لليهود ، يكون قيامها الحل النهائي للمسألة اليهودية .

ولكن عند التفتيش على وسائل خلق هذه الدولة، غرفت الحركة الصهيونية من جعبة المفاهيم والحركات التي كانت سائدة في اوروبا في ذلك الوقت ، وهي ، بصورة خاصة ، الحركة القومية وحركة الاستعمار الاستيطاني والحركة الامبريالية . وكان هناك لقاء وتمايز اساسي بين الحركة الصهيونية وبين كل من هذه المفاهيم الثلاثة .

فبالنسبة **للقومية** ، لم تكن المعطيات الموضوعية للحركة القومية في اوروبا متوافرة في الوضع اليهودي . فالحركات القومية كانت تقوم على أساس وجود مجتمعات متراصة ، جماعات متعايشة معا من البشر ، بينها روابط اساسية (ولعل اهمها الرابطة اللغوية) تجعلها تشعر بذاتية خاصة . ووجود هذه المجتمعات دون ان تتمتع بحكم ذاتي او دون ان يكون اطار الكيان السياسي الذي كانت تعيش فيه مساويا لاطار الكيان الديموغرافي الذي كانت تنتسب اليه ، جعل الحركة القومية تعصف بالكيانات السياسية القائمة في اوروبا وتحطم جدرانها كي تعيد تركيبها من جديد على أساس يتلاءم مع التوزيع البشري القومي للناس في اوروبا . فحين كانت الدولة الواحدة تضم اكثر من قومية واحدة ، كانت الحركة القومية تسعى الى تمزيق هذه الدولة الى دول ، وحين كان المجتمع القومي الواحد يعيش في اكثر من دولة واحدة ، كانت الحركة القومية تسعى الى توحيد هذه المجتمعات معا في اطار دولة واحدة : أي اعادة تركيب جدران الكيانات السياسية بحيث يكون جدار كل كيان سياسي هو ايضا جدار كيان اجتماعي ذي رابطة قومية واحدة . أما اليهود فلم يتوفر لهم هذا الظرف الموضوعي ، بل كانوا موزعين كأقليات في مجتمعات عدة ، ولم يكن في وسعهم، اذن، خلق دولة اليهود، لا عن طريق تمزيق وحدة دولة قائمة ذات قوميات متعددة ولا عن طريق خلق دولة جديدة بربط الاجزاء المتاخمة لدول متعددة معا . نتيجة لذلك حين استفادت الحركة الصهيونية من الحركة القومية ، كحافز لها على تأسيس دولة لليهود ، فقد وجدت نفسها في الوقت عينه في ظرف موضوعي يختلف عن الاوضاع التي أدت في اوروبا الى قيام الحركة القومية والى نجاحها في اعادة توزيع الكيانات السياسية من جديد .

اذا لم يكن بالامكان خلق دولة اليهود عن طريق تمزيق دولة قائمة او ترقيع اجزاء من عدة دول لجعلها دولة واحدة ، فلا بد من مخرج لايجاد دولة اليهود عن طريق هجرتهم ، هجرة هادفة ، من جميع الاماكن التي يقطنون فيها الى مكان جديد يجتمعون كلهم على أرضه حيث ينشئون لانفسهم دولة قائمة بذاتها . وهذا ، بالطبع ، يعيد الى الذاكرة حركة الهجرة الاوروبية منذ مطلع العصر الحديث واستعمارها استعمارا استيطانيا للعالم الجديد المكتشف حديثا سواء في الاميركتين او في اوستراليا ونيوزيلنده .

الاستعمار الاستيطاني اذن رشح نفسه كمخرج لايجاد الاسلوب المناسب لخلق دولة اليهود . الا ان الاستعمار الاستيطاني كان قد استنفد نفسه عندما ظهرت الحركة الصهيونية ولم يعد هناك عالم جديد فارغ يمكن لليهود ان يهاجروا اليه ، بحيث يجدونه خاليا او شبه خال من البشر ، فيستوطنوه ويقيموا دولتهم فيه . فما كان عليهم الا ان يفعلوا ما كان الاستعمار الاستيطاني الاوروبي المعاصر يفعله ، واقصد بذلك تواجد الاستعمار الاستيطاني في اواخر القرن ١٩ في جنوب افريقيا وشرقها والى حد ما في شمالها . اي لن تكون مهاجرة اليهود الى بقعة جديدة من العالم حديثة الاكتشاف ، بل الى بقعة قديمة مأهولة بالسكان حيث يعيشون كما يعيش المستوطنون الاوروبيون كما في شمال افريقيا والى حد ابعد في جنوبها . الا ان الحركة الصهيونية شاءت ان توفق بين طبيعة الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي وامكانات الاستعمار الاستيطاني المعاصر . فهي اختارت بقعة على غرار اختيار الاستعمار

الاستيطاني المعاصر ، بقعة من العالم القديم وليس من العالم المكتشف حديثا ولكنها ارادت ان يكون استيطانها في تلك البقعة على غرار الاستيطان الكلاسيكي أي ليس استيطانا مختلطا ، يعيش فيه المستوطن الجديد المهاجر الى جانب السكان الاصليين ويستغلهم ويسيطر عليهم ويبقيهم معه من اجل الايدي العاملة الرخيصة وما الى ذلك، وانما على أساس الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي القائم على التخلص من أبناء المنطقة المرغوب السيطرة عليها وابعادهم عنها ، اما بالقضاء عليهم قضاء نهائيا كما حدث في استراليا وفي نيوزيلندا او بابعادهم الى منطقة اخرى كما حدث فيما بعد في فلسطين . اذن اختارت الصهيونية من الاستعمار الاستيطاني الاسلوب الذي يناسبها ، موفقة بذلك بين بعض مظاهر الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي وبعض مظاهر الاستعمار الاستيطاني المعاصر .

أما بالنسبة **للحركة الامبريالية** التي كانت قد ظهرت بزخم جديد في الربع الاخير من القرن ١٩ بعد دخول عناصر جديدة عليها ، وبعد سيطرتها على بقاع جديدة من العالم القديم ، فقد اكتشفت الصهيونية ما كانت قد اكتشفته كل حركة استعمارية استيطانية في الماضي ، اي انها لا تستطيع ان تذهب الى البقعة المختارة التي تريد ان تستوطن فيها وتحل في ارضها الا في حمى دولة امبريالية قائمة . هنا يبرز الاختلاف مرة اخرى بين الوضع اليهودي وبين الاوضاع الاوروبية الاخرى . فالمهاجرون الاوروبيون الذين ذهبوا الى مختلف بقاع العالم لينشئوا دولا جديدة لهم ، كانت لهم دولهم الاصلية التي كانت تعطي شركاتهم الاستعمارية براءات الاستعمار وتعطيهم الحماية الاولية الى أن يستقروا ثم تفيد منهم بعد استقرارهم ، فيكونون لمصالحها الامبريالية مطية وأداة ، وتكون هي لهم حامية ومساعدة . ولكن اليهود لم تكن لهم دولتهم — القاعدة التي يمكن ان تحمي مشروعهم الاستيطاني . فلهذا كان لا بد من ان يعرضوا خدماتهم على أية دولة امبريالية لها مطامع في المنطقة التي اختارتها الصهيونية للاستيطان . ونذكر جميعنا ، ولا ريب ، نشاط هرتزل في سنوات السعي للحصول على دعم دولة امبريالية تقدم للحركة الصهيونية براءة الاستعمار وتعطيها الحماية والسند ، لقاء خدمات عرضها عليهم : فقد ذهب الى روسيا وذهب الى المانيا وفاوض بريطانيا وفاوض البرتغال وايطاليا وتركيا والبابا. فاوض الجميع وعرض على كل منهم خدمات المجتمع اليهودي العتيد في المنطقة المختارة، لقاء تقديم خدمات الامبراطورية التي يتحدث معها هرتزل لحماية الهجرة الصهيونية والدولة الصهيونية المقبلة .

اذن فمنذ البدء كانت للصهيونية ، وهي حركة ترمي الى اقامة دولة اليهود كي تحل المسألة اليهودية حلا نهائيا ، صلة بالقومية هي صلة الافادة ، هي صلة النسج على منوال القومية رغم وعي الصهيونية للفارق بين الوضع اليهودي واوضاع القوميات الاخرى . كانت كذلك تنسج على منوال الاستعمار الاستيطاني في ظل اوضاع جديدة وضمن اطار اوضاع يهودية تجعل لهذا الاستعمار ظرفا خاصا ومتميزا ، وكانت تسعى الى الربط بين المستعمرة الاستيطانية اليهودية العتيدة في الشرق الاوسط وبين أية حركة امبريالية لها مطامع في هذه المنطقة ، والتي قد تجد في اليهود المستقرين او الذين سيستقرون فيها خير أداة لخدمتها ، لقاء ان تكون هذه الدولة مستعدة لحماية استقرارهم وحماية استعمارهم في المنطقة .

يجب ان نذكر الفوارق الاساسية التي كانت تفصل بين الحركة الصهيونية من جهة وبين هذه الحركات الثلاث من جهة اخرى ، فوق ما ذكرته حتى الان .

بالنسبة للقومية : ان خلق دولة اليهود فيما بعد ، لم يجر على الطريقة التي كان يتوقعها آباء الحركة الصهيونية ومؤسسوها . لم ينزح جميع يهود العالم الى دولة اليهود ليشكلوا دولة عادية في فلسطين وبجوار فلسطين ، فنشأ من جراء ذلك مفهوم جديد للقومية لا تتعرف عليه القومية الكلاسيكية ، مفهوم الرابطة بين دولة اليهود كمركز الكيان القومي لليهود في العالم وبين مراكز تشتت اليهود والهيئات اليهودية الباقية في بقاع أخرى من العالم ، التي تدين بولائها الاول ليس للدول التي هي مواطنة فيها ، وانما لدولة المركز اليهودي ، لدولة اسرائيل . وتطالب العقيدة الصهيونية اليوم بقبول الصلة الخاصة التي تقوم بين اسرائيل ويهود العالم والامتيازات التي تتمتع بها اسرائيل لدى يهود العالم ، والواجبات التي على يهود العالم اداؤها نحو اسرائيل والتي تتناقض مع مفهوم القومية ومفهوم المواطنية في عالم تركب القومية جدران كياناته السياسية .

وبالنسبة للاستعمار الاستيطاني : يوجد فارق

اساسي بين الحركة الصهيونية وبين الحركات القومية الكلاسيكية من حيث نشاطها الاستعماري الاستيطاني (عدا عن الفوارق التي أشرت اليها من حيث الزمان والمكان وطبيعة الاستيطان) لا بد من الاشارة اليها . كان الاستعمار الاستيطاني في شكليه الكلاسيكي والجديد ، في أواخر القرن التاسع عشر ، يأخذ طابع التوزع ، اي هجرة الافراد والجماعات من مجتمع قائم الى مستعمرة او اكثر بغية استيطانهم فيها ، في حين ان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني أخذ صورة التجمع — تجمع اليهود الواردين من مجتمعات متعددة (كان آخر احصاء لها يبين انها تتعدى المائة مجتمع ، هاجر منها اليهود) في مجتمع واحد ، هو مجتمعهم الاستعماري الاستيطاني الجديد . فبدلا من أن تتألف الصورة من مجتمع اصلي يتوزع أهلوه في مستعمرات عديدة ، نجد في حالة الحركة الصهيونية مستعمرة واحدة ، تصبح هي المجتمع الرئيسي ، ومجتمعات اصلية متعددة تنطلق منها الهجرة اليهودية في فترات متعاقبة باتجاه المجتمع المستعمر حديثا . أما **بالنسبة للامبريالية** وصلتها باسرائيل ، فأؤكد مرة أخرى على ما ذكرته ، وهو أن كل حركة استعمارية كان لها القاعدة الامبريالية التي انطلقت منها وكانت مستعدة لحمايتها منذ البدء . أما الصهيونية فكان عليها ان تفتش على من تخدم كي يخدمها . وهذا أمر لازمها منذ قيامها حتى الان . الذبذبة بين مخدوم ومخدوم يكون كل منهما هو أيضا لها خادما — هذا في هذه المرحلة وذاك في تلك المرحلة . فمن بريطانيا في مطلع الاستقرار الصهيوني المكثف في فلسطين بعد وعد بلفور ، الى بريطانيا واميركا في اواخر عهد الانتداب ، والى اميركا في الوقت الحاضر . ومرت فترة ناغشت فيها الحركة الصهيونية فرنسا . وفي حرب ١٩٥٦ مثلا كانت العلاقة المعروفة بين بريطانيا وفرنسا والحركة الصهيونية . وقد يأتي يوم يكون فيه مرشحون امبرياليون آخرون للقيام بهذا الدور.

المبدأ الثالث هو أن الصهيونية موجودة وهي في حاجة الى عون من الخارج (وان تكون هذه الحاجة في تقلص كلما ازدادت القوى الذاتية للحركة الصهيونية في مكان استقرارها) . هي في حاجة دائما الى دعم وتأييد من الخارج ، فهي مستعدة الى تقديم الخدمات لاي مصدر خارجي يقدم لها الحماية والمساعدة المطلوبين .

أريد أن أخلص من هذه الملاحظات البسيطة والمبسطة ، حول صلات القربى والاختلاف ، بين الحركة الصهيونية وبين الحركات الاوروبية الثلاث التي ذكرتها ، الى القول بأن هناك ، في نظري ، خطأين ساريين اليوم : الاول هو الذي تروج له الصهيونية ، وهو القول بأن الحركة الصهيونية ليست سوى قومية طبيعية عادية ، بل انها أعرق حركة قومية ، كما قال المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون وكما تردد أوساط الدعاية الصهيونية منذ ذلك الحين ، أي ان الصهيونية هي حركة تحرر قومي للشعب اليهودي ، بل هي اقدم حركة تحرر قومي في التاريخ اطلاقا . من جهة ثانية هناك خطأ آخر ، أخشى ان يكون متفشيا لدى بعضنا ، وهو اعتبار الصهيونية على أنها ليست سوى امتداد لحركات امبريالية خارجية ، او انها ليست سوى ظل لمصالح وارادات امبريالية خارجة ، فاذا زال الاصل زال الظل . مما قد يعني انه ليس للصهيونية (اسرائيل) كيان ذاتي ، وليس لها مصالح ذاتية وارادة ذاتية واهداف ذاتية ، وليس لها قوة ذاتية . هذا الخطأ النظري ينقلب آخر الامر الى خطأ استراتيجي في مواجهتنا للحركة الصهيونية.فعلى الرغم من كل ما شاهدناه وكل ما نعترف به من الصلة الحميمة بين الامبريالية العالمية (هذه تارة وتلك اخرى) وبين الصهيونية ، على الرغم من ذلك يجب ان نتأكد أن الكيانين متمايزان منفصلان ، اذ للصهيونية كيانها وأهدافها القائمة بذاتها ، وارادتها ، ومصالحها ، ولها أيضا قوتها الذاتية ، وللحركة الامبريالية التي تتعاون معها اليوم وغدا او تعاونت معها بالامس أهدافها وارادتها وقوتها القائمة بذاتها . ومن الخطأ أن نعتبر ان الصهيونية ليست سوى امتداد او ظل أو أداة : بل الحقيقة ان لها كيانا ذاتيا يستفيد من، ويسخر، ويفيد، ويخدم ويخدم ، من قبل حركات امبريالية خارجية ، ولكن غرضه الاساسي هو خدمة الهدف الصهيوني والمصالح الصهيونية .

الياس سعد : بما ان موضوع الندوة هو « الصهيونية بعد ٧٥ سنة » ، اود ان اتقدم ببعض الملاحظات الملخصة كي تكون بمثابة تقييم لنتائج الصهيونية وعواقبها بالنسبة للاوضاع التي تأثرت بها وأثرت عليها . وربما من المفيد اجراء هذا التقييم على مستويات ثلاثة : أولا ، نتائجها وعواقبها بالنسبة لليهود في كافة البلدان او المناطق التي تواجدوا فيها . ثانيا ، تأثيراتها على مجاري

الاحداث الرئيسية عالميا خلال هذه الحقبة من الزمن . ثالثا ، تأثيراتها وعواقبها على المستوى العربي بشقيه الاساسيين في هـذا المضمار : الفلسطيني الخاص والعربي العام .

١) يهوديا : هل حلت الصهيونية المشكلة اليهودية؟ (بما في ذلك طرح موجز للمدلول المجتمعي للمسألة اليهودية) . ويلي ذلك سؤال آخر هو : هل شكلت الصهيونية بحد ذاتها مشكلة جديدة اعقبت المشكلة الاولى ، وفي هذا المضمار تثار عادة مسألة الولاء المزدوج .

ان المشكلة اليهودية قيل وكتب عنها الكثير وبدأ الكلام عنها في أواسط القرن الماضي رغم ان لها صلات بتطورات سبقت ذلك التاريخ . وفي هذا المعنى الاخير يمكن الاخذ بالمثل الذي اعطاه الدكتور العظم عن **تاجر البندقية** من حيث العلاقة بين المرابي اليهودي والتاجر الرأسمالي الناهض ، وبنمو الرأسمالية تطور المرابي الى الصيرفي المتمثل بأمثال المتمولين روتشيلد وهيرش اليهوديين . والتاجر الناهض تطور الى رجل الدولة والبورجوازية الاوروبية الحديثة . واعتقد ان هذا المثل ذو علاقة بالموضوع الا انه لا يكفي ما لم نفسر الى أين أدت هذه العلاقة في وصف وضع المتمول مثل روتشيلد ورجل الدولة البورجوازية التي كان روتشيلد عضوا فيها ويؤثر على مجرى سياساتها وتعترف هي به . وفي هـذا الصدد يمكن ذكر مثال آخر عن مسألة الربا والتاجر ، قصة خليفة الصياد في الف ليلة وليلة حيث يصطاد خليفة قردا يقول له انه سيغير له حظه السيىء ويستبدله بحظ المرابي اليهودي الناجح في المدينة . ويتضح بعد ذلك ان حظ خليفة الصياد لا يتغير الا بعد ان يتعرف على الخليفة هارون الرشيد وبعد ذلك يصبح ثريا . ونحن نعلم بالطبع ان اليهود اصبحوا مع توسع الامبراطورية العربية في الغرب يشكلون نقطة الوصل على حافة الامبراطورية ويقومون بأعمال التجارة بين الغرب والشرق . لكن ما يهمنا بشكل خاص من هذا الموضوع تطورات منتصف القرن الماضي بحد ذاته حين كانت اللاسامية تظهر بالدوام بالاشارة الى دور المرابا والصيرفة ومن ثم الرأسمال الذي قيل ان اليهود يشكلون المثال الافضل على من يقوم به . فمثلا ، عندما كتب كارل ماركس ملاحظاته عن المسألة اليهودية عام ١٨٤٤ قال ان اليهودي يتمثل برجل المال وعليه فلن يتحرر اليهودي الا بتحرر المجتمع الاوروبي من رجل المال . وقال ايضا في هذا المضمار ان المجتمع الاوروبي المسيحي نفسه قد تبنى ايديولوجية رجل المال لذلك فان تحرر اليهودي مثل تحرر المسيحي لن يأتي الا بالتحرر من رجل المال — اي من الرأسمالية . بعد ملاحظات ماركس هذه بحوالي نصف قرن ، كتب كارل كاوتسكي مقالة عن المسألة اليهودية أشار فيها الى تطور جديد نتج عنه تباعد بين بروليتارية يهودية ناهضة وطبقة رأسمالية يهودية قائمة واستنتج ان الوضع الخاص لليهود بذلك قد اندثر . بعد خمسين سنة ايضا كتب ابراهام ليون دراسته التي قال فيها ان المسألة اليهودية نتاج تفتت طبقة المرابا اليهودية شبه الرأسمالية مع نهوض الرأسمالية . ولكن ما أود ان أوجه النظر اليه هنا هو ان المسألة التي ظهرت في البداية ، في ايام ماركس مثلا ، على انها مسألة العداء للرأسمالية المتمثلة برجال المال اليهود ، أصبحت عند اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي تظهر في العداء للاشتراكية التي أصبح يبدو للعالم الغربي ان اليهود قوادها .

ان المنطلق الاولي للبورجوازية اليهودية في اوروبه كان منطلق الانصهار . وفي حين ان الانصهار في اوروبه الغربية كان ممكنا اذ ان اليهود هناك كانوا قلة فدخلوا الطبقة البورجوازية عامة وانصهروا في المجتمع البورجوازي الاوروبي ، ففي اوروبه الشرقية لم يتم ذلك ولم يكتمل الانصهار . والمنطلق الاول للبورجوازية اليهودية في اوروبه الشرقية تمثل بما سمي حركة الهسكلاه ، او التحرر كما يشار اليها في المصادر اليهودية والصهيونية خاصة . لكن هذه الحركة كانت بمثابة اللاسامية اليهودية التي طالبت بالتخلي عن كافة التقاليد اليهودية والتنكر لها لصالح تبني المنطلق البورجوازي اللبرالي الغربي . وبعد فشل هذه الحركة — وفشل اللبرالية البورجوازية في اوروبه الشرقية عامة — ظهرت الحركة الصهيونية كبديل لها . وافضل دليل على اللاسامية في الصهيونية هو هرتزل نفسه الذي انتهى في كراس **الدولة اليهودية** الى القول ان اليهود سيندثرون في المستقبل ويختفون في الدولة اليهودية نهائيا . وفشل الانصهار في اوروبه الشرقية رافقه انسياب اعداد اليهود في الهجرة باتجاه غربي اوروبه . وقوبل ذلك بمنطلق التهجير الخيري على يد الرأسماليين اليهود وعلى رأسهم روتشيلد وهيرش

وذلك بابعاد البروليتاريين اليهود عن اوروبه الى اي مكان ممكن ، الارجنتين وغيرها ، لصرفهم كذلك عن الانضمام الى الاحزاب الثورية . ومن هنا نرى ان هرتزل عندما التقى بالمسؤولين الغربيين امثال دوق بادن والكونت اولبرغ والامير بيولوف وزير الخارجية الالمانية والقيصر الالماني نفسه ، كان دائما يكرر ويردد قوله ان حركته (اي الصهيونية) ستقوم على اضعاف الحركات الثورية بتهجيرها « الفائض » من البروليتاريين اليهود . وفي الواقع، لم يتم تبني الدول الغربية للصهيونية حتى عام ١٩١٧ عند نجاح الثورة البولشفية في روسيه واصدار اعلان بلفور (وعد بلفور) جاء بعد ذلك بيوم واحد . وهناك مراسلات حول الموضوع ذكرت بعضها في مقالة ستنشر في عدد اغسطس من شؤون فلسطينية [العدد الحالي] .

بعد اصدار وعد بلفور اتسعت تبعية الصهيونية فنتج عن ذلك تكريس النظرة الصهيونية اللاسامية التي صنفت اليهود على انهم غرباء . وبالطبع عمليا انطبق هذا التصنيف بمعظمه على اليهود من الطبقات الفقيرة والطبقات الوسطى الى حد ما . وباتساع الصهيونية خرجت مسألة الولاء المزدوج الى حيز الوجود ، ولكنها لم تنشأ بمعزل عن الفوارق المجتمعية . ففي مناطق الجمهوريات السوفياتية المتنازع عليها آنذاك بين الاشتراكية والقيصرية مثلا ، بات ينظر الى الكثيرين من اليهود على انهم غرباء عن المنطقة واعتبر بعضهم انفسهم غرباء بمجرد ارتباطهم الاسمي بالصهيونية. وخلال الثلاثينات اصبح الولاء المزدوج يهدد وجود اليهود — وخاصة في المناطق التي وقعت اما تحت التأثير او الاحتلال النازي — وبشكل خاص البروليتاريين منهم والمشتركين في الاحزاب الثورية، بما في ذلك تهديدهم بالتصفية الجسدية على ايدي النازية . وقد تمت تصفية بضعة ملايين ، لا نعرف العدد الحقيقي ، ويبدو ان الصهيونيين الذين كانوا على علم بهذه الاحداث الفظيعة ، لم يكونوا على تعارض مع السلطات النازية بل ، كما نعلم من كتابات بن هيخت وحنة ارندت ، وافقوا على التغاضي عنها ومن ثم الاسهام فيها مقابل تعاون النازية في تأمين تهجير العناصر الفتية وصاحبة رؤوس الاموال من اليهود الى فلسطين آنذاك . وفي الوقت الحاضر ، يتكلم الكثيرون امثال ليلينتال والمر برغر وكاتب عربي معروف اسمه مهدي في الولايات المتحدة عن الولاء المزدوج لدى اليهود نتيجة للصهيونية في الغرب . ولكن لا يوجد عمليا أي أساس للقول بهذا الولاء المزدوج في الغرب نظرا لان الصهيونيين هناك يؤيدون سياسة الدولة التي يقيمون فيها . وفي الولايات المتحدة مثلا ، فان رابطة الدفاع اليهودية في مظاهراتها ترفع العلم الاميركي الى جانب العلم الاسرائيلي فتظهر بذلك ولاء مضاعفا وليس ولاء مزدوجا . اما بين اليهود الشرقيين ، وفي البلدان العربية بشكل خاص ، فقد نشأ الولاء المزدوج بوضوح وذلك نظرا لفشل الحركة القومية العربية في ادخال يهود البلاد العربية تحت لواء القومية العربية فنتج عن ذلك تهجير جماعي جاء بأكثرية اليهود العرب الى اسرائيل بحيث باتوا يشكلون حوالي ٦٠ ٪ من السكان اليهود حاليا في اسرائيل. ومما تجدر ملاحظته ان في اسرائيل نفسها ، نتيجة لهذه الهجرة والتمييز الذي واجهها ضد الشرقيين ، قد نشأ نوع من الولاء المزدوج لدى اليهود العرب في تأرجحهم الثقافي (والمصلحي على المدى البعيد) بين اليهودية صهيونيا والعربية . وافضل مثال على هذا الولاء المزدوج ما اعلنه احد المرشحين الشرقيين في الانتخابات البلدية في بئر السبع عام ١٩٦١ في حملته الانتخابية ضد منافسه الغربي حين قال : « انا جئت من منطقة غير نامية وبلد غير نام . منطقة وبلد اعطيا العالم رسالتي المسيح ومحمد . أما هم ، ابناء برنشتين ورابينوفتش فقد جاءوا من مناطق وبلاد نامية ، مناطق وبلاد اعطت العالم القيصر نيكولاس وهتلر » !

ملخص الكلام عن نتائج وعواقب الصهيونية يهوديا :

١ — تم نقل حوالي مليون يهودي اوروبي معظمهم من شرقي اوروبه الى فلسطين .

٢ — التصفية جسديا لبضعة ملايين يهودي في أوروبه الوسطى والشرقية خلال الحرب العالمية الثانية .

٣ — تعبئة سياسية شبه تامة لليهود في الغرب وراء الصهيونية دون قيام اي هجرة تذكر .

٤ — تعبئة سياسية سطحية لليهود الشرقيين وراء الصهيونية ولكن تم نتيجتها هجرة شبه تامة .

٢) عالميا : تمثل التطور الرئيسي في العالم خلال القرن الماضي في الصراع الطبقي العالمي او ما يمكن الاشارة اليه بالصراع بين الاشتراكية

والرأسمالية الذي بدأ بالانتفاضات الاوروبية عام ١٨٤٨ واتخذ طابعا اوليا خاصا بعد قيام الثورة البولشفية عام ١٩١٧ . والسؤال الذي ينبغي طرحه في هذا المضمار : ما كان موقف الصهيونية ودورها من هذا الصراع العالمي بين الرأسمالية والاشتراكية ؟ والاجابة على هذا السؤال صريحة وبسيطة : لقد اسهمت الصهيونية في ضرب الاشتراكية لصالح الرأسمالية وقد بدا ذلك واضحا في اصدار اعلان بلفور لصالح الصهيونية عشية ظفر الثورة الاشتراكية الاولى في روسيه . وقبل ذلك ، فاننا نعلم من مؤرخي عائلة روثتشايلد وعائلة هيرش الممولتين للصهيونية انه كان للاسرتين دور بارز في توفير الاموال والقروض للحكومات لضرب الثورات الاوروبية المتتالية واكبر مثال على ذلك ضرب كومونة باريس عام ١٨٧١ بمساعدة اموال عائلة روثتشايلد. أما بعد ١٩١٧ ، فبقيت الصهيونية تناهض الاشتراكية بداية بتحريضاتها الدعاوية خلال العشرينات في ظروف حرب التدخل العسكري في الاتحاد السوفياتي على أيدي جيوش الدول الغربية . واستمر هذا الدور حتى اليوم ، ما دامت المنظمات الصهيونية الاميركية تقوم بالتظاهرات الواحدة تلو الاخرى ضد الاتحاد السوفياتي مطالبة بتهجير اليهود السوفيات ومن دون ان يكون للمتظاهرين انفسهم اي اهتمام بالهجرة الى فلسطين — مع ما تنطوي عليه شعارات هذه التظاهرات من لصق تهمة اللاسامية بالاشتراكيين واليساريين عامة .

ان الحركة الصهيونية تمثل في المقام الاول حركة فريدة من نوعها تختلف عن الحركات القومية الاخرى . وتتمثل هذه الهوية الفريدة بالعناصر التالية : اولا ، انها نشأت لدى المسيحيين قبل ان يعتنقها اليهود . ومن الضرورة التأكيد هنا على هذه الحقيقة مع العلم انهم يقولون ان من مؤسسي الصهيونية موسى هس الذي كتب كتابه بعنوان **روما والقدس** عام ١٨٦٠ . ولكن في الواقع ان كتاب هس ليس فيه شيء عن الصهيونية او القومية اليهودية او « العودة الى فلسطين » سوى بضع صفحات اقتطعها من كتاب دعا الى « اعادة بناء الامة اليهودية » نشره عام ١٨٦٠ ارنست لاهاران ، السكرتير الخاص لنابليون الثالث . أما الكاتب الصهيوني اليهودي الاول ، ليو بنسكر ، فقد نشر كراسه عام ١٨٨١ ليدعو بكل وضوح الى « تهجير الفائض من البروليتاريين اليهود » معتبراً اياهم سبب المشاكل للبورجوازية اليهودية . العنصر الفريد الثاني في منطلق الصهيونية ، هو ان قيادة وتمويل الحركة لم يأت على أيدي هؤلاء الذين يريدون الهجرة انفسهم بل على ايدي اولئك الذين أرادوا تهجير الاخرين كي يبقوا هم في بلادهم . وكان الهدف بالطبع تهجير البروليتاريين اليهود وليس كل اليهود وكان هرتزل يؤكد على ذلك مرارا في مقابلاته مع المسؤولين النمساويين والالمانيين والروس . والعنصر الثالث في هوية الحركة الصهيونية الفريدة انعكس في سعيها الاول الى التهجير الى اي مكان ممكن خارج أوروبه ، في الارجنتين وافريقيه وفلسطين ... الخ . ولا حاجة للقول ان هذا عنصر يختلف عن كافة الحركات القومية الاخرى . ان العنصر الفريد الاخير وربما الاهم هو نشوء الصهيونية على أيدي البورجوازية اليهودية ضمن ظروف محاربتها للثورية الاشتراكية، خاصة وانه كان يبدو للكثيرين آنذاك ان اليهود يشتركون في الاحزاب الاشتراكية اكثر من اي عناصر اخرى . والعنصر الاخير هذا كان العامل الحاسم في تحقيق تأييد كافة الدول البورجوازية الغربية للصهيونية وتبنيها لها منذ عام ١٩١٧ حتى الان .

ونظرا لهذا المنطلق الفريد والعناصر الاخرى المتعلقة به في هوية الصهيونية ، لعبت الصهيونية دورا رجعيا فعليا في الصراع الطبقي العالمي لصالح الردة الرأسمالية الامبريالية ضد الاشتراكية ابتداء من دورها في مكافحة واضعاف الثورة الروسية بعد نشأتها عام ١٩١٧ ومنها الى دور مماثل في ثورتي المانيه وهنغاريه عام ١٩١٨ بما في ذلك تحويل الشباب من البروليتاريين اليهود عن الاشتراكية في البلدان الغربية كافة وعلى رأسها الولايات المتحدة التي غالبا ما حملت صحفها كتابات في عام ١٩١٧ تتكلم عن اشتراك اليهود في الاحزاب الاشتراكية . واستخدمت الصهيونية مع ما توفر لديها من مزاعم مثالية عن القومية اليهودية وميراثها التاريخي ، لصرف اليهود عن الاشتراكية الى اهداف اقامة الدولة اليهودية . وبتفاعله مع مبدأ التهجير ، فقد خدمت الصهيونية الرأسمالية في مرحلة الامبريالية ليس فقط في ردع الثورة في أوروبه بل وكذلك في الاسهام بالامتداد الامبريالي الى منطقة الشرق الاوسط والدفاع عن مواقعها الحالية في المنطقة وفي مناطق مختلفة اخرى من آسيه وافريقيه الجنوبية بشكل خاص ، مما يقودنا الى

تقييم ابعاد الصهيونية في المنطقة العربية .

٣) عربيا : من البديهي في هذا المجال ان التطور الرئيسي خلال العقود الماضية ارتكز في حركة التحرر العربية وتصدي قوى الامبريالية لها . وللنظر في دور الصهيونية في هذا المضمار يجدر بنا الابتداء بعواقبها بالنسبة للشعب الفلسطيني . فتحت الادعاء بمحاربة الاقطاعية العربية (هذا مع العلم ان الحاج امين الحسيني الذي يشار الى امثاله على انهم الاقطاعية العربية الفلسطينية قد عينه في مركزه هربرت سـاموبل ، الصهيوني اليهودي والمندوب البريطاني الاول واظهره من خلفوه بمظهر قائد الحركة الوطنية) تمكنت الصهيونية من التصدي لانتفاضات العمال والفلاحين المتتالية (التي لم يكن لها اي علاقة بالحسيني) وفرضت تسلطها على البلاد . وتحت الغطاء البريطاني تمكنت الصهيونية من تحقيق الازاحة الاقتصادية الحاسمة للعمال والفلاحين العرب في فترة ١٩١٩ ــ ١٩٣٥ وثبتت أقدامها في اقتصاد البلاد . وبالتعاون مع القوات البريطانية التي عملت على انشاء الجيش اليهودي الصهيوني عام ١٩٣٧ بقيادة الجنرال وينغايت تمت التصفية السياسية لقدرات الشعب الفلسطيني خلال اعوام الثورة الكبرى ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ . والازاحة السكانية التي تمت في عامي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ لم تكن سوى النتائج المترتبة على التصفية السياسية هذه . وبعد ذلك عملت اجهزة العنف الاسرائيلية العسكرية بشكل مكنها من ان تفرض على الحكومات العربية دور تقييد أي تحرك سياسي عسكري يقوم به الشعب الفلسطيني ــ الامر الذي تستثنى منه فترة « النكسة » ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩ والذي انتهى بالاعتراف بالنكبة واعادة فرض هذا الدور في تقييد المقاومة الفلسطينية وضربها على ايدي الحكومات العربية عام ١٩٧٠ .

اذا نظرنا الى الدور الذي تلعبه الصهيونية على المستوى العربي العام نجد ان الصهيونية واسرائيل لهما دور في ضرب حركة التقدم العربية وهو أمر عالجته جميع الاقوال والكتابات حول الموضوع . لذلك أود أن أبدأ بالاشارة الى حادثة حصلت عام ١٩٥٣ وهي مسألة لافون التي كانت بمثابة خروج على القاعدة تستثنى من كافة سياسات الصهيونية واسرائيل على مر السنين الماضية . ويشار الى مسألة لافون عادة كمثال على العلاقات العسكرية ــ المدنية في اسرائيل . ولكن في الواقع ، هي في المقام الاول مثال على طبيعة العلاقات الاميركية الاسرائيلية او بالاحرى على نوعية ارتباط اسرائيل بالامبريالية. بدأت هذه الحادثة عندما قام شخص في الدوائر الاسرائيلية الحاكمة (لم يعرف المصدر الحقيقي) باعطاء الاوامر لضرب بعض الاماكن الاميركية (بينها المركز الثقافي الاميركي) في القاهرة من اجل خلق التوتر في العلاقات الاميركية ــ المصرية آنذاك والحؤول دون علاقات جيدة بين حكومة مصر آنذاك والحكومة الاميركية كي لا يؤدي ذلك الى اضعاف التزام الولايات المتحدة باسرائيل . ويبدو من التطورات بعد ذلك ان هذه الحادثة شكلت الازمة الرئيسية في حياة اسرائيل السياسية منذ ذلك الحين وقد استمرت في الظهور والاختفاء الى ان تمت ازاحة بن غوريون عن رئاسة الوزارة بسببها عام ١٩٦٣ . ان التخبط الوحيد في التركيب السياسي لاسرائيل منذ نشأتها قد ارتبط بهذا الحادث الذي تجرأت فيه بعض الجهات الاسرائيلية (التي حرصت على التنصل منه فيما بعد) على المس بالمصالح الاميركية في بلد معين يظهر نوعية العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ومدى استقلاليتها عنها. وما دامت اسرائيل تسير على خطى تفيد مصالح الامبريالية فتأييد الامبريالية لها مضمون . وهذه كانت حال الصهيونية والامبريالية منذ نشأتها حتى الان وقد تكرست هذه العلاقة بشكل حاسم منذ قيام دولة اسرائيل . وقد ادى عدوان « السويس » عام ١٩٥٦ الى توثيق الارتباط بالامبريالية نظرا لفتح مجال الملاحة لاسرائيل آنذاك تجاه الشرق من ايلات ومن ثم توجهاتها الى عدد من البلدان الافريقية والاسيوية في خدمة الامبريالية منذ ذلك الحين . ووصل الارتباط الى أوجه عام ١٩٦٧ حين تحركت اسرائيل ضمن ظروف داخلية اقتصادية صعبة فهزمت جيوش الدول العربية وتوسعت على حسابها فحلت مشكلاتها الاقتصادية الداخلية في الوقت نفسه الذي حققت فيه ضرب حركة التحرر العربية الجزئية التي كانت تعمق شروشها في منطقة شبه الجزيرة العربية قبيل الاستقلال في عدن وبوجود القوات المصرية المناهضة للامام في شمالي اليمن ، مما ادى الى قطع الطريق على حركة التحرر هناك ومهد الطريق لتسلط الانظمة الرجعية في الاقطار العربية كافة كان امتنان الدوائر الاميركية الحاكمة كبيرا لتحرك اسرائيل نذكر دلالة عليه كلام احد مسؤولي وزارة الخارجية الاميركية

بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة حين قال : « ان اسرائيل قد حققت للولايات المتحدة في الشرق الاوسط بالمقارنة الى الاموال والمجهودات المستثمرة فيها اكثر من جميع حليفاتنا وصديقاتنا حول العالم منذ الحرب العالمية الثانية حتى الان . ففي الشرق الاقصى لا يمكننا الحصول على مساعدة احد من حليفاتنا في فيتنام . اما هنا (أي في الشرق الاوسط) فقد انتصر الاسرائيليون بمفردهم فأخرجونا من ورطة وخدموا مصالحنا ومصالحهم في وقت واحد » .

ان امتنان الدوائر الاميركية الحاكمة والارتباط المصلحي بدولة اسرائيل ينعكسان في توفير الهبات والقروض الهائلة لاسرائيل ولا مجال لتغير هذا الوضع ما دام طابع اسرائيل يخدم المصالح الامبريالية . وبالاضافة الى تعبئة يهود العالم باسم الصهيونية لصالح الرأسمالية الامبريالية ضد الاشتراكية ، هناك التعبئة الاسرائيلية نفسها التي تقدمها الصهيونية مقابل الهبات الاميركية بحيث اصبحت اسرائيل قاعدة عسكرية بالنسبة للامبريالية تخدم مصالحها في المناطق المجاورة . ولا شك ان هناك الاستغلال الامبريالي المباشر للموارد الاسرائيلية الا أن ذلك عنصر ثانوي بالمقياس الى الدور الرئيسي والاول في وضع اسرائيل كقاعدة عسكرية . وأفضل مثال على ذلك ما سمعته في واشنطن ان المزهرية التي توضع فيها الزهور في غرفة الاستقبال في السفارة الاسرائيلية في واشنطن هي على شكل قنبلة يدوية. وهناك ايضا، مسابقات دايان وآلون في اصدار البيانات والكتب عن دورهما في اقامة وقيادة الجيش الاسرائيلي . الا ان العلاقة الاقتصادية الاستغلالية بين الامبريالية واسرائيل والتي تتمثل في تسلط الرأسمال الاحتكاري الامبريالي على الاقتصاد المحلي قد تؤدي في المدى البعيد الى تحرك سياسي لدى الطبقة العاملة الاسرائيلية ضد الاستغلال المباشر لها على يد الرأسمال الامبريالي . لكن هذا التطور لا يمكن ان يأتي الا بالتفاعل مع حركة التحرر العربية ومن المرجح انه سيتناول اليهود الشرقيين في صفوفه الاولى نتيجة لموقفهم البروليتاري في اعمال الانتاج في اسرائيل . ولا شك ان تحركا كهذا سيكون له دور هام في التأثير على مجرى ما يسمى الصراع العربي الاسرائيلي في الشرق الاوسط .

وليد خدوري : الملاحظات التي سأبديها تتعلق بالعلاقات الصهيونية الاسرائيلية من بعد ١٩٤٨ وبالاخص من بعد ١٩٦٧ ، وستتركز في القضايا السياسية والتنظيمية وليس الفكرية . اما وجهة النظر التي أود أن أطرحها في هذا المجال فهي ان الصهيونية كحركة سياسية وكمنظمة دولية آخذة في الاضمحلال . لقد بدأت صلاحياتها تتقلص وكذلك أعمالها التي أصبحت تقتصر ، خارج اسرائيل ، على اعمال التثقيف للجاليات اليهودية وخدمة السياسة الاسرائيلية المرحلية . وبالمقابل اخذت اسرائيل تلعب الدور الرئيسي والمركزي بالنسبة ليهود العالم بدلا من الحركة الصهيونية . وسأحاول أن أبين هذا من خلال العلاقات منذ ١٩٤٨ .

بعد عام ١٩٤٨ مباشرة برز هذا الاتجاه ، خاصة في مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٥١ حيث وضعت اسرائيل حدا لاي تدخل من قبل الحركة الصهيونية خارج اسرائيل في السياسة الاسرائيلية وفي المنظمات والاجهزة الاسرائيلية . وقامت اسرائيل بصورة تدريجية ومنتظمة باستيعاب مهام وتنظيمات الحركة الصهيونية في الخارج حيث سخرتها ، خاصة في الولايات المتحدة واوروبه ، لخدمة سياستها المرحلية الداخلية والخارجية . كانت حاجة اسرائيل بعد ٤٨ كالاتي : أولا الابقاء على التنظيمات السياسية والاجتماعية للجاليات اليهودية في الخارج لخدمة الاهداف السياسية المرحلية لدولة اسرائيل وللتبشير بمركزية دولة اسرائيل ومبادىء الشعب الواحد في الخارج . وبالنسبة للحركة الصهيونية اعتمدت في السابق وهي لا تزال تعتمد على قاعدتين رئيسيتين : أولا جذب المهاجرين الى اسرائيل ، وثانيا : رفض المنفى . معركة الصهيونية في هذا المجال طويلة الامد وتعتمد في نجاحها ، اذا أردنا تقييمها ، على عدة أمور . أولا : امكانها توحيد الشعب اليهودي وان تكون هي الممثل الوحيد والناطق الرسمي باسم اليهود في الخارج . ثانيا : بناء دولة اسرائيل وتقويتها ، وثالثا : الابقاء على اليهود في الخارج كجاليات وكشعب غير منصهر في المجتمعات التي يعيش فيها . الذي استطاعت الحركة الصهيونية تحقيقه بعد ١٩٤٨ في هذا المجال هو أولا : اقامة الدولة اليهودية ، دولة ذات سيادة . ثانيا : احياء الثقافة اليهودية والعبرية. ثالثا : الدفاع الذاتي . وما تبقى للحركة الصهيونية كي تقوم به بعد ٤٨ هو الاستمرار في توحيد الشعب اليهودي في الخارج والتأكد من عدم تواجد منظمات اخرى تنافسها في هذا المجال ، نشر الثقافة

الصهيونية واليهودية في الخارج بين الجاليات اليهودية ، منع الاندماج والانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وربط الجالية والشعب اليهودي باسرائيل . كذلك الامر بالنسبة للهجرة والاستيطان وتقوية اسرائيل .

يتلخص الذي حدث بالفعل منذ ٤٨ بين اسرائيل والحركة الصهيونية بما يلي : أولا : طرحت عدة اسئلة في مؤتمر ١٩٥١ ومؤتمر ١٩٧٢ . السؤال الاول : ما هي المهام السياسية الاساسية للحركة الصهيونية بعد قيام دولة اسرائيل ؟ المطلوب من المنظمات الصهيونية في الخارج هو ان تقوم بالدفاع بالترجمة والشرح والعمل من اجل سياسة اسرائيل، ولكن ما هي علاقتها بالسياسة الاسرائيلية نفسها ؟ ما هو نفوذها على السياسة الاسرائيلية نفسها ؟ هذا السؤال مطروح منذ قيام الدولة ولم يجب عليه حتى الان . ثانيا : هناك سؤال أدبي يطرحه الاسرائيليون على الصهيونيين في الخارج : هل هناك صهيونية خارج اسرائيل ؟ طبعا هذا السؤال طرحه بن غوريون منذ أوائل قيام الدولة وطرحه مؤخرا الاتحاد العالمي للطلبة اليهود في المؤتمر الاخير عندما قامت الضجة حول هل يصح ان يرجع مندوب للمؤتمر الصهيوني بعد أربع سنوات اذا كان لا يقيم في اسرائيل ؟ فالسؤال هو اذا كنت صهيونيا يجب ان ترجع واذا لم ترجع فانت لست صهيونيا . وأحدث هذا ضجة كبيرة بين اسرائيل ويهود الولايات المتحدة والتنظيمات الصهيونية في اميركا بصورة خاصة . نقطة اخرى هي ان ولاء اليهود في الخارج اصبح يتأثر بشكل شبه مباشر بالتطورات في اسرائيل وليس في المنظمة الصهيونيةالعالمية أو الاتحادات الصهيونية . فأحداث معينة ، مثلا الحروب أو المشاكل الاجتماعية في اسرائيل ، تؤثر على الفكر السياسي وعلى الولاء السياسي وعلى الهجرة او ما شابه ذلك . بالنسبة لليهود في الخارج اصبحت الامور التي تحدث في اسرائيل تؤثر بصورة غير مباشرة ، عن طريق التلفزيون والاذاعة والدعاوة ، على اليهود في الخارج ولا دخل للحركة الصهيونية في ذلك اي في العلاقة بينهم وبين اسرائيل . كل هذه الامور تطرح سؤالا وهو السؤال الذي يطرحه دائما ناحوم جولدمان : هل ينبغي على الحركة الصهيونية ان تكيف نفسها بالنسبة للجاليات في الخارج وأن تأخذ بنظر الاعتبار التيارات المحلية والواقع المحلي بالنسبة لليهود بدلا من اعتبار مركزية اسرائيل هي الاساس ؟ جماعة الدولة الاسرائيلية وجماعة الوكالة اليهودية والمساندون لهم يقولون العكس . الاعتبار الرئيسي والاساسي هو مركزية اسرائيل وسياسة اسرائيل المرحلية والمنهج الاسرائيلي وليس الوضع في الخارج . طبعا هناك القاعدة المشتركة بين الاثنين وهي حركة عودة اليهودي الى فلسطين . فهذه الاستراتيجية ليست مطروحة للنقاش . يجري النقاش حول كيفية تحقيق ذلك . هذا هو الخلاف الاساسي والرئيسي بين الفكر الموجود في المنظمة الصهيونية وبين الصهاينة في الخارج من جهة وبين المسيطرين الان على الوضع في الداخل من جهة اخرى . لنأخذ هذه الامور بصورة مباشرة . كيف تطورت بعد ١٩٦٧ خاصة . في المؤتمر الصهيوني لعام ١٩٦٨ يتكلمون في برنامج القدس عن مركزية اسرائيل بالنسبة للشعب اليهودي عامة ، وفي مؤتمر ١٩٧٢ يتكلمون في القرارات ليس عن مركزية اسرائيل للشعب اليهودي عامة بل ايضا عن حياة الفرد اليهودي ، وهذا الاتجاه متمم للسياسة التي يدعون لها . طرح موضوع برنامج القدس في مؤتمر ٦٨ والانتخابات التي جرت على اساسه . برنامج القدس يدعو ، كبرنامج مشترك ، الى ان يستطيع أي فرد يهودي في العالم أو أي مؤسسة يهودية اذا وافقت عليه ان تصبح عضوا في الحركة الصهيونية وتكون عضوا مع الاحزاب . كذلك ان احد قرارات مؤتمر ٦٨ هو العودة الى انتخاب اعضاء الوفود الى المؤتمرات . وكانت كذلك سابقا ، قبل الحرب العالمية الثانية ، ولم تحدث على هذا النحو الا مؤخرا . بهذه الطريقة استطاعت الجاليات والمؤسسات اليهودية المسؤولة عن التبرع والمسؤولة عن الثقافة أن تدخل الى الحركة الصهيونية والى المؤتمر الصهيوني دون أن يكونوا أعضاء في أحزاب صهيونية . وبهذه الطريقة استطاعت اسرائيل أو الوكالة اليهودية ان تمتد حول المنظمات اليهودية وتدخل اعضاء جددا لها فيها . شيء اخر نشير اليه هو انشاء الوكالة اليهودية الموسعة الشبيهة بالتي اعلن عنها في عام ١٩٢٩ . والذي حدث فعلا هو أن مندوبي الجاليات والمسؤولين عن التبرعات حصلوا على ٥٠٪ من مقاعد الوكالة اليهودية الموسعة بينما كانت في السابق مقتصرة على الحركات والاتحادات الصهيونية . موضوع اخر مهم هو الهجرة . وهو موضوع اساسي بالنسبة للحركة الصهيونية خاصة

بعد ١٩٦٧ حيث اصبحت الهجرة مسألة بمستوى الامن ، واحتلت نفس المقام والاهمية . وتسلمت اسرائيل العملية بكاملها ولم تترك للحركة الصهيونية أي مجال للعمل في هذا الاطار ، الا القليل . قسمت اسرائيل والوكالة اليهودية مواقع الهجرة الى ثلاثة اقسام : أولا بلاد الضيق كما يسمونها وهي الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية والدول العربية ، ثانيا ما يسمونه بلاد العالم الحر ، وثالثا البلاد التي يعيش فيها اليهود بهدوء ولكن من المحتمل ان يهاجروا منها مستقبلا لتوقعهم حدوث مشاكل ، يعنون بذلك اميركا اللاتينية بصورة خاصة . بالنسبة الى بلاد الضيق فقط لعبت الحركة الصهيونية ، أي المنظمة الصهيونية والمؤسسات الصهيونية ، دورا ولكنه كان دورا مساندا لا اكثر ولا أقل لان اسرائيل نفسها تسلمت العملية ، وقامت مؤسسات يهودية وغير يهودية ومؤسسات دولية بالضغط على الاتحاد السوفياتي للسماح بهجرة اليهود من هناك . والمؤسسات الصهيونية هي جزء من المؤسسات المتعددة التي تقوم بهذا العمل بالنسبة للدول الاوروبية والولايات المتحدة وجنوب افريقيا ، والذي تقوم به المنظمات الصهيونية هناك لا يتعدى مجال الثقافة . المبعوثون من الوكالة اليهودية او من اسرائيل نفسها هم الذين يقومون بالاتصالات وهم يشكلون الكادر المتفرغ والمباشر للاتصال مع الجاليات ومع اصحاب المهن الحرة لتهجيرهم الى اسرائيل ولا علاقة للحركة الصهيونية في تنظيم هذا الموضوع . وفي دول اميركا اللاتينية يشكو اليهود كثيرا في تقاريرهم وفي خطبهم من فقدان اتصالهم مع الحركة الصهيونية ومن كونهم لا يسمعون صوتها الا بمناسبات جمع الاموال . اضافة الى ذلك لقد هيأت اسرائيل بنفسها اطارات العمل في تلك البلدان لاستقطاب المهاجرين دون اي ذكر للحركة الصهيونية ، فالمؤسسات الاقتصادية والمؤسسات العلمية كيفت نفسها للمهاجر الجديد وهو مهاجر المهن الحرة . واعتقد ان هذا الامر معروف ولا حاجة للدخول به خاصة موضوع الجامعات والمؤسسات الصناعة المتقدمة .

موضوع آخر لا علاقة للحركة الصهيونية به وتسيطر عليه اسرائيل هو الاستيطان . بعد ١٩٦٧ اقيمت في اسرائيل ٥١ مستوطنة ومن المتوقع في السنوات الاربع القادمة اقامة حوالي ٣٠ مستوطنة اخرى وهذا العدد من المستوطنات شبيه بتكاثرها في الخمسينات عندما كانت موجة الهجرة كبيرة عندئذ ولا علاقة للحركة الصهيونية من قريب او من بعيد بهذا الامر . أقامت اسرائيل وزارة استيعاب في ١٩٦٩ ، وتقوم الوكالة اليهودية باستلامهم كما تقوم الكيبوتسات في داخل اسرائيل بذلك . اي ابعدوا الحركة الصهيونية عن الاستيطان .وبالنسبة للشباب طرح كلام كثير خاصة في مؤتمر ٦٨ ، عن دور الشباب في الحركة الصهيونية لان معظم الاعضاء في مؤتمر ٦٤ و ٦٨ كانوا من الرعيل القديم ما قبل ٤٨ وزاد عددهم في مؤتمر ٧٢ بحوالي ٤٠٪ من المندوبين من الوجوه الجديدة ، ٢٠٪ كانوا من الاعضاء الشباب وحوالي ٥٣ متعدا من ١٦٣ ذهبت للشباب . وفي الحقيقة ان الشباب لم يطرحوا أي بدائل جديدة ولم يقوموا بأي حركة فكرية جديدة ضمن الاطار الصهيوني . هناك حركات فكرية جديدة داخل صفوف الشباب في الولايات المتحدة ولكنها محدودة ولم تمثل في المنظمة الصهيونية العالمية . الشيء الوحيد والرئيسي الذي قدمه الشباب داخل الحركة الصهيونية داخل مؤتمر عراد في صيف ١٩٧٠ هو الموافقة على قرار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني . هذا هو الشيء الوحيد الذي طرحوه منذ ٦٨ بالرغم عن الضجة التي خلقوها . حاولت أن اذكر في هذا المجال أن اسرائيل حاولت تدريجيا ان تخلق لنفسها وسائل الاتصال المباشر مع اليهود ومع المنظمات في الخارج . الزعماء الذين ندعوهم بالصهاينة في الخارج ليسوا جميعا أعضاء في الحركة الصهيونية. الزعيم الكبير في الولايات المتحدة الان مثلا ماكس فيشر لم ينتم الى الحركة الصهيونية . اتصاله مباشر مع اسرائيل متخطيا الحركة الصهيونية . والشيء نفسه يقال بالنسبة الى غيره من المسؤولين في انكلترا والدول الاوروبية الاخرى . هذه النقطة يجب أخذها بعين الاعتبار في التخطيط للمستقبل وفي العمل .

العظم : أعتقد ان هذا الرصد الذي قدمه الدكتور خدوري لعلاقات الحركة الصهيونية العالمية بدولة اسرائيل والمسار الذي مشت عليه يقدم لنا معلومات مهمة ، وقوله بأن اضمحلال الصهيونية كحركة لصالح اسرائيل التي اخذت هي تقوم بكافة الادوار يطرح السؤال النوعي ، فيما اذا كان هناك عملية استبدال تاريخي لما يسمى بالحركة الصهيونية بما يمكن تسميته بالقومية الاسرائيلية كشيء متميز عن الصهيونية كحركة عالمية وعن

اليهود الذين وجدوا ملاذا لهم في الصهيونية . اعتقد اننا امام سؤال هام يجب مواجهته بشجاعة لانه يوجد في الفكر السياسي العربي الكثير من التردد والتخوف من مواجهة هذا الواقع التاريخي الذي يتطور تحت أنوفنا . لقد لاحظت ترددا كبيرا من قبل الدكتور فايز صايغ في تصنيف الحركة الصهيونية في عداد الحركات القومية في اوروبا ، ولكن اذا لم تكن الصهيونية حركة قومية (بالاضافة الى كونها حركة استعمارية استيطانية الخ ...) فماذا تكون اذن ؟ وبقيت هذه النقطة غامضة في سياق الحديث .

ومن ناحية اخرى ارجو ان تتطور الندوة باتجاه لا يقتصر على اضاءة الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية ، كما فعلنا في حديثنا حتى الان ، وتقديم تحليل لها مضاد للصورة التي تطرحها عن نفسها ويطرحها عنها الاستعمار .

المطلوب ايضا هو تحليل لطبيعة الحركة الصهيونية بعد أن تجسدت في دولة اسرائيل ، وعلى سبيل المثال اشار الدكتور خدوري في بعض ملاحظاته الى احتلال اسرائيل مركز الثقل حاليا في كل النشاط الصهيوني . ان هذا التحليل مهم بالنسبة للنضال الراهن ضد دولة اسرائيل . لذلك ارجو ان يتحول النقاش تدريجيا بهذا الاتجاه . الان اريد ان اسأل الزملاء اذا كان لدى اي منهم تعليق يريد ان يدلي به حول موضوع الندوة قبل الدخول في مناقشة الاراء التي طرحت او الرد عليها .

ابراهيم ابو لغد : اعتقد ان الندوة اثارت موضوعات مهمة عن الحركة الصهيونية ولكن اود أن الفت النظر الى انه في مثل هذه المناقشات علينا ان نعي الدافع الحقيقي او الدوافع الحقيقية لموضوع الندوة . في تصوري ان لمثل هذه الندوة على الاقل بعدين : البعد الاول هو البعد العلمي لموضوع النقاش ، يعني هل نرغب في أن نفهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية وسياسية بغض النظر عن ارتباطها بالصراع العربي الاسرائيلي ، وبغض النظر عن واقعها في المجتمع العربي ؟ اما البعد الثاني فهو الارتباط العملي لهذا الفهم بواقع الصراع . فاذا اردنا أن نفهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية سياسية اوروبية علينا ان ندخل في موضوعات المجتمع الاوروبي الذي نشأت فيه هذه الحركة وعلينا أن نناقش ، ما افترضنا بأنه من المسلمات سواء من المنظور العربي او من المنظور الصهيوني . واذا اردنا البعد الثاني علينا ان نطور استراتيجية محددة لمواجهة هذه الحركة كما نفهمها نحن .

اعتقد شخصيا أن الفصل بين هذين البعدين ممكن لعلماء الاجتماع وعلماء السياسة في اوروبة اذ بامكانهم أن يناقشوا الحركة الصهيونية ضمن الحركات القومية الاوروبية وان يميزوها بخصائص معينة تختلف عن القومية الايرلندية او القومية الروسية وهكذا ، بدون ان يكون لهذا الفهم اي ارتباط بالصراع العالمي المعاصر ، كذلك يمكن لمجتمع عربي يهتم بالواقع العملي لهذه الحركة ان يناقشها من ناحية تطبيقاتها السياسية لمفاهيمها كما تنعكس هذه التطبيقات في واقع المجتمع السياسي سواء سياسة المجتمع الصهيوني في فلسطين قبل نشوء اسرائيل او بعد نشوئها .

بالنسبة الينا ، اعتقد أن الربط بين العلم والسياسة لا بد منه ، فنحن لا نجري في هذه الندوة وراء مجرد فهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية في المجتمع الاوروبي بل نريد ان نصل من هذا الفهم الى نتائج عملية بامكانها ان تسهم في تصحيح السياسة العربية وتطوير الاستراتيجية العربية في مواجهة اسرائيل الصهيونية .

خطر في بالي اثناء النقاش اننا افترضنا وجود بعض المسلمات واشرنا في الاحاديث المختلفة الى وجود شيء اسمه « المسألة اليهودية » ، نحن نسلم بذلك والصهيونية تسلم بذلك ويكاد المجتمع العالمي ان يسلم بذلك . ولكن علينا في الواقع ان نسأل عن حقيقة هذه المسألة ، هل هناك شيء اسمه المسألة اليهودية ؟ اذا عدنا الى التاريخ تشير المسألة اليهودية الى اطار اجتماعي زمني معين ، فاذا افترضنا ان اليهودية دين فمعنى ذلك ان المسألة اليهودية مرتبطة بالتنظيم العالمي الذي يرتكز على الاديان ، ان هناك طوائف معينة متميزة من ناحية انتمائها الديني فاذا اردنا ان نسلم بوجود المسألة اليهودية ، علينا ان نتصور ان هناك قضية دينية متعلقة بطائفة من الطوائف التي يتشكل منها المجتمع الذي نشأت فيه . لكن في حديثنا العام نكاد ننسى ان « المسألة اليهودية » هي موضوع نشأ في فترة تاريخية معينة في اوروبة ، في مجتمع متغير لم يكن آنذاك مجتمعا مسيحيا ، بل كان مجتمعا قوميا ومع ذلك اثيرت هذه المشكلة الدينية الشكل أو هذه المسألة . وبتصوري لم يكن هناك

مشكلة يهودية في الوطن العربي سواء في القرن التاسع عشر او في اوائل القرن العشرين ، ولم يكن هنالك مسألة يهودية في المجتمع الهندي ولم يكن هناك مسألة يهودية في افريقيا . واننا نفترض ان هناك مسألة يهودية وهي بحاجة الى دراسة عالمية من منظور عالمي ، اعتقد أن هذا خطأ أصيل ، ربما تكون قد اوجدته الحركة الصهيونية وربما تعاون معها بقية العلماء الاوروبيين فأثاروا هذا الموضوع على انه مشكلة « عالمية » لا بد وان تعالج عالميا . والصحيح هو أنه كان هناك مشاكل او مسائل الاقليات القومية ، والدينية ، واللغوية في مجتمع اوروبي قبل مبدأي العلمانية والقومية كأسس للمواطنة الصحيحة .

وموضوع المسألة اليهودية،بغض النظر عن من طرح هذا الموضوع ، مرتبط بوجود « اليهودية » ووجود « الامة » اليهودية التي شكلت الركيزة الاساسية للحركة الصهيونية.بمعنى آخر ان الحركة الصهيونية نشأت كحل من الحلول المختلفة لمعالجة مشكلة تواجد «الامة» اليهودية في مكان غير الذي تواجدت فيه . علينا ان نناقش هذا الافتراض الاصلي في الحركة الصهيونية والذي يصر على ان هنالك شيئا اسمه « الامة » اليهودية والذي يفترض ان لهذه الامة المقومات الرئيسية للامم الاخرى ما عدا البقعة الجغرافية . وعلينا في هذه الحالة ان نناقش تلك الروابط التي تجمع بين اليهودي الاميركي واليهودي الافريقي ، او بين اليهودي الروسي واليهودي العربي . في نظري ان الصهيونية نجحت في ايهام الكثيرين من الناس بوحدة هذه « الامة » . ولكن هذا لا يعني انه يتوجب علينا ان نسلم بوجود هذه الروابط « القومية » بل علينا ان نتقصى الاسباب الحقيقية التي أدت بالصهيونية الى استغلال روابط معينة بين فئات من الاوروبيين لتحقيق اهدافها السياسية والجغرافية . كذلك لو نظرنا ، كما ذكر الدكتور فايز أو كما اشار المؤرخون ، الى الحركة الصهيونية نجد انها اجابة علمانية لمشكلة تواجد بعض الناس في اوروبة عاصروا التغير الذي حدث في اوروبة نفسها ، لكنهم في اجابتهم على هذه المشكلة ارتكزوا الى الركيزة اليهودية. فبأمكاني ان أقول ان هنالك شيئا من المفارقة anachronism في التسمية دائما ، اذ ان الحركة الصهيونية هي الاجابة في اطار مجتمع علماني اوروبي كما ارادت الجماعة التي تزعمت هذه الحركة ان تعطي اجابة علمانية كالاجابة التي قدمها المجتمع الالماني مثلا ، في اطار التمزق الالماني او في اطار تفرقة المجتمع الايطالي والمجتمعات الاوروبية الاخرى . يبدو لي ان هذا البعد النظري مهم جدا لانه بامكان هذا التحليل ان يؤدي بنا الى تحليل اخر من حيث الولاء الطبقي للجماعات التي ايدت الحركات الصهيونية . والغرض من هذا ، بالاضافة الى الرغبة العلمية في تفهم هذه الحركة ، اننا نريد ان ننظر الى الحركة الصهيونية من منظار اكثر تعقيدا من الذي جرينا وراءه ، سابقا وحديثا .

بالنسبة للحركة الصهيونية لدينا نظرة مبسطة : عندنا مشكلة والاجابة عليها سهلة ، فأما ان تكون حركة تآمرية لاقصاء بعض الطبقات في مجتمع بورجوازي معرض لثورات ، واما ان تكون رد فعل لرفض البورجوازية الاوروبية الخ ... كل هذه الاجابات في نظري اجابات مبسطة وينتج عن هذه الاجابات المبسطة استراتيجيات مبسطة لمواجهتها. لو نظرنا الى الحركة الصهيونية بأنها حركة معقدة تستند الى الدين تارة ، والى القومية تارة اخرى والى الصراع الطبقي والى الاضطهاد ، والى الكبت وهي بآن واحد متعددة الالسن متعددة المفاهيم وهي نفسها غير واضحة في ركائزها وفي مفاهيمها وفي سياساتها . تتطلب هذه الحقائق مواجهتها باستراتيجية معقدة، اذ بدل ان نفترض ان هناك مجتمعا يتكلم بلسان واحد ويمارس سياسة واحدة وبالتالي يجابه بسياسة واحدة ثابتة ، كان علينا ان نفترض ان هناك فئات صهيونية كثيرة تتكلم بمنطق يخالف المنطق الاخر ، تتبنى سياسات متغيرة ومعقدة ، وبالتالي وجب علينا مواجهتها بسياسات تساويها بالتغير والتكيف والتعقيد . هذا من النواحي النظرية ، اما من الناحية العملية فقد اراد الدكتور فايز صايغ ان يميز الاستيطان الصهيوني في فلسطين وكأنه نتج عن بصر صهيوني اوروبي معاصر لحركات استيطان اخرى ، واعتقد ان في هذا الكثير من الصحة . ولكن في آن واحد لو نظرنا الى ممارسات الحركات الصهيونية في فلسطين فسنجد ان الحركة الصهيونية نفسها لم تكن واضحة بالنسبة لما تريد اقامته في هذا المجتمع سواء من الناحية السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية اي شكل المجتمع الذي تريد ان تحققه ، وارتباط هذا المجتمع بالفئات التي تؤيده عالميا سواء الفئات

اليهودية او الفئات الاوروبية الاخرى . في نظري ان هذا الموضوع الطويل المدى ، موضوع نمط الاستيطان الصهيوني في المجتمع القائم ، تبدل كثيرا منذ قيام المجتمع الصهيوني وبداية الهجرة الصهيونية والاستيطان الصهيوني . وهذا التغير مرتبط اصلا بالمفاهيم الصهيونية المعقدة غير الواضحة بالنسبة الى الصهيونية كفرق متعددة ، ومرتبط كذلك بالسياسة التي واجهتها الجماعات الصهيونية في فلسطين . في كثير من الاحيان نفترض ان الحركة الصهيونية لها خطة معينة ولها طريق معينة لا تحيد عنها . الواقع ان هذه الحركة كغيرها من الحركات الاجتماعية لها افكار عامة عريضة ربما تناقض نفسها بين اليمين واليسار والوسط وغيره ولكن هذه المفاهيم تتفاعل يوميا مع المجتمعات التي تواجهها هذه الحركة . فعندما تكيف الحركة مفاهيمها بالنسبة الى مجتمع اوروبي تتأثر هذه المفاهيم ، وعندما تواجه العربي في فلسطين تتغير هذه المفاهيم وبالتالي ممارسات الحركة الصهيونية. في الواقع اذا افترضنا اصلا ان هذه المفاهيم ثابتة ولا تتغير وان الممارسات الصهيونية تعكس هذه المفاهيم ، يترتب على ذلك نتيجة خطيرة ، وهي نتيجة واقعية بالنسبة الى الحوادث العربية ، تتلخص بأننا نسير وراء هذه الخطوط العريضة دون أن نعي تأثيرنا العملي في هذه المفاهيم وامكانية التأثير عليها وتعديل ممارساتها . يعني لو افترضنا اننا اتبعنا في مواجهتنا للصهيونية سياسة بديلة للسياسة العربية الفلسطينية اثناء فترة الانتداب ، أو بسياسة مختلفة عما اتبعته الدول العربية بعد قيام دولة اسرائيل هل كان ممكنا ان نجبر الصهيونية على تعديل ممارستها ؟ بأخذنا موضوعات محددة ، هل كان لدينا بدائل معينة كان بأمكاننا اتباعها لاحباط الصهيونية ؟ ولو اتبعنا بدائل اخرى هل كان ممكنا لنمط الاستيطان ان يكون غير الذي حصل ؟

في تصوري ، النتيجة العملية ، او النتائج العملية والانجازات الحقيقية للحركة الصهيونية في المجتمع الفلسطيني وفي مواجهة المجتمع العربي كانت نتيجة للمفاهيم الصهيونية نفسها وللتغيرات التي حدثت في المجتمع الاوروبي ، وللتغيرات التي رافقت الحركات الصهيونية المختلفة بالاضافة الى مواجهتها مع الواقع العربي في فلسطين . ومن الخطأ بالنسبة لنا ان نهمل اهمية التفاعل بين الحركة الصهيونية مع المجتمع الفلسطيني والمجتمع العربي ، وبين التفاعل الذي يجري حاليا بين اسرائيل والدول العربية وذاك الذي اشار اليه الدكتور خدوري ، بين الحركة الصهيونية وبين اسرائيل وبين الحركة الصهيونية واسرائيل من جهة والمجتمعات الاوروبية من جهة اخرى .

العظم : أعتقد اولا انه لا خلاف مع د. ابو لغد بأن هدف فهمنا للحركة الصهيونية ليس مجرد العلم بالمعنى التجريدي بل الارتباط بالنضال العملي . ثانيا عندما نتكلم عن المسألة اليهودية يبدو لي انه مفهوم ضمنا ان هذا الكلام يتناول مسألة في مكان معين وفي زمان معين وفي حقبة تاريخية معينة وليس المعنى هو المسألة اليهودية في افريقية او الهند . اعتقد ان هذا الشيء متفق عليه من قبل الجميع .

فؤاد قازان : ليس من شك في ان هذه الندوة مفيدة جدا في حاضرها وفي مستقبلها لمجموع الحركة التحررية العربية وبصورة خاصة للحركة الثورية الفلسطينية كجزء هام من الحركة العربية العامة . ويود المرء لو ان الدكاترة المحترمين تكلموا عن دور ظاهرة اجتماعية اثرت الى حد كبير في ايجاد المسألة التي سميت في اوروبة بالمسألة اليهودية وتأثيرها في القرون الوسطى على اليهود ، وهي الصراع ما بين اليهودية وبين المسيحية وتزعم المسيحية المتمثلة انذاك بالبابوية ، تزعمها الصراع المعادي لليهود ومنعهم من أن يتملكوا الارض والسماح لهم بأن يتاجروا بالمال . ولهذا السبب لم تخلق جذور قوية في اوروبة لعملية دمج اليهود تاريخيا بالجماهير غير اليهودية الاوروبية الاصل . لقد أخذوا اتجاه الاتجار بالمال ولهذا السبب تطورت الرأسمالية اليهودية لدرجة اصبحت جزءا لا يتجزأ من مجموع حركة الرأسمال . اما بالنسبة لمسألة الاستيطان التي أثارها الدكتور صايغ ، وهي قضية هامة ، فأعتقد ان الصهيونية لم تكن تقصد عن طريق الاستعمار الاستيطاني حلا للقضية اليهودية على الاطلاق ، هذا في رأيي . ولم تقصد الامبريالية التي ساعدت الصهيونية والتي هي كانت تدربها ، لم تقصد ايجاد حل للقضية اليهودية وذلك لسبب بسيط هو انه لا يمكن في اي وجه من الوجوه ان تستوعب فلسطين بحدودها التي نعرفها جماهير اليهود في العالم البالغ عددهم ١٤ او ١٣ مليونا .

الامر المهم كان خلق ركيزة ، ولا سيما بعد اكتشاف البترول وبعد ان صرح بلفور بوعده المشؤوم ، خلق ركيزة في المنطقة لانه كان معروفا عند

الامبريالية في اوائل القرن العشرين ان العرب سيتحركون ، ومنذ ذلك الحين كان الامبرياليون يعملون بكل جهدهم لايجاد نقطة ارتكاز او رقبة جسر هنا . ولهذا السبب أفلا يمكن القول ان الصهيونية ، بعد ان اقامت دولتها بفضل الامبريالية ، هي امتداد للامبريالية الغربية ولا يمكن لاسرائيل ان تكون مستقلة طالما ان النظام فيها هو نظام طبقي . عندما يلغى النظام الطبقي في اسرائيل تبطل اسرائيل من ان تكون اسرائيل . اما بالنسبة لمسألة المفاهيم التي تتغير ، مفاهيم الصهيونية بالنسبة الى البلاد العربية واوروبة والهند ، فاعتقد ان الشكل يتغير اما الجوهر فلا.

البير فرحات : اود ان ادلي ببعض الملاحظات على المداخلة القيمة التي تقدم بها الدكتور فايز الصايغ عن اوجه الصلة والشبه ومواطن الاختلاف بين الحركة الصهيونية وبين جميع الحركات القومية والاستعمار الاستيطاني والامبريالي . قال الدكتور صايغ ان الصهيونية استفادت من هذه الظواهر الثلاث ، وفيما يتعلق بالظاهرة الاخيرة اي الامبريالية أكد ان الصهيونية استفادت منها وأفادت. وبودي التأكيد على أمرين : اولا التمييز بين هذه المصادر الثلاثة التي استفادت منها الصهيونية كي تقيم كيانها على ارض فلسطين ، اي ان المسألة التي اطرحها هي اي من هذه العناصر الثلاثة كان العنصر الحاسم ؟ ثانيا قضية العلاقة بين اسرائيل والامبريالية ومدى تبعية اسرائيل للامبريالية . أرى انه من الضروري الجواب على المسألة الاولى اي مسألة معرفة المصدر الاساسي والحاسم الذي استفادت منه الصهيونية ، وكان في أساس قيام الاقتصاد الصهيوني في فلسطين وذلك كي لا نكتفي بدراسة مورفولوجية ، بوضع ظاهرات الى جانب بعضها دون التأكيد على الاهم بينها . ان موقفي هذا ينطلق من هاجس عملي هو ضرورة الامساك بالحلقة الرئيسية وتوجيه النضال بصورة رئيسية ايضا نحو هذه الحلقة ، وبالتالي اني اجيب على السؤال وأقول ان العنصر الحاسم في قيام الكيان الصهيوني كان الامبريالية . طبعا قال الدكتور فايز صايغ بان الصهيونية مستعدة لان تغير سيدا بسيد وان ثمة مرشحين امبرياليين اخرين يمكن ان تلجأ اليهم ، ولكن ارى انه يجب عدم الاكتفاء بهذا التحليل . يجب ان نربط هذا التحليل بالواقع كما في تغيره . واذا قمنا بهذا فلا بد لنا من القول بأن طاقة اسرائيل على التكيف محدودة ، محدودة لاسباب اذ ان اسرائيل غير مستعدة لخدمة اية امبريالية كانت بصورة عامة . انها مستعدة لان تربط مصيرها بالامبريالية الاقوى اي بالامبريالية التي لها مصالح قوية بالوطن العربي وفي الشرق الاوسط . وارى ايضا ان التذكير بهذه الناحية ضروري لان هناك كثيرين في العالم الخارجي ما زالوا يعتقدون بان قادة اسرائيل يستندون اليوم الى الامبريالية الاميركية لانهم لا يستطيعوا ان يسلكوا سلوكا اخر ، في حين ان الحقيقة هي العكس تماما ، أي ان الحركة الصهيونية ربطت مصيرها بالامبريالية منذ نشأتها في عهد الاستعمار وتقسيم العالم بين الامبراطوريات الاستعمارية ، ثم ربطت مصيرها بالامبريالية الاميركية على وجه التحديد لانها اقوى الامبرياليات الموجودة ولانها اكثر الامبرياليات رسوخا من حيث مصالحها الاقتصادية في هذه المنطقة . طبعا توجد المسألة الاخرى وهي تحديد طبيعة العلاقة ومدى التبعية والاستقلال بين اسرائيل والامبريالية . انا موافق تماما على قول الدكتور صايغ بأنه لا يجب النظر الى الصهيونية بوصفها مجرد ظل أو امتداد للامبريالية ، اذ يوجد استقلال نسبي في علاقتهما . ولكنني اقول انه من الضروري ان لا نكتفي بالنظر الى هذه الظاهرة المتنافية اي ظاهرة التبعية والاستقلال النسبي في آن واحد ، بدون ان نحدد ضمن هذا التناقض ايضا العامل الرئيسي والحاسم وهو ، على ما اعتقد ، عامل التبعية . من الضروري التأكيد على ذلك بسبب هواجس عملية وهواجس مستقبلية لانه اذا عرفنا انه الى جانب الاستقلال النسبي توجد التبعية للامبريالية وان التبعية هي العامل الحاسم فانه بامكاننا تركيز نضالنا ونشاطنا ضمن مفهوم واقعي وصحيح . طبعا اني لا اقصد بذلك القول أن ازالة الكيان الصهيوني يعني انطفاء اخر شعلة من شعل الامبريالية من على وجه البسيطة ، ولكن اقول وأؤكد على الصلة الوثيقة بين القضاء على الكيان الصهيوني والقضاء على الامبريالية ولا سيما القضاء على النفوذ الامبريالي في المنطقة. ما شئت ان اوكد عليه هو ضرورة التشديد على العناصر الحاسمة في اي قضية معقدة وعدم الاكتفاء بتحليل الظواهر ، مهما كان التحليل صحيحا وواقعيا ، بدون ان نعطي في نتائج هذا التحليل الاهمية للعناصر الاهم .

صايغ : حتى الان جرت ثلاث مداخلات تخللت كلا منها بعض التعليقات على شيء مما ورد في

كلمتي الاولى . ولا بد لي من الاختصار كثيرا كي استطيع ان اعلق على التعليقات الثلاثة في مدة عشر دقائق . ابدأ بكلمة الدكتور ابو لغد بانكاره ان تكون الصهيونية كلها تتكلم بلسان واحد او أنها كانت دائما واضحة فيما تريده . تعليقا على هذا أقول انه بالنسبة الى القضية التي تهمنا مباشرة اكثر من اية قضية سواها (اي الصلة بين المستوطن الصهيوني والشعب الفلسطيني) ، اعتقد ان الصهيونية كانت بالفعل تتكلم منذ نشأتها بلسان واحد وكانت دائما واضحة فيما تريده . وبفضل مرونتها وبفضل نهجها الذي يكيف الاهداف المرحلية وفق الاوضاع القائمة دون التنازل عن الغرض النهائي الذي يظل ثابتا طول الوقت ، استطاعت الصهيونية ان تكيف تصرفاتها للوصول الى الغرض الاساسي الذي كان وظل واحدا . كان لدى القيادة الصهيونية منذ قيامها قرار واضح وأكيد بانه **لا مكان في فلسطين للمستوطن اليهودي الصهيوني وللفلسطيني في آن واحد** . بكلمة اخرى: امام نمطين من الاستعمار الاستيطاني ، النمط الكلاسيكي الذي كان المستوطن الاوروبي يزيح فيه من الطريق بشكل او باخر القاطن الاصلي ، من جهة ، ونمط اواخر القرن التاسع عشر وهو نمط الاستيطان المختلط الذي يقيم فيه الابيض الى جانب الساكن الاصلي ويستثمره ويستخدمه ويسيطر عليه مع بقائه في الاقلية ، من جهة ثانية، بين هذين النهجين اختارت الصهيونية منذ البدء الاستعمار الخاص ، اي الاستغناء عن القاطنين الاصليين في الوطن المرغوب الاستيطان فيه وطردهم منه . فمنذ ان بدأ هرتزل يفكر باقامة دولة اليهود كتب في مذكراته (وذلك في ١٢ حزيران عام ١٨٩٥، في المجلد الاول من الطبعة الانكليزية لمذكرات هرتزل ، الصفحة ٨٨) ثم كرر ذلك عدة مرات : « اننا عندما نستولي على البلد سوف نزيح سكانه عبر الحدود » . منذ ان كان هرتزل ينادي بذلك ، ومنذ ان كان وايزمان يقول : « نريد ان نجعل من فلسطين بلدا يهوديا بمقدار ما انكلترا انكليزية واميركة اميركية وفرنسة فرنسية ، منذ ذلك الحين، والغرض الاساسي هو عدم الاختلاط مع السكان الاصليين القاطنين ، وانما اقصاؤهم والاستغناء عنهم . وقد اثر هذا في اسلوب التعامل مع العرب . والفت نظر الجميع الى مذكرات بن غوريون حول ما قام به عام ١٩٠٧ عندما جاء الى الشجرة ، ونجد ذلك في كتابه ***Rebirth and Destiny of Israel*** حيث يقول في الفصل الثاني انه وجد المهاجرين اليهود القدامى ، أي مهاجري الفوج الاول منذ عام ١٨٨٢ يتعايشون مع العرب ويستخدمون العرب عمالا ومزارعين وحراسا لمستعمراتهم ، فكان لا بد له من ان يحرض على طرد العمال العرب وطرد الحراس العرب وطرد المزارعين العرب كي تكون كل مستعمرة يهودية مهما كان عددها ضئيلا معتمدة على كل فرد من افرادها في عمليات الحراسة والزراعة ، اي كي تكون كل مستعمرة مجتمعا يهوديا مستقلا قائما بذاته . نأتي أيضا الى ذكر روبين الذي كان رئيس دائرة الاستعمار في الوكالة اليهودية . عندما قدم الى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر ، بعد فترة اشرافه على تطبيق الخطة الاستعمارية قال ان استراتيجيتنا كانت نابعة من غرضنا الاساسي وهو خلق مجتمع لليهود لا يعتمد على مواطنين اخرين . هذا المجتمع لم نستطع خلقه دفعة واحدة . لذلك كان علينا ان نبدأ بكل مستعمرة على حدة وان نجعلها يهودية خالصة كي نكون قادرين على الاستقلال الذاتي حتى لا نكون تحت رحمة العامل العربي او المزارع العربي الخ في كل ازمة . لهذا نجد حتى في صفوف الحركات العمالية اليهودية مفارقة بين المبادىء من جهة وبين عقيدتها الصهيونية التي كانت تخلق الحزازات بين العامل العربي والعامل اليهودي ، اذ انها بدلا من ان تقدم عقيدتها العمالية كانت تقدم قوميتها الصهيونية . ولا انسى ما قاله بن غوريون عندما عاد من اول زيارة قام بها الى افريقيا الجنوبية عام ١٩٦٩ ، ونجد ذلك في تصريح ادلى به الى «جيروزاليم بوست» في حزيران عام ١٩٦٩ حيث ذكر في تلك المقابلة انه قال لرئيس وزراء افريقيا الجنوبية ان مشاكلكم مع الملونين والسود والاسيويين هي من صنعكم ، فلو فعلتم في البدء بالسكان الاصليين ما فعلناه نحن منذ البدء بالعرب لما كانت الاقلية بيضاء والاكثرية ملونة وسوداء اليوم . ليس لدي شك على الاطلاق من مطالعاتي للادبيات الصهيونية انه منذ البدء كان الخيار المطروح هو بين الاستيطان الخالص وبين الاستيطان المختلط وان الصهيونية اختارت النموذج الاول ، اي الاستيطان الخالص ، منذ البدء . اي انها رفضت فكرة التعايش بين اليهودي الصهيوني وبين الفلسطيني العربي ، لان ذلك يتناقض مع قيام دولة لليهود في فلسطين .

هذا بالنسبة لتعليقي على كلمة الدكتور ابو لغد .

اما بالنسبة لقول الاستاذ قازان انه لم تكن الصهيونية تقصد ولا الامبريالية قد قصدت يوما من الايام حل المسألة اليهودية عن طريق الاستيطان في فلسطين : قد يكون هذا القول صحيحا بالنسبة للامبريالية التي تعاونت مع الصهيونية ولكنه ليس صحيحا بالنسبة الى الصهيونية نفسها . هناك تحالفات على مدى تاريخ الصهيونية بين الفريق الصهيوني من جهة وهذه الامبريالية او تلك من جهة اخرى . وفي كل تحالف ، لكل فريق هدفه ومصالحه واسباب دخوله في هذا التحالف . ولم يخطر ببالي يوما من الايام ان الامبراطورية البريطانية سنة ١٩١٧ قدمت وعد بلفور لتحل المسألة اليهودية ، وانما هي قدمت وعد بلفور لتخدم المصالح الامبريالية البريطانية . واميركة اليوم تقدم العون الى اسرائيل كي تستفيد المصالح الامبريالية الاميركية . اما الصهيونية فمنذ البدء كان غرضها الاساسي حل ما اعتقدت هي انه مسألة يهودية حلا نهائيا عن طريق خلق دولة اليهود . اما قول السيد قازان بان فلسطين لا تكفي لاستيطان جميع اليهود فمردود لان عبارة فلسطين منذ الاساس كانت عبارة مطاطة في المفهوم الصهيوني وخاضعة للتوسيع . قال هرتزل لوزير خارجية المانيا ذات يوم : « فلسطيننا تقع ضمن تلك الحدود التي يقتضيها عدد المستوطنين في فلسطين . فكلما ازداد عدد المستوطنين اتسعت تلك الحدود » . اما القول بانه ليس للصهيونية كيان ذاتي خاص وعندما يتغير التركيب الطبقي في اسرائيل تنتهي الصهيونية ، فهو قول يتغاضى عن المشكلة الفلسطينية تغاضيا كاملا ، فهب ان اسرائيل اصبحت دولة اشتراكية بكل معنى الكلمة غدا ، وهب انه ازيلت منها الطبقات والنزاعات الطبقية ، وهب انها جارت في سياستها الخارجية سياسة الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية . فهل كل هذا يحل بالنسبة للفلسطيني المشرد مشكلة تشريده ، او هل هذا يجعل المجتمع الاسرائيلي اليهودي مجتمعا اقل غرابة عن المجتمع العربي الذي زرع نفسه في وسطه مما هو الان ؟ انا اعتقد ان هذا القول يتناسى الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الاجلائية للحركة الصهيونية تناسيا تاما ، ويتناسى مصير الشعب الفلسطيني وحقوقه الانسانية والقومية في وطنه .

والان آتي الى كلمة الاستاذ فرحات ، وارد على سؤاليه الاساسيين ، أي من هذه العناصر الثلاثة، القومية والاستعمار الاستيطاني والامبريالي ، كان هو الحاسم ؟ أقول ان **القومية** كانت هي العنصر الحاسم من حيث انها لعبت دور الحافز لليهود ليشتركوا بالحركة الصهيونية وكذلك دور المبرر لحمل الشعوب الاخرى على تأييد اقامة دولة صهيونية لليهود . وكان **الاستعمار الاستيطاني** العنصر الحاسم من حيث كان هو النهج الذي انتهجته الحركة الصهيونية في تحقيق ذاتها . **والامبريالية** كانت هي العنصر الحاسم من حيث انها مكنت الصهيونية من ارساء قواعدها في فلسطين . فأي هو العنصر الحاسم يتوقف على السؤال : من اي زاوية تنظر الى الحسم ؟ من الزاوية العملية لا ريب ان الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم ، ولكن من ناحية حمل اليهود على الالتفاف حول الحركة الصهيونية اعتقد ان القومية كانت ذلك ، اي أن النموذج القومي كان هو العنصر الحاسم بهذا المعنى . اما من حيث نهج الاستيطان الصهيوني وطريقته فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو العنصر الحاسم . اما على الصعيد العملي فلا ريب في أن الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم .

لذلك فاذا عدنا الى تمييز الدكتور ابو لغد ، وبحثنا فقط من ناحية اكاديمية ، استطعنا ان نضع هذه العناصر الثلاثة على مستوى واحد ونقول من هذه الزاوية كان هذا العنصر هو الحاسم ومن تلك الزاوية كان ذلك العنصر . اما اذا نظرنا الى الموضوع كملتزمين بتحرير فلسطين فلا ريب بأنه يجب ان نؤكد بأن الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم الذي مكن الصهيونية من ارساء قواعدها في فلسطين . اما بالنسبة الى السؤال الثاني من سؤالي السيد فرحات ، حول العلاقة وصيغتها بين الصهيونية في فلسطين وبين الامبريالية ، وحول مدى تبعية اسرائيل للامبريالية من جهة ومدى استخدامها للامبريالية من جهة اخرى ، فقد اكد الاستاذ فرحات ، واجاريه في ذلك ، ان وجود استقلال نسبي يجب ان لا يعمينا عن التبعية ، وهذا كان متضمنا فيما قلته . ولكني اريد ان اؤكد نقطتين : اولا : كلما نمت القوة الذاتية للاستيطان الصهيوني كلما خفت حدة او درجة اعتمادها على تبعية اجنبية . ان الصهيونية ستظل تعتمد على التبعية الاجنبية ، ولكن اعتمادها اليوم سنة ١٩٧٢ هو غير اعتمادها سنة ١٩١٧ . ان بريطانيا تالت لا في ١٩١٧ لما جاء مهاجرون يهود الى

فلسطين . أما اليوم ، فتستطيع بريطانيه وفرنسه واميركة وروسيا والصين ان تقول جميعها معا لاسرائيل لا ، واذا كان الموضوع الذي يدور عليه رفض هذه الدول حيويا بالنسبة لاسرائيل فانها ستقاوم بقوتها الذاتية وستعارض وستستعمل كل اساليب ضغطها كي لا تصبح هذه المسألة خلافا دائما بينها وبين مصادر عونها ومصادر استفادتها.

ثانيا : هناك المرونة الاسرائيلية . يجب ألا ننسى انها تدرك الاختلاف النسبي او الجانبي في المصالح بينها وبين الامبريالية التي تتعاون معها ، ولكنها عندما تقضي المصلحة ان تتغاضى عن هذا الاختلاف في سبيل مصلحة اعلى ، هي استمرار العون الامبريالي ، فانها تتغاضى عن الاختلاف — وهي قادرة على ذلك . ولكن عندما يكون هناك أمر حساس وحيوي لا تستطيع ان تتغاضى عنه فانها تغامر بعدائها للامبريالية هذه بينما تفتش عن امبريالية اخرى تحل محلها . واورد مثلا على ذلك اعتماد الصهيونية على بريطانيا طوال عهد الانتداب ولكن لما جاء الكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ ووجدت أن قبولها بالكتاب الابيض سيفهي العملية الصهيونية انهاء كاملا لم تجد مفرا من محاربة بريطانيا بعد أن بدأت تفتش في اميركه عن بديل أقوى من بريطانيا وبديل يمكن ان يكون اكثر تجانسا مع اغراضها مما وصلت اليه بريطانيا .

الياس مرقص : نفسيا ، اعتقد ان الكلمات والتعليقات الممتازة التي جاءت من قبل الاساتذة فايز صايغ وابراهيم ابو لغد والبير فرحات هي كلمات تغنيني عن الكلام . ولكن اريد ان اؤكد اولا انني اعتقد بوجود جوهر مشترك بينها وان الخلافات الممكنة في هذا المجال هي خلافات صغيرة ومحدودة . واريد ان اضيف اولا انه بالنسبة الى تأكيد اولية الامبريالية هذا أمر لا شك فيه ولكن يجب ان نفهم مفهوم الامبريالية ليس فقط على اساس تصور للجوهر او للهيكل الاقتصادي الامبريالي ولمرحلة الرأسمالية الاحتكارية بل يجب ان تطرح بشكل رئيسي في صيغة اوسع وعلى أساس مفهوم العالم الامبريالي الواقع ، العالم الامبريالي الذي لا يتماثل كل التماثل مع نهوض الاسلوب الامبريالي او الاسلوب الرأسمالي، وبهذا المعنى فان العالم الامبريالي قائم أساسا وجوهريا ليس فقط على سيطرة طبقة على طبقة داخل بلد واحد او قطر واحد او امة واحدة وانما هو قائم ايضا وبشكل شديد على أساس سيطرة قطر وهيمنته على قطر وأمة على أمة وشعب على شعب ، وأضيف ، وعرق على عرق وجهة جغرافية على جهة جغرافية في الكرة الارضية وطائفة على طائفة وهكذا دواليك الى ما لا نهاية في العالم وفي الواقع — في عالم الواقع الجغرافي غير المحدود . واحب ان الفت النظر الى قصة اوري افنيري ومشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين في حوالي سنة ١٨٤٠ وهي القصة الواضحة في كتابه وخصوصا في كتاب الاب حجار الاخير « اوروبا ومصائر الشرق الادني » حيث كتب بالمرستون الى سفيره في الاستانة بأن عليه تشجيع مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين كي يكون ذلك هو الحائل والضمانة ضد عودة محمد علي باشا الى سورية او عودة احد خلفائه الى سورية . اي اريد ان اقول ان المسألة اليهودية والمسألة الصهيونية وقبل تأسيس الحركة الصهيونية رسميا بما يزيد عن خمسين سنة ، ارتبطتا ليس فقط بالاستعمار والصهيونية وانما ارتبطتا بالموقف الاستعماري من الوطن العربي ومن القضية العربية في اطار وقضية الوحدة العربية في اطار العالم الواقعي لذلك الزمان ولعصرنا ايضا .

تعليقا على النقاش الذي دار بين الدكتور ابو لغد والدكتور فايز صايغ يبدو لي شخصيا ، رغم انهما اكثر اطلاعا مني بكثير على المذكرات والوثائق، أن هناك فترة في تاريخ الصهيونية الاول ، في تاريخها الرسمي ، كان لها بعض الحسم في الامر وهي الفترة الممتدة بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ حيث انتصر شعار العمل اليهودي الذي عنى أن الصهيونية العمالية انتصرت على بقايا تصورات انصار روثتشايلد . وكانت المشكلة موضع الاهتمام هي الاستعمار الاستيطاني من نوع الجزائر او أشد ، من نوع افريقيا الجنوبية او اقامة امة يهودية كاملة في فلسطين . واحب أن اقول ماذا اقصد بأمة يهودية كاملة في فلسطين . أمة يهودية في فلسطين بالمعنى الاقتصادي ، أي امة يهودية تجمع كل الطبقات . يكون هناك عمال بورجوازية يهودية طبقات وسطى يهودية وطبقة عمال يهود .

وانتصر هذا الموقف العملي والنظري انتصارا كاملا ونهائيا انذاك والنتيجة هي اننا نجد اليوم ان عدد العمال العرب في اطار اسلوب الانتاج الاسرائيلي او الاقتصاد الاسرائيلي اقل من عدد

العمال الاجانب في الاقتصاد الفرنسي، أقل من نسبة العمال الاجانب في الاقتصاد في فرنسا او اقل من نسبة العمال الاجانب في الاقتصاد الالماني . نحن العرب درجنا على أن نتجنب مصطلح الامة اليهودية . وكرهنا لهذا المصطلح او لهذا المفهوم نبع من عدة اعتبارات ، الاعتبار الاول اننا نعلم انه عندما قامت الحركة الصهيونية كان اليهود ربما لا يتمتعون بخمسة بالمائة او بعشرة بالمائة من الخصائص الكاملة التي تؤلف أمة .

ثانيا : نحن العرب واقعون في مشكلة قومية ونضال قومي ضد الاستعمار ومن أجل الوحدة العربية وضد هؤلاء الصهيونيين الذين يحاربوننا . ولكن في رأيي ان كرهنا لمصطلح الامة اليهودية يتضمن وجها سلبيا آخر اذ أننا من جهة نكاد نعطي صفة الامة صفة الاطلاق ، وثانيا نقوم بعملية تقديس دينية ميتافيزية لكلمة امة . هذا الامر في مفهومي الشخصي لم يرد في جوهر الماركسية او عند لينين او عند انجلس . اننا نذكر ان انجلس وماركس ولينين قد شجبوا وميزوا بين شعوب رجعية وهي بعض شعوب يوغوسلافية التي كانت في سنة ١٨٤٨ مخافر امامية للقيصرية الروسية ضد الديمقراطية الاوروبية ، وبين الشعوب الثورية او الشعوب التقدمية . وهذا أمر أثار نقاشا طويلا في الحركة الماركسية آنذاك وفي زمن لينين. وأنا شخصيا أفهمه بالمعنى التالي : لا يمكن لنا او لاي مفهوم علمي ان يقيم علاقة مساواة بين الامم لان علاقات المساواة بين الامم هي نوع آخر من العدمية القومية.وهي مفهوم برودوني ، مفهوم فوضوي باكونيني ، ولكنه ليس بمفهوم ماركسي . في كل مرحلة تاريخية يمكن ان يكون هناك أمم تقدمية وأمم رجعية ويمكن ان تنشب حروب ، حروب تتضمن ابادات كثيرة بين هذين النوعين من الامم . لذلك أريد ان اقول اخيرا انه يجب ان نستخدم مصطلح الامة اليهودية في ضوء الواقع الراهن وثانيا يجب ان نفهم الوضع الامبريالي العالمي والانقسام الى أمم .

الياس شوفاني : عندي بعض الملاحظات القصيرة حول نهج التحليل بالنسبة الى معرفة اصول الصهيونية ومن ثم تطورها الى قيام دولة اسرائيل والوضع الحالي فيها مما يساعد في وضع استراتيجية او وضع خط معين لمقاومة هذه الدولة الموجودة في داخل وطننا . لا بد ان يكون خط التحليل شموليا ، اعني بالشمولي انه يجب ان يأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الموجودة في حركة معينة. اقصد بهذا ما قدمه الاستاذ صادق العظم عن رواية شكسبير ، بالنسبة للمرابي اليهودي والتاجر البندقي . اذا نحن أخذنا قسما صغيرا من المجتمع اليهودي وكانت الصهيونية مثل اليهودية بالنسبة لكثرة المرابين ، واعتمدنا هذا كمنطلق لتجليلنا للصهيونية نكون اعتبرنا كل اليهود كما لو كانوا مرابين ، وهذا كلام صحيح جزئيا اذ كان قسم منهم من المرابين وكان قسم اخر من أصحاب الصناعات الصغيرة ، تجارا صغارا ، نجارين ، حدادين وما الى ذلك . بالاضافة الى هذا في هذه الفترة التي نتكلم عنها ، القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كان للتجار اليهود دور كبير في التجارة بين المدن الايطالية وبين الشرق الاوسط ، في زمن ظاهر العمر وفي زمن الجزار باشا . اذا قلنا ان كل اليهود مرابون وليس لهم ضلع في التجارة العالمية فهذا كلام يحتاج الى بعض الدراسات حتى نستطيع ان نخرج منها بنتيجة . النقطة الثانية التي تكلم عنها الاستاذ الياس سعد حول وجود البروليتارية اليهودية ، فاذا كان هذا ما حدث عند القيادة الصهيونية فكيف نستطيع ان نفسر هجرة هذه القيادة نفسها مع البروليتارية ، يعني القيادات الصهيونية قبل وايزمان وبن غوريون التي تطوعت وهاجرت بنفسها ؟ اذا كان الهدف هو تهجير البروليتارية وبقاء القيادة مع الرأسمالية الاوروبية فكيف نعلل انهم هم انفسهم هاجروا ؟ اقول ان التحليل يجب ان يكون شموليا وان نأخذ بعين الاعتبار اكثر من منطلق واكثر من زاوية. كما يجب ان يكون التحليل مرتبطا ببرنامج تحليلي معين اما من منطلق رأسمالي غربي تفصيلي او منطلق ماركسي طبقي مرتبط بمكان وزمان وظروف معينة. وارى أن هذه النقطة مرتبطة بما أشاره الاستاذ صايغ بالنسبة الى التفريق بين الاستعمار الكلاسيكي والاستعمار الحديث وهو بالفعل تفريق نظري أكثر مما هو حقيقي واقعي. يعني حسب رأيي لا ارى الفرق بين أن يعزل اليهود قسما بسيطا من المنطقة العربية يستوطنونه كاملا بينما يمارسون استغلالا اقتصاديا لكل المنطقة الباقية ، والشيء الواضح هو ان اسرائيل لا يمكن ان تضمن بقاءها كما يتوجب هدفها الحقيقي ، الا اذا استغلت اقتصاديا وسياسيا وتسلطت عسكريا على المنطقة

كاملة فالتمييز الذي قدمه الدكتور صايغ ليس الا تمييزا صغيرا ولا يؤدي بنا الى حل المشكلة بصورة جذرية . الملاحظة الاخرى عن كلمة الاستاذ صايغ حول مسألة الفارق الذي يمكن ان يأتي به قيام الاشتراكية في اسرائيل هي ان هذا الكلام سليم في الوقت الحاضر . مثلا احد الاشتراكيين الاسرائيليين يتكلم عن انعدام امكانية عيش العرب واليهود في فلسطين وعن انه لا بد من الابقاء على الدولة اليهودية كما هي وانه لا توجد اية امكانية لاعادة العرب في الوقت الحاضر الى اسرائيل . الذي اراه هو ان مسار الحركة الصهيونية والسياسة الاسرائيلية كان لا بد من اتباعه ما دامت اسرائيل تسير وراء الهدف الاساسي التي وضعته لنفسها ، يعني ما دامت تريد دولة يهودية صرفة في فلسطين كان لا بد من انتهاج السياسة التي انتهجتها الصهيونية في العلاقات مع الامبريالية، وفي العلاقات الطبقية الموجودة بينهم . اذن ان مشكلة النظر الى سياسة اسرائيل من خلال دراسة ما كتب قبل قرن لا تؤدي بنا الى أية نتيجة . لا بد من ان ندرس الاوضاع الموجودة فيها حاليا . وهنا اريد أن استعرض ما قاله الاستاذ صادق العظم عن تطور القومية الاسرائيلية المحلية التي لها مصالح مختلفة عن مصالح اليهود في اميركة ومصالح اليهود في بريطانيا وعن مصالح اليهود في روسية اي أصبح لاسرائيل مصالح تؤدي بها الى سياسات معينة تجاه الوضع الموضوعي الذي يحيط بها في العالم الغربي . انا لا اتبعد ما قاله العظم في مجلة « شؤون فلسطينية »* حول قيام استعمار اسرائيلي لمصلحة اسرائيل ذاتيا خاصة اذا كان الوضع ... في اميركه قد تغير نتيجة لظروف محلية . وعلى كل فهناك - هرة بروز قومية اسرائيلية مختلفة عن الصهيونية . هنا انتقل الى كلمة الاستاذ وليد خدوري التي اظهرت ان علاقة اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ بامريكا تعزز ما ذكر عن تطور القومية الاسرائيلية واستقلال اسرائيل عن الحركة الصهيونية ومحاولتها التخلص من الوسيط الصهيوني الذي يحاول في امريكا ان يخدم مصالحه عن طريق تقديم خدمات اسرائيلية للامبريالية . اي تحاول اسرائيل ان تتخلص من هذا الوضع . في كلمة صريحة قالها رابين قبل اسبوعين سببت ضجة كبيرة ضده في واشنطن ذكر ان هناك حكومة اسرائيل من جهة وحكومة امريكا من جهة اخرى ولا يوجد اي مكان لليهود في الوسط ، واستمر في قوله بأنه في السابق كانت السفارة الاسرائيلية لا تشكل الا فرعا من الوكالة اليهودية في واشنطن اما الان فالوكالة اليهودية هي فرع من السفارة . هناك ايضا التدخل الاسرائيلي الذي لا يراعي الاعراف الدبلوماسية المتبعة اي القفز فوق الاعتبارات الدبلوماسية بين الدول المختلفة واتصال الحكومة الاسرائيلية رأسا ومباشرة بالمواطنين الاميركيين بدون اتباع الطرق التي تفرضها الاعراف الدبلوماسية للاتصال بهذه الجماهير ، اي عن طريق حكوماتها . كل هذا يعطينا رؤية واضحة ، في نظري ، بأن اسرائيل صارت تتجه في الخط الذي وضعه بن غوريون قبل عدد من السنين وهو التخلص من المنظمة الصهيونية وتسلم كافة الامور التي كانت تقوم بها الصهيونية سابقا مع ابقاء الصهيونيين كتنظيمات محلية يمكن الاستفادة منها تنظيميا للوصول الى الاهداف . ولكن على اساس الا تكون المنظمة الصهيونية هي الوسيط . لذلك اعتقد ان وجود اسرائيل كركيزة وامتداد للامبريالية العالمية هو شيء ظاهري ومؤقت فاذا عاشت اسرائيل الى الان على هذا النحو فهذا لا يعني ان الامور لن تتغير . اذ لا بد من اخذ الامور في موقع وفي زمان معينين مهما كان الموجود قبل خمسين سنة مثلا . اذا كنا نريد الكلام عن الاستعمار وعن حماية قناة السويس ليس من الضروري استعمال اسرائيل لهذا الغرض بعد مئة سنة وكونها في الوقت الحاضر ركيزة من هذا النوع لا يعني انها ستكون ذلك الى الابد .

من ناحية ثانية اذا كان هذا النهج التحليلي يوصلنا الى تحليل المجتمع الاسرائيلي على أساس طبقي ومعرفة الطبقات التي وضعت السياسة الاسرائيلية الحالية فلا يمكننا بأي شكل من الاشكال ان نقول ان جميع اليهود في اسرائيل عملاء استعمار ونقول ان جميعهم عملاء امبرياليين ، لا بد ان هناك طبقة معينة لها مصلحة معاكسة . وهناك طبعا مجموعات كبيرة ، من خلال وعي سياسي معين ، تتبع هذه السياسات للدولة ، وعلينا القيام بتحليل لنعرف من هم أصحاب المصلحة في انتهاج هذه السياسات واقامة هذه الارتباطات ، عندئذ يمكننا شق المجتمع من

---

* « اسرائيل والتسوية السياسية » عدد ٤ ، أيلول ١٩٧١ .

خلال اتباع استراتيجيات داخلية وخارجية بحيث نصل في يوم من الايام الى حل القضية المسماة بالقضية الفلسطينية .

العظم : لي تعليق صغير على بعض ما قاله الدكتور شوفاني ، واشكره لانه أدخل النقاش في بعض الموضوعات الراهنة . بالنسبة لما ذكرته عن موضوع الصراع بين الرأسمال الربوي والرأسمال التجاري الجديد لم يكن الا محاولة بسيطة ، في حدود الفسحة المتاحة ، للاشارة الى المشكلة بصورة رمزية بغية التمثيل على الطريقة او المنهج الصائب لفهم المسألة اليهودية من خلال أثر ادبي معين . لا خلاف حول ما قاله شوفاني بالنسبة لموضوع التجارة وعمل اليهود بها اذ ان ماركس قال ان الرأسمال التجاري هو الاخ التوأم للرأسمال الربوي وهما الرأسمال الذي لا غيره من رأسمال في مرحلة المجتمع الاقطاعي . وكان اليهود طبعا يقومون بالعمل التجاري كما كانوا يقومون بالعمل التربوي . ومع البروز البطيء للطبقات الوسطى المحلية المسيحية بدأ هذا الصراع الذي اعتقد بالنتيجة انه ادى الى خلق ما يسمى بالمسألة اليهودية . بالنسبة الى ما ذكره الاستاذ الياس مرقص حول تعبير الامة اليهودية ، طبعا المسألة ليست مسألة تخوف من استخدام التعبير او عدم استخدامه ، القضية هي اذا ما كان هناك اسس موضوعية للكلام عن الامة اليهودية ، وحتى الان كان هناك اجماع تقريبا، وخاصة في اوساط الكتاب والمفكرين والمناضلين الماركسيين والبلاشفة ، ضد فكرة وجود الامة اليهودية . ولكن على ضوء طرح ما قاله الدكتور شوفاني حول القومية الاسرائيلية الا ينبغي علينا الان ان نتخلص من الخوف من استخدام تعبير الامة الاسرائيلية ، باعتبار انها ان لم تكن قد تكونت او تطورت بصورة كاملة بعد فهي بالتأكيد وعلى ما يبدو ، في طور التكوين ، واكتسبت الكثير من الملامح التي تشكل هذا النوع من القوميات او الامم . اذا اخذنا هذا الواقع الموضوعي بعين الاعتبار اعتقد بأنه سيفرض علينا استراتيجية من نوع اخر في العمل والنضال ضد المجتمع الاسرائيلي والقومية الاسرائيلية عما ساد حتى الان ، خاصة في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية التي بقيت تنظر الى يهود اسرائيل كجماعة دينية اكثر منهم كجماعة اخذت تكتسب خصائص القومية وخصائص الامة . طبعا حروب اسرائيل عززت هذا الاتجاه وواضح انها حاربت على اساس هذا المنطق القومي ونجحت . واعتقد ان هذه مسألة راهنة مهمة وجديرة بكل انتباه ومناقشة . نقطة اخرى حول ما ذكره الدكتور فايز صايغ . ان ما قاله الدكتور حول كون الاستعمار الصهيوني من النوع الخالص والنقي صحيح ، الا انه امامنا الان مسألة راهنة ومرتبطة بما قلناه عن تشكل ما نسميه بالقومية الاسرائيلية. اعني بذلك ان اسرائيل قد دخلت الان مرحلة الاستعمار الذي سماه الدكتور بالاستعمار المختلط، اي بعد عام ١٩٦٧ بدأت ملامح التنوع الاخر من الاستعمار تظهر في سلوك اسرائيل . الاستعمار على الطريقة الكلاسيكية حيث يوجد شعب واقع تحت الاحتلال وخاضع لكل الاستغلالات والاغراءات التي يوفرها الاستعمار . استغلال مفضوح وخفي للجماهير الواسعة واغراءات للشرائح الاجتماعية العليا .

طبعا في خمس السنوات الاخيرة تطور الاحتلال الاسرائيلي وتعمق ولا يبدو في الافق حتى الان اية دلالة الى ان هذا الاتجاه سيتوقف او ينقطع فجأة. بل بالعكس كل المؤاشرات تبين ان هذا الاتجاه سيستمر لفترة ما في المستقبل المنظور . هذا موضوع اخر اعتقد بأنه جدير بالمناقشة لان له طابعا ملحا ويفرض نوعية الاستراتيجية التي على القوى الوطنية العربية والفلسطينية ان تتبعها من أجل مواجهة هذه الوقائع القائمة .

هشام شرابي : اريد أن اذكر ثلاث نقاط ، نقطة منهجية ونقطتين تتناولان شؤوننا ايديولوجية . من الناحية المنهجية ان ما ذكره الدكتور ابو لغد بالنسبة الى نتائج التفكير والبحث في موضوع مثل الموضوع المطروح امامنا الان اساسي جدا ، خاصة من الناحية العملية . فاذا كنا نحن نلعب دور المؤرخين والباحثين الكلاسيكيين وبالاسلوب المدرسي التجريدي فهذا يعني شيئا معينا . أما اذا كنا نفكر تاريخيا وبامور تتعلق بمحنتنا القومية ومجابهتنا لاسرائيل فهذا شيء اخر تماما . ان الفرق المنهجي بين الاسلوبين هو أكثر من مجرد الاهتمام بالنتائج العملية او النظرية . ومن حسن الحظ أننا بدأنا نلاحظ في الفترة الاخيرة انتقالا في الحركة التحررية من الفكر الفلسطيني والعربي الملتزم بنظرة قومية حضارية الى نظرة جدلية تاريخية . لم ينضج الانتقال هذا حتى الان ، أي الانتقال من

الموقف المثالي المدرسي التجريدي الذي تثقفنا عليه كلنا والذي يحمله مجتمعنا بثقافته ، الى الفكر النقدي والفكر الجدلي الذي يجابه الواقع بصيغ الواقع ليس لتفهمه فقط بل لتغييره ايضا . ارجو أن تكون هذه النقطة واضحة . ومن المؤلم طبعا ان نكون جالسين هنا نتباحث بتاريخ ونيات عدونا في الوقت الذي يقوم هو بقتل شعبنا في الجنوب في لبنان حيث تم رفع الاعلام البيضاء. هذه هي الناحية الموضوعية ، اما من الناحية الذاتية فلا يوجد مهرب من ضرورة تعميق الفهم وتغيير الوعي بالتثقيف الذاتي الذي نمارسه ونعمل له في هذه الندوة وامثالها . لذلك اعتبر ان هذه الندوة بالرغم من الالم الذاتي الذي ذكرته ، هي خطوة جيدة كثيرا . النقطتان المتعلقتان بالناحية الايديولوجية هما اولا ان الصهيونية كما بدا من الكلام الذي سمعناه الان ومما كان الدكتور العظم قد ذكره في مقالة سابقة له* ترتكز في ايديولوجيتها وواقعيتها وسياساتها وتنظيمها على أساس طبقي . وهذا يعني ان اسرائيل اليوم هيمنت وسيطرت على الواقع بسياسات تمثل مصالح وطبقات معينة وهي بالتالي موضوعيا ضد مصالح وطبقات معينة اخرى. موضوعيا وبالتحليل الاخير ان وجود النظام الصهيوني الحاضر في اسرائيل هو ضد مصلحة العمال والفقراء والمسحوقين بينها . لكننا نرى اليوم ان التناقض الطبقي والعنصري الموجود في المجتمع الاسرائيلي ، ليس تناقضا اساسيا ابدا، بل بالعكس انه يضمحل في مقابل التناقض الذي يخلقه النظام الحاضر ضد حركة التحرير الفلسطينية والعربية . هذا هو السؤال الاساسي في نظري عند بحث الايديولوجية والصهيونية ضمن هذا الاطار .

ما هي المتطلبات التاريخية الراهنة اليوم التي يمكن لحركة التحرير الفلسطينية والعربية ، في تصورها ، التي يمكن ان تسجلها بواسطة المتناقضات الداخلية في اسرائيل ، وبالتالي ان تعمل على انشاء جبهة او تحرك تشترك فيه الفئات المسحوقة في اسرائيل بحيث تشارك في المستقبل في تصفية هذا التركيب الفوقي الذي يستغلها . يعني ان نشترك في زحزحة النظام والحكم والقيادة القائمة في اسرائيل التي هي ضد مصلحتها . أما النقطة الثانية فمرتبطة بالنقطة الاولى : طالما ان الايديولوجية المسيطرة في اسرائيل هي الصهيونية لا يمكن لاي ايديولوجية اخرى ان تأخذ مكانها او أن تهيمن ، بمعنى انه مهما قويت الماتسبن ومهما قوي اليسار طالما بقي التركيب الصهيوني قائما ومتمثلا بتجسيدات من المؤسسات والتركيبات والسياسات والقيادات القائمة لا يمكن اطلاقا قيام ايديولوجية البروليتاريا مثلا . اي الايديولوجية التي يمكن لحركة التحرير العربي الفلسطيني ان تتفاهم معها . اما العامل الموضوعي الواقعي فهو العامل الاساسي في استمرار الهيمنة الصهيونية وايديولوجيتها وليس العامل الذاتي . وذلك بمعنى ان السيطرة الصهيونية مصدرها شيئان : نجاحها كسياسة وكنظام ، وفشل المقاومة من قبل الثورة الفلسطينية وحركة التحرير العربية في ضربها كنظام وسياسة ، اي عجز المقاومة وحركة التحرير العربي عن تقديم البديل النظري والعملي لهذا النظام .

ابو لغد : أريد ان ادلي ببعض التعليقات حول ما دار سابقا من نقاش وما اشار اليه الدكتور شرابي اخيرا . اعتقد ان في مثل هذه الجلسة علينا ان نتجنب شيئا اساسيا وهو الا نقاضي الحركة الصهيونية من منبر اجنبي . فما ورد في وثائق صهيونية معينة نستطيع ان نناقضه بوثائق اخرى كما أشار الى ذلك الدكتور شوفاني. اذ من المعلوم ان هرتزل ناقض نفسه في المذكرات وفي كتاباته . وجابوتنسكي وهو من كبار قادة الصهيونية ناقض الحركة الصهيونية في شهادته امام اللجنة الملكية في سنة ١٩٣٦ بالتصور الذي قدمه للمجتمع الذي تبغي الحركة اقامته في المنطقة العربية اذ أنه قبل بمبدأ وجود اقلية عربية قومية ولكنه لم يحدد طبيعة العلاقة التي ستنشأ بين هذه الاقلية القومية العربية والمجتمع اليهودي .

أود أن ألفت النظر مرة اخرى بأنه اذا بسطنا مفاهيم الحركة الصهيونية وأنظمتها ، فاننا سنقع في نفس الاخطاء التي ارتكبناها سابقا . فموضوع، مثل موضوع « الامة اليهودية » الذي اعتقد انه موضوع حيوي ، لا بد لنا من ان نناقشه من زوايا عديدة . اذ ان الحركة الصهيونية افترضت وجودا حقيقيا لهذه «الامة» وافترضت ان لها مقومات معينة ، الا ان الحركة الصهيونية نجحت

---

* « نحو فهم افضل للفكرة الصهيونية » في **دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ .

عبر نصف قرن من خلق مجتمع جديد يتمثل باسرائيل وبأمة اسرائيلية وعلينا اذن ان نسأل عن طبيعة ارتباط الامة الاسرائيلية « بالامة » اليهودية التي افترضت الصهيونية وجودها والعلاقات السائدة بين الحركة الصهيونية و« الامة » اليهودية من جهة اخرى ، وعلينا كذلك ان نعرف كيف يتصور الفرد الاسرائيلي علاقته بمن يصطلح على انه فرد في الامة اليهودية ، وهل هذا التصور هو التصور نفسه الذي بدا لهرتسل مثلا ؟ وهل حدث تغير ملحوظ في علاقات افراد الامة اليهودية بالمواطنين الاخرين في المجتمعات التي ينتمون اليها نتيجة لوجود الامة الاسرائيلية ؟ وان صح الافتراض القائل بأن هنالك امة اسرائيلية و« امة يهودية » علينا اذن ان ندرك كيفية تأثر الامة الاسرائيلية في اليهود الذين ينتمون الى مجتمعات وجنسيات عديدة وكيف يحرك المجتمع الاسرائيلي وبالتالي الحكومة الاسرائيلية هؤلاء اليهود بالاضافة الى الصهيونيين منهم ، وكيف تنجح الحكومة الاسرائيلية في تسخير الصهيوني واليهودي ، في خدمة مصالح الدولة الاسرائيلية التي ربما تتناقض احيانا مع مصالح الدول التي ينتمي اليها هؤلاء الافراد ، وعلينا كذلك ان نتساءل عن امكانية تأثير الحركة الصهيونية ، وتأثير اليهود الذين لا ينتمون الى الصهيونية سياسيا او تنظيميا في المجتمع الاسرائيلي وسياسة اسرائيل .

فاذا درسنا الفرق في طريقة العمل بين الحركة الصهيونية كحركة فكرية اجتماعية سياسية لها اهداف معينة وبين طريقة عمل المجتمع الذي اقامته — اسرائيل — نجد ان العناصر الرئيسية التي ارتكزت عليها الصهيونية في تحريك افراد « الامة » اليهودية تتلخص في الدين والتنظيم اليهودي والثقافة اليهودية بالاضافة الى الاضطهاد والتخوف اليهودي من الابادة سواء عن طريق الدمج او عن طريق الذبح . هل الالتفاف اليهودي المعاصر حول اسرائيل وعطفه عليها وفي بعض الاحيان انتماؤه اليها نابع من الدوافع القديمة نفسها بالرغم من ان الواقع الاجتماعي والسياسي العالمي قد تغير ؟ او بعبارة اخرى ما هي الدوافع الحقيقية التي تحفز المواطن اليهودي الاميركي ، ولا نقول الاميركي الصهيوني ان يساعد اسرائيل ويدعمها ويؤثر في السياسة الاميركية لصالحها ؟ هل يدعمها خوفا من الذوبان او من الذبح ؟ او هل يدعمها نتيجة لدوافع اكثر ايجابية ؟ وينطبق السؤال على اليهودي في امريكا اللاتينية واليهودي في جنوب افريقية وغيرها من البلدان . اعتقد ان هنالك عوامل ودوافع جديدة نتجت عن قيام مجتمع اسرائيلي له مقوماته الخاصة وله اساليب عمل وتأثير خاصة لا بد لنا من ادراكها . وفي تصوري هذا الموضوع بمنتهى الحيوية، أي موضوع الارتباط بين المجتمع الاسرائيلي والحكومة الاسرائيلية من جهة والحركة الصهيونية التي بدأت تضعف في مفعولها من جهة ثانية ، خاصة بالمقارنة مع الايام عندما كانت الحركة الصهيونية هي في القيادة والان اصبحت الحكومة الاسرائيلية هي في مركز القيادة وتقوم بتوجيه الشعب اليهودي الى هدف معين . الحركة الصهيونية ، كحركة سياسية ، كما اشار وليد خدوري اصبحت اداة بيد الحكومة الاسرائيلية. ويجب علينا ان لا نكتفي بالاشارة الى الحركة الصهيونية كتنظيم سياسي يساعد اسرائيل دون ان نلتفت الى اليهود الذين لا يؤمنون بالحركة الصهيونية كحركة سياسية ومع ذلك يدعمون السياسة الاسرائيلية .

في تصوري لقد اصبح موضوع الحركة الصهيونية حاليا اكثر تعقيدا وفي المواجهة التي نحن فيها علينا ان نعي ، كما قال الدكتور شوفاني ، وكما تبين في هذه الاحاديث كلها ، ان هناك تناقضات اساسية في المجتمع الاسرائيلي ذاته ، تناقضات اساسية بين المجتمع الاسرائيلي والحركة الصهيونية ككل — تناقضات بين المجتمع الاسرائيلي والفئات اليهودية ، وهذا يتطلب من حركة التحرير العربي وحركة التحرير الفلسطيني ، والسياسات العربية عامة ان تعرف كيف تستفيد من هذه التناقضات اذا فهمت حقيقتها . ولكن يكاد يكون من المستحيل الاستفادة منها اذا قبلنا في بساطة ووضوح الاهداف الرئيسية للحركة الصهيونية وفي تحليلنا علينا ان نضع الحركة الصهيونية المعاصرة كحركة عالمية اجتماعية او سياسية او اقتصادية في حجمها الحقيقي بدل حسبانها العدو الرئيسي الذي نواجهه . علينا ان نعي الخطر الحقيقي للمجتمع الاسرائيلي ذاته الذي بدأ يستخدم الحركة الصهيونية كأداة له ولاغراضه ولمصالحه في المنطقة العربية .

العظم : للينين كلمة تفيد بأنه مهما كان النظام القديم عفنا ومهترئا فانه لن يسقط بنفسه

ما لم يدفعه احد او يقوم باسقاطه . ان ما حدث عربيا بالنسبة للتناقضات الموضوعية داخل المجتمع الاسرائيلي هو نوم حركة التحرر العربي على الحرير بالنسبة لهذا الموضوع معتمدة على وجود هذه التناقضات وكأنها وحدها وبصورة ميكانيكية وبدون أي جهد ستفتت المجتمع الاسرائيلي وتدمره، أي طفت نظرة عفوية في هذه المسألة بررت عدم وجود اي جهد كبير من قبل حركة التحرر العربي باتجاه العمل على اساس استراتيجية مدروسة للاستفادة من هذه التناقضات وتسخيرها من اجل خلق الظروف المؤاتية لعملية اسقاط النظام . للاسف ادى اقرار وجود التناقضات ، بالنهاية ، الى نوع من التراخي في حركة التحرر العربية بدلا من ان يتحول الى حافز للاستفادة منها بحجة ان التناقضات ستتكفل بكل شيء لان الاستعمار سائر الى الدمار على كل حال .

فرحات : اثار الدكتور وليد خدوري قضية هامة فعلا يجب اعطاؤها ما تستحقه من الاهتمام . واذا كنت أعبر تماما عن وجهة نظره فقد أشار الى نشوء بوادر يمكن الاستناد اليها من اجل القول ببداية نشوء امة او قومية اسرائيلية ، وقد تحدث عدد من الاخوان عن الموضوع وربطوا بينه وبين موضوع استقلالية اسرائيل او المزيد من استقلالية اسرائيل في علاقتها مع الامبريالية العالمية . طبعا أنا موافق مع الاخ الاستاذ الياس مرقص على القول اننا عندما نتحدث عن القومية او عن الامة يجب أن نحدد هذين المفهومين ونميزهما عن المفاهيم المثالية او التقديسية وان ننظر اليهما نظرة واقعية . ولكنني اقول انه حتى لو صح نظريا وتاريخيا انه بامكان المجتمع الاسرائيلي الحالي ان يتحول الى قومية اسرائيلية ، يجب ان لا يغيب عن ذهننا ان هذه القومية تبقى قومية ظالمة ، كما ان هذه القومية ليست الامة اليهودية التي تحدث عنها الصهيونيون وبالتالي يبقى تحليل البلاشفة حول عدم وجود امة يهودية صحيحا . اعود الى موضوع العلاقة بين اسرائيل والامبريالية العالمية . طبعا تحدثت عن التبعية في العلاقة ومن الممكن ان يكون استخدام تعبير التبعية قد ادى الى بعض الالتباس، على كل حال المهم في الموضوع هو قضية الارتباط بين اسرائيل والامبريالية العالمية . وهنا اعود لاقول انه بالرغم عن جميع هذه المظاهر ، مثل الظاهرة التي تحدث عنها الدكتور خدوري ، فان ارتباط اسرائيل بالامبريالية هو المرشح للازدياد .

من الممكن للتبعية ان تخف بالمعنى الذي ذكر ولكن بمعنى آخر فان ارتباط اسرائيل بالامبريالية العالمية سيزداد . وهنا لا استطيع ان اوافق على ما قاله الدكتور فايز صائغ حين اكد على ان هذه التبعية ممكن ان تتضاءل اذا نمت القوة الذاتية لاسرائيل وان درجة اعتمادها على التبعية الاجنبية تخف كلما زادت العناصر التي بالاستناد اليها تستطيع اسرائيل ان تقاوم اكثر على اساس قوتها الذاتية . اريد ان اميز مفهوم التبعية عن مفهوم الارتباط . الارتباط هو المفهوم الاشمل والتبعية ليست الا مظهرا من المظاهر العامة للمفهوم الاشمل أي الارتباط . فاذن انطلاقا من هذا التحليل أعتقد انه يجب أن نأخذ ظاهرة ازدياد قوة اسرائيل الذاتية ضمن اطارها الواقعي. يعني اذا تصورنا وجودثلاثة اقانيم او مثلث تشكل زاوية منه اسرائيل ، وزاوية ثانية الامبريالية ، وزاويته الثالثة هي حركة التحرر العربية يجب ان نعطي تحليلنا بالاستناد الى هذه الزوايا الثلاث وهي متحركة . ولكن عندما ننظر الى الامر على اساس ان قوة اسرائيل الذاتية تزداد وان قوة الامبريالية باقية على ما هي عليه وان حركة التحرر الوطنية باقية ايضا على ما هي عليه فعندها يمكن ان نصل الى نتيجة هي ان ازدياد قوة اسرائيل الذاتية ستؤدي الى تقليل او فك ارتباطها بالامبريالية . ولكن اذا نظرنا الى الواقع كما هو وجدنا ان الامبريالية العالمية كمجموع تتضاءل قوتها . واذا نظرنا الى حركة التحرر الوطني فانها ليست ساكنة بل متحركة وتزداد قوتها تاريخيا . كل ذلك يدفع الاوساط الصهيونية في اسرائيل الى زيادة ارتباطها بالامبريالية الذي لا يمنع وجود اختلاف بينهما . وطبعا هذا لا ينفي المرونة الاسرائيلية . اريد ان اختم كلامي بتعليق على ما جاء على لسان الاخ الياس مرقص . اعتقد انه لا يعني تماما ما قاله واذا كان يعنيه فسيكون ذلك فعلا شيئا غريبا . اعني عندما قال انه يجب النظر الى مفهوم الامبريالية ليس فقط على اساس التصور الاقتصادي بل بصيغة اوسع وعلى اساس ان النظام الامبريالي ليس متماثلا كل التماثل مع الاسلوب الرأسمالي . قال ان العالم الامبريالي قائم اساسا وجوهرا على سيطرة طبقة على طبقة ولكنه قائم ايضا وبشكل شديد على اساس سيطرة قطر على قطر وامة على امة وشعب على شعب وعرق على عرق وجهة جغرافية على جهة جغرافية وطائفة دينية على طائفة دينية الى ما لا نهاية كما

ورد في كلامه . وما لا نهاية هذه يمكن ان تعني ايضا سيطرة فرد على فرد . هنا يجب ان نتفق على مفاهيم محددة ، فاذا اعطينا الامبريالية هذا المفهوم الواسع وجعلناها مطاطة الى هذا الحد فانني أتساءل اين هي الامبريالية ؟ على كل حال عندما تحدثت عن الامبريالية واتحدث عنها الان لا اعني تصورا اقتصاديا فقط . طبعا ان لهذا الاساس الاقتصادي انعكاساته السياسية والفكرية والايديولوجية . ولكن يجب ان نتفق على الاقل على ان الامبريالية هي المرتبطة بالرأسمالية وانها أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية والا فاننا نكون لا نعرف طبيعة العدو الذي نحارب والذي نناضل ضده ، والشيء الاهم يمكن ان يكون اننا لا نعرف عندئذ ان هذا العدو بطبيعته مصيره الزوال تاريخيا .

سعد : أعتقد ان نقاشنا حتى الان كان وافيا بتغطية العناصر التي شاكلت بها الصهيونية الحركات القومية والرأسمالية والامبريالية وتأثيرات الاخيرة عليها ، الا انها لم تف بتغطية الامور التي اختلفت بها الصهيونية عن كافة الحركات الاخرى . أبدأ ملاحظتي بالرجوع الى كلمة الدكتور ابو لغد التي قال فيها ان الصهيونية لها ابعاد معقدة تستوجب التصدي لها بايديولوجية معقدة . والواقع ان للصهيونية فعلا هذه الابعاد ، الا ان طبيعة دراسة التاريخ وتحليله تكمن في تقصي العموميات التي من شأنها أن توضح المسائل وتحل تعقيداتها. وانني اوافق الاستاذ فرحات في هذا المجال على قوله بوجوب الوقوف على العنصر الاساسي الذي ادى الى قيام الصهيونية وتحقيق مخططها في فلسطين — وهذا العنصر هو عنصر الامبريالية التي اضاف الدكتور صايغ انها كانت السبب الموضوعي لنجاح الصهيونية يرافقها السبب الذاتي المتمثل بالقومية اليهودية . اما عن قول الدكتور صايغ ان للصهيونية قدرة على تغيير سيد بسيد واعطائه المثل على ذلك في تغييرها لسيدها البريطاني بسيدها الاميركي منذ أوائل القرن الحالي حتى منتصفه ، فذلك لا يشكل دلالة على ليونة الحركة لدى الصهيونية وجل ما هو انه انعكاس لتغير سيادة وقيادة الامبريالية على النطاق العالمي وانتقالها من أيدي بريطانية الى الولايات المتحدة خلال هذه الفترة . وبكلام آخر ، فان الصهيونية لم يكن لها سوى سيد واحد تمثل بالامبريالية بمعناها العالمي الاوسع . وما يجدر ذكره في هذا المجال هو ان تسلط الامبريالية الاميركية على الصهيونية بدأ منذ العشرينات حين بدأت تأتي معظم المعونات المالية للصهيونية من المصادر اليهودية في الولايات المتحدة. اما بالنسبة للامبريالية بمعناها الاوسع فينبغي تمييز عنصرين رئيسيين ، طبعا ، في تطورها : ان الامبريالية وليدة ظروف تأزم الرأسمالية في اوروبه كان أحد شقيها الذهاب بالرأسمال والتوسع الاقتصادي الى ما وراء البحار في حين ان الشق الثاني انعكس في سعيها للابعاد السكاني لقطاعات من الطبقات البروليتارية في أوروبه . وبهذا المنطلق المزدوج فقط يمكننا فهم كلام المسؤولين الاوروبيين عند اوائل القرن الحالي عن فوائد الامبريالية في حل المشاكل الاجتماعية او — بتعبيرنا نحن — اثرها في فك زخم الصراعات الطبقية . وكانت للصهيونية فوائد في كلتا الحالتين : اولا ، في التوصل الى خلق ركيزة في الشرق الاوسط ولا سيما بعد اكتشاف البترول كما قال السيد قازان . وثانيا ، في التخلص من الفائض من البروليتاريين اليهود الذين تكلم عن ابعادهم بوضوح كل من هرتزل وبنسكر وكافة الزعماء الصهيونيين آنذاك .

من المناسب هنا أن أعود الى احدى انعكاسات الهوية الفريدة للحركة الصهيونية ، وهي التي تمثلت في مفهوم الاستعمار الخالص واستثناء السكان الاصليين من العمل وطردهم اخيرا من البلاد ، الامر الذي اختلفت فيه الصهيونية عن جميع الحركات الاستعمارية الاخرى التي نهجت على استخدام السكان الاصليين واستغلالهم . وقد كان الدكتور صايغ هو الذي ركز على طابع الاستعمار الخالص للصهيونية ، فأود أن أسأله : ما كان الدافع لهذا الاستعمار الخالص واستثناء السكان الاصليين ان لم يكن لخلق المجال لفئة سكانية سعيا لابعادها عن اوروبه وزرعها في مكان آخر ؟ وارجو ان يتطرق الدكتور صايغ الى الاجابة على هذا السؤال فيما بعد . أما الاستاذ مرقص فقد أثار مسألة لها علاقة بهذا الموضوع وهي شعار العمل اليهودي وقيام العمالية اليهودية خلال العقد الاول من القرن الحالي . والواقع ان الاستعمار اليهودي منذ بدايته على ايدي البارون روتشيلد والمسؤولين عن مستوطناته كان يسعى دائما للحؤول دون توظيف العمال العرب واستخدامهم في مستوطناته رغم انه لم تتوفر لديه الهيئة التنظيمية والعقائدية التي من شأنها ان تعد العدة لعملية استبعاد السكان الاصليين حتى مجيء ما

يسمى باليسار الصهيوني الذي رفع شعار العمل اليهودي الخالص وشعار العمل الذاتي وحتى شعار معارضة العمل المأجور كليا في حال بعض المستوطنات . وتمكنت الصهيونية بهذه الهيئات والشعارات ان تتجنب استخدام العمل العربي اتوماتيكيا مما وفر لها المجال لابعاد الطبقة العاملة المحلية على اقتصاد البلاد .

اخيرا ، لا يسعني اختتام هذه الملاحظات دون التطرق الى مسألة استقلالية اسرائيل عن الامبريالية . وربما تكون مسألة استقلالية اسرائيل عن المنظمة الصهيونية العالمية التي اثارها الدكتور وليد خدوري لها علاقة بالموضوع . واننا فعلا نشهد الان نزعة نحو قيام قومية اسرائيلية خاصة بالسكان اليهود في فلسطين بمعزل عن القومية الصهيونية او القومية اليهودية التي تضوي ولاء اليهود في البلدان المختلفة . ونجد بوادر مثل هذه القومية عند عضو البرلمان الاسرائيلي أوري افنيري الذي كتب كتابه **اسرائيل بدون صهيونيين** واعتبر فيه ان الصهيونية عند نشوئها كانت حركة ثورية تخطاها التاريخ الان واصبحت عثرة جامدة وبالية (anachronistic) ونجد هذا المنطق نفسه عند آخرين مثل ابا ايبان في بعض تصريحاته التي يحاول فيها التنصل من الواقع الاستعماري للصهيونية لصالح هوية او فكرة اسرائيلية خالصة. وهناك دلالات تشير الى ان ثمة اساسا مجتمعيا اقتصاديا ربما يؤدي الى تبلور مثل هذه القومية بدأت بوادره خلال الثلاثينات حين أتت الهجرة آنذاك الى فلسطين بعدد لا يستهان به من حاملي الرأسمال ونشأت عنها طبقة بورجوازية يديشية فلسطينية كانت بمثابة الاساس لقيام قومية اسرائيلية محلية . ومن الممكن ان تؤدي هذه التطورات الاخيرة الى اثبات وتدعيم استقلالية اسرائيل عن الامبريالية العالمية . ولكن نظرا لان ارقام المساعدات الاميركية التي تأتي الى اسرائيل هي في ازدياد ، لا يمكننا ان نتكلم عن الاستقلالية المطلقة او النسبية دون اخذ هذا العنصر الاقتصادي الحاسم بعين الاعتبار . كما ان الكلام عن الاستقلالية العسكرية ليس واردا طالما ان اسرائيل في حالة اعتماد شبه تام على المعسكر الامبريالي كمصدر للاسلحة . أما الكلام عن الاستقلالية الجزئية فذلك يعتمد على امكانيات تطور بورجوازية اسرائيلية محلية قوية من شأنها ان تقود الاقتصاد المحلي وتسهم في السيطرة عليه بشكل يوازي السيطرة المالية الامبريالية الاحتكارية . واعتقادي هو ان هذه الامكانية مستبعدة جدا . لذلك فكلام الدكتور صادق العظم في مقالة صدرت مؤخرا له ، وذكرت في النقاش ، عن امكانية قيام اسرائيل ذاتها بدور امبريالي لصالحها الخاص في اسواق المنطقة العربية في حال التوصل الى حل سلمي ، هو نوع من الترف ، طالما لا تتواجد في اسرائيل الطبقة البورجوازية الرأسمالية القادرة على قيادة مثل هذه « الامبريالية » المحلية . فالاقتصاد الاسرائيلي المحلي مرتبط ومبني على الهستدروت الذي تقتصر نشاطاته على البناء والصناعات المتعلقة بالبناء . وهذا النوع من الاقتصاد لا يمكن ان تبنى عليه علاقات امبريالية لصالحه الخاص مع العلم انه ربما يقوم بدور الوسيط لصالح الامبريالية العالمية . وعلى كل حال ، ان الكلام عن استقلالية اسرائيل عن الامبريالية أمر مستبعد جدا واعتقد ، كما قال الاستاذ فرحات ، ان حالة الارتباط ، او بالاحرى حالة التبعية التي ينم عنها هذا الارتباط بزعامة الامبريالية العالمية المتمثلة في الرأسمالية الاميركية، ستشهد ازديادا واتساعا في المستقبل . هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان امكانيات التهديد لظروف هذه التبعية قد تنشأ عن التناقض الحتمي بين الطبقة العاملة الاسرائيلية والرأسمالية الامبريالية العالمية .

مرقص : أشكر الاخوان على ملاحظاتهم القيمة وأحب أن أطمئنهم وان أوضح ما قد يكون لبس عليهم . الاستاذ البير فرحات كرر احدى الجمل التي قلتها حرفيا وبأمانة مطلقة بما فيها كلمة « الى ما لا نهاية » وانطلق منها الى القول « وهل اضيف ايضا سيطرة فرد على فرد » وتساءل ماذا يصبح مفهومنا ، او مفهومنا العميق عن الامبريالية ، مفهومنا النظري العلمي . اني أحب أن أسجل للاستاذ فرحات بأني بالضبط استعملت عدة مصطلحات متتالية ما عدا مصطلح سيطرة فرد على فرد . قلت سيطرة طبقة على طبقة سيطرة أمة على أمة وعرق على عرق وطائفة على طائفة وجهة جغرافية على جهة جغرافية اخرى الى ما لا نهاية — كلمة الى ما لا نهاية تعني بالضبط اننا لا نستطيع ان نصل الى جرد كامل للواقع حتى لو كنا لينين + انشتاين . الجرد الكامل مستحيل ولكنه اشتراطنا الادبي على صعيد العلم والمعرفة وعلى صعيد العمل المسلح بالعلم والمعرفة ، انه

اشتراط نتوجه اليه دون ان نبلغه ابدا . اما المصطلحات والافكار التي أوردتها والامور التي أشرت اليها : سيطرة أمة على أمة ، وطائفة على طائفة وجهة جغرافية على جهة جغرافية وعرق على عرق ألم يجدها الاستاذ فرحات عند لينين ؟ ان منطلقي في التحليل بسيط جدا. انني اقيم تمايزا بين المجتمع كنموذج ، بين مفهوم المجتمع كنموذج ومفهوم الواقع العالمي او العالم الواقعي كمفهوم شخص عياني في الواقع . المصطلح الاول نجده عند ماركس في كتاب رأس المال حيث حلل الاسلوب المجرد للنظام الرأسمالي ، الاسلوب الرأسمالي المجرد القائم على طبقتين اثنتين هما البورجوازية والطبقة العاملة . بعد ثلاثين سنة انطلق لينين من ذلك وطبقه واقعيا على الواقع الروسي فاكتشف اولا او استعاد اولا الطبقات الاخرى وبقايا التشكيلات الاجتماعية السابقة ضد التيار الاقتصادي الاول . ثانيا استوعب ايضا سيطرة الاقليات على اقليات او سيطرة اكثريات على أقلية ، سيطرة القوميات ، اي المسألة القومية . واستعاد ايضا بشكل من الاشكال وبشكل عام وبنفس المصطلحات . استخدم مصطلحات جغرافية وهي لا تعني جغرافية مجردة عن البشر لانه لا يوجد جغرافيا مجردة عن البشر . ولينين قال مثلا في وصيته او في كتابه الاخير قال الشرق والغرب مصطلحات ، وهذا ما قصدته مثلا بالمصطلحات الجغرافية واعطى لينين مدلولا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وبشريا للشرق والغرب فوصف الشرق بأنه قومي اي أمامه مهام قومية تحفزه للنضال ووصفه بأنه ثوري بينما وصف الغرب بنفس المقطع بأنه الامبريالي والمضاد للثورة . وبنفس الوقت قال الشرق متخلف بربري والغرب الامبريالي هو المتقدم والمتمدن الخ ، هذا ما قصدته من هذه الناحية ، وأريد ان انوه اني شخصيا أؤمن بتزايد الارتباط بين اسرائيل والامبريالية ولكنني ، بالضبط، ولاني أؤمن بتزايد هذا الترابط أسوق المصطلحات التي استعملتها . جوابا على الاخ صادق العظم ، الذي قال ان هناك اجماعا ضد فكرة وجود أمة يهودية في الاوساط الماركسية . بالضبط ، النقطة التي أثرتها بادىء ذي بدء هي مسألة المصطلح ، وقطعا كما قال الاستاذ فرحات ان هناك الحلول البلشفية للمسألة اليهودية وهي جوهريا واساسا الحلول الصحيحة في نظري ، مفاهيمهم وتفنيدهم الكامل الدقيق لمفهوم الامة اليهودية . لكن احب أن أشير الى ان لينين في سنة ١٩١٤ وبعد أن كان قد فند واستمر في تفنيد مفهوم الامة اليهودية تفنيدا كاملا واقول مطلقا، في سنة ١٩١٤ وفي كتابه الشهير « ملاحظات نقدية عن المسألة القومية » ذكر الامة اليهودية المعذبة في العالم ، الاكثر عذابا في العالم ، وفي نفس هذا الكتاب قدم مواقف كحلول عملية لمشكلة اليهود في روسيا والعالم حيث انه ذكر في تأكيد الحل القائم على اساس الارض والاقتصاد وذكر امكانية اقامة دوائر قومية تكون نقطة توجه لافراد اقلية معينة او جماعة معينة منتشرين في كل روسيه او ربما منتشرين في كل العالم . واني لا أرى اية نوعية قومية او اية جماعة من هذا النوع منتشرة هكذا سوى اليهود . واعتقد ان لينين قصد بكلامه هذا في كتابه «ملاحظات نقدية عن المسألة القومية » . بالطبع حين اقول أمة يهودية اسرائيلية ، أريد أن أضيف ، كأمة معادية للعرب وللثورة العالمية . هذا ما اريد ان اقوله رغم وجود افراد وربما جماعات داخل المجتمع الاسرائيلي هم مخالفون لذلك ، يعني اريد ان ندرك ان العدو ، ان هذا العدو الخاص كخصوصية هو اكثر من طبقة ، هو مجموع ، المجموع بالمعنى الاقتصادي ، التحليل الاقتصادي من الممكن ان نعطيه او نلقي عليه صفة أمة بهذا المعنى . بتعبير آخر ان بالمرستون وتشرتشل وترومن ونيكسون قد ارادوا بالنتيجة هذا ولم يريدوا طبقة يهودية فوق طبقة عربية فلسطينية في فلسطين ، أرادوا مجموع الطبقات مع الاجلاء ، ارادوا ما سميته أمة . ومن هذا احب ان انتقل الى مسألة مدعوة دائما بالمسألة اليهودية . اعتقد ، شخصيا ، في تصور ماركسي صحيح يجب أن ننطلق من مبدأ عدم مساواة اليهود كجماعة ولنسمها دينية او قومية مهما اختلفنا على التسمية يجب ان ننطلق من عدم مساواة اليهود كجماعة من حيث الدور التاريخي . في مختلف الادوار التاريخية بالطبع يمكن ان نقول ليس هناك شيء يجوز تسميته جماعة يهودية لها نزوع سياسي معين او موقف معين . اعتقد ان هذا هروب لا ينبغي ان نسير فيه . اعتقد شخصيا ان الدور الاقتصادي للمرابي اليهودي والدور المادي للايديولوجيا اليهودية والتوراتية او التلمودية البشعة اللاانسانية كان خلال التاريخ خلال قرون دورا تقدميا لانه كان دورا تخريبيا تدميريا لبنى سابقة ودورا فاعلا في آلية التقدم التاريخي وهي الالية التي أفضت الى اقامة المجتمع الرأسمالي ،

النظام الرأسمالي والنظام الرأسمالي العالمي وهو اول نظام في التاريخ عالمي فعلا وبشتى المعاني . كان الصهيونيون اليهود والمفكرون التقدميون اليهود في القرن التاسع عشر بلا شك فئة من اليهود ولكن من الصعب ان نغطي تماما صفتهم اليهودية التي يمكن ان نعتبرها في ذلك الظرف ايجابية تماما ، انشطارا عن المجتمع القائم ، انشطارا عن جماعتهم اليهودية ، انشطارا عن المجتمع الرأسمالي واندفاعا في حركات تحررية وثورية متنوعة وهو دور تقدمي وايجابي جدا رغم ما يكتنفه في بعض الحالات من نزوع اطلاقي ومثالي ويسراوي قد يخرب الحركة التي ممكن ان تنتصر ، واعتقد انه في كثير من البلدان استمر هذا الدور الى فترة قريبة . ولكن أريد ان اقول انه يبدو لي ان دور اليهود كجماعة هو اليوم في الاطار العالمي الراهن الاقتصادي والسياسي والايديولوجي والاعلامي غير ما كان عليه قبل مائة سنة او قبل ثلاثين سنة او في زمن المانيا النازية مثلا وبالتالي حين نتحدث عن المسألة اليهودية ايها الاخوان ، ولكي ترتبط بعملنا وبمنظورنا المقبل ، احب ان نفهم المسألة اليهودية ايضا ومسألة موقع اليهود كجماعة ، ودور اليهود كجماعة في الوقت الحاضر وفي المستقبل ، في اطار آلية وسياسة الامبريالية العالمية وما هي الاحتمالات المقبلة لهذه النقطة ؟ بالنسبة الى اسرائيل ، وتعليقا على كلام الاخ شوفاني وموقفنا من قضية التناقضات داخل المجتمع الاسرائيلي ، اعتقد ان هذه قضية هامة جدا واريد شخصيا ان اقول انه يجب ان نتوجه الى الشعب الموجود في اسرائيل بلغة واضحة لا لبس فيها . نقطة اولى ، بعض التقدميين اليهود يطالبوننا في كتبهم بأن نعترف بوجود امة يهودية اسرائيلية او الاعتراف بحقوق اليهود الاسرائيليين ، اعتقد انه يجب ان نواجههم بالنقاط التالية : (١) نسجل ان الامة اليهودية رغم بعض الافراد وبعض الجماعات ضمن اليهودية الاسرائيلية مؤيدة من غالبية اليهود في العالم مرتبطة واقعيا وماديا وفكريا ونفسيا بالامبريالية وهي كأمة او شبه أمة معادية للعرب وللثورة العربية . (٢) بحكم ما تريده اسرائيل وما تريده الصهيونية وما تريده الامبريالية وما يعملونه منذ ٧٠ سنة حتى اليوم وفي الفترة الاخيرة ، بحكم هذا الموضوع الذي ينتصب أمامنا وليس بحكم ارادتنا الذاتية والاخلاقية وبحكم الموضوع الواقعي ، لا مكان في فلسطين ولا مكان في المنطقة العربية لامتين ذات سيادة ولا مكان لسيادتين قوميتين في الوطن العربي القومي ومشرق هذا الوطن للعرب . (٣) بعد ذلك نقترح حلولا لمشكلة اليهود في فلسطين والذين قدموا الى فلسطين ، حلولا يمكن ان تكون افضل وشديدة التساهل ومنفتحة ، على ان تبقى خاضعة للمبدأ الثابت الذي تقدم ، لا سيادتين لامتين في وطن العرب القومي ويجب ان نثبت هذه النقطة : حقوق ثقافية ، مصالح ثقافية ، مصالح دينية ، مصالح قومية ، حقوق قومية ، اما الوطن والسيادة في الوطن فهي للامة العربية صاحبة هذا الوطن . (٤) نتوجه في نهاية ذلك ببند خامس الى شعبنا وبصوت مرتفع نقول انه اول موقف لنا هو لا نستطيع ان نخادع شعبنا حول المستقبل بتفاؤل سلامي كاذب وهو خارج عن ارادتنا أصلا ، لان هناك طرفا اول في التناقض هو اميركه واسرائيل والامبريالية والصهيونية والتركيب الامبريالي العالمي ونحن الطرف الثاني . ولا نخادع شعبنا ونقول له ان المستقبل بحكم العدو نفسه هو مستقبل ضامن جدا مستقبل حروب متعددة ، حروب طاحنة وانه نجد ان واجبنا هو تسليح شعبنا بهذا المنظور ، وهنا احب ان اثير منظورين اثنين متكاملين ومتعارضين ، منظور يميني متفائل بالسلام وانا أحبه اكثر ومنظور يساري يندفع نحو التحرير اندفاعا واقول ان هذين الموقفين لهما فلسفة مشتركة هي الالتراثودية او المثالية او الارادية ، فلاعب الشطرنج يتصور انه يلعب مع زميله وهو يلعب مع جهة اخرى تفكر وتفكر وتدرس ولها غايات ولها اهداف .

العظم : ربما كان أفضل طريق للعودة الى النقاش هو النقاط بعض النقاط التي توقفنا عندها. أولا مسألة اثارها الزميل الياس سعد حول مدى استقلالية اسرائيل عن الامبريالية وقيامها بدور مستقل . طبعا ، ان الكلام عن استقلالية اسرائيل وقيامها بدور امبريالي مستقل وخاص بها هو كلام نسبي ، اي علينا ان نأخذ هذه الظواهر بصورة نسبية لان ذلك لا يعني بأن اسرائيل يمكن ان تنفصل عن النظام الامبريالي عامة بل يعني انها ستقوم بدور اكبر في خدمة مصالح نامية مرتبطة بها مباشرة وبوجودها المتميز في المنطقة ، وهي طبعا مصالح ذات طابع استعماري ، هذا بالاضافة الى الوظيفة التي تكلمنا عنها وهي كونها الاداة الاستعمارية المعروفة . بعبارة اخرى ماذا يمنع

قيام اسرائيل كبرى حتى ضمن الحدود الحالية ، عدد سكانها ٥ ملايين انسان مندمجة بالنظام الامبريالي العام وتلعب في الوقت نفسه دورا استعماريا مستقلا وخاصا بها في المنطقة العربية . ستمارس الاستغلال لصالح النظام الامبريالي العام وبنفس الوقت لصالحها هي كدولة كبرى في الشرق الاوسط . النظام الامبريالي يمكن ان يوزع المهمات على هذا الشكل وهناك أمثلة عديدة على ذلك . نحن نتكلم عن استقلالية اسرائيل بهذا المعنى وليس بالمعنى المطلق . سؤال آخر بقي معلقا وجهه الياس سعد الى الدكتور صايغ وهو لماذا اتخذ الاستعمار الصهيوني الطابع الخالص ولم يأخذ طابع الاستعمار المعروف كما في الجزائر او افريقيه ؟ ربما يريد الدكتور صايغ التعليق على السؤال . اعتقد شخصيا ان من الدلائل التي توجهنا في الاتجاه الصحيح في الاجابة على هذا السؤال الادراك ان الحركة الصهيونية قامت ببناء الدولة وبعملية الاستعمار في وقت واحد بخلاف الحركات القومية الاخرى التي قامت اولا ببناء الدولة القومية البورجوازية الحديثة ومن ثم اتجهت نحو الاستعمار ، اي اولا جاء الاستغلال الداخلي ومن بعده جاء الامتداد الى الخارج والاستغلال الخارجي . بعد بناء الدولة القومية البورجوازية كان لا يمكن للاستعمار الا ان يأخذ طابع تشكيل طبقة مستغلة في البلد الواقع تحت الاستعمار حيث يتم استغلال اهل البلد الاصليين . بالمقابل نجد ان الذي حدث في الحركة الصهيونية هو مرافقة العملية الاستعمارية لعملية بناء الدولة . اي تم بناء الدولة اليهودية البورجوازية الحديثة على أساس العملية الاستعمارية خارج اوروبا . مما يعني طبعا انه اذا كان سيكون هناك ثمة بناء لمثل هذه الدولة بكافة طبقاتها ، كما ذكر الاستاذ الياس مرقص ، فلا بد اذن من عملية اجلائية ، لا بد من ارض فارغة او شبه فارغة . من ناحية اخرى يجب الا نهمل وعي الحركة الصهيونية للتركيب الاجتماعي لليهود في اوروبة ، وهي مسألة معروفة ، حيث كانوا يتركزون في قطاعات الانتاج الوسطى ويفتقرون الى العنصر الفلاحي والبروليتاري الصناعي واذا كانت الحركة الصهيونية تريد ، من خلال العمل الاستعماري ، بناء دولة بورجوازية حديثة فلا بد طبعا من العمل الهادف والمتعمد لانشاء هذه الطبقات وهذا يتطلب بدوره العملية الاجلائية . هنا أترك المجال للدكتور صايغ كي يعلق على الموضوع .

صايغ : الواقع اني فهمت كلام الاستاذ سعد على خلاف ما فهمتموه ، فهمته على انه سؤال يجيب بنفسه على نفسه ، اذ قال الاستاذ سعد انه اذا لم يكن غرض الصهيونية هو نقل اليهود البروليتاريين من اوروبة الى فلسطين فلماذا اذا كان غرضهم خلق استعمار خالص هناك . يعني ان الجواب كان متضمنا في السؤال . وجوابي هو ان الغرض الصهيوني كان دوما خلق دولة لليهود — هذا هو المرتكز الاساسي في أي فهم للصهيونية في نظري . واذ شئت ان تخلق دولة لليهود فانك لا تستطيع ان تفعل ذلك من اقلية يهودية في مجتمع مكتظ بالسكان غير اليهود بل لا بد من اقصاء السكان غير اليهود اثناء نقل اليهود الى هذه الارض كي تحول طبيعتها من أرض غير يهودية الى أرض ملأى بالسكان اليهود فتصبح قاعدة لدولة اليهود . اما تفسير النوايا الكامنة وراء اسباب ارادة خلق الدولة اليهودية فلكل منا رأيه حول الحافز والدافع لخلقها . لا اعتقد شخصيا ان نقل طبقة يهودية معينة من اوروبه الى الشرق الاوسط كان الحافز الرئيسي وراء فكرة خلق دولة اليهود ، ولكن مهما كان تفسيرنا لهذا الحافز فالنتيجة هي واحدة . فاذا شئت ان تخلق دولة لليهود في ارض ملأى بالسكان غير اليهود فلا بد لك من أن تقصي السكان غير اليهود لا ان تستوطن بينهم وتتعايش معهم وتخلق مجتمعا مختلطا ، يهوديا وغير يهودي ، في الوقت نفسه .

واحب الان ان اردد ما قلته عن الاستعمار الاستيطاني لانه أثار اكثر من سؤال من الاستاذ سعد كما اثار تعليقات من الدكتور شوفاني ومن مدير الندوة أيضا . واريد بكل اختصار ان اقول ان تأسيس مجتمع يهودي خالص كشرط لخلق دولة يهود كان دوما هو الغرض الصهيوني الاول ، لكن هذا لا ينفي ان للصهيونية ايضا مطامح امبريالية لذاتها ، اي أنها تطمح بالسيطرة على العالم العربي والاقتصاديات العربية ، ولكن كي تسيطر الصهيونية على الاقتصاديات العربية لمصلحتها او لمصلحة الامبريالية العالمية لا بد من أن تكون هناك كتلة يهودية متراصة هي نواة هذه الامبراطورية . هذه النواة هي دولة اليهود . اذن لا بد اولا من الاستعمار الخالص في فلسطين كي تنطلق منه بعد ذلك الى الامبريالية الاسرائيلية

ان كان لحسابها الخاص او لحساب الامبريالية العالمية في العالم العربي بأسره ، اما ما هو ثابت الان في المناطق المحتلة ، مما اشير اليه على انه استعمار مختلط وليس استعمارا استيطانيا صافيا ، فلعله مسألة مرحلية في الوقت الحاضر ، ولا ننسى ان بعض المناطق المحتلة قد اخليت من سكانها (واقصد بذلك الجولان) توطئة لدمجها وضمها نهائيا وقانونيا ورسميا الى الدولة الصهيونية ، وبعضها كان أساسا خاليا من السكان (مثل سيناء) وبعضها جرت محاولات لاخلائه من السكان غير اليهود (مثل القدس التي ضمت رسميا الى اسرائيل) . بقيت المشكلة في غزة وفي الضفة الغربية . وهنا نلاحظ ان عدم نجاح اسرائيل في اجلاء السكان اثناء حرب ١٩٦٧ ، كما حدث عام ١٩٤٨ ، كان العقبة الرئيسية التي وقفت في وجه السلطات الاسرائيلية وخلقت ازمة لواضعي السياسة الاسرائيلية ، ازمة تحدثت عنها في ندوة لمركز الابحاث في السابق ، فيما دعيته التناقض بين الشهية للارض عند الحركة الصهيونية التوسعية وشهية النقاء العنصري النابعة من صميم الصهيونية . واعتقد ان العقل الاسرائيلي لا يزال في مرحلة محاولة التوفيق بين هاتين الشهيتين للحصول على اكبر مساحة ممكنة من الارض المحتلة مع اقل عدد ممكن من السكان غير اليهود كي يتم التوسع الجغرافي دون أن يكون هناك اي تخل عن فكرة النقاء العنصري الملازم للحركة الصهيونية .

فرحات : باعتقادي انه بامكاننا ان نضيف الى موضوع رفض الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الاختلاط بالسكان المحليين العامل الاتي : وهو الفارق النوعي بين السكان الذين كانوا موجودين في فلسطين وسكان جنوبي افريقية مثلا او استراليا او حتى الجزائر عندما دخلها الاستعمار الاستيطاني الفرنسي . كانت المجتمعات في استراليا وفي جنوبي افريقية وحتى في الجزائر انذاك مجتمعات عشائرية قبلية ولم تكن قد نمت فيها بعد بورجوازية محلية ، في حين ان الوضع في فلسطين وفي العالم العربي كان على غير ذلك لان القومية العربية كانت بدأت بالنهوض منذ اواخر القرن التاسع عشر وبدأت تنمو ايضا بورجوازية محلية في فلسطين . لذلك كان من الطبيعي الا تحتمل البورجوازية اليهودية النامية البقاء الى جانب هذه البورجوازية المحلية النامية ، لم تكن تحتمل البقاء الى جانب حركة التحرير الوطني . وعلى هذا الاساس ، اعتقد انه بامكاننا ان ندرك بصورة افضل شيئين : لماذا كان الخيار الاساسي عند الصهيونية هو اخلاء الارض من سكانها وكيف تمت الظاهرة الجديدة التي ألمح اليها الاستاذ الياس سعد وهي ابقاء قسم من السكان بحيث اصبحت الصهيونية تحتمل وجودهم وتمارس استعمارا جديدا .

العظم : استشعرت سابقا ان هناك رغبة في مناقشة نقاط حول الحركة الصهيونية كما تتجسد حاليا في دولة اسرائيل ، باعتبار ان مناقشة هذا الموضوع له علاقة مباشرة بمنهج عمل الحركة التحريرية المضادة للصهيونية .

شرابي : فيما يتعلق بالمستقبل نحن الان في وضع بالنسبة لاسرائيل نجد فيه ان المقاومة الفلسطينية وحدها في العالم العربي موجودة في مواجهة الخطر ، وهذا يشبه تماما ما حدث في اوائل الخمسينات ، يعني نحن الان قد دخلنا ، بين سنوات ١٩٦٧ و١٩٧٢ ، في فترة توقف امام اسرائيل لما كان ينتظر ان يصبح ثورة يوما ما . والان رجعنا الى وضع لم يعد فيه بامكان المقاومة العمل في الدول المحيطة من العقبة الى الناقورة . وصلنا بالفعل الى هذا الحد بالنسبة للعمليات الفعلية . ورجعت اسرائيل الى السياسة الانتقامية لفرض ارادتها على الدول المحيطة بها . علينا ان نقدم وصفا لماهية الخطر ، وهو أننا ، رجعنا على صعيد العمل عشرين سنة الى الوراء اما على صعيد الفكر فقد تقدمنا تقدما لا بأس به خصوصا في الاعمال المهمة التي قامت بها هذه المؤسسة ومؤسسات اخرى . اما من حيث التنظيم والعمل على مستويات جماهيرية فوضعنا الان يشبه ما كنا عليه في اوائل الخمسينات .

مرقص : تعليقا على كلام الاستاذ شرابي اريد ان أقول ان السؤال الاول الذي يجب ان يطرح ومن قبل الاستاذ شرابي بالذات هو هل يعتقد بأن المقاومة الفلسطينية كانت في تصور ١٩٦٧ و١٩٦٨ المحور والقوة القادرة بواسطة العمل الفدائي ان تسير ، ولو بعمل طويل ، نحو ازالة الكيان الصهيوني ، او نحو اخراج المحتلين الاسرائيليين من الاراضي التي احتلوها بعد سنة ١٩٦٧ . واذا كان هذا هو الامل والمنظور الذي غلب على الغالبية في سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨ كان الشيء الاول الذي يجب علينا ان نفعله في

هذا المضمار وبصوت واحد وبنقاش جريء وربما حاد هو تقييم هذه النقطة والاجابة عليها . هل كنا على حق ام هل كنا على خطأ . احب ان اقول اكثر من ذلك طبعا حول المؤسسة التي تفضلت ومنحتنا ومنحتني شخصيا ثقة سأفخر بها دوما بدعوتي الى هذه الندوة ، لا اعتقد ان مركز الابحاث كان هو وغالبية اخواننا في المقاومة الفلسطينية على نفس محور واحد في تقييم النقطة التي اعتقد انني اثرتها تعليقا على كلام الاخ شرابي ، طبعا هذه المؤسسة فيها عناصر مختلفة ولكن لم ار في كتابات اي اخ من الاخوان ، مثلا الدكتور فايز صايغ الذي قرأت له كتابا منذ اربع سنوات ، بأنه يعتقد ان المقاومة الفلسطينية تستطيع ان تحقق شيئا فعليا ايجابيا من خلال العمل الفدائي فقط . ولكن فهمت انذاك ان النقطة الجوهرية بالنسبة الى المقاومة يجب ان يكون فعلها العربي ، تأثيرها الايجابي في الجماهير العربية وفي الدول العربية وفي الاقطار العربية ، بفضل وعي صحيح تاريخيا ودقيق على الصعيد المرحلي والتكتيكي والاستراتيجي .

شرابي : هذا بلا شك سؤال اساسي . عندما ننظر الى السنوات القريبة الماضية وخاصة ٦٩ — ٧٠ وقبل حملة ايلول معظمنا كان يعتقد ان المقاومة الفلسطينية هي رأس الرمح في القتال من أجل تحرك عربي شامل، يعني من أجل حركة تحرير عربية ، وتحريك الجماهير العربية ، لا ادري اذا كنا نفكر ان الفلسطينيين ، كحركة مقاومة، كان باستطاعتهم لوحدهم ان يحرروا فلسطين ام لا . لا اظن اننا درسنا هذه الاسئلة وقتها وفكرنا فيها بما فيه الكفاية . ولكن بلا شك كانت المشاعر ، كما كان الفكر ، مرتبطة بالحركة الفلسطينية وبحركات التحرر العربية وكأنها شيء موجود . طبعا حدثت ائتلافات عديدة ، تم التعبير عنها بصيغ متعددة من قبل حركة المقاومة مثل القول أن الثورة « فلسطينية الوجه عربية العمق » او ما شابه ذلك وهي صيغ صحيحة . الا انني اريد ان اذكر نقطة واحدة على ضوء ما قلته لو قلنا انه بعد اربعة أشهر سيحدث لنا ، أي للمقاومة ، في لبنان ما حدث لنا في البلدان الثلاثة المحيطة بارضنا المحتلة يعني ذلك ان الزمان قد عفى على كل تحركاتنا بصورة كاملة او شبه كاملة اي منع المقاومة كجماعات مسلحة وكتنظيم مستقل وكحركة ثورية وتوقيفها كليا . كيف يمكن لهذه الحركة أن تخلق ثغرة تدخل منها الى الجماهير العربية أ بكلام اخر مقدرة الفلسطينيين على أن يلعبوا دورهم موجودة فاذن يجب أن يكون هناك حركة فلسطينية تسعى ، اي حركة تحرير فلسطينية متحركة . اخيرا من الواضح للجميع انه نتيجة للحصار المضروب على الحركة الفلسطينية نجد انه لم يعد هناك تفاعل بالجماهير العربية من جهة وامتداد واسع للرجعية العربية والقوى المضادة للثورة من جهة اخرى .

العظم : لا أدري لماذا افترض الاستاذ الياس مرقص ان الكتاب في مركز الابحاث يجب ان يكونوا كلهم على نفس محور واحد في تقييم المقاومة وامكاناتها ، ويبدو لي ان كلامه هذا جاء في معرض اللوم اكثر منه في معرض اي شيء اخر . الموضوع يهمنا بطبيعة الحال لان الجميع في المركز يتكلمون في الاساس من موقع وطني اولي وبديهي وبعد ذلك تختلف الاجتهادات وهذا شيء مطلوب . أما بالنسبة الى السؤال الرئيسي الذي طرحه الاستاذ مرقص لا اعتقد انه حتى اغلى غلاة الفتحاويين قد قالوا جديا في يوم من الايام ان حركتهم وحدها، او حركة التحرر الفلسطينية بمفردها ، ستنجح في اجلاء العدوان الاسرائيلي عن الاراضي المحتلة هذا اذا لم نذكر تحرير فلسطين نفسها . اعتقد ان افتراض مرقص بأن المقاومة قد تبنت هذا الموقف على أنه رأيها المدروس وعملت على أساس انه يشكل استراتيجيتها الصحيحة فيه الكثير من التجني على حركة المقاومة الفلسطينية . ان التعبيرات العابرة عن الموقف الذي أشار اليه الاستاذ مرقص ورفضه عن حق لم تكن موقفا مدروسا من قبل المقاومة بقدر ما كانت طفرات جاءت في ساعات اليأس من الوضع العربي العام وتخاذله .

شوفاني : تقبلت معظم المنظمات منطق الدولة الديمقراطية في فلسطين ولا توجد أية فكرة باجلاء اليهود منها . منطق الدولة الديمقراطية لا يتطلب طرد اليهود من فلسطين بل تغيير الوعي السياسي لليهود فيها بحيث يتنازلون عن الصهيونية وبالتالي عن فكرة الدولة اليهودية في فلسطين . قبل سيادة هذا المنطق كان منطلق الطرف الاخر هو انه حتى تستطيع دولة اسرائيل الاستمرار والعيش كدولة يهودية لا بد من تواجد ظروف معينة بالعالم العربي المحيط بها . فاذا غيرنا الواقع المحيط

باسرائيل بحيث يمنعها من الوصول الى متطلباتها بالشكل الذي هي تريده لا بد ، في فترة من الفترات او بعد وقت طويل او قصير ، للاسرائيلي ان يسأل نفسه ما هو الداعي لاستمرار المقاومة العربية لوجودي . يعني القصد هو خلق وعي جديد بين اليهود يساعدهم على التخلص من الكيان الصهيوني ومن كيانهم المرتبط بالامبريالية . ان فكرة التحرر في فلسطين عندما نفهمها على أساس منطق الدولة الديمقراطية تختلف عن فكرة التحرر كما طرحها ماو او كما كانت مطروحة في الجزائر اي على أساس قذف المستعمر خارج الوطن . المطلوب هنا هو تغيير كيانه السياسي . صحيح أن التنفيذ كان صعبا للغاية لان الوعي السياسي للجماهير المرتبطة بالثورة فرض على قوات الثورة تنازلات الى حد معين ، أي تنازلا مؤقتا عن الموقف الثوري وقبول منطق جماهير الثورة في البداية من أجل رفع مستوى وعيها . ولكن كل من كان له اتصال بالثورة الفلسطينية من قريب او بعيد كان متأكدا ان المقاومة لن تقدر بمفردها ان تستأصل الامبريالية من هذه المنطقة او من الجزيرة العربية او من اسرائيل ، الهدف هو خلق الظروف الموضوعية التي تمنع اسرائيل من وسائل الحياة .

أ. س. : كنت آمل ان نستمر في معالجة موضوع الصهيونية بحد ذاتها ، قبل أن نصل الى موضوع الثورة الفلسطينية ومهماتها بحيث تأتي هذه الاخيرة في نهاية الندوة . ولا اعتقد اننا انتهينا جديا من تقييم الصهيونية الا ان تطرق الدكتور شوفاني الى قضية الدولة الديموقراطية في المستقبل يمكن ان يخدم في اعادة النقاش الى الموضوع الذي نحن بصدده اليوم — اي الى مفهومنا للصهيونية. ولا يتصل هذا الموضوع بالصهيونية من حيث علاقته بمستقبل مصير اليهود في مرحلة ما بعد التحرير — اي في الدولة الديموقراطية — فحسب، بل وكذلك له صلة وثيقة بطبيعة التطلعات الى المجهودات التي ينبغي بذلها على طريق التحرير . ولا بد هنا من العودة الى العلاقة بين النظرية والعمل ، او العلاقة بين البحث العلمي والتوجه العملي التي سبق واثارها الدكتور ابو لغد في ملاحظة له سابقة . ومن البديهي في هذا المجال ان الادراك المتكامل والنابع عن البحث لا يمكن فصله عن طبيعة التطلعات الايديولوجية والتي بدورها ، في طابعها الذاتي ، تسهم في تحديد الواقع العلمي . وسأحاول ان اوضح قولي هذا بالاشارة الى منطلقين رئيسيين في فهم او مفهوم الصهيونية في الاوساط العربية : الاول هو الذي يرى باستقلالية الصهيونية واسرائيل عن الامبريالية وتلازمه في بعض الاحيان النظرة القائلة بتوسعية اسرائيل ومن ثم خطورتها لكافة الشعوب العربية . والثاني هو الذي يتمسك بالنظرة القائلة بالارتباط العضوي بين الصهيونية والامبريالية وتبعيتها لها منذ نشوئها ضمن الظروف الغربية حتى سيطرتها على فلسطين ومن ثم دورها الحالي في خدمة مواقع الامبريالية في المنطقة .

ان المفهوم القائل باستقلالية اسرائيل يعود الى الليبراليين الاكاديميين العرب ، بمعظمهم من افراد الطبقة البورجوازية شبه الكبيرة العربية ، ممن أدى بهم هذا المفهوم الى الدعوة للتوجه الى البلدان الغربية لتغيير وجهة نظرها تجاه الكيان الصهيوني لصالح العرب . ووجد هذا المفهوم ترجمته على النطاق العملي في الحملات الاعلامية التي وجهت الى الغرب بغية التأثير على ما بات يسمى « الرأي العام العالمي » وعلى هذا فقد باتت المسألة تبدو بالنسبة للكثيرين وكأنها مسألة تنافس وتسابق بين اسرائيل والعرب لنيل تأييد الدول الغربية . وعلى هذا فقد أدى خطأ النظرة القائلة باستقلالية اسرائيل الى بذل مجهودات كبيرة توجهت اعلاميا الى الرأي العام الامبريالي الغربي لصرفه عن تأييده «الاعمى» لاسرائيل، فلم تجد هذه المجهودات اي صدى الا في اوساط اليسار في الغرب . ولم تكن هذه الحملات بالطبع لتؤثر على سياسة الدول الامبريالية التي تتعدى دوافع دعمها لاسرائيل مسألة العطف الاعمى ، الى مسألة المصالح المترابطة والتي تنعكس في تبعية اسرائيل المباشرة للامبريالية .

أما المفهوم القائل بتوسعية اسرائيل فيعود في المرتبة الاولى الى الطبقة البورجوازية الصغيرة التي ترددت عن تحديد كامل سبل التهديد الذي تمثله اسرائيل للشعوب العربية ، فتترجم مفهومها عمليا في اقتصار توجهاتها الاعلامية محليا على ترديد الكلام بأساليب البلاغة المختلفة عن « نوايا اسرائيل التوسعية » . وبغض النظر عما فيها من انكار لحقوق ضحايا التوسعات السابقة لاسرائيل (١٩٤٧ — ١٩٤٨ — ١٩٤٩) والتي لا حاجة للنظر في بواطن النيات لادراكها ، فقد نجم عن هذه النظرة حصر تهديد اسرائيل للشعوب العربية

الاكسترا فلسطينية في امكانية توسعها في المستقبل على حسابها . وهكذا فما زال حاملو هذا المفهوم يرسلون الاقوال عن نوايا اسرائيل « من النيل الى الفرات » ويدرجون الدلائل على ذلك من الكتابات الصهيونية الاولى . وفي رأيي ان هذا المفهوم كان خاطئا وسلبيا . ولا يعني ذلك ان اسرائيل لا تتوسع ولن تتوسع ، بل يعني انه لا يمكننا الاخذ بجدية الكتابات الصهيونية الاولى في القرن الثامن عشر مثل اقوال هرتزل عن حدود دولته ، ان لشيء ، فلأن هرتزل لم يكن يعرف شيئا عن فلسطين الا ما رآه في خريطة كانت بحوزة احد معارفه القس هشلر ، مما يعني ان قوله عن حدود الدولة لا يمكن اخذه بعين الجدية التي غالبا ما اخذ بها في الكتابات العربية . ولكن بغض النظر عن ذلك ، فان النظرة التي تنحصر في القول بالتوسعية ، نجم عنها انطباع لدى السامع العربي العادي بحيث لم يعد يرى اي تهديد لموقعه ومصالحه الا من وجهة النظر التوسعية ، مما يفسر سلبية التعبئة الثورية للمقاومة العربية المسلحة الا في اوساط من ينال منهم التوسع مباشرة .

لو حاولنا حصر او تحديد المعضلات الاساسية التي واجهت الثورة الفلسطينية وادت الى فشلها النسبي في المرحلة الراهنة ، لاستطعنا توضيح عنصرين هامين هما : اولا ، الفشل في تحقيق التعبئة العربية خارج الساحة الفلسطينية وتحقيق التفافها جماهيريا حول الثورة . ثانيا ، الفشل في السعي، او حتى التفكير بالسعي الجدي ، لتعبئة عناصر من الطبقة العاملة الاسرائيلية لصالح الثورة . وهاتان المعضلتان يمكن اعادتهما الى الالتباس في المفهوم العام والسائد حول الصهيونية في الاوساط العربية .

من هنا اهمية النظرة الواضحة والمتكاملة للصهيونية من حيث ظروف نشأتها في الغرب وعواقبها ونتائجها في المنطقة العربية . فتحديد واقع تبعية الصهيونية واسرائيل للامبريالية ، تاريخيا من حيث دورها كأداة في ضرب الثورية في الغرب وحاليا في معاداتها لاي تحركات تقدمية تحررية في المنطقة العربية ، يشكل ضرورة تلازم تحديد الممارسة العملية في التصدي للحركة الصهيونية ودولة اسرائيل وليدتها . واذا نشأت الصهيونية عن ظروف الصراعات المجتمعية الغربية كقسم من جهود الرأسمالية العالمية (الامبريالية) لضرب الثورة وصرف البروليتاريين اليهود عنها باجلائهم الى فلسطين ، وهذه هي النظرة التي طرحتها في ملاحظتي الاولى ، فيشكل هذا المفهوم لدينا اذن ، اساسا للتوجه الى الطبقة العاملة الاسرائيلية في سبيل التصدي الى احدى نقطتي الضعف الاساسيتين التي تواجههما الحركة الوطنية الفلسطينية في سعيها لتحقيق الحل الديموقراطي الاشتراكي الثوري للمشكلة الصهيونية . كما أن توضيح واقع تبعية الصهيونية واسرائيل الى الامبريالية وعملها في خدمتها ، ومن ثم التهديد اليومي المستمر والمباشر الذي تمثله اسرائيل لمصالح الفرد العربي اينما وجد (من شمالي سورية الى العراق الى ما هنالك) ولتحركات مجموعات جماهيره نحو التحرر ، ليس فقط من حيث توسعيتها ، بل بمجرد وجودها كقاعدة استعمارية اداة في يد الامبريالية ، فان ذلك من شأنه ان يشكل أساسا للتوجه الواضح نحو الجماهير العربية لتعبئتها وتخطي نقطة الضعف الثانية التي واجهتها الحركة الوطنية الفلسطينية.

العظم : هناك ارتباط واضح بين ما قاله الدكتور الياس شوفاني حول فكرة تغيير الوعي في اسرائيل وما قاله الزميل الياس سعد حول التفسير الصحيح والواضح للصهيونية باعتباره اداة من ادوات تغيير الوعي، لكن اعتقد ان التفسير وحده لا يكفي ، يعني التفسير وحده لم يكن قادرا في يوم من الايام على تغيير الكثير الا في الاوساط الفكرية او الثقافية الضيقة . في النهاية ان تغيير الوعي ، ان كان بالنسبة للرأي العام العالمي او بالنسبة لاسرائيل ، رهن بنمو الثورة العربية وقدراتها الكفاحية وبالتضحيات التي تقدمها والانجازات التي تحققها . اذا نمت الحركة الثورية العربية حقا وكبرت ستضطر اسرائيل للتدخل لضربها باعتبارها احد الخطوط الدفاعية للامبريالية ضد الثورة الاشتراكية في المنطقة . التفسير وحده لن يؤدي الى النتائج المطلوبة مما لم تفرض حركة الثورة في المنطقة نفسها عن طريق الكفاح لن يتأثر وعي اية قطاعات جماهيرية هامة ان كان على الصعيد العالمي او الصعيد الاسرائيلي. وواضح ان لا العالم ولا اسرائيل ولا الدول الكبرى نظروا الينا نظرة اكثر جدية مما فعلوا في الفترة التي صعدت فيها حركة المقاومة . لقد تمكنت المقاومة في فترة قصيرة من أن تؤثر على الرأي العام العالمي وحتى على الرأي العام الاسرائيلي

بما لم تستطع ان تفعله جميع البعثات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية وممثلي الدول العربية والجامعة العربية على مدى ربع قرن من العمل الدعائي والتفسيري والتوضيحي . نقطة اخرى حول مسألة تغيير الوعي في اسرائيل مرتبطة بشيء قاله الاستاذ الياس مرقص قبلا عن بعض الثوريين الاسرائيليين الذين يطالبوننا بالاعتراف بحقوق الشعب الاسرائيلي واجاب على مطلبهم بقوله بأنه يجب ان نكون واضحين بأن الامة الاسرائيلية ، او الامة اليهودية الاسرائيلية كما سماها ، مرتبطة بالامبريالية ومعادية لحركة التحرر العربية وحركة التحرر العالمية . هذا الرد ليس الا تحصيل حاصل لان الثوريين الاسرائيليين ، اذا كانوا ثوريين حقا ، يقرون بهذا الواقع الذي يشدد عليه مرقص والا لما كان قد سماهم بالثوريين اصلا . انهم يقرون بأن اسرائيل الصهيونية ، والطغمة الحاكمة فيها ، تضطهد الشعب الفلسطيني وهي دولة مستعمرة ومحتلة الى آخر ذلك مما قاله . ان الاقرار بواقع كون اسرائيل تشكل امة مرتبطة بالامبريالية ومعادية لحركة التحرر المحلية والعالمية من قبل الثوريين كافة لا يعني ، بالمنظور الاستراتيجي البعيد والمنظور الثوري البعيد ، ان نتهرب من مواجهة مسألة الحقوق التي يثيرها الثوريون في اسرائيل . اذا اتفقنا على أن يهود اسرائيل يشكلون او هم في طريقهم الى تشكيل أمة او قومية ، كما قال الاستاذ الياس مرقص ، فلا بد من الاستنتاج بأن طابع الحقوق المتوجب الاقرار بها ، على المدى الاستراتيجي ، للشعب الاسرائيلي هو طابع الحقوق القومية ، وهذا الاقرار هو جزء من النضال الايديولوجي التحرري في الوقت الحاضر .

سعد : لسوء الحظ ، لاحظت ان الدكتور صادق العظم تنحى عن السؤال الذي أثرته — هذا مع العلم انه كان يتكلم وكأنه يجيب على سؤالي . ان المسألة التي أثرتها لا علاقة لها بعقد المؤتمرات الدولية ، وفي الواقع انني سبق وقلت ان المؤتمرات الدولية او التوجهات الى الرأي العام العالمي لم تكن مفيدة . كما ان المسألة التي أثرتها لا تعني انني ارفض اهمية الصراع نفسه في تحديد المفهوم. السؤال يتعلق بفشل الثورة الفلسطينية سياسيا على نطاقين اساسيين والجميع يعرف ذلك ويعلم مدى التضحيات التي نجمت عن ذلك . الفشل الاول كان في التوجه لتعبئة الجماهير العربية الواسعة خارج النطاق الفلسطيني والثاني في التوجه الى الفئات والطبقات الاسرائيلية الكادحة . واعتقد انه سيكون لهاتين المسألتين الاثر الاهم في المستقبل وأود أن يتوجه انتباه المشتركين في هذه الندوة الى كيفية التصدي لهما .

مرقص : احب ان اقول ، انطلاقا من تعليق على كلمة الدكتور الياس شوفاني انني شخصيا لم اتحدث حتى الان عن مسألة الدولة الديمقراطية الفلسطينية ولا حتى تلميحا . وفي نظري القضية الحاسمة ليست هنا ، القضية الاصلية للخطأ ، للانحراف ليست هنا ، او بالاحرى هي هنا جزئيا ولكن بشكل معكوس ، ففي نظري ان المناقشات التي جرت في أوساط المثقفين والمنظمات الفلسطينية والمجلات العربية قبل اربع سنوات او ثلاث سنوات حول موضوع مستقبل فلسطين والدولة الديمقراطية الفلسطينية وعدم رمي اليهود بالبحر وتدمير الدولة الصهيونية بالمعنى اللينيني للدولة كما في كتاب « الدولة والثورة » والمقصود هنا الاخ صادق العظم ، هذه المناقشات التي قامت والتي انقسم عليها المناقشون الى هذين ألم يكن لها ارضية مشتركة ، فهي تفترض وكأننا في مد هائل وكأننا نتقدم الان ، يعني منذ ثلاث سنين ، نحو تحرير فلسطين ذاتها وانه علينا ان نشرع لمستقبل فلسطين الديمقراطية . جوابي على هذا السؤال ايها الاخ شرابي ، جوابي الشخصي ، لانني لم افهم جوابك بشكل محدد — فهمته اولا بشكل ثم فهمته بشكل آخر ، هو نعم ولا يمكن ان نقول لا . كانت هناك أرضية مشتركة هي نفس وطني ثوري جموحي ولكنه خاطىء ايها الاخوان خطأ الاندفاع الى الامام بدون حساب ، استراتيجية لا تعرف مصطلح هجوم ودفاع لا تتساءل أهجوم أم مرحلة دفاع لانها أصلا مؤمنة كأيديولوجيا ولكن لا — تؤاخذنني على الكلمة — شاطحة ، مؤمنة عفويا بأننا في هجوم . وهذه النقطة التي أثارها الدكتور شوفاني وبعض الاخوان تعيدنا الى النقطة الرئيسية التي بقينا حتى الان ، وقبل كلمة الدكتور فايز الاخيرة، بعيدين عنها، وهي مسألة هل نحن الان ، اي في سنة ١٩٦٨ في مرحلة يجوز أو كان يجوز ان نسميها مرحلة تحرير فلسطين وازالة الكيان الصهيوني ، الدولة الصهيونية ، سواء كمرحلة تكتيكية او حتى كمرحلة استراتيجية ام ان تحرير فلسطين هو بالضبط الهدف . اما الهدف الاخير الذي أفضل ان ادخله لا في التكتيك ولا في الاستراتيجية بل افضل ان ادخله في مستوى ثالث ادعوه شخصيا المنظور التاريخي .

وليست عواطفي فقط بل ايضا وعيي وبشكل مطلق هو مع المقاومة الفلسطينية ، في رأيي انا المقاومة لن تموت ، لانني لم أتفاءل فوق اللازم منذ اربع سنوات وأعتقد ان تشاؤمي الان أقل من تشاؤم الكثيرين غيري . اعتقد ان المقاومة الفلسطينية تستطيع ان تصحح ويجب ان تصحح . وتأكيدا او تحديدا لكلمة الاخ صادق العظم اريد ان أقول نعم ، تمكنت المقاومة من ان تقدم خلال فترة قصيرة ما لم يحقق من قبل على يد احد وما قدمته الخصه كشيء ايجابي وأرجو أن يكون ثابتا فعلها في عقل قسم كبير من الرأي العام العالمي بين مفهوم فلسطين ومفهوم اسرائيل ، ألغت المقاومة هذا الترادف وقلبته الى تناقض في باريس وفي مدن اخرى من العالم ، وهذا شيء ممتاز ، وهذا تلاف لنقص سابق حتى على صعيدنا العربي . من هذا الكلام لا يجوز ان يفهم بأنني ضد تمايز حركة التحرر الفلسطينية ، او ضد طليعة حركة التحرر الفلسطينية عندما تكون صحيحة وواعية ودقيقة تحسب المراحل بدقة . لكن ايضا تعليقا على كلمة الاخ صادق العظم ان المقاومة تمكنت ان تقدم خلال فترة قصيرة ما لم يتحقق على يد غيرها . أريد ان اقول يجب ان نحرز الفترات القصيرة ، من الافضل ان يكون هناك بناء متدرج وغير قصير ابدا ، طويل وأقل سهولة من طريقنا السابق ومن عملنا السابق واثبت وأرسخ لمدة خمسين سنة ولمدة مئة سنة . في كلمة الاخ صادق العظم حين رد على كلامي اعتقد انه نسي في كلمتي الاخيرة النقطة التي اعتبرها الاهم ألا وهي قضية السيادتين . لا يجوز قيام سيادتين او أمتين كل منهما ذات سيادة . كذلك النقاط الاخرى وأهمها النقطة الاولى الاساسية وهي واقع الصراع ، مستقبلة سبعين سنة تخللتها بعض الحروب الجزئية في الماضي ، سبعين سنة قادمة سيكون فيها حروب أكثر دموية بعشرات المرات ومن الممكن تماما ان تكون اسرائيل هي الطرف المبادر بطريقة من الطرق في هذه الحرب المقبلة . واريد ان اؤكد على طلب الاخ الدكتور فايز صايغ وبصفتي غير فلسطيني اريد ان استنجد بكم لكي اعلم ما هي قناعاتكم ايها الاخوان الفلسطينيون المثقفون الثوريون الوطنيون، هل فشلت أم لم تفشل المقاومة بشكل جوهري ؟ طبعا دائما هناك عدة وجوه للقضية ولكن بشكل جوهري وحاسم هل فشلت ام لم تفشل الثورة الفلسطينية فلسطينيا ؟ بتعبير آخر هل حساب البيدر جاء مطابقا لحساب الحقل ؟ انا أسأل عن التصور الصائب في عقول الاخوان الذين قالوا والاخوان الذين كتبوا ، الاخ صادق وخصم الاخ صادق وخصم الخصم وهكذا دواليك ، ترى هل كان نفس تصورهم الاساسي ؟ لسنا في موضوع نصوص وتدقيق ، لكني أتساءل الان بعيدا عن النصوص يا اخوان عن التصور الجوهري للاخوان الذين أحبهم وأحترمهم وأقدرهم ، ماذا كان تصورهم قبل اربع سنوات وهل حساب البيدر جاء مطابقا لحساب الحقل ؟ يا اخوان مبدأ ماركس ، مبدأ المادية التاريخية يمكنني ان اقول هو كما يلي : في رأس المال ، تستطيع نحلة ، أسوأ نحلة ان تصنع خلية لا يستطيعها أفضل مهندس معماري ، ولكن أسوأ وأضعف انسان له ميزة وتفوق على النحلة انه يضع الصورة في رأسه ، يعني في ذاته قبل أن ينفذها في الموضوع الخارجي . وكل علة وجود الفكر هي هذا الاستنباط ، هذا الانعكاس الذي هو ايضا استنباط وبالتالي هذه الصورة التي كانت في رأس الانسان المهندس الفلسطيني اي القائد والمثقف الفلسطيني الذي أكاد ان اقول ، ولكنها كلمة بشعة ، انه ركب موجة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ . هل هذه الصورة ، هذا التوقع ، هذا الاستنباط الذاتي الذي كان في رأسه ، هل اخرج الى الموضوع ام انه حصل العكس تماما ؟ اين حساب البيدر من حساب الحقل ؟ في بداية الندوة جاءتنا دعوة من فتح لمناقشة موضوع ما العمل ؟ يا اخوان انا شخصيا على استعداد ، رغم اي شيء ، ان ابقى يومين وثلاثة ايام واكثر وان نتناقش لكي نجيب على السؤال ما العمل ؟ على ان يكون جوابنا منطلقا من تقييم محدد للمرحلة السابقة ، في ضوء حساب البيدر وحساب الحقل.

أ. أ. ل. : اذا سمح لي الاخوان بأن اوجه احتجاجا رقيقا اليهم وليس الى أي شخص بالذات. اعتقد اننا في هذه الجلسة ابتعدنا قليلا او كثيرا عن الموضوع الذي اجتمعنا من أجله اذ لم ندع الى هذا الاجتماع لمناقشة الثورة الفلسطينية مباشرة او لتقييم انجازاتها او فشلها . لقد دعينا الى هذه الجلسة لنناقش الحركة الصهيونية وتطورها وتقييمها واذا بنا نشطح شطحة اخرى ، يجوز الى موضوع اقرب الى عواطفنا من الموضوع المطروح ولهذا من السهل على أي شخص أن يستدرجنا الى موضوع الثورة الفلسطينية . ولهذا

أقترح على مجلة « شؤون فلسطينية » ، رغم رغبتي في مناقشة ما قيل عن الثورة الفلسطينية في هذه الجلسة ، أنه اذا أردنا أن نناقش موضوع الثورة الفلسطينية او الاسئلة حولها ان تنظم جلسة خاصة لمناقشة موضوع الثورة الفلسطينية . في ما تبقى من الوقت اقترح ثانية بأن نعالج الموضوع الرئيسي الذي أتينا من اجله وهو الحركة الصهيونية واحلامها وكيف تحققت ان تحققت وكيف تغيرت هذه الاحلام على ضوء القوة الاسرائيلية وتطورها . واذا كانت هذه التطورات مرتبطة من قريب او من بعيد بالثورة الفلسطينية لا اجد مانعا من الاشارة الى ذلك لانني اعتقد بأن الحركة الصهيونية والدولة الاسرائيلية تتأثران وتتفاعلان مع المواجهة الفلسطينية والعربية ولا شك بأن للثورة وللبدائل التي طرحتها هذه الثورة أثرا فعالا في التكيف الصهيوني سواء على الصعيد الفكري او على الصعيد العملي ولهذا ارجو من الاخوان اذا سمحوا ان نعود الى الموضوع الرئيسي .

شرابي : اريد ان اقول شيئين : الدكتور ابو لغد هو الذي قال في مطلع الندوة انه اذا كان لمناقشتنا اية قيمة فانها تكمن في النتائج العملية . ثانيا ان المشكلة الاساسية التي تحكم حياتنا ومصيرنا نغلق عليها الباب . السؤال طرحه الاستاذ صايغ وهو السؤال الاساسي الذي اثير بعد أيلول ١٩٧٠ ، وهو ما زال يثار ويقضى عليه حتى الان ، طيب ، لماذا فشلت هذه الثورة ؟ ألا يجب علينا الجواب على هذا النوع من الاسئلة ؟

ابو لغد : يجب على «شؤون فلسطينية» ان تدعونا لمناقشة هذا الموضوع . موضوع اليوم هو الحركة الصهيونية وعلينا ان نناقش هذا الموضوع وننتهي منه وهو مهم بالنسبة لاستراتيجية معينة ، اذا فهمنا طبيعة هذه الحركة وتطوراتها . الموضوع الذي أتينا من أجله ليس الثورة الفلسطينية .

العظم : أعتقد بأنه يجب العودة ، في الواقع ، الى الموضوع الاساسي الذي اجتمعنا من اجله . لكن الاشارات التي جاءت حول المقاومة الفلسطينية لم تكن كلها شاطحة بل كانت مرتبطة بسياق المواجهة العربية الاسرائيلية . اعتقد ان كلام الدكتور ابو لغد هو من قبيل التخوف ، التخوف من ان نشطح اكثر بكثير في هذا الاتجاه ونبتعد اكثر مما يجب عن موضوع تقييم الحركة الصهيونية .

شوفاني : اعتقد اننا لنرجع ونلخص الكلام عن انجازات اسرائيل نحتاج الى يوم كامل . ان العالم العربي كله لا يملك الارادة على التحرك في الاطار الدولي . الصهيونية في فلسطين وفي تحركاتها السياسية وارتباطها مع الامبريالية ومع القوى الرجعية في العالم العربي منعتنا من التحرك ومن امكانية التفكير في ارادة موحدة . يعني الشلل الموجود في العالم العربي حاليا هو نتيجة لانجازات اسرائيل .

سعد : سأحاول العودة الى موضوع اسرائيل والتطورات الاخيرة على ان يكون ذلك ضمن ملاحظة اضافية أود أن أبديها حول موضوع فشل الثورة . ولا بد من القول هنا ان الفشل كان نسبيا له ارتباطاته بالظروف الموضوعية الحالية دون ان يعني ذلك فشلا في المدى البعيد خاصة وان الظروف الموضوعية لن تكون بالضرورة هي نفسها في المستقبل . لقد قلت في الملاحظتين السابقتين ان الفشل كان في التعبئة عربيا والتوجه اسرائيليا ، وبالطبع فان المسؤولية لهذا الفشل تعود على الثورة الفلسطينية وهويتها الاساسية . أي بمعنى آخر ، انني اوافق الدكتور صايغ قوله بأن الفشل كان فشلا فلسطينيا مما يستطلب النظر في الثورة الفلسطينية نفسها . انما الثورة الفلسطينية لم تكن هويتها ، نظرا لظروفها ، مجتمعية صرفة ، بل واجهتها ضرورة اثبات الهوية الفلسطينية بعد طمس وغياب طويل منذ عام ١٩٤٨ او ربما قبل ذلك منذ اجهاض ثورة ١٩٣٦ . والواقع ، فان هذا الاثبات للهوية الفلسطينية كان صلب ايديولوجية حركة فتح ، وقد انتقدته الفئات الاخرى على انه ادى الى التمييز بين أردني وفلسطيني ... الخ. الا ان هذه الفئات ايضا كانت قد قالت بضرورة اسماع الصوت الفلسطيني واثبات وجوده . وقد نجحت الثورة الفلسطينية فعلا في اثبات الهوية الفلسطينية الامر الذي لا بد منه في التصدي للصهيونية واسرائيل . الا انها فشلت في الانطلاق من المهمة الوطنية الصرفة للثورة وتصعيدها الى بعدها المجتمعي الاوسع . ولعل اهم أسباب هذا الفشل في هذا المضمار ، هو التردد الذي انعكس في القول الذي طرحته فتح بأن الايديولوجية او الاستراتيجية لا ضرورة لتحديدها ، اذ انها تتبلور مع تطور الصراع . وفي الوقت نفسه فان الاستناد العفوي الى الايديولوجية البولشفية — او بالاحرى الى ماركس ولينين بالذات — ورفع شعاراتها دون

انتهاج هذه الايديولوجية وتطويرها لتحليل الظروف المجتمعية المحلية والحالية بوضوح كان عامل الضعف في اليسار الفلسطيني واليسار العربي عامة حتى الان .

اما بالنسبة للتطورات الاخيرة المتعلقة باسرائيل والصهيونية ، فانها ترتكز في النزعة او الميل نحو نشوء قومية اسرائيلية بمعزل عن القومية اليهودية التي تزعمها الصهيونية لنفسها . ولا شك ان نجاح تبلور قومية اسرائيلية متميزة عن الصهيونية ، من شانه ان يكون له تاثير حاسم على تطورات النزاع في المستقبل كما انه قد يسهم في تحسين امكانية بقاء الكيان الاسرائيلي . وهناك من يقولون ان قومية اسرائيلية كهذه هي قائمة حاليا ، الا ان المناخ والكيان السائد في اسرائيل هو مناخ الصهيونية — اي بمعنى الارتباط بالصهيونية العالمية ومن ثمة ارتباط الاسرائيليين صهيونيا بيهود العالم . واذا اخذنا بعين الاعتبار نوعية التلاحم بين الصهيونية والامبريالية ، يصبح واضحا ان طبيعة الصراع في الوضع الحالي والمستقبل القريب تتحدد على اساس الصراع ضد الرأسمالية العالمية والامبريالية العالمية . وعلى ذلك فلا يمكن ولا ينبغي اعتبار مسالة تحرير فلسطين على انها الهدف ، اذ ليست سوى جزء من تحرر منطقة الشرق الاوسط عامة . وفي الواقع ، فان وضع هدف تحرير فلسطين ، بمعزل عن التحرر المجتمعي في المنطقة كلها ، موضع التركيز المطلق ومركز الانظار الوحيد قد يشكل ذاتيا سبب عذر للجماهير العربية التي لم ينل منها التوسع الاسرائيلي بعد ، تستعمله القيادات البورجوازية العربية لصرف مبادرات الجماهير عن تحررها المجتمعي تحت غطاء وابل شعارات المزايدات القومية او الدينية الفارغة .

شوفاني : يمكن اني فهمت الكلام الذي جرى بصورة خاطئة ان الثورة الفلسطينية نجحت في خلق الكيان الفلسطيني وتم قبول ذلك عالميا باعتباره احد أهداف الثورة الفلسطينية . لكن اعتقد ان الدافع الاساسي ، وخاصة الدافع الفتحاوي في جعل الساحة الفلسطينية الساحة الاساسية للصراع نابع ، في نظري ، من تحليل لا يمكننا ان نستغني عنه هو ان العالم العربي في الوقت الحاضر سواء أردنا ام أبينا يعيش في فترة تاريخية تهيمن فيها الايديولوجية القومية الحضارية . بالرغم عن ان السوريين يقولون ان الحدود بين سوريه ولبنان هي حدود استعمارية وان الحدود بيننا وبين الاردن هي ايضا من صنع الاستعمار الا انه لا يمكننا ان نتجاهل الاقليمية الموجودة في العالم العربي حاليا. لقد أصبح للجماهير السورية بوعيها السياسي ارتباط بسوريه وللجماهير اللبنانية ارتباط خاص بلبنان كذلك الامر بالنسبة للجماهير الاردنية . عندما نقول اننا والشعب الاردني شعب واحد نحن نتبنى هدفا وليس منطلقا ، لانه اذا بدأنا بوضع الهدف مكان المنطلق انقلبت علينا الامور بشكل يجعلنا نعمل بصورة عشوائية . اذن انطلاق العمل من الساحة الفلسطينية كان نابعا من تحليل يقول ان العالم العربي يعيش في الوقت الحاضر فترة من تاريخ حياته تتحكم فيه القومية الحضارية وليس بامكان الانسان الفلسطيني او الحركة الفلسطينية ان تبدأ بصراع طبقي او صراع عقائدي في عالم عربي هذا هو الوعي السياسي السائد فيه ، اذ هناك مسالة بسيطة السوري يقول لنا خربتم بلادكم وجئتم تخربون بلادنا ارجعوا الى بلدكم . فكان لا بد من ان تنطلق الثورة الفلسطينية من مصلحة الجماهير التي لها علاقة او لها مصلحة في نضالها ، يعني كان لا بد للحركة الفلسطينية من ان تجيب على متطلبات الشعب الفلسطيني ، وبما ان هذا الشعب يتحمل مثل كل الشعوب العربية أذى الامبريالية والرجعية بالاضافة الى كونه مشردا كان من الطبيعي ان يكون في الطليعة بسبب تأزم وضعه . وكان لا بد للحركة التي تقوده من ان تطرح مبادىء وايديولوجيات تجيب على متطلباته . هذا لا يعني ان الحركة الفلسطينية ستستمر الى الابد كحركة فلسطينية ، ليس هناك تناقض بين فلسطيني وعربي ، يعني هو عربي لانه فلسطيني . المهم في القضية هو الهدف النهائي للمرحلة ، وكما ذكرت فتح مشيرة الى ان المرحلة الفلسطينية ستتغير بالنهاية الى عربية في قولها ان الثورة الفلسطينية عربية العمق . اما اسباب الفشل فهي باعتقادي معروفة. ان ما قاله الاستاذ سعد حول فشل المفهوم الفلسطيني في الصراع هو تعميم خاطىء على ما اعتقد . كل واحد منا يعلم ان بين الفلسطينيين توجد مجموعات مختلفة في الساحة من الاخوان المسلمين الى الماركسيين واليساريين ، فكيف نتكلم عن المفهوم الفلسطيني للصراع . هذا تعميم لا يمت الى الواقع بصلة . هناك جماعة تريد دولة اسلامية وهناك يساريون يريدون تحولا اشتراكيا . لا يوجد

ثمة شيء اسمه مفهوم فلسطيني للصراع . هناك تركيز على الساحة الفلسطينية وانا اقول التركيز على الساحة الفلسطينية من منطلق ماركسي وهو بالفعل المنطلق الاساسي ، المنطلق الذي نأخذ فيه بالاعتبار الواقع التاريخي والبعد السياسي القائم في الفترة التي ننطلق منها نحو الهدف الذي نعمل له في المستقبل . اما بالنسبة الى الوضع الاسرائيلي اعتقد ان التطور الداخلي هو اهم شيء في الوقت الحاضر ، في المدة الاخيرة رأيت بعض المقالات حول الموضوع ولا شك ان هناك تطورا في الاقتصاد الاسرائيلي الذي بدا وكأنه اقتصاد اشتراكي من خلال مؤسسات اشتراكية مثل الكيبوتس ، والهستدروت هو الشكل الذي لا بد ان تكون عليه بورجوازية الدولة . الا ان الرأسمال الفردي يتجه نحو الازدياد في الاقتصاد الاسرائيلي، مثلا شركات البناء تسير كلها في هذا الاتجاه مع هذا التطور في الاقتصاد . لقد اخذ يحل اقتصاد رأسمالي محل الاقتصاد الذي كان يبدو انه اشتراكي في السابق . هناك تطور اجتماعي يوازي هذا التطور الاقتصادي ، يتكلم عنه الاسرائيليون انفسهم . بروفسور تاريخ في الجامعة العبرية يقول ان مجتمعهم يتطور بدون اية نظرية، وهذا شيء طبيعي فاذا كان هناك تغير اقتصادي خاصة في العلاقات الانتاجية فلا بد ان يتبع ذلك تطور اجتماعي . واذا استمر الوضع على حاله فما الذي نتوقعه في المستقبل القريب حول سياسة اسرائيل ؟ مثل اية سياسة انها مرتبطة بالاقتصاد. والذي تفعله اسرائيل لا بد ان يخدم التطورات الطبقية الجارية في داخلها . هذا التركيز ضروري حتى نفهم ما هي تحركات اسرائيل في المستقبل . اعتقد ان شركات اسرائيل في المستقبل ستسعى لدخول الاوبيك ... لانه اذا اطلعنا على تطورات البترول في اسرائيل نجد لديهم ما يمكن ان يدخل عليهم خمسماية مليون دولار بعد سنوات . وتقوم اسرائيل ببناء اسطول من ناقلات البترول كما انها تبني الانابيب ومصفاتين تنشىء صناعة بتروكيمائية ، ويتم الان توظيف رؤوس اموال بكميات كبيرة في هذا المجال ، من الناحية السياسية لاسرائيل علاقات مع اميركة ، كلنا نعرفها ، ومع ايران ومع اثيوبيا ، كل هذه الامور تدل على ان اسرائيل عندها الامكانية للدخول كعضو في نادي البترول وعندها المساندون الذين يدعمون طلبها في الدخول الى اوبيك . من جهة أخرى هناك محاولة من قبل اسرائيل لتخطي المنظمة الصهيونية والوصول الى اتفاق رأسا مع الحكومة الاميركية وشخصيات يهودية لها علاقة ببعض شركات صناعة الاسلحة وهي شخصيات غير صهيونية بالمعنى الضيق للعبارة . على هذا الاساس ان ارتباط اسرائيل بالامبريالية ، يعني انها مرتبطة بالسياسة الاميركية بغض النظر عما اذا كان نيكسون او غيره في الرئاسة . ولكن اسرائيل تفضل سياسة امبريالية نشطة . ولكننا نجد ان اليهود في الشاطىء الشرقي من الولايات المتحدة والذين كانوا عماد الحركة الليبرالية وضد الحرب في فيتنام وما الى ذلك ، كانوا يساندون ماكغفرن لانه وعد بالانسحاب من فيتنام . ولكن العلاقة مع اسرائيل تبقى شيئا آخر ، لان لاسرائيل تحليلا آخر اذ انها تعرف ان استمرار الدعم الاميركي لها على ما هو في الوقت الحاضر يتوقف على انتهاج سياسة استعمارية نشطة ليس فقط في الشرق الاوسط بل في كل العالم ، من هنا اختيار اسرائيل مساندة نيكسون .

العظم : بدا لي مع بداية كلام الدكتور شوفاني اننا سننجر مرة اخرى مع عواطفنا ونناقش موضوع الثورة الفلسطينية الا ان الدكتور شوفاني اعطانا وصفا للاقتصاد الاسرائيلي واتجاهات تطوره وصلاته باميركه ، ويبدو من كلامه ان مستقبل الاقتصاد الاسرائيلي ، في المدى المتوسط على أقل تعديل ، يتجه نحو الازدهار .

ابو لغد : تعقيبا على كلام الدكتور شوفاني ، اني اشاركه في تشخيصه لما يحدث في المجتمع الاسرائيلي . وأود اضافة بعض التعليقات البسيطة على ما قاله بالنسبة لتأثير اسرائيل الفكري والسياسي والتوجيه الاجتماعي بالجماعات الموالية لها نظرا لمتطلباتها السياسية المستقبلية . اعتقد ان الضجة التي اثيرت مؤخرا حول تصريحات رابين ، رغم انها حديثة الا اننا نجد في الواقع ان ما قاله السفير كان قد قال مثيله تماما في الفترة التي كنت موجودا فيها مع شوفاني في ايفانستون في اكتوبر سنة ١٩٧٠ ، حيث انعقد مؤتمر الخريجين الجامعيين العرب وحيث كان الطلبة الاسرائيليون يعقدون مؤتمرهم القومي في اميركة في نفس الركن . وقد القى رابين خطابا جوهريا في اجتماع الطلبة الاسرائيليين دعا فيه الى تأييد القوى التي سماها هو القوى المحافظة الاميركية والتي نسميها نحن احيانا بالرجعية ، واعطى تحليلا يكاد يكون

علميا حول دوافع اسرائيل السياسية في دعم الفئة والجري ورائها ، على اساس تشخيص اسرائيل لطبيعة المعركة السياسية المقبلة والتي اعتبرهـا معركة عالمية . وقال ان اسرائيل مرتبطة عضويا باميركه في هذا العالم ، فاذا استمر الخط المحافظ في السيطرة على الحكم الاميركي كـانت اسرائيل اكثر اطمئنانا بالنسبة لامنها . وفي نفس الكلمـة أضاف بأن القوى التي كانت ترتكز اليها الحركة الصهيونيـة سابقا هي مراكز القوى في الحـزب الديمقراطي ، ومعنى ذلك ان التناقض القائم حاليا في المجتمع الاميركي، وعلى المدى القريب، سيكون تناقضا بين القوى التقدمية التي كانت في ذلـك الوقت متمثلة باليسار الجديد واعتقد رابين بأن هذا التيار سيقوى لكن ليس بالشكل الذي كان يقوله اليسار الجديد ، وبين الفئات المحافظة بحيث لا بد ان تتفتت مراكز القوى الاميركية التي كانت مرتبطة بالحزب الديمقراطي ويندمج القسم الاكبر منهـا في القوى المحافظة وتذهب في اتجاه الحزب الجمهوري القائم . واضاف بـان القوى التقدمية الاميركيـة معادية لاسرائيل وان نمو هذه القوى لا بد وان يضعف دعم اميركا لاسرائيل . ولهذا دعا رابـين الطلبة الاسرائيليين واليهود الاميركان ، الذين كانوا متواجدين في هذا المؤتمر ، الى تأييد نيكسون على المستوى القومي والى تأييـد اشخاص من مذهب معين من امثال جولدواتر المعروف برجعيتـه مما صـدم بعض المستمعين نظرا لانهم اعتادوا علـى محاولات الحركـة الصهيونية الحصول على تأييد عالمي والتوجه الى كافة الفئات التي اصطلح على تسميتها باللبرالية . كما كانت الحركة الصهيونية في معظم الحالات في مقدمة الحركات التي اطلق عليها اسم « الحركات الليبرالية » مثل حركة اعطاء المزيد من الحقوق المدنية للسود ، مسألة تكافؤ الفرص للمواطنين ، وكل الامور التي كان يعتقد المجتمع الاميركي بأنها من خصائص الجماعة الليبرالية . لقد كانت الحركة الصهيونية والفئات اليهودية بشكل عام دائما تؤيد هذه الحركات الليبرالية . اما الذي يحدث حاليا على الصعيد الاميركي فهو ان مصالح اسرائيل ، وانا الان لا أتكلم عن الصهيونية وانما عن اسرائيل ، بدأت تتصرف وكأن العون سيأتيها في الاعوام المقبلة من القـوى الاكثر محافظة علـى الصعيدين العالمي والامريكي وبالتالي فقد بـدأت تمارس ضغوطها على الفئات الصهيونية واليهودية في اميركه وغيرها لكي يحولوا وجهـات نظرهم وانتماءاتهـم من الفئات الليبرالية التقليدية الـى الفئات الرجعية . واعتقد شخصيا بان هذا التطور جوهري في طبيعة العلاقات والتوجهات بين الحركة الصهيونية وبين اسرائيل من جهة وبين الفئـات اليهودية الموالية لهما من جهة اخرى .

مرقص : يا اخوان ، حبذا لو استطيع ان اعلم اذا كان هناك في كلمات الاخوان الياس سعد وشوفاني والدكتور ابو لغد ، اذا كان هناك ، في النتيجة ، اجابة على السؤال الذي طرحه الدكتور فايز صايغ والذي طرحتـه أنا ايضا حـول فشل الثـورة الفلسطينية . عندما تحدث الدكتور ابو لغد وطلب العودة الى الموضوع كتبت على ورقتي فورا انني استجيب لدعوة الدكتور ابراهيم فعلا . كما قال الدكتور ابو لغد المواضيع مترابطة ، الصنوان مترابطان ، الصهيونية واسرائيل والامبريالية من جهة والثورة العربيـة والعرب كشعب من جهـة ثانية . هناك تناقض وهو نوع من الترابط . ولكن فعلا كما قال الدكتور ابو لغـد لقد دعينا لمناقشة الموضـوع الاول اي الى موضـوع الصهيونيـة واسرائيل ومـا حققته الصهيونية بالنسبـة الى المسألة اليهودية ولتطور السياسة العالمية ، اما الموضوع الثاني موضوع حركة التحرر الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية والعرب فهو فعلا يحتاج الى جلسة اخرى وربما الى جلسات كثيرة ، ولكن حين استمعت الى كلمات الاخوين الياس سعد والياس شوفاني شعرت وكأنهما تطرقا الى الاسئلة التي طرحت واجابا على هذه الاسئلة وفي رأيي ان اجوبتهما غير كافية ، فكلمة فشل التي وردت لا تكفي لا سيما وانها وردت اصلا في كلامي حين قلت ان ليس هناك فشل مطلق ، واعتقد ايضا اني قلت ان هناك عدة مستويات للنجاح في امر ويمكن ان يكون فشلا على مستوى اخر . استطيع ان أقول مثلا ان المقاومة نجحت في امور كثيرة ولكنها فشلت في المستوى الحاسم والاكثر حسما ، ولقد جـرى حديث عن الماركسية في فلسطين والمنطلق الماركسي واحب ان اقول يا ترى هل علينا ان نعتقد ان هناك خطا ماركسيا ممكنا في هذا الموضوع دون الاجابة على الاسئلة التي طرحت من قبل الدكتور فايـز صايغ ومن قبلي ، ومسألة مطابقة حساب البيدر على حساب الحقل . بالطبع يا اخوان ارجو واحب ان اؤكد من جديد انني استجيب كليا لدعوة الدكتور ابراهيم ابو لغد والكلام الذي قاله حول الولايات المتحدة والاحزاب ، واحب ان اضيف اليه ، عودة

الى موضوعنا الاصلي ، تساؤلي السابق : أليس علينا ان ننظر الى مفهوم المسألة اليهودية في المستقبل كموقع لليهود ، وكدور لليهود ، كدور سياسي لليهود كجماعة او كدور غالب في هذه الجماعة ؟ ان نعلم مثلا ان الشكل الماضي السابق مباشرة لمرحلتنا التاريخية العالمية الراهنة كان هو انفجار المسألة اليهودية في شكل عنصري ، نازية رهيبة ، كانت بالطبع جزءا لا يتجزأ من خط النازية واستعبادها لامم اوروبية ولشعوب اوروبه ، ضربها للثورة البروليتارية واستعبادها لشعوب العالم ايضا . ترى هل يحمل لنا الوقت الحاضر والمستقبل القريب والبعيد نتيجة تغير كثيرا من الظروف ؟ هل يحمل انفجارا للمسألة اليهودية في شكل اخر ومعاكس ، اي مثلا في شكل انفجار شعور قومي فرنسي او وطني فرنسي ضد الصهيونية باعتبار الصهيونية جزءا في فرنسه من التسلط الاميركي المتزايد على فرنسه بواسطة الاقتصاد وخصوصا بواسطة الاعلام والفكر والثقافة وغير ذلك من الامور ؟ اعتقد شخصيا ان هذا الامر قد يكون اهم من مسألة الولايات المتحدة الاميركية. ما هو مستقبل المسألة اليهودية والمسألة الصهيونية في فرنسه نفسها ؟ اذا كنا طبعا نعتقد بأن هناك احتمالا ان يحمل المستقبل بعض الصدام بين فرنسه والسيطرة الاميركية او بين اوروبه الغربية والسيطرة الاميركية ماذا يكون في هذه الحالة موقع المسألة اليهودية ؟ الا يمكن ان تتخذ شكلا جديدا تماما معاكسا للشكل الذي اخذته ما قبل ٣٠ سنة أي شكل مناهضة للصهيونية تلعب دورا فاعلا وعميقا في جمهور شعبي واسع وليس في قطاع طلابي مثلا . بالاضافة الى القضايا التي طرحها الدكتور ابراهيم ابو لغد والدكتور شوفاني والاستاذ الياس سعد احب ان اطرح هذه الامور ايضا على بساط البحث .

جبران مجدلاني : آسف لتأخري عن المشاركة منذ البداية في الندوة وأسفي ناتج ايضا عن كوني لم استمع الى كل الاراء كي اتجنب التكرار او الخوض في قضايا ربما بحثت في السابق . سانطلق من نقطة بدأها الدكتور ابو لغد واعتقد أنها اساسية في اية معالجة جدية للقضية الصهيونية . اعتقد ان التناقض العضوي بين النظرية الصهيونية والفكر الثوري او حتى التقدمي بمفهومه الصحيح لم يبرز في الواقع لعدة اسباب : اولا الوضع العربي ، وثانيا وضع اليهود في العالم قبل قيام دولة اسرائيل . فالسيطرة الاقطاعية الرجعية على مختلف الاقطار العربية عندما انطرحت القضية الصهيونية في ذلك الوقت خلقت انطباعا في الاوساط نصف التقدمية في العالم وحتى في الاوساط اليسارية أن معركة اليهود المتمثلين في الحركة الصهيونية انما هي جزء من معركة التقدم في وجه التخلف الذي كانت تجسده الانظمة العربية . ومن جهة ثانية هناك وضع الاقليات في العالم والمعالجات الجزئية له في السابق والاضطهاد الخاص الذي تعرض له اليهود ساعدت كلها في تكوين نوع من الالتباس بين مشكلات اليهود كمجموعات وبين الفكر الصهيوني . لكن حرب ١٩٦٧ ، بنظري ، بلورت تحولا في المفاهيم وان لم تكن الحرب هي منطلق هذا التحول لان الخضات والانتفاضات التي قامت في الاقطار العربية ، مهما كان تقييمنا لها ، لفتت النظر الى ان في العالم العربي نزعات تقدمية وان كان التعبير عنها في بعض الاحيان سيئا او جزئيا وابتدأت الاوساط التقدمية تنظر الى المجموعة العربية بنوع من الاهتمام سعيا لفهم ما هي ابعاد هذه الانتفاضات. في الواقع ان التقارب الذي حصل بين بعض الانظمة العربية والمعسكر الاشتراكي ساعد ايضا في فتح الاعين على الامكانات الموجودة في الاقطار العربية . ان الرجعية العربية دائما حاولت ان تربط بين الحركة الصهيونية واليسار العالمي كما في تركيزها على عدد اليهود في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وبنوع خاص عند اندلاع ثورة اكتوبر او على الانتماء الديني لبعض الزعماء في الحركات اليسارية او شبه اليسارية في البلدان الغربية . لكن الحقيقة هي ان الحركة الصهيونية، من حيث هي تفكير ، لا بد ان تصل في الممارسة الى موقف منسجم مع نظريتها . ولذلك كان لا بد ، بفضل التحركات التي حدثت في الوطن العربي ، وبفضل انتفاضة المقاومة الفلسطينية ، من ان يبدأ التجانس بين النظرية الصهيونية وبين واقع انتمائها فأصبحت جزءا واقعيا من المعسكر الامبريالي الرأسمالي . وعندما برز التحول ، اولا في اوساط الاحزاب الشيوعية في العالم ثم في الاوساط اليسارية من خارج هذه الاحزاب ، باتجاه تقارب هذه الاوساط مع الحركة العربية ومع الامال المعلقة على الانتفاضات العربية اخذت الحركة الصهيونية تلتصق اكثر فأكثر وبصورة علنية تماما باليمين العالمي، اذا استطعنا ان نسميه كذلك.وانا كنت دائما اتساءل عند مراجعتي الصحافة الفرنسية

كيف بدأ يبرز التحول في تفكير الصهيونيين من الذين كانوا يركبون موجة اليسار في اوروبه . بدأ هذا التحول يبرز اكثر فأكثر بعد حرب ١٩٦٧ فكان هناك مفكرون صهيونيون في فرنسه ، مثلا ، من الذين وقفوا مع حرب التحرير في الجزائر او من الذين وقفوا في البداية مع الحرب التحريرية في الهند الصينية ثم اخذوا يتحولون تدريجيا الى الوقوف في مواقع معاكسة حتى بالنسبة لحرب التحرير في فيتنام وبدأوا يصبون كل غضبهم على المعسكر الاشتراكي . بنظري ان السبب الرئيسي الذي جعلهم يصبون غضبهم على المعسكر الاشتراكي وعلى الاتحاد السوفياتي كان شعورهم ببداية التحول الذي بدأ يظهر في هذا المعسكر ازاء القضايا العربية ومنطلقهم الاول والاخير كان الانتماء النظري للقضية الصهيونية . ومن خلال انتمائهم هذا كانوا يكيفون مواقفهم الاخرى . فعندما بدأ يتحول اليسار الحقيقي عن اسرائيل وبدأ يأخذ مواقف سلبية منها تزداد حدتها مع الوقت بدأ جميع مفكري الصهيونية ، من الذين توزعوا على عدة مناطق وعلى عدة جبهات ، يتجمعون في الصف المحافظ ، في الصف المغالي في المحافظة . وسأقدم مثلا على ذلك جان جاك سرفان شرايبر الذي كان في السابق وعندما بدأ نشاطه الصحفي من اكثر المتحمسين لجبهة التحرير الجزائرية . كتب هذا الصحافي مقالا بعد الهجوم الاخير لثوار فيتنام شبه فيه الدبابات والمدفعية الفيتنامية بدبابات ومدفعية القوات الالمانية النازية . اعطي هذا المثل ، وقد يكون فيه شيء من المبالغة اذا اردنا تعميمه ، للتدليل فقط على التحول الفكري والسياسي في الاوساط المرتبطة بالحركة الصهيونية في العالم . لذلك من الطبيعي جدا ان يؤيد الصهيونيون الحزب الجمهوري على حساب الحزب الديمقراطي لان في التخطيط الصهيوني المعركة قائمة على مستوى العالم وليس على مستوى منطقتنا فقط. فكل ضعف للمعسكر الرأسمالي الامبريالي هو ضعف بالنتيجة للحركة الصهيونية نفسها . واذا كان مرشح الرئاسة الاميركية ماكغفرن يرفض الاصوات المؤيدة للعرب في كل خطاباته وهو بعيد جدا ، موضوعيا ، عن اليسار ولا احد مقتنع بيساريته ، الا انه يمثل الرأسمالية اللاهجومية ، رأسمالية الحوار اذا شئتم ، رأسمالية الابقاء على امكانية التنازل . ولذلك فهو من حيث انه لا يمثل التيار الهجومي في الاخطبوط الرأسمالي ، يشكل ، موضوعيا ، خطرا على الحركة الصهيونية . كذلك كان لا بد ان تقف الحركة الصهيونية مع القوى المهاجمة في الصف الرأسمالي . لذلك لا اعتقد ان هناك تناقضا بين موقف السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة وموقف الصهيونيين هناك لان قيادة الحركة الصهيونية انتقلت الى اسرائيل ولم تعد كما كانت قبل قيام دولتها او كما كانت بعد قيامها بسنوات قليلة . لم تعد القيادة في الخارج بل اصبحت في داخل اسرائيل ، والموقف الذي تقفه اسرائيل من احد كبار دعاة الصهيونية في العالم ناحوم جولدمان وابتعاده تدريجيا عن القيادة يعطينا صورة عن انتقال مركز الثقل الى اسرائيل نفسها. موقف اسرائيل هو المعبر عن المصالح الحقيقية للحركة الصهيونية. وصراحة انا لا اعتقد بأن هناك تناقضا في هذا الوضع حتى وان برزت بعض المقالات في بعض الصحف من قبل يهود اميركيين بمعنى مخالف فذلك قد يكون نتيجة التخوف الذي عبر عنه الاستاذ الياس مرقص ، التخوف من ردة فعل شوفينية تجاه اليهود في العالم . فلا بد اذن من أن يقف بعض اليهود المعروفين بانتمائهم الديني الى اليهودية ضد الموقف العلني السافر من قبل دولة اسرائيل بالنسبة لمعركة داخلية في الولايات المتحدة. ومن ظواهر هذا الارتباط التدريجي العلني بين الحركة الصهيونية والحركة المحافظة بروز التناقض بين اليهود والسود في الولايات المتحدة . كذلك لقد تابعنا في السنتين الاخيرتين التناقض الحاد الذي برز بين الاساتذة السود ، خاصة معلمي المدارس في نيويورك ، وبين اليهود اذ ان اليهود هم مالكو المساكن في مناطق الاكثرية السوداء في هذه الولاية . ولاسباب اخرى انتشرت كذلك مواقف الحركة الصهيونية من القضايا الافريقية بشكل عام وواضح جدا . فالعلاقات الاساسية التي تقوم بين اسرائيل والاقطار الافريقية واقعة مع جنوب افريقيه اولا ، حيث توجد جاليات يهودية كبيرة هي جزء لا يتجزأ من النظام العنصري في جنوبي افريقيه . ومع روديسيا ثانيا ومع اثيوبيا ثالثا . ويمكن ان يضاف اليها بعض البلدان الافريقية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالغرب كشاطىء العاج وغيرها . احببت ان اذكر ، على سبيل المثال ، بعض الاقطار التي تعطي صورة حية عن هذا الانتماء . فنحن اليوم في الواقع نشهد تحول اليسار الحقيقي في العالم ازاء القضية الصهيونية. اعتقد ان استراتيجية الصهيونية ستتركز ازاء هذه

الظاهرة الجديدة على جبهتين : الجبهة الاولى هي الخط المحافظ في الولايات المتحدة الاميركية لا الاوساط الليبرالية التي ستعتبرها الحركة الصهيونية خطرة على المعسكر الرأسمالي في المدى البعيد . الجبهة الثانية يمكن ان نطلق عليها ، بشكل عام ، اسم الديمقراطية الاشتراكية في اوروبه الغربية . في الولايات المتحدة سيكون التركيز الاساسي ، في نظري ، على المحافظين . اما في اوروبه الغربية فسيكون على الحركات الديمقراطية الاشتراكية وليس على القوى المحافظة ، لان القوى المحافظة في اوروبه معرضة لردة فعل شوفينية بوجه السيطرة الاميركية وهي مهيأة اكثر من الحركة الوسطية ، التي تسمي نفسها الحركة الديمقراطية الاشتراكية ، للوقوف احيانا بوجه الضغط الاميركي المتزايد والتسلط الاميركي المتزايد في اوروبه . ولذلك نجد في الوقت الحاضر ان اكثر المتحمسين لاسرائيل في فرنسه ليس اليمين التقليدي ، بل الحزب الاشتراكي ، بزعامة «ميتران» وسابقا غي موليه ، وحركة الوسط ، كما تسمي نفسها ، والتي تضم عددا من الاحزاب . وفي بريطانيا ايضا نجد ان قوة تأثير الصهيونية في حزب العمال وخاصة في الاوساط اليمينية للحزب أقوى من تأثيرها في اوساط حزب المحافظين لان لبريطانيا بقايا من المصالح في منطقتنا تريد ان تحافظ عليها ، الرأسمال البريطاني يود ان يناور للمحافظة على مصالحه . اني اعتقد ان المجابهة ، اي مجابهة الحركة الصهيونية من قبلنا ، تكون اولا في التركيز على العالم الثالث الذي يشترك معنا في مصيبة واحدة ازاء السيطرة الرأسمالية الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة الاميركية ، وثانيا على الانتماء الجدي الجبهوي الى الحركة اليسارية الحقيقية في اوروبه الغربية ضد الوسط وضد القوى التقليدية طبعا .

العظم : كان بودي لو كان الاستاذ جبران موجودا معنا منذ البداية ليقدم مطالعاته الممتازةحول الموضوع . وارى ان في ما قاله نقاطا تتصل بأمور مر ذكرها معنا مثل مدى حدود العلاقة بين اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية والجاليات اليهودية في الخارج وخاصة في اميركا . اعتقد ان رغبة اسرائيل في دعم نيكسون في وجه الاتجاه التقليدي للجالية اليهودية في الولايات المتحدة بالتصويت للحزب الديمقراطي بصورة عامة ، سوف يخلق تناقضات جانبية وجزئية في صفوف الاقلية اليهودية الاميركية ويؤثر الى حد ما على علاقاتها باسرائيل . الا انه لا يجوز ابدا تضخيم حجم هذه التناقضات او اعطائها اية اهمية لا تستحق في التفكير السياسي العربي .

ابو لغد : عندي تعليق بسيط واستيضاح موجه للسيد جبران . التعليق لمجرد التوكيد على هذا الخط الطويل المدى في التأثير الاسرائيلي على نشوء فئة محافظة في الولايات المتحدة . اعتقد ان هذا الخط توضح في اواخر عهد الرئيس جونسون . اواخر ٦٥ — ٦٨ كان هناك ظاهرة غريبة هي ان الحركة المعادية للحرب الفيتنامية في اميركه — وهي حركة تقدمية — في فترتها الاولى كانت تشمل اعدادا كبيرة من اليهود والصهيونيين وفي وقت محدد ، على ما اعتقد في يناير ١٩٦٦ ، نشرت الصحف الاميركية ان الرئيس جونسون قابل أبا أيبان وطلب اليه التوسط لدى الفئات الصهيونية المسيطرة على الجاليات الصهيونية في اميركه لكي تخفف من نشاطها المعادي للتدخل العسكري الاميركي في فيتنام ، ونتيجة لهذا الاستعطاف يظهر ان الحكومة الاسرائيلية اتخذت من الخط ما يكفيها لتغير وجهة نظر القادة الصهيونيين الذين قاموا بحملات تبشيرية بين الجاليات اليهودية تدعوهم للتنحي عن الموقف السابق الذي من شأنه ان يؤثر في مصالح اسرائيل الذاتية . واذا قارنا بين الفئات المناهضة للحرب الفيتنامية في تلك الفترة وبين الفترات المعاصرة نجد ان اليهود والصهيونيين الان لا وجود لهم في الحركة بالشكل التنظيمي الطليعي الذي كانوا يتمتعون به سابقا . هذا لمجرد التوكيد على الاثر السياسي الاسرائيلي في تقوية الخط المحافظ او الرجعي لدى الفئات اليهودية او الصهيونية في المجتمع الاميركي. وهذا يبرز مرة اخرى الفرق بين التأثير الصهيوني في العهود السابقة الذي ادى الى الانتماء الى الليبرالية وبين التأثير الاسرائيلي المعاصر الذي يؤدي الى انتماء الفئات اليهودية الى القوى المحافظة او الرجعية . لكن السؤال الذي اريد ان اوجهه الى السيد جبران وانا متأكد الى حد ما من الاجابة النظرية ، ينبع مما بدا لي في سرد كلامه ويتعلق بتحديد الفرق بين اليهودية وبين الصهيونية من حيث الانتماء الشخصي . فعندما نتكلم عن شخص ما هل نجد لدينا معايير معينة نستعملها لقياس صهيونيته ؟ أم نحن نقع في الخطأ من حيث لا نشعر ونحاول ان نهرب من وصف فلان بأنه

يهودي ونصفه بأنه صهيوني ؟ انا متاكد اننا نميز في اذهاننا بين الفئات اليهودية المنتمية الى الدين اليهودي والى ثقافة معينة يمكن تجاوزا ان نسميها يهودية وبين الحركة الصهيونية الملتزمة بخط سياسي معين ومنطلق من منطلقات معينة الخ. لكن يبدو لي انه في حديثنا نخرج احيانا عن هذه الطريق ، فاذا اردنا ان نستشهد بانسان ما ونقول انه صهيوني هل استعملنا في الواقع المقاييس العملية الدقيقة التي تمكنا ان نقول ان فلان من الناس ، سواء كان في فرنسه او في اميركه ، شرايبر او محرر جريدة الواشنطن بوست او غيرها مثلا ، هو في الواقع صهيوني ملتزم بخط الحركة على طول منذ نشأته السياسية او بعد فترة معينة من تكونه السياسي ام اننا نستعمل التسمية للتغطية لهذا التصور للفئات اليهودية وكأنها كلها فئة واحدة ملتزمة بالخط الصهيوني ؟

مجدلاني: عندما ذكرت جان جاك سرفان شرايبر قلت انه صهيوني . هو في الواقع من اصل يهودي ومتنصر ولكن هذه القضية ليست مهمة . الواقع اشكر الدكتور ابو لغد لانه مكنني من ان اتمم حديثي لان هناك بعض النقاط التي اردت ذكرها في سياق حديثي ولم افعل.من جملة الاشياء التي تلفت النظر في التكتيك الصهيوني وجود عدد من اليهود من حيث الانتماء الديني او الاجتماعي ، الاكثرية منهم غير مؤمنة بالدين اصلا ، ولكنهم محسوبون في المجتمعات التي يعيشون فيها على انهم يهود . فاليساريون من اليهود ينعتون بأنهم اعداء للصهيونية وهناك تعبير اصبح شائعا في الاوساط الصهيونية The Anti-Semitic Jews هو «اليهود المعادون للسامية » لان انتماءهم اليساري هو انتماؤهم الاول والاخير ولا يعانون اي تناقض او تمزق في شخصيتهم . بينما هناك مجموعة من اليهود الذين تربوا على التقاليد الليبرالية بسبب وضعهم كأقليات وبحكم كونهم معرضين للاضطهاد فانهم اذ يفتشون عن الحركات التي تضع حدا لاضطهاد هذه الاقليات ، انما يفعلون ذلك كنتيجة للحاجة لا كتعبير لاختيار نظري شامل . لذلك نجد ان نسبة مئوية كبيرة من اليهود اعتنقت المبادىء التي تخلصهم من وضعهم كأقليات ، وهذا هو موقف طبيعي ومشروع . في الحقيقة عندما اتكلم شخصيا عن الصهيونيين لا اعني فقط اليهود الصهيونيين بل ايضا المسيحيين الصهيونيين والمسلمين الصهيونيين وهذا ليس تجاوزا للواقع مطلقا . وهناك تمييز اخر داخل صفوف الصهيونيين ، الصهيونيون ممن اسميهم بالصهيونيين المتشددين او الصريحين في صهيونيتهم ، والصهيونيون الذين يجبنون عن الافصاح عن حقيقة انتمائهم والذين يعتقدون انهم صهيونيون اذكياء . اضرب مثلا على ذلك بمجلة فرنسية اخرى غير الاكسبرس التابعة لسرفان شرايبر وهي مجلة « النوفيل اوبزرفتور » ، رئيس تحريرها كان سابقا محررا في الاكسبرس وهو جان دانيال ، المنحدر من عائلة يهودية من الجزائر حيث ولد . بالفعل تعبر هذه المجلة عن التيار « اليساري » ، اذا استطعنا ان نعتبر ان هناك يسارا ، في الحركة الصهيونية ، اذ ان عطف المجلة يذهب الى مجموعة المابام وما شابهها من الحركات في داخل اسرائيل . ولكن حتى هذه المجلة التي تدعي ان الاكسبرس يمينية وانها هي المجلة اليسارية تركز كل اهتمامها على مهاجمة الاتحاد السوفياتي وعلى كل ما يجري في المعسكر الاشتراكي . الصحف اليمينية في اوروبة تحاول ان تحفظ نوعا من مظهر الموضوعية في معالجتها لقضايا المعسكر الاشتراكي بينما نجد ان النوفيل اوبزرفاتور ، التي تتكلم من وقت الى اخر عن وحشية حروب الولايات المتحدة وفظاعة استغلال الرأسمالية الاميركي لثروات اميركا اللاتينية، عندما تتكلم عن المعسكر الاشتراكي تركز دوما على اظهار السلبيات وعلى نفي الايجابيات . ونلاحظ في الواقع ان هذه الجرائد التي تدعي اليسارية تصنف الانظمة ، حسب ما لاحظته شخصيا ، من خلال مواقفها من القضية العربية والصراع مع اسرائيل. نأخذ على سبيل المثال يوغندا. عندما جرى الانقلاب في يوغندا ضد الدكتور « أوبوتي » لم تستطع هذه الصحافة التي تدعي اليسارية تأييد عيدي أمين لان حركته عسكرية ولكنها اظهرت مساوىء الحكم السابق بشكل يجعل اي قارىء ينجرف الى تأييد عيدي امين وعندما جاء التحول المسرحي في سياسة عيدي امين نحو اسرائيل ، الذي لعبت في انجازه الجنيهات الليبية دورا لا يستهان به ، بدأت نفس هذه الصحف بالعودة الى تاريخ سلالة عيدي امين ومن حوله لاظهار كل السلبيات في حكمه واظهاره بمظهر الانسان الذي لا يوثق به الى اخر ذلك من الامثلة . فمن متابعة كتابات هؤلاء وتحليلاتهم ومواقفهم عبر سنوات عديدة توصلت الى هذا الاستنتاج . اي ان الموقف من اي نظام مرتبط

بموقف هذا النظام من اسرائيل . بالنسبة للولايات المتحدة اعتقد ان المعركة الاساسية ضدها هي معركة خارجية وليست داخلية اي ان معركتنا معها يجب ان تتركز على تحطيم مصالحها وسلطتها في العالم كله ، طبعا على قدر استطاعتنا وحيث ما تطال يدنا ابتداء بأقطارنا نحن. بالاضافة الى ذلك وعلى الصعيد الداخلي اعتقد ان الانسجام الوحيد الذي يمكن ان يقوم بيننا وبين اية فئة داخل امريكا ينحصر في الفئات المضطهدة. طبعا قد يحدث انشقاق في الحزب الديمقراطي ولكن ليس هذا هو المهم وليس هو البديل الذي يرد الى الذهن . الفئات المضطهدة في الولايات المتحدة اكانت الاقليات السوداء او الاقليات المكسيكية او البورتوركية الخ او الفئات المضطهدة اقتصاديا هي المرجع الطبيعي الوحيد لنا في الظروف الراهنة فيما عدا افراد يلتقون مع الحركة التحررية بسبب تخطيهم لاوضاعهم الشخصية الموروثة . اقول ايضا ان المعسكر الاشتراكي ، وان لم يقف من القضايا العربية الموقف المطلق الذي نرغب فيه ، هو مركز التوجه ، اذ اعتقد ان قضيتنا هي من النوع الذي تتداخل فيها الامور بشكل يجعل من الصعب على القوى الخارجية الكبرى ان تتبنى موقفنا الى الحد الذي نرغب فيه بالرغم من ان العلاقة مع المعسكر الاشتراكي هي علاقة لقاء استراتيجي حقيقي مع وجود نقاط اختلاف عديدة . الا ان المعسكر الاشتراكي ، بالرغم عن تناقضاته الداخلية ، هو قوة من الضروري تعميق الصلة بها وتعميق العلاقة معها . من خلال هذا التفاعل نستطيع ان نطور موقف المعسكر الاشتراكي او على الاقل ان نطور موقف عدة اقطار من اقطاره وان نفتح اكثر من طريق في داخله .

سعد : ان تطرق النقاش الى موضوع ارتداد الجماعات اليهودية عن الليبرالية الى المواقف المحافظة مؤخرا في الغرب والدور الذي لعبته الصهيونية في ذلك ، يعود بي الى اطروحتي الرئيسية : وهي ان الصهيونية نشأت ضمن ظروف مشابهة لهذه التي نحن بصددها وكان الدافع لنشوئها ، الدور الذي أهلت الصهيونية للعبه في التأثير على مثل هذه الظروف . ان الظروف التي نحن بصددها نشأت ، كما يعلم الجميع ، باتساع موجة المعارضة للحرب الفيتنامية مما أدى الى بروز اليسار الجديد وانتشار مناخ الراديكالية في اوساط الشباب والطلاب بداية باواسط الستينات.

وقد انضمت اعداد من الشباب اليهود في الغرب الى الحركات الراديكالية ، فهب الصهيونيون للحد من ذلك بجميع السبل وقاموا بمحاولات جدية فعلية ورسمية من خلال اجهزة المؤسسة الصهيونية في الغرب لصرف اليهود عن الراديكالية وحتى عن الليبرالية مما يفسر هذا الارتداد الذي شهدناه الى المحافظة . وكل من له اضطلاع بأوضاع الجامعات في الولايات المتحدة يعلم ان الصهيونيين قد قاموا بمبادرة مباشرة منهم باقامة منظمات ما يسمى « الراديكالية ــ الصهيونية » كي تعمل بتمويل مباشر من الحركة الصهيونية على امتصاص مبادرات الشباب والطلاب وصرفها عن اليسار الجديد . وفي الواقع ، فان هذه الظروف نفسها ، ظروف بروز الراديكالية والاشتراكية ، الثورية في الاوساط اليهودية عند نهاية القرن الماضي واوائل القرن الحالي هي التي ادت الى ظهور الصهيونية ونموها على ايدي البورجوازية اليهودية ، وبتمويل منها ، لصرف اليهود عن الحركات الثورية . ولو عدنا الى المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ، وهو الذي عقدت هذه الندوة بمناسبة مرور ٧٥ سنة على تأسيسه ، لوجدنا ، وفق ما كتبه هرتزل عن المؤتمر ، ان الاطار الوحيد الذي تشكل عن المؤتمر هي لجنة العمل التي ضمت عددا من الصحفيين بمن فيهم هرتزل. اما السكرتير العام لهذه اللجنة، وهو الوحيد الذي خصص له معاش مقابل عمله لصالح الصهيونية ، فكان اسمه بيرنباوم يدعي انه اشتراكي ويعمل في اوساط الطلاب اليهود في فيينه لصرفهم عن الاشتراكية بتوجيههم الى الصهيونية . وبهذا نرى ان هرتزل عندما كان يلتقي بالمسؤولين الالمان بعد ذلك ، كان دائما يردد على مسمعهم قوله « اننا نجحنا في صرف الطلاب اليهود في جامعة فيينه عن الاشتراكية » . وكذلك نرى انه بعيد اجهاض الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، بدأ بير بوروشوف ، مؤسس اليسار الصهيوني والعمالية الصهيونية ، عمله كخطيب متجول بتمويل من المنظمة الصهيونية . وفي الواقع ، فان أي فترة بعد ذلك شهدت فيها انطلاقة راديكالية في الغرب قابلها تنشيط الصهيونية ، وتنشيط اليسار الصهيوني بشكل خاص ، لصرف اليهود عن الراديكالية ومن ثمة عن اليسار الحقيقي . وعلى هذا ، فان التطورات الاخيرة في الولايات المتحدة وغربي اوروبه لا تشكل تطورا جديدا بل هي استمرار لتراث تاريخي طويل بالنسبة للصهيونية.

قازان : ان ما قاله السيد الياس سنعد صحيح فيما يتعلق بالرؤساء الصهيونيين او اليهود في اوروبه في اواخر القرن الماضي ، واعتقد ان التفسير العلمي لهذا التحول ينبع من تحول ضمني، تحول في محتوى تطور الرأسمالية ، من رأسمالية المزاحمة الحرة ، عندما لم تكن قد استنفدت كل امكاناتها التقدمية بعد ، الى الدخول في مرحلة الامبريالية ، المرحلة التي خلقت في اوروبه تراكما انتاجيا ، ولم تكن السوق الاوروبية كافية لابتلاع التراكم الانتاجي لذلك تحولت البورجوازية من بورجوازية المزاحمة الحرة الى البورجوازية الامبريالية . وباعتبار ان الصهيونية فرع عضوي من مجموع كلي اسمه البورجوازية الاوروبية فهي في نفسها بعد ان كانت تقدمية الى حد ما اصبحت رجعية . اعتقد ان هذا التفسير يعني ان كلهم صاروا رجعيين بالنتيجة . وفيما يتعلق بالتحولات التي طرأت على بعض الشخصيات الديمقراطية التي كانت تدعي أنها يسارية ، كما ذكر الاستاذ جبران مجدلاني ، فالملاحظ في كلمته انه ذكر بان منذ عشر سنوات بدأت الحركة العربية تنظر الى المعسكر الاشتراكي بجدية عندما تم كسر احتكار السلاح الخ ... وبدأت هذه الشخصيات والجماعات تنظر الى اميركه بل تنظر الى كل ما هو رجعي مع انهم كانوا يعتبرون انفسهم يساريين . لقد فضح هؤلاء « اليساريون » انفسهم بأنفسهم ، عندما بدأت الحركة العربية تأخذ اتجاها يساريا مع قدوم البورجوازية الصغيرة . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان الصهيونيين كان عندهم رصيد في اوروبه . انا عشت في فرنسه فترة طويلة ، وكان الصهيونيون يقولون نحن نريد بناء دولة عصرية في البلاد العربية نريد تمدين العرب لكن عندما بدأ العرب بالتحرر من الاقطاعية والى حد ما من الرأسمالية الاجنبية والرأسمالية الداخلية المرتبطة بالرأسمال الاجنبي انقلبوا وكأنهم اكتشفوا الحلقة المفقودة ، اذ انه ظهر بأن العرب ليسوا بحاجة الى من يمدنهم .

صايغ : في هذا النقاش تكلمنا عن بعض الامور المتعلقة بموضوع هذه الندوة وسجلنا بعض الملاحظات حول التطورات الاخيرة في اسرائيل وفي الحركة الصهيونية وتساءلنا عما ينبغي علينا فعله لمجابهة هذه التطورات . ولقد تحدث بعضنا عن التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل وتحدث البعض الاخر عن تطور العلاقات بين اسرائيل والحركة الصهيونية والعلاقة بين اسرائيل واليهودية العالمية . واعتقد ان هناك تطورا اخر في الحركة الصهيونية وفي اسرائيل لا بد لنا من تسجيله والتساؤل عما نستطيع ان نفعله لوقفه او على الاقل التساؤل عن مغزاه ومعناه . فمن المعروف ان الهجرة هي العماد الاول في نجاح الصهيونية . كل نجاح اخر يبقى ثانويا ان لم تنجح الصهيونية في استقطاب اعداد متزايدة من اليهود ونقلهم الى فلسطين ليكونوا القاعدة البشرية للاستيطان فيها . وبعد حرب الـ ١٩٦٧ عادت الهجرة الى ما كانت عليه في السابق بعد ان كانت قد خفت كثيرا قبل الحرب بقليل . وفي العام الماضي وفي هذا العام برزت ظاهرة جديدة وغريبة تتعلق بالهجرة ، هي سماح الاتحاد السوفياتي لاعداد ضخمة من مواطنيه اليهود بالهجرة الى اسرائيل. فما هو تفسيرنا لهذه الظاهرة على ضوء الرابطة بين اسرائيل والامبريالية من جهة والتحالف بين الدول الاشتراكية والقضية العربية من جهة اخرى؟ وبسبب هذا التحالف : هل نستطيع ان نفعل شيئا لوقف هذا المد البشري الزاحف من الاتحاد السوفياتي ومن الكتلة الاشتراكية الى اسرائيل ليزيدها قوة بشرية تشكل خطرا على القضية العربية ؟

قازان : فيما يتعلق بالهجرة من الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، صحيح هناك هجرة ، ولكن اما أن السوفيات صادقون او غير صادقين فيما يقولونه وانا اعتقد انهم صادقون في تفسيراتهم ولا يسمحون للانتليجنسيا والمهندسين بترك البلد ، يسمحون فقط للكبار في السن وليس للشبان الذين يمكن أن يدخلوا في الجيش الاسرائيلي هذا ما اعتقده .

شوفاني : اريد ان انضم الى الدكتور صايغ . بالفعل الحالة تدعو للاستغراب من سياسة الاتحاد السوفياتي الاخيرة . واعارض الاستاذ قازان ان الذين يهاجرون الى اسرائيل هم من المسنين فقط . بالواقع من النقاشات حول موقفهم في المجتمع الاسرائيلي فهمنا ان قسما من الذين هاجروا هم اساتذة جامعات واختصاصيون ومهندسون . أريد ان اضيف الى كلمة الدكتور صايغ ان هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل تأتي في وقت تغيرت فيه طبيعة الكلام الصهيوني عن

دوافع الهجرة . في الماضي كانت الصهيونية تدعو الى الهجرة على اساس مصلحة الفرد اليهودي وتقول له بأنه يستطيع ان يعيش في الدولة اليهودية أحسن حياة وان يمارس حياته اليهودية وطاقاته اليهودية كما ليس في اي مكان آخر . أما اليوم فنجد أن غولدا مائير تصرح بأن اسرائيل بحاجة الى المزيد من اليهود حتى تحافظ على الدولة . اذن أصبح المنطق مختلفا ولم تعد مصلحة اليهودي الشخصية هي المأخوذة بعين الاعتبار من قبل غولدا مائير عندما تدعوه للهجرة وانما مصلحة الحفاظ على الدولة . اذا كان المنطلق في الدعوة للهجرة هو تقوية الدولة ، ما هو تفسير الاتحاد السوفياتي لسماحه بالهجرة في هذه الفترة بالذات ؟ اي فترة حاجة المؤسسة الاسرائيلية للمزيد من المهاجرين اليهود من اجل تقوية الدولة .

ابو لغد : اعتقد ان السؤال المطروح مهم جدا ، ولكن علينا ان ندقق به وذلك بالمعنى التالي : هل من حق اي انسان في اي بلد من البلدان ترك وطنه ان هو اراد ذلك ؟ من الناحية النظرية لاي مواطن سوفياتي الحق في الخروج من البلد وعلى الاتحاد السوفياتي ، دستوريا ، ان يحترم هذا الحق . هذه قوانين تضمنها الامور الدستورية السوفياتية ، وللانسان الحق في ان يحيا حياته في هذا الوطن وله الحق ايضا في مغادرته. السؤال اذن بالنسبة لليهود السوفيات او لغير اليهود السوفيات هو هل لهم الحق في أن يغادروا الاتحاد السوفياتي الى أي بلد اخر يختارونه وهناك من يختار اميركة او انكلترا ونحن لا نتساءل لماذا سمح الاتحاد السوفياتي لهجرة هؤلاء الناس الى اميركه وغيرها ولكننا نطرح السؤال عندما تؤثر الهجرة على تطور الصراع العربي الاسرائيلي . اعتقد ان السؤال الاصلي هو هل للمواطن السوفياتي الحق في مغادرة الاتحاد السوفياتي ؟ تصوري هو أن له الحق ، والاتحاد السوفياتي له مطلق الحرية أيضا في تطبيق الدستور والسماح لكل مواطن سوفياتي بمغادرة البلاد . من ناحية اخرى علينا ان نوضح على الصعيد العملي ان الاتحاد السوفياتي تعرض لضغوط كبيرة كي يسمح بهذه الهجرة مع العلم بأنها ستتوجه الى اسرائيل . ان في الموضوع الذي اثير سابقا حول مدى تأثير اسرائيل في توجيه السياسة العالمية او تأثير الحركة الصهيونية في السياسة العالمية ، بعض التفسير لظاهرة الهجرة من الاتحاد السوفياتي . هناك حملة عالمية ضد الاتحاد السوفياتي الذي يعتبر نفسه كدولة، انه يمثل الحرية في اقصى مداها ، وكنموذج في ممارسة الحقوق الشرعية للمواطنين الى اخر هذه التصورات التي يقدمها الاتحاد السوفياتي . ان الحركة الصهيونية وليس اسرائيل تصدت الى هذا الموضوع . ان الحركة الصهيونية عبأت الرأي العام العالمي — علينا هنا ان ندرك التخصص في المهمات التي يجب على الصهيونية كحركة او اسرائيل كدولة أن تؤديها — وعبأت الحكومات الموالية للامبريالية العالمية لكي تظهر الاتحاد السوفياتي بمظهر الدولة المتعنتة التي تحرم الناس من حرياتهم . حملة متواصلة على مدى السنين اعتقد انها ترجع الى أقل من سنة ١٩٦٤ ، وانا متابع هذه الحملة باستمرار في الدعايات التبشيرية والحملات الاعلامية والصحفية الخ فاذا اعتبرنا الاتحاد السوفياتي بأنه دولة بالاضافة الى كونه دولة عقائدية اي انه دولة بين دول العالم المحترمة فلا بد له من أن يجاري ما تمنحه دولة رأسمالية استعمارية مثل اميركة التي لا تمانع بهجرة اي شخص من على ارضها الى أي بلد يختاره . وجريا على التقليد العالمي والعرف الدولي الاتحاد السوفياتي مطالب ، دوليا، بأن يمارس نفس الموقف بغض النظر عن المصالح الانية التي يمكن ان تكون قد ارتبطت بتنفيذ هذه السياسة في هذا الوقت .

العظم : تعقيبا على ما قاله الدكتور ابو لغد لا شك انه من حق الاتحاد السوفياتي ان يسمح لمواطنيه بأن يتركوا البلد ولكن الواجب الذي يقع على العرب هو ان يجعلوا استمرار هذه الهجرة حلما مزعجا جدا لكل من يأتي الى اسرائيل وعندئذ فقط لن يكون هناك هجرة الى اسرائيل . اللوم يقع علينا وليس على غيرنا عندما نواجه الحقيقة عندما تتمكن قوة المقاومة العربية من أن تجعل الهجرة الى اسرائيل مسألة محفوفة بالمخاطر وتجعل مستقبل المهاجر غير مضمون ، لن يهاجر عندئذ لا السوفياتي ولا غير السوفياتي .

قازان : الكلام الذي قاله الدكتور وجيه جدا كلام الدكتور صادق ، ولكل انسان حق في ان يجيب صحيح ان الاتحاد السوفياتي لا يستطيع ان يمنع المواطن دستوريا من الخروج من بلده . ومن جهة ثانية يجب ان نمحص تماما المصادر

التي نستقي منها معلوماتنا ، هل هي مصادر امبريالية ؟ هل هي مصادر صهيونية ؟ ام انها مصادر موضوعية موثوقة يمكن الائتمان اليها؟ هناك اشياء كثيرة نأخذها في بعض الاوقات من الدعاية . كذلك اعتقد انه كما قال الدكتور ابو لغد هناك حملة عالمية على الاتحاد السوفياتي . وعلى كل حال الاتحاد السوفياتي ليس بحاجة لفؤاد قازان كي يدافع عنه وعن وجهة نظره . انا افضل ان اصدق الاتحاد السوفياتي في قضية الهجرة بدلا من ان اصدق الدعايات الصهيونية التي يمكن بكل بساطة ان نقع تحت تأثيرها .

العظم : ذكر الان احد الزملاء ان الدول العربية سمحت لـ ٩٧٪ من يهودها بأن يهاجروا الى اسرائيل ، الفت نظركم الى هذه النقطة .

فرحات : في الواقع انا موافق بصورة عامة على ما قاله الدكتور ابو لغد ولكن احب ان اسأل الدكتور صايغ ما هي الارقام التي استند اليها لكي يتحدث عن سماح الاتحاد السوفياتي « لاعداد ضخمة من اليهود بالمهاجرة الى اسرائيل » ؟ لان أعداد اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل ليس ضخما اذا ما قيس بعدد اليهود الموجودين في الاتحاد السوفياتي وخصوصا بعدد اليهود الذين هاجروا من البلدان العربية الى اسرائيل . على ان القضية الرئيسية هي هل هناك فعلا هذا « المد البشري الزاحف » ، على حد وصف الدكتور صايغ ، ليزيد اسرائيل خطرا على حركة التحرر العربية ؟ السؤال الرئيسي هو سياسة الاتحاد السوفياتي وما علاقة هذه الهجرة بسياسته تجاه حركة التحرر العربية ؟ اعتقد ان الصورة الاساسية للعلاقة بين الاتحاد السوفياتي وبين حركة التحرر الوطني العربية بما فيها حركة التحرر الوطني للشعب الفلسطيني هي علاقة تحالف ونضال ضد الامبريالية .

صايغ : اولا بالنسبة الى بعض الارقام : انها ليست اسرائيلية او امبريالية . انها الارقام التي ادلى بها مندوب سوفياتي في هيئة دولية حيث قال ان في عام ١٩٧١ زاد عدد اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفياتي وذهبوا الى اسرائيل عن ثلاثة عشر الفا . هذا رقم سوفياتي وليس رقما امبرياليا او رقما صهيونيا او رقما صادرا عن أية ناحية اخرى . اما اذا كان هذا العدد ضخما ام لا ، فهذا موضوع نسبي . وانا شخصيا اعتقد ان اضافة ثلاثة عشر الف انسان الى مجموع البشر الموجودين في اسرائيل ، في وقت تعاني فيه الثورة الفلسطينية ما تعاني ، وفي وقت العلاقة العربية الاسرائيلية هي على ما هي عليه ، انما هي تعزيز لقوى اسرائيل تجاه الدول العربية . وحتى لو كان جميع هؤلاء — كما قيل — المسنين الذين لا يستطيعون ان يقوموا بأي عمل عسكري مباشر ، وهذا أمر مشكوك فيه ، فهم على الاقل من الذين يستطيعون ان يسهموا في المجالات الاخرى ويوفروا بعض القوى البشرية القادرة على حمل السلاح ضدنا . هذا التمييز اذن لا يمس أساس المشكلة التي أثرتها . هل هو تبرير للسياسة السوفياتية او دفاع عنها ؟ لا ادري .

من ناحية اخرى ان سماح الدول العربية في حقب ماضية بهجرة اليهود جاء على أيدي حكومات عربية نحن جميعا حول هذه المائدة اول من يتهمها بالرجعية وبعدم التجاوب مع المصالح الشعبية . فاذا كنا سنبرر عمل الاتحاد السوفياتي بقولنا انه لا يختلف عن عمل الانظمة العربية الرجعية فهذا تبرير اعتقد ان الاتحاد السوفياتي سيكون اول من يتبرأ منه واول من لا يرضاه لنفسه .

بقي التفسير الدستوري الذي قدمه الدكتور ابو لغد . انا اعلم ان الدستور السوفياتي يكرس حق كل مواطن في الهجرة . ولكني اعلم ان الممارسة السوفياتية كانت شيئا والدستور والنصوص الدستورية شيئا اخر . وحتى فيما يتعلق باليهود ، الذين ينطبق عليهم النص الدستوري نفسه في ١٩٧١ كما في ١٩٧٠ ، كان هناك قحط في هجرتهم سنة ١٩٧٠ وفيض مفاجىء سنة ١٩٧١ . اذن فلا بد ان يكون هناك اعتبار سياسي وليس مجرد التقيد باعتبار دستوري وراء هذا التبدل .

بقي الشيء الوحيد الذي ذكر مما قد يكون فيه شيء من القدرة على تغيير السلوك السوفياتي وهو الضغط الاعلامي الدولي الذي تعرض له الاتحاد السوفياتي وصمد امامه سنة بعد سنة الى ان وصل حدا في أوائل عام ١٩٧١ اقتضى تبديلا من قبل الاتحاد السوفياتي . اذا كان هذا هو التفسير فأنا بالطبع اقدر ان الاتحاد السوفياتي دولة لها مصالح متعددة ولها ارتباطات متعددة وليس همها الوحيد مناصرتنا في القضية الفلسطينية . وافهم هذا التبدل السياسي على

اساس انه تفضيل لتجنب الضغط الدولي ضد الاتحاد السوفياتي على الاستمرار في مماشاة القضية العربية فيما يتعلق بهذه المسألة بالذات . ولكن يظل السؤال يدور في ذهني : لماذا اختار الاتحاد السوفياتي هذا الظرف بالذات للسماح بهذه الهجرة الجماعية ؟ وكيف وفق بين ذلك وبين الحلف القائم بين الكتلة الشرقية وحركة التحرر العربي فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي .

سعد : الحقيقة ان الهجرة من الاتحاد السوفياتي تناولت اعدادا كبيرة وتناولت الشباب ايضا وهذا امر اعتقد ان المصادر جميعها، بما فيها الصور الفوتوغرافية ، تشهد عليه . ولكن معالجة المسألة قانونيا بالاشارة الى دستور الاتحاد السوفياتي لا تفي ، اذ ان الاتحاد السوفياتي خلال العقدين الماضيين منع الهجرة في فترات معينة وسمح بها في فترات اخرى . والعامل الاساسي في المضمار هو الضغوط التي تبذل للتأثير على موقفه من الهجرة . فهناك الضغوط الغربية، وخاصة ضغوط الصهيونية العالمية مع ما يمكنها من تعبئته لصالحها من قطاعات الرأي العام الغربي ، يقابلها الضغوط المعاكسة — اي الضغوط العربية والتي انحصرت حتى الان في الضغوط المباشرة من حكومات البلدان العربية . ولو نظرنا في السنوات القليلة الاخيرة ، لوجدنا ان الاتحاد السوفياتي لم يرضخ للضغوط الغربية بأي قدر يذكر ، رغم التظاهرات المستمرة ضده في الغرب ، الا خلال عام ١٩٧١ . وربما اعطي صورة مبسطة جدا ، الا ان سياسة الحكومات العربية خلال ذلك العام وقبله مباشرة ، بما في ذلك القضاء على الحزب الشيوعي السوداني والخلافات بين حكومة مصر والاتحاد السوفياتي وتهجمات حكومات عربية اخرى عليه ، قد تكون هي الاسباب التي جعلت الاتحاد السوفياتي يرضخ للضغوط الغربية ويسمح بالهجرة بالشكل الذي شهدناه .

قازان : اشكر الدكتور صايغ على صراحته وسأكون صريحا معه لان بالصراحة نصل الى نقطة معينة نتفق عليها . اكيد يوجد مندوب سوفياتي صرح ان ١٣ الف يهودي أتوا الى اسرائيل من الاتحاد السوفياتي وأنا لا استغرب ذلك ، لكن المندوب السوفياتي لم يحدد بالضبط مهن الـ ١٣ الف مهاجر والدكتور صايغ يشك في انهم كانوا كلهم من المسنين ، ويمكن ان يكونوا شبابا، ولو كانوا مسنين فانهم يستطيعون ان يحلوا محل الشباب كما قال . لا اعتقد ان الكهل يستطيع ان يحل محل الشاب ، ولا الشاب يحل محل الكهل ولكن هناك شيئا يمكن ان نصل اليه بالنتيجة هو معرفة الحقيقة . واذا اردنا ان نعرف الحقيقة لا احد يمنع مركز الابحاث مثلا من أن يبحث هذا الموضوع مع السوفيات انفسهم وان يدقق معهم في صحة وما ينشر من المعلومات .

العظم : اعتقد ان النقطة التي يريد الوصول اليها الدكتور صايغ هي التشديد على وجود دافع سياسي وراء سلوك الاتحاد السوفياتي والمسألة ليست مسألة ارقام . والدافع السياسي ليس بعيدا كل هذا البعد عن الادراك الواضح . فالاتحاد السوفياتي في النهاية هو حليف استراتيجي لحركة التحرر العربي وليس من الضروري ان تتطابق اهداف الحلفاء مئة بالمئة وفي كل الامور ، ان هدف حركة التحرر الفلسطيني وحركة التحرر العربية هو تدمير الكيان الصهيوني ، تدمير الدولة الاسرائيلية ، ولن اناقش الان اذا كان هذا التدمير على طريقة لينين او على طريقة الاستاذ الياس مرقص ، بينما يعترف الاتحاد السوفياتي بدولة اسرائيل وبشرعية استمرارها وهو ضد احتلالها لمناطق اثار العدوان . هذا سبب سياسي يفسر بوضوح سلوك الاتحاد السوفياتي بالنسبة لموضوع الهجرة . من ناحية اخرى الاتحاد السوفياتي يلتزم بموضوع الحل السياسي للصراع العربي الاسرائيلي وهو لا يمكن ان يكون ملكيا اكثر من الملك لان مصر والدول العربية ايضا ملتزمة بخط الحل السياسي للصراع وبسياسته . فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاستراتيجية الموضوعة من الطرف العربي — السوفياتي بالنسبة لمستقبل الصراع تهدف ، في التحليل الاخير ، الى تحقيق التسوية السلمية ومجرد تصفية اثار العدوان فما هو وجه الغرابة في سماح الاتحاد السوفياتي لليهود الراغبين بالهجرة الى اسرائيل ؟

من ناحية اخرى لو كانت حركة التحرر العربي في موقع قوة افضل وفي موقع كفاح افضل وشكلت حليفا منتصرا للاتحاد السوفياتي وليس عبئا عليه لتمكنت من أن تؤثر على السياسة السوفياتية وغير السوفياتية لصالح اهدافها الكبرى . العبرة

ليست في أن يمنع الاتحاد السوفياتي الهجرة الى اسرائيل بل في ان يحسب كل من يفكر بالهجرة اليها الف حساب قبل قدومه بسبب عنف المقاومة العربية وبطشها . بعبارة اخرى حركة التحرر العربي والفلسطيني تبرر تقصيرها وعجزها بلوم حليفها الاكبر تماما كما حدث بعد هزيمة ١٩٦٧ .

مرقص : انطلاقا من التفاتة كريمة من الاخ صادق عن « لينين او الياس مرقص » لا بد ان انطلق من انني في كلامي غير الكامل ، لانه مداخلة عشر دقائق لا خمس ساعات ، يمكن للانسان ان يكمل كلمته ، اعلن ان منطلقي هو بالضبط سيكون وكان اللينينية . ولا اريد ان انوه بأن الذين كانوا يتصورون ان مواقفي معاكسة للينين كانوا اكثر في الماضي مما هم الان . لي منطلق ثان في كلامي اريد ان اؤكده ايضا هو منطلق مباشر ، منطلق السنوات الخمس السابقة . اعتقد ان بعض الاخوان يعلمون انني اتهمت بحق وانا التزم بهذا الاتهام انني كنت ولا ازال ، وآسف ان اقول ذلك في مركز الابحاث الفلسطيني ، كنت ولا ازال مؤيدا للحل السياسي على الصعيد التكتيكي . وكنت ولا ازال في الخط الذي اتهمت به وهو خط السوفيات وعبد الناصر بل عندي بعض الشعور بأنني كنت ولا ازال في هذا الخط وفي خلاف بسيط عند هذه النقطة مع الاخوين الكريمين فؤاد قازان والبير فرحات . ومع ذلك احب ان اضيف ان مسألة الهجرة مسألة لا يجوز المرور بها على اساس موضوع الحقوق الدستورية والعرف ومسألة الفرد لانها بالنتيجة مسألة تتعلق بديناميكية المنطقة ، صراع المنطقة وديناميكية العالم ولا يجوز ان تتسلط علينا مسألة تهويش الصحافة العربية الدجالة والعالمية الدجالة . بل يجب أن ننظر الى هذه القضية وان ندرسها دراسة واسعة ومتعمقة . احب أن اذكر بحادثة بسيطة ايها الاخوان ، في سنة ١٩٥٧ اتى من بولونيا الى اسرائيل عدد من اليهود اكبر عدة مرات من الـ ١٣ الف اذا صح هذا الرقم . وفي سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ كانت السياسة العربية او سياسة مصر وسوريا وغيرهما لا تلتفت الى هذه القضية على أساس الحلف الضروري واللازم مع الاتحاد السوفياتي ، بعد تأميم قناة السويس الخ في سنة ١٩٥٩ وفي جو التهويش ومكافحة الشيوعية والالحاد وغير ذلك حملت جريدة الاخبار ، جريدة مصطفى وعلي امين ، قضية هذه الهجرة التي حدثت قبل سنتين على اكتافها ورفعتها . ولعلنا نذكر ذلك الشيء ولعلنا جميعا ، او لعل بعضنا ، على الاقل لعل جميعنا الذين كانوا آنذاك على خلافاتهم ينتسبون الى هوية ماركسية لينينية او الى لافتة لينينية ماركسية مشتركة ، ولعلنا جميعا كنا ضد هذا الكلام ورفضناه رفضا كاملا ونبذناه . ثم في سنة ١٩٦٧ صدرت في صحف بولونيا ومجلاتها حول هذا الموضوع ، موضوع هجرة ١٩٥٧ ليهود بولونيا الى اسرائيل ، صدرت ارقام وتصنيفات وتوزيعات وصفتها في احد كتبي السابقة في هامش ، في شرح هامشي هو كتاب « الماركسية والشرق » وكان بينهم على ما اذكر مئات المهندسين والمهندسين الزراعيين وعدد من الاطباء وعدد من ضباط الاركان وعدد من قادة الاستخبارات العسكرية وبروفسوران من معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية لحزب العمال البولوني الموحد جاؤوا الى اسرائيل . وما ان وصلوا حتى تولى هذان الاستاذان عملية نقل المعلومات من جمهور المهاجرين اليهود البولونيين الى المخابرات المركزية الاميركية مباشرة وبدون المرور بوساطة او بجسر اسرائيل والمخابرات الاسرائيلية . لعلهم بالغوا في هذه الاتهامات ولكن الحقيقة هكذا . ونستطيع ان نقول ان هذه الهجرة كانت قوة اضافية في الاحداث اللاحقة . بالطبع اعتقد أنه بدلا من أن يأتي الى اسرائيل سبعون الف يهودي بولوني لو خرج من اسرائيل مئة الف او ثلاثمائة الف يهودي بولوني ورومانى وغير ذلك وعادوا الى بولونيا لكانت النتيجة ان الكارثة العربية هي هي . ولكن هذا لا ينفي ان هذه القضية لعبت دورا في حينها . لا استطيع ان اقول انه لولا محاسبة النفس ، ولا استطيع ان اكرر ، كما تكرر سابقا وكما نكرر جميعا ، ان مواقفنا بمعنى المواقف العربية لانه لا يوجد شيء اسمه حقيقة مواقف عربية واحدة ، ويوجد انقسام رهيب في المجتمع العربي وفي السياسة العربية لا يوجد انقسام فقط بين بروليتارية وكادحين ورجعيين موالين للاستعمار ورأسماليين وغير ذلك هناك انقسام على الخطوط، على الفهم . بينما تدعي القوى التقدمية وبينما يدعي الماركسيون انفسهم وغير ذلك الخطوط متضاربة متناقضة وهذا الامر اذا يجب ان نتجنبه. قال الاستاذ صادق العظم ان هناك حلفا بين العرب والسوفيات وانه ليس هناك تطابق كامل بين الحليفين وهذا طبيعي وهذا شيء اكيد. الاتحاد

السوفياتي يؤيد شرعية استمرار اسرائيل وانا لا اؤيد . الاتحاد السوفياتي يؤيد الحل السياسي وتنفيذ قرار مجلس الامن ويتهم الولايات المتحدة الاميركية والامبريالية الاميركية بأنها دجالة كذابة ولا تريد تنفيذ هذا الحل السلمي او قرار مجلس الامن . الاتحاد السوفياتي يقول بقرار مجلس الامن وانا اؤيد هذا . ولكن هنا بالضبط اريد ان أطرح تساؤلا صغيرا : ما دام الاتحاد السوفياتي يريد هذا الحل السلمي ، الذي اعتقد ان احتمال تحققه كان في ايام ما قبل عامين كان واحدا بالمئة واحتمال تحققه الان هو واحد بالمليون ، ولكن ما دام الاتحاد السوفياتي تبنى قرار مجلس الامن ترى الا نخاف من هجرة يهودية واسعة من الاتحاد السوفياتي في حال تحقق هذا الاحتمال بتنفيذ قرار مجلس الامن وهو ربما من اهم العوامل التي تقوي في الجمهور العربي ، وربما تعلمون ولست أنا اعلم انه عامل جدي في تخوف المقاومة الفلسطينية ، في تخوف العرب ، في تخوف الجميع من هذه القضية . لانه اذا كان تنفيذ قرار مجلس الامن سوف يأتي بنتيجة هي مجيء مائتي الف يهودي مهاجر مثلا من الاتحاد السوفياتي فان هذه النتيجة في نظري اكبر بكثير من كل قصص السلام والمرور والاعتراف او ربع الاعتراف او ما شابه ذلك لان الحروب ممنوعة بين العرب المجاورين لاسرائيل وبين اسرائيل وذلك بحكم اسرائيل وطبيعتها ذاتها . طبعا انا شخصيا لا اعتقد بأن هجرة يهودية واسعة ستعقد قرار مجلس الامن اذا نفذ ، واصلا لا اعتقد ان احتمال تنفيذ هذا القرار يتجاوز الواحد بالمئة ، لكن اعتقد انه عامل جدي في تخوف العرب وعامل جدي في انشطار عربي بين نظرية ثوروية لا تقبل وترفض وغير ذلك وبين واقع عملي معاكس تماما ، وربما في بعض الحالات اختلاف وانشطار بين ما نكتب في المقالات وما نقوله شفويا او ما نقوله في ندوة ذات قيمة وبين ما نقوله في المقهى حين نكون ثلاثة أشخاص .

العظم : يبدو لي انه ينبغي علينا الاتجاه نحو انهاء الندوة ما لم يكن لدى احد الزملاء شيء حيوي يريد ان يتفضل به .

فرحات : ردا على قول الدكتور فايز صايغ لقد اقترحت طرح السؤال بالصيغة الاتية : استنادا الى ماذا قال الدكتور فايز صايغ انه توجد ، أولا، هجرة ضخمة من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل وثانيا ، فيما اذا كانت هذه الهجرة التي حصلت عام ١٩٧٠ — ٧١ وقال انها تشكل خطرا على حركة التحرر الوطني العربي هي خطر جسيم حقا باعتبار انه تحدث عن مد بشري ساحق الخ ... انا قلت اذا كان بالامكان ان يحدد ضخامة هذا العدد من المهاجرين بالنسبة الى عاملين الاول هو عدد اليهود الاجمالي في الاتحاد السوفياتي والثاني حجم الهجرة التي جرت من البلدان العربية . هذا الذي تقدم به الدكتور فايز صايغ بقوله انه لا يجوز تبرير موقف الاتحاد السوفياتي بالاستناد الى ما فعلته حكومات اقطاعية عربية وكأنه يريد القول بأني كنت أريد ان أبرر موقف الاتحاد السوفياتي بالقياس الى موقف حكومات رجعية عربية . واكرر هنا ان اشارتي الى حجم الهجرة من البلدان العربية الى اسرائيل كانت في نطاق التساؤل عن حجم الهجرة التي جرت في ١٩٧٠ و١٩٧١ بالنسبة الى حجم عدد اليهود الاجمالي في الاتحاد السوفياتي وفي اسرائيل . بالواقع انا لست بحاجة الى تبرير سماح الاتحاد السوفياتي لليهود بالهجرة لعدة اسباب اولا ، وهو سبب بسيط ، انني بصفتي شيوعي لبناني غير موافق على هجرة اي يهودي الى اسرائيل من أي بلد كان . كما ان الشيوعيين السوفيات وسائر الاوساط الاجتماعية السوفياتية تبذل كل ما في وسعها للوقوف بوجه الدعاية الصهيونية الداعية الى هجرة اليهود . ولكن تبقى القضية الرئيسية هي قضية اعادة الاعتبار للحقيقة في هذا الموضوع . الارقام التي استند اليها الدكتور فايز صايغ هي أرقام السنة الاخيرة سنة ١٩٧١ ، هل يجوز الاستناد اليها والانطلاق من هذه الهجرة التي حصلت في ظروف معينة عام ١٩٧١ لكي نقول او لكي نوحي بأن ثمة موقفا سوفياتيا ثابتا في هذا الموضوع ؟ اذا عدنا الى الماضي نرى ان حجم الهجرة كان يتراوح بين الصفر والرقم الاقصى الذي وصلته سنة ١٩٧١ . اما ما اريد ان اقوله فهو ضرورة معالجة هذه القضية بموضوعية وبروح علمية . لا أريد أن ادافع عن الاتحاد السوفياتي لان سياسته بغير حاجة الى دفاع ، سياسته المبدئية في دعم قوى التحرر العربية ، لكن الذي ارجوه هو ان نناقش هذه القضية بكل موضوعية وبكل روح علمية وبالاستناد الى مجمل قضية الهجرة من الاتحاد السوفياتي وليس على ارقام سنة معينة .

صايغ : عبارة رد الاعتبار للحقيقة هي التي تدعوني الى ممارسة حق الرد . ان ارقام سنة ١٩٧١ لها اهميتها لان الهجرة اليهودية السوفياتية الى اسرائيل كانت شبه متوقفة قبل عام ١٩٧١ ثم انفجر الخزان دفعة واحدة حيث جاء ثلاثة عشر ألف مهاجر في تلك السنة ، وجميع الادلة تشير الى ان ارقام ١٩٧٢ ستكون على الاقل مساوية لارقام ١٩٧١ ان لم تكن اكبر منها . هذا هو الذي يعطي هجرة ١٩٧١ مغزى سياسيا معينا ، وهذا ما جعلني اتساءل عن هذا المغزى السياسي وكيفية مواجهتنا له . أما القول بأني اخذت سنة ١٩٧١ بمعزل عن السنوات السابقة فهو مردود لانه لم تكن هناك محاولة من قبلي لان اقول بأن ارقام ١٩٧١ هي ثلاثة عشر ألف مهاجر فاذن في ٢٠ سنة جاء من الاتحاد السوفياتي ٢٦٠ ألف مهاجر ! أنا لم احاول ان اعطي ارقام سنة ١٩٧١ لادلل على انه كانت هناك هجرة متواصلة طوال المدة السابقة سنة ١٩٧١ . لقد بدأت الهجرة في سنة ١٩٧١ ، وسنة ١٩٧٢ ايضا فيها هجرة ، مما يدل على ان هناك تبدلا اساسيا في موقف السوفيات من مسألة الهجرة ، الامر الذي لا بد وان يكون له مغزى سياسي فلنفتش عن هذا المغزى ولنفتش عن طريقة لمجابهته .

العظم : باسم مركز الابحاث و« شؤون فلسطينية » اشكركم جميعا على المساهمة في انجاح هذه الندوة .

الفكرة الصهيونية : النصوص الاساسية

٣٧ مقالا او خطابا وضعها ٣٧ زعيما ومفكرا صهيونيا رئيسيا ترجمت الى العربية لتكون مادة دسمة للباحثين والقراء العرب لمعرفة الفكر الصهيوني كما وضعه زعماء الصهيونية ومفكروها .

من منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف.

٤٨٨ صفحة — ١٠ ل.ل.

من الحجم الكبير

يضاف اليها اجور البريد : ١٠٠ ق. ل. في البلاد العربية ، ٢٥٠ ق. ل. في اوروبه ، ٥٠٠ ق. ل. في سائر دول العالم

مراجعـــات

اديب ديمتري ، **الماركسية والدولة الصهيونية** ، (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧١) .

منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ ظهرت عدة كتب ماركسية (أو ذات طابع ماركسي) هدفها اعادة النظر في بعض جوانب النزاع العربي ــ الاسرائيلي والمسألة اليهودية والحركة الصهيونية على ضوء المنهج المادي التاريخي في التحليل وفي فهم الاحداث التاريخية . كذلك تمت اعادة اكتشاف عدد من الكتابات الماركسية والشيوعية العربية القديمة التي عالجت موضوع الصراع العربي الصهيوني والقضية الفلسطينية عامة قبل قيام دولة اسرائيل، وجرى تمحيص ما ورد فيها من تحليلات وتوقعات واقتراحات . كان كل ذلك ضروريا لان الموقف الاممي من الصراع العربي الصهيوني قد ارتبط في الاذهان ، بالنسبة للعرب ، بمجرد موافقة الاتحاد السوفياتي على قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وردود الفعل السلبية الشديدة التي اثارها هذا التصرف في اوساط الجماهير العربية والتيارات الوطنية العاملة ضمن صفوفها . لذلك قام عدد من الكتاب الماركسيين في الفترة الاخيرة بفتح ملف هذه القضية لتبيان ما للحركة الشيوعية منذ بداياتها من مواقف صريحة وقوية في مقاومة الصهيونية ومعاداتها وادانتها كحركة رجعية وشوفينية مرتبطة بمصالح الدول الامبريالية . ويقع كتاب اديب ديمتري « الماركسية والدولة الصهيونية » ضمن هذا الخط ويطمح الى خدمة هذا الهدف . يثير المؤلف في مطلع كتابه مسألة مهمة جدا تتلخص في التضارب القائم بين موقف الحركة الشيوعية الكلاسيكي والمستمر في ادانة الصهيونية ورفضها من ناحية ، وبين السياسة الحاضرة للدول الاشتراكية (باستثناء الصين طبعا) والاحزاب الشيوعية التي تقر بشرعية وجود دولة اسرائيل منطلقة من الاعتراف بالامر الواقع من ناحية ثانية . الا ان المشكلة في كتاب اديب ديمتري هو انه يثير عددا من القضايا الجوهرية على النحو المذكور بدون ان يقدم للقارىء اية اجوبة معمقة تتخطى العموميات المتداولة حولها ، مما يترك القارىء بشعور بالخيبة بسبب الفارق بين اهمية القضية المثارة من جهة وهزال الاجوبة وسطحية التحليلات المقدمة من جهة اخرى . في الواقع يستعيض المؤلف في كثير من الاحيان عن التحليل الدقيق بسرد مطول لمعلومات عادية ومعروفة حول الصراع العربي الصهيوني مأخوذة عن منشورات متداولة مثل كتاب ليون « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » وكتاب « دولة اسرائيل » للكاتبة السوفياتية جالينا نيكيتينا الذي ترجم الى العربية في مصر ، وكتاب يوري ايفانوف « احذروا الصهيونية » ، ومجلد «من الفكر الصهيوني المعاصر » الصادر عن مركز الابحاث . اي بدلا من ان يستخلص المؤلف العبرة الاساسية من نتائج هذه الابحاث والكتب ويبني عليها تحليله ، وفقا لمتطلبات الموضوع الذي يعالجه ، (باعتبار ان العمل العلمي تراكمي) نجده يكرر بصورة مطولة ما جاء فيها من وقائع وآراء وسرد للاحداث . مثال اخر على قضية هامة جدا يثيرها الكتاب ولكنه يعجز عن معالجتها على المستوى المطلوب تتلخص فيما اذا كانت دولة رأسمالية مرتبطة بالاحتكارات الامبريالية مثل اسرائيل قادرة على التحول داخليا ، من خلال الصراعات الاجتماعية والطبقية ، الى دولة مرتبطة بالسياسة المعادية للامبريالية وبالحركة الثورية العالمية في المستقبل (ص ١٠٠ ــ ١٠١). ان الجواب البديهي الذي يتبادر الى الاذهان هو بالنفي ولكن لا يمكننا الاستناد طويلا الى البداهة في مثل هذه القضايا الحيوية ولا بد من تحليل دقيق ومطول ندعم به جوابنا . وبدلا من ان يقدم لنا اديب ديمتري محاولة للدخول في مثل هذا التحليل يعود الى سرد مجموعة من الوقائع التاريخية المعروفة مثل : « كان عدد اليهود في فلسطين عند

صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ يشكلون ٧٪ من مجموع السكان والعرب ٩٣٪ يملكون ٩٧،٥٪ من الارض . وعندما حصلت بريطانيا على الانتداب سنة ١٩٢٣ كان عدد اليهود يمثل ١٢،٩٪ من مجموع السكان . وسنة ١٩٣١ اصبح عدد اليهود يمثل ١٨٪ الخ ... » (ص ١٠٣ — ١٠٤) . ويستمر المؤلف في هذا السرد معتمدا على كتاب « دولة اسرائيل » الذي مر ذكره معتبرا في ذلك اجابة على التساؤل الهام الذي اثاره وطرحه . اما بالنسبة للمسألة الاولى التي اثارها حول التضارب بين الموقف المعروف للحركة الاشتراكية من الصهيونية والسياسات الحاضرة للدول والاحزاب الشيوعية بازاء شرعية الوجود الاسرائيلي فيعتبر المؤلف ان معالجتها تتم بالعودة الى جذور المسألة اليهودية والحركة الصهيونية بهدف تعريتها أمام الدول والاحزاب الاشتراكية وتبيان الموقف الامبي الاصيل منها . لذلك يعود أديب ديمتري في الفصل الاول الى مناقشة جذور المسألة اليهودية على أساس ما يعتبره المنهج المادي الجدلي في فهم الموضوع . الا انه ينطلق من فرضية غامضة ، على ما يبدو لي ، عندما يعترف بوجود ثمة شيء اسمه « المسألة اليهودية » في كل العصور التاريخية المعروفة قديما وحديثا (ص ٢٢) ، في حين انه يجب ان نميز بوضوح بين استمرار وجود الشعب اليهودي في عصر الدولة الرومانية وعصور الاقطاع مثلا كواقع تاريخي يشكل جزءا من وجود اقليات متعددة داخل هذا النوع من الدول والمجتمعات وبين تحول هذا الوجود الى « مشكلة » أو « مسألة » بالمعنى الذي نفهمه حاليا .

ان ما اصطلحنا على تسميته « بالمسألة اليهودية » بمعناها الراهن هي ظاهرة اقتصادية — اجتماعية حديثة في الاساس ولدها ببطء تطور النظام الرأسمالي . كما ان مصطلح « المسألة اليهودية » بالذات ذو منشأ اوروبي حديث مما يشير الى ان تحول وجود اليهود في اوروبا الى « مسألة » متميزة نوعيا عن السابق تتطلب معالجة خاصة ضمن ظروف مرحلة تاريخية معينة (لها حدودها الزمنية والمكانية الواضحة نسبيا) ولا يجوز اسقاطها تعسفا على كل عصور التاريخ . قد لا يخالفني اديب ديمتري في هذا الرأي بعد طرحه بوضوح الا ان اسلوبه في فهم المسألة اليهودية على أساس امتدادها عبر كل عصور التاريخ بنفس المعنى يؤدي ضمنا الى طمس الوقائع التي ذكرتها والى التكريس الضمني للمنهج السائد في دراسة هذه الظاهرة : اي تجريدها عن ظروفها الموضوعية واقتلاعها من بيئتها التاريخية ومن ثم اسقاطها على مجرى التاريخ منذ البداية حتى اليوم للبرهنة على وجود جوهر ثابت « للمسألة اليهودية » يبقى هو هو عبر التحولات التاريخية التي تؤثر على المظاهر والاعراض فقط وليس على الجوهر الدائم نفسه . وبالتأكيد فان اديب ديمتري — كماركسي — يرفض هذه الرؤيا المثالية للتاريخ .

بعد عرض سريع لبعض التعاليم اليهودية الصهيونية المعروفة يرد عليها المؤلف بمراجعة سريعة لتاريخ القبائل العبرية القديم وبتلخيص سريع ايضا لاراء ليون حول تاريخ اليهود في العصر الوسيط والحديث . وعندما يصل الى مرحلة الثورة الفرنسية الكبرى يبالغ في اشادته بالحلول التي طرحتها البورجوازية الثورية في تلك الفترة للقضايا الاجتماعية بما فيها مشكلة اليهود الاوروبية . يقول مثلا ان البورجوازية الثورية في تلك الفترة نادت بالحرية وانكرت الفروق بين البشر بسبب الاصل أو الدين او الجنس ودعت الى تأسيس النظم السياسية على أساس العدل . مما ادى به الى القول ان اليهود دخلوا بذلك في فترة جديدة من حياتهم حيث تفتح لهم المجتمع الاوروبي ليضمهم « ولم يعد في الحقيقة ثمة فارق بين التاجر او المصرفي اليهودي او الكاثوليكي أو البروتستانتي. وقررت ثورات انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا مساواة الاديان امام القانون » (ص ٤١) . اعتقد ان هذه النظرة الى الموضوع مغرقة في تبسيطيتها ، لانه ليس صحيحا ان المجتمع الاوروبي تفتح ليهضم اليهود (كما برهنت على ذلك الاحداث اللاحقة) وليس صحيحا انه « لم يعد في الحقيقة ثمة فارق بين التاجر او المصرفي اليهودي او الكاثوليكي او البروتستانتي » في المجتمع الرأسمالي الطبقي . ان مجرد اعلان الثورات البورجوازية عن انكار الفروق بين البشر لا يعني انه لم يعد ثمة فارق على ارض الواقع بين التاجر اليهودي او الكاثوليكي او البروتستانتي . وأديب ديمتري ، كمفكر ماركسي ، يعرف قبل غيره الى اي حد كانت المساواة التي اعلنتها الثورات البورجوازية ذات طابع قانوني وحقوقي وشكلي — اذ ان المساواة بين الاديان امام القانون لم تكن تعني ان المواطن البروتستانتي في فرنسا الكاثوليكية قد اصبح بالفعل

وحقا في موقع المساواة ، أمام المجتمع واجهزة الدولة الخ ... مع المواطن الفرنسي الكاثوليكي. في الواقع هنا تكمن بذور الفشل والعجز التي حملتها الثورات البورجوازية (بالرغم عن التقدم التاريخي الكبير الذي مثلته) في حل المسألة اليهودية على المدى البعيد ، كما يشير الى ذلك المؤلف نفسه . عندما دخلت الرأسمالية الاوروبية مراحلها الاحتكارية والامبريالية اتضح هذا العجز وبرزت حركة العداء للسامية حتى وصلت الى ذروتها في النازية والفاشية . وهنا يشير المؤلف الى كون الحركة الصهيونية ظاهرة ملازمة للعداء للسامية وكونها الوجه الاخر لنفس العملة باعتبار ان كلا الحركتين يخدم في الواقع نفس الهدف بالرغم عن التناقض الظاهري بينهما (ص ٤٢) . ومع ان تفاعل الصهيونية بحركات العداء للسامية جدير بالمعالجة الدقيقة باعتبار ان الوقوف على المنطق الداخلي الذي يربطهما وعلى الآلية التي تحكمت بتفاعلهما هو موضوع بمنتهى الاهمية الا ان اديب ديمتري لا يتعدى في معالجته للمسألة مجرد الاشارة الى تلازم الظاهرتين وكونهما تخدمان هدفا واحدا، واعتبر ذلك كافيا . اما بالنسبة لمناقشة المؤلف للموقف الماركسي من المسألة اليهودية والحلول التي كانت مطروحة لها فانها لا تتعدى مجرد العرض التبسيطي المسطح لاراء لينين في الصهيونية وشجبه لشعارات الاحزاب اليهودية البورجوازية والاحزاب اليهودية المتمركسة مثل البوند ، ورفضه القاطع لفكرة « الامة اليهودية » باعتبارها فكرة خاطئة ورجعية من الاساس . ويستعرض المؤلف بنفس الطريقة آراء ستالين في الموضوع ووجهات نظر ماركس كما وردت في كتابه المبكر عن المسألة اليهودية .

يتطرق المؤلف في الفصل الخامس الى قضية في منتهى الاهمية ليس فقط بالنسبة للمواقف الراهنة للدول والاحزاب الاشتراكية من اسرائيل بل ايضا بالنسبة للقوى الثورية العربية والفلسطينية المكافحة في الوقت الحاضر ضد الامبريالية والصهيونية ، وخاصة بالنسبة لبرامجها المستقبلة واهدافها الاستراتيجية .

يطرح اديب ديمتري القضية كما يلي : « فالاحزاب الشيوعية ، والاشتراكية الثورية التقدمية ، والدول ، وغالبية الراي العام التقدمي ، يرفض فكرة وجود امة يهودية عبر التاريخ ، او على نطاق العالم ، ولا ينظر الى اليهود اكثر من مواطنين في مختلف البلدان ، كما يرفض كون اسرائيل اليوم امتدادا لاسرائيل القديمة . ولكنها ترى وجود امة اسرائيلية او قومية اسرائيلية وجدت او في طريقها الى التكوين ، ومن حقها تقرير المصير ، كما هو من حق الشعب العربي ... » (ص ١٧٠) .

بعبارة اخرى المسألة التي لم يعد بالامكان التغاضي عنها او الانزلاق فوقها بواسطة العبارات العامة والشعارات الغامضة هي اذا ما كان يهود اسرائيل يشكلون قومية جديدة في طور التكوين (المعنى هنا القومية الاسرائيلية وليس القومية اليهودية التي كانت تهدف الى تحقيقها الحركة الصهيونية) أم انهم ليسوا سوى تجمع ديني لا يحمل اي صفة من صفات المجتمعات القومية المعروفة ؟ وبالرغم عن أهمية السؤال بالنسبة لارتباطه بنوعية البرامج الكفاحية البعيدة المدى التي على القوى الثورية العربية والفلسطينية ان تضعها لا نجد اي تطرق صريح وجاد الى هذا الموضوع في الفكر الثوري السائد . ان كل ما نجده هو تلميحات بلغة التمتمة اللعينة (على حد تعبير لينين) واشارات خجولة ومتعثرة الى هذه القضية الحيوية . ومن حسنات كتاب اديب ديمتري انه ، على اقل تعديل يطرح المشكلة بوضوح ودقة امام الفكر الثوري الاشتراكي العربي الراهن . الا ان المؤلف بدلا من ان يدخل مباشرة في صلب الموضوع ليقدم لنا اجابته الصريحة المدعمة بتحليل دقيق يلجأ الى الاسلوب الاسهل وهو العودة الى الاستعراض المسطح لما قاله كل من لينين وستالين حول المسألة القومية وما يقوله بعض علماء الاجتماع في اسرائيل حول الموضوع نفسه وما يقوله أوري افنيري الخ . اي مرة اخرى نقع في الاسلوب السردي التكراري لاقوال الغير الذي اعتاد عليه الفكر العربي في عصور الانحطاط. بعد هذا الاستعراض الذي لا لزوم له يعود اديب ديمتري الى النقطة التي انطلق منها اي الى « حقيقة وجود الامة والوجود القومي في اسرائيل وهل هناك فعلا قومية في طريق النشأة او في طور التكوين ؟ » (ص ١٩٢) . بعبارة اخرى ما زلنا في مكاننا (بعد حوالي ١٨ صفحة من العرض) لان المادة التي تم عرضها لم توجه بصورة تجعلنا أقدر على معالجة السؤال الاساسي الذي اثاره المؤلف ولم توظف ، بصورة عضوية ، في سبيل الوصول الى اجابة تحليلية دقيقة وصحيحة .

يقر المؤلف بأن فكرة وجود امة اسرائيلية جديدة في طريقها الى التكوين من المهاجرين والمستوطنين الذين وفدوا الى البلاد واضحة ولا اعتراض عليها من حيث المبدأ بصيغته العامة (ص ١٩٤) . كما يذكر ان هذا التكوين ليس بدعا في التاريخ ، فقد تكونت العديد من الامم الحديثة من النازحين والمهاجرين من كل بقاع الارض ومن مختلف الجنسيات واللغات مثل الولايات المتحدة الاميركية وكندا واوستراليا ... « وليس هناك ما يمنع بالطبع من حيث المبدأ ، من ان يحدث في اسرائيل مثلما حدث في غيرها بعد ان توفرت لها كل مقومات تكوين الامم ، وهي الارض المشتركة واللغة المشتركة بل وقد يكون التكوين النفسي والثقافة والمصالح المادية الواحدة » (ص ١٩٤) . ولكن من ناحية اخرى ، يشدد المؤلف ان واقعا اخر يفرض نفسه هو كون الوجود الاسرائيلي على ارض فلسطين جزء لا يتجزأ عن حركة الاستعمار الاستيطاني الاوروبي وانتماء الصهيونية الى الحركات القومية الرجعية الاوروبية الامبريالية « التي صنعت منذ اواخر القرن التاسع عشر كل مجتمعات المستوطنين العنصريين ، مجتمعات سيسيل رودس وامثاله » ليخلص الى نتيجة تقول ان « هذه القومية لا تؤيد بل تشجب ، لا تنمى بل تصفى » (ص ١٩٧ ، ١٩٨) . ويجد اديب ديمتري ان المخرج السليم من المأزق هو الحل الذي تقدمت به حركة المقاومة بدعوتها الى اقامة « الدولة الفلسطينية الديمقراطية للجميع كبديل عن الدولة العنصرية » باعتبار ان هذا الحل وحده « يخدم المصالح الحقيقية للشعبين العربي والاسرائيلي ولا يهدد في شيء مصالح اليهود الفلسطينيين ، لان تهديم اساس البنيان العنصري لا يعني بحال المساس بحقوق الشعب ذاته بل يعني بحسب الاطاحة بالنظام والطبقات ذات المصلحة في بقاء مثل النظام العنصري العدواني » (ص ١٦٥ — ١٦٦) . ان النقطة الهامة التي اهمل المؤلف مناقشتها هي كون التفسير السائد والمنتشر لشعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية لا يأخذ بعين الاعتبار المسألة القومية اصلا وينظر الى سكان فلسطين كتجمعات دينية مسيحية ويهودية ومسلمة فحسب . ولكن يبدو من اللغة التي يستعملها المؤلف ، ومن بعض العبارات التي وردت في كتابه انه اكثر ميلا الى اعتبار اليهود الاسرائيليين قومية في طور التكوين وان اقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية لا بد من ان يأخذ بعين الاعتبار الخصائص القومية الاسرائيلية . على سبيل المثال يصف المؤلف هذه الدولة بأنها « علمانية ديمقراطية متعددة الاديان والاجناس والقوميات » (ص ٢٠١) . الا ان اعترافه بوجود القومية الاسرائيلية على هذا النحو يتعارض مع تلميحه السابق الى تصفية هذه القومية ، مما يبين مرة اخرى مدى التعثر الذي ما زال الفكر العربي الثوري يعاني منه بالنسبة لمعالجة هذه القضية الهامة على اسس واضحة ومنتظمة ومنسجمة مع نفسها . كذلك ان مقارنة أديب ديمتري الوجود الاسرائيلي « بمجتمعات المستوطنين العنصريين مجتمعات سيسيل رودس وامثاله » تعوزها الدقة لان استعمار سيسيل رودس خلق طبقة علوية من المستعمرين الاوروبيين التي تسيطر على سكان البلاد الاصليين وتستغلهم بشتى الوسائل كما تستغل موارد بلادهم ، بينما خلق الاستعمار الصهيوني الاجلائي مجتمعا اسرائيليا متكاملا بطبقاته الاجتماعية المعروفة ودولته القومية الحديثة بكافة مؤسساتها وادواتها، من هنا يصبح تشبيه اديب ديمتري لنمو القومية الاسرائيلية بعملية استعمار كندا واستراليا اقرب الى الواقع التاريخي من تشبيهه الاخر لها بالمستعمرين الاوروبيين على طريقة سيسيل رودس والجزائر مثلا مع فارق هام جدا هو ان الشعب الفلسطيني ما زال يناضل لاستعادة حقوقه القومية في أرضه التي اجلي عنها . لا شك ان كتاب اديب ديمتري قد قدم شيئا هاما بطرحه السؤال الجوهري حول القومية الاسرائيلية بهذه الصورة الصريحة والمفتوحة ، هذا بالرغم عن بعض اوجه القصور الكامنة في اجابته ومعالجته للموضوع .

ص٠ ج٠ ع٠

Raafat Chambour, **La responsabilité de l'Occident devant le danger de guerre,** (Edition Méditérrannéenes, Montreux, 1970).

يعبر هذا الكتاب ، عبر سياقه العام ومن خلال المشاريع والافكار الكثيرة التي يوردها ويطرحها ، عن اهتمامات جدية وصادقة من أجل بناء عالم أفضل يسوده السلام العادل وتختفي منه مآسي الحروب والعنف والدمار . ان مؤلف هذا الكتاب يبدو وكأنه انسان شغوف بالسلام حتى الغرق في أقصى انواع المثالية السياسية . وكما نعلم فان المثالية في السياسة ، وان كانت تعبر عن أماني وتطلعات كل البشر فانها تظل عاجزة عن ان تلتصق بالواقع وبالتالي فان كل معالجتها لمشاكل السياسة تظل أسيرة الفكر المجرد الخالص . نقول هذا لان هذا الكتاب لم يستطع في معالجته للقضايا السياسية التي طرحها الا أن يضيع أحيانا في بحر من المثالية وذلك بالرغم من الملم المؤلف بماهية السياسة وبحدودها وواقعيتها . وقد يكون من المفيد ان نبدأ بعرض موجز لاهم ما تعرض له المؤلف في هذا الكتاب قبل ان نعمد الى تقييمه ، خاصة في الجزء الذي يتكلم فيه عن القضية الفلسطينية وارتباطها بمسألة السلام العالمي .

بالرغم من ان المؤلف قد قسم كتابه الى ستة اجزاء مميزة فاننا لا يمكننا الاخذ بهذا التقسيم في معرض دراستنا لما جاء فيه وذلك لان هناك تداخلا قويا بين هذه الاجزاء الى درجة يصح معها ان نقول ان هذا التقسيم ليس سوى تقسيما منهجيا . ففي الجزء الاول مثلا نجد دراسة قصيرة مدعمة بالوثائق عن السياسة الاوروبية في المنظمات الدولية بالاضافة الى تعداد لمشاريع السلام عبر التاريخ. وهذان كما نرى موضوعان متمايزان وان كانا مكملين لبعضهما بعضا . ويحذرنا المؤلف في بداية هذا الجزء من عواقب نسيان الماضي ويدعونا بالحاح الى الاستفادة من عبر التاريخ . كل هذا يظهر لنا وبكثير من الدقة والتحليل العوامل الثابتة في السياسة الاوروبية ويبين لنا الدوافع الكامنة وراءها بالاضافة الى حدودها وحجمها وفعاليتها ومناطق نفوذها وامتداداتها وموازين قواها . ثم ينفذ من هذا كله ليشدد على كون السلام محورا اساسيا في هذه السياسة فيحدثنا عن الخطوط العريضة لبعض مشاريع السلام الشهيرة وبشكل مشروع سولي من اجل « السلام الدائم والوحدة الاوروبية » ومشروع سينيه الجديد من اجل « السلام العام وحرية التجارة للجميع » وكذلك مشروع بنتهام واخيرا لا آخرا مشروع امانويل كنط من اجل السلام الدائم .

اما في الجزء الثاني فيحدثنا عن السياسة الاوروبية الخارجية (اي سياسة دول اوروبا بينها من جهة وسياستها تجاه العالم « غير المتمدن » من جهة ثانية) . فيظهر لنا المحاور التي كانت تتجاذب الدول الاوروبية آنذاك والتي أدت الى نشوب الحرب العالمية الثانية . ولهذا الجزء اهمية خاصة في دراسة التصرفات السياسية الاوروبية التي تتجاذب السياسة الاوروبية الآن .

اما الجزء الثالث فهو عبارة عن ملف وثائقي هام عن القضية الفلسطينية . وهو ، وان لم يأت بجديد في هذا المضمار الا انه يعتبر ملفا جامعا ومنظما لاهم المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية منذ أقدم التاريخ حتى يومنا هذا . كما انه يلقي أضواء كاشفة على حقيقة الارتباط العضوي بين الصهيونية وبين الاستعمار بالاضافة الى دراسته لظاهرة الصهيونية بحد ذاتها وبعدها عن الدين اليهودي رغم كل ادعاء . وأهم القضايا التي توقف عندها هي : الصهيونية والتوسع الاستعماري ، دور بريطانيا (وعد بلفور ، مسؤوليتها كدولة كبرى) ، مسؤولية عصبة الامم ، مسؤولية الامم المتحدة . بالاضافة الى دور اسرائيل كعنصر معاد للسلام وللطبيعة في المنطقة . وقد اظهر المؤلف هذا من خلال تقديمه للائحة بالادانات الحازمة التي صدرت عن مجلس الامن ضد اسرائيل وذلك منذ انشائها وحتى اليوم . وينتهي هذا الجزء بتحليل لمشروع روجرز الاخير ومضامينه وأبعاده وكيف انتهى . كل هذا ليقول لنا ان على العرب ان ينشدوا السلام بأي ثمن ولكن ليس أي سلام وبأي ثمن بل السلام العادل الذي هو وحده بامكانه ان يدوم وان يستمر .

وفي الجزء الرابع يشدد المؤلف على مسؤولية الغرب في صيانة السلام — أي غرب ؟ يبدو هنا ان المقصود هو أوروبا أولا وأخيرا باعتبارها ذات تاريخ سياسي عريق وذات تراث دبلوماسي يؤهلها للقيام بمثل هذا الدور . وفي هذا الجزء تحليل للسياسة الاوروبية والدولية في اطار الامم المتحدة

ولمفهوم السلام وتطوره من يالطا الى سان فرنسيسكو .

بعد هذا كله نصل الى الجزء الخامس وهو بيت القصيد وفيه يقدم لنا المؤلف مشروعا للتعاون الدولي من اجل سلام عالمي وهو مشروع يقوم على مبادىء المساواة والاخاء والحرية وهي كما نرى مبادىء مستوحاة من شعارات الثورة الفرنسية . كما أنه ينادي بالغاء معظم المؤسسات السياسية الحالية لتقوم مكانها منظمات على مستوى عالمي تتميز بالاختصاص والانسجام والعمل نحو الافضل . وهذا أيضا ينطبق على الاحزاب السياسية التي يجب ان تحل محلها منظمات متخصصة حسب ظروف كل أمة أو تجمع بشري . وهذه المنظمات هي : صناعية — انتاجية ، مالية ، مصرفية ، منظمات عمل ، زراعية ، دفاع وطني ، اصلاحات عامة. وبعد ذلك يوضح المؤلف بايجاز الصيغة العملية لتطبيق هذا المشروع . وفي الجزء السادس يشدد الكتاب على ان العمل العاجل والضروري والملح هو قبل كل شيء ابعاد خطر الحرب وجعل السلام شيئا طبيعيا وشرعيا في العالم وذلك ضمن مؤسسات وقوانين وأنظمة . وهذا العمل ، كما يشير عنوان الكتاب ، يقع بالدرجة الاولى على عاتق الغرب . وينتهي الكتاب بنداء ملح من المؤلف يشير فيه الى أن : « على العالم أما أن يختار الاستمرار في الوضع الحالي واما التطلع الى مستقبل أفضل من شروطه الاساسية ان يكون قائما على الحرية الوطنية والتخلي عن روح الحرب . ومن أجل هذا يجب القيام بمجهودات هائلة وبتضحيات جلى من أجل جعل السلام حالة طبيعية » . ثم يقول : « لقد كرست هذا الكتاب للاجيال المقبلة التي ستقدر مشاريعي من اجل السلام وكذلك ايضا لجيلنا الحالي الذي يمكن ان يستفيد منها ليحمي نفسه من خطر الحرب . انني اقدم هذا الكتاب الى المفكرين والمثقفين الذين يدركون مثلي أن الفكر السليم هو اقوى من السلاح » .

ان هذا العرض السريع لاهم محتويات الكتاب قد أظهر ولا شك أنه عبارة عن دراسة اكاديمية قانونية تريد أن تكون فوق الايديولوجيات وفوق الصراعات السياسية ولكنها في الحقيقة تعبر عن ايديولوجية مثالية تدعي العلمية والموضوعية وهي في حقيقتها ايديولوجية بعض الاوساط الحقوقية المتأثرة بالولايات المتحدة الاميركية والمؤمنة بأنها كانت في يوم من الايام دولة مسالمة متنزهة عن كل مصلحة مادية وتريد اقامة مجتمع عالمي قائم على اساس العدالة والحق والمساواة . والملاحظة التي يمكن ان توجه الى هذا النوع من الدراسات هي أنه ليس المهم اعطاء مشاريع عقلانية مثالية من اجل احلال السلام بقدر ما ينبغي الالتصاق بالواقع — الذي هو في الحقيقة العقلانية الوحيدة المقبولة — ودراسة ما اذا كانت هذه المشاريع قابلة للتحقيق . ان مشاريع السلام كثيرة وادراج الحكومات والمنظمات العالمية تكاد تمتلىء بها ، الا أنها لا يمكن أن تترجم الى واقع محسوس الا اذا تحول ميزان القوى في العالم الى صالح قوى التحرر . ان الافكار لا يمكن ان تقود العالم وتسيره مهما كانت هذه الافكار سديدة وصائبة ومعقولة . وحده الصراع والتناقض يقود العالم. ان مشروع السيد رافت شنبور من اجل احلال سلام عادل يعبر ولا شك عن انسانية معذبة في داخله تتوق الى السلام والى عالم أفضل . الا ان طريق العالم الافضل — عالم السلام — لا تحدده وتخلقه الافكار المثالية بل تطور الصراع لصالح قوى التقدم والتحرر . ذلك ان قوى الاستغلال لا يمكن ان تتخلى سلميا عن مصالحها وعن استغلالها لمجرد خدمة الانسانية المعذبة . ان ما يهمها هو « انسانيتها » هي لا الانسانية كما يفهمها ويريدها السيد شنبور . ولعل سوء الفهم أو الخطأ الكبير في هذا الكتاب يكمن هنا اذ في حين ان المؤلف يؤمن بالانسانية وبمبادىء الحق والعدالة والاخاء فاننا نجد ان الواقع هو عكس ذلك تماما . فهذه المبادىء والشعارات لا تمت الى العالم السياسي الواقعي بصلة بل هي مجرد عموميات فلسفية ولاهوتية تعبر عن مواقف مثالية مسبقة .

ان كتاب السيد شنبور يجوز ان يسمى كتاب قانون دولي او فلسفة سياسية او فكر سياسي ولكنه على كل حال ، وبكل تأكيد ، ليس كتابا سياسيا .

ماجد نعمة

فلاديمير ب. لوتسكي ، **تاريخ الاقطار العربية الحديث** ، (اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي) ، ترجمة د. عفيفة البستاني (موسكو ، دار التقدم ، ١٩٧١).

يعتبر كتاب المؤرخ المستشرق لوتسكي (١٩٠٦ — ١٩٦٢) من المؤلفات الهامة القليلة التي تتناول التأريخ الحديث للاقطار العربية (مصر ، فلسطين، سوريا ، العراق ، الجزيرة العربية ، السودان واقطار شمال افريقيا) على « نطاق تاريخي واسع » ، مستعرضا الحوادث الرئيسية في التاريخ العربي السياسي ، ولاشتماله على عرض لاستعمار الاقطار العربية ، حيث يعير « اهتمام كبير لتأريخ قضايا العرب الداخلية والاصلاحات ونشوء الشعور الوطني وكذلك حركة التحرر الوطنية » . وتأتي اهمية الكتاب من ناحيتين رئيسيتين ، فهو كما اوردت مقدمته ، « اول تجربة في الادب الروسي والسوفياتي تستعرض بصورة منتظمة تاريخ العرب في العصر الحديث » . وهو من ناحية ثانية ، يقدم مساهمة جدية تستدعيها ضرورات اعادة كتابة التاريخ العربي بأفق علمي ، وهو وان كان لا يسد هذه الحاجة ولا يكنيها ، الا انه يؤكد ضرورة طرحها كمهمة ، في المدى الراهن والمستقبل القريب ، على عاتق المثقفين الثوريين العرب .

من مقدمة الكتاب نعلم ان لوتسكي نهض بمهمة تدوين التاريخ العربي منذ الثلاثينات (١٩٣٦) . وقد قدمها في سلسلة محاضراته الجامعية التي ألقاها في معهد موسكو للدراسات الشرقية وفي جامعة موسكو وغيرهما من معاهد الدراسات العالية السوفييتية . وكان اول من قدم مثل هذه المادة « كفرع مستقل قائم بذاته » ونشر قسم من هذه المحاضرات كفصول متفرقة في كتاب « التاريخ الحديث للاقطار المستعمرة والتابعة » وقد اخذت مادة هذا المؤلف من سلسلة لمحاضرات ألقاها لوتسكي فيجامعة موسكو فيما بين ١٩٤٩ — ١٩٥٣، كما جمعت من مسوداته واوراقه الخاصة ومن مدونات الطلبة المخطوطة ، لذا جاءت مشوبة بالنقص ومتضمنة على فجوات عديدة بصدد بعض الاقطار العربية ، وقد سدت هذه الفجوات من مساهمات كتاب آخرين (لاندا ، سميلانسكايا ولازاريف) . وقام بتحريره ايفانوف ، كما اشرف على طباعته بصيغته النهائية . اي ان هذا الكتاب جاء حصيلة اسهام طويل من المؤرخ لوتسكي وجهود كتاب آخرين ، وتضمن سبعة وعشرين فصلا ، بالاضافة الى مقدمة ايفانوف ، وتثبيته بأسماء الاعلام والمواقع الجغرافية وثلاث خرائط تاريخية . ويربو عدد صفحاته على الخمسمائة صفحة .

ان كل ما يتصل بأوضاع فلسطين في الحقبة التاريخية التي يتصدى لها لوتسكي (القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) موزع في انحاء الكتاب ، متسلسلة على فترات تاريخية وعلى صلة بما يقع في هذا القطر او ذاك من الاقطار العربية المجاورة . وقد عمد المؤلف الى تقديم لوحة اقتصادية واجتماعية وسياسية لمجمل التطورات التاريخية منذ بداية الفتح العثماني كانت بمثابة الخلفية التاريخية الشاملة للحقبة المعاصرة من تاريخنا . فيلاحظ انه منذ مستهل القرن السادس عشر وخلال مدة تتجاوز المئة عام بقليل (١٥١٤ — ١٦٣٨) خضعت جميع الاراضي العربية تقريبا للسيطرة العثمانية وشكلت جزءا شاسعا منها (باستثناء مراكش واواسط الجزيرة العربية وعمان) . وهو يرى ان الذي استهوى الفاتحين في الاقطار العربية هو « فرض الاستغلال الاقطاعي على الجماهير الشعبية العربية ، ثم موقع البلدان العربية الملائم على طرق التجارة العالمية ». ويشير وهو يستعرض الاوضاع الاجتماعية في الاقطار العربية ان العثمانيين ابقوا على الاوضاع الاجتماعية السابقة لدى الشعوب العربية منذ فتحهم للبلاد ، حيث بقيت الارض والسلطة كالسابق في أيدي الاقطاعيين المحليين . ويلقي لوتسكي بعض الضوء على اشكال ملكية الارض وطبيعتها . اما بالنسبة للتجارة ، فان الكاتب يلاحظ ان الحكم العثماني صادف فترة انتعاش في التجارة العالمية الناشئة عن تقدم الصناعة الاوروبية ، التي وجدت بدورها في الامبراطورية سوقا واسعة لها. ويلاحظ لوتسكي ضعف تطور التجارة الداخلية ، كما هو الحال بالنسبة للصناعة ايضا ، فقد كانت الصناعات ذات طابع حرفي مبنية على العمل اليدوي والتنظيم الطائفي. كما لم يكن هناك حد فاصل بين الاعمال الحرفية والزراعة . ويشير لوتسكي الى ان « التركيب الاجتماعي للمدن العربية يدل على ان نسبة كبيرة

من السكان لم تكن منتجة » . كما يرى ان « النظام الاقطاعي العثماني قد أعاق تطور المدن العربية ». وفي أواخر القرن السابع عشر دخلت الامبراطورية أزمة خطيرة جدا فقد تدهور الاقتصاد ودب الفساد في أجهزة الدولة وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية ، وانحطت الثقافة . ويقول لوتسكي ان هذه الازمة الداخلية « كانت نذيرا بالتدهور الذي أخذ يدب في كافة انحائها منذ القرن الثامن عشر » . فقد أفضت الانفصالية الاقطاعية والنزاعات الى انحلال الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، التي لم يكن نشؤها نتيجة للتطور الاقتصادي ، وانما كنتيجة للاحتياجات العسكرية للنظام الاقطاعي العثماني في مجرى حروب استهدفت السلب والنهب . وهو يلاحظ ان نشوءها كان كسائر دول اوروبا الشرقية ذوات القوميات المتعددة في اطار التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية قبل تكون الامم فيها وقبل القضاء على التفتت الاقطاعي ، لهذا فان توحيد الشعوب المختلفة والتي لها مستويات حضارية متباينة بصورة مفتعلة في دولة واسعة ، محاولة ليس من شأنها ان تعيش طويلا . وهكذا فقد اودت التناقضات بين التركيبة الاقطاعية للمجتمع بميوله المتنافرة والشكل المركزي للحكم الى اضعاف الامبراطورية ، وقد ادى هذا الاستعباد التركي الاقطاعي الى قيام العديد من الانتفاضات الشعبية ضد الامبراطورية وهي الانتفاضات التي كانت تجليا للتناقض الطبقي الاساسي بين الاقطاعيين والفلاحين، وكما كانت ، من جهة اخرى ، انعكاسا للتناقض القومي بين المستعبدين والشعوب المستعبدة . ويقسم لوتسكي هذه الانتفاضات الى نوعين : حركات شعبية موجهة ضد الاقطاع في تركيا نفسها وتلاقي بنفس الوقت سندا لها من قبل الشعوب المضطهدة ، وقد اصطبغت هذه الحركات بصبغة طبقية في معظم الاحيان ، ومن جهة اخرى ، حركات الشعوب المضطهدة الخاضعة للحكم العثماني ولها طابع الحركات التحررية الوطنية . ويرى لوتسكي ان هذه الانتفاضات المتعددة والنزاعات الاقطاعية قد أفضت الى اضعاف الامبراطورية فسادت الفوضى في أرجاء ممتلكات الباب العالي ، وهزت هذه الحركات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية العربية واليونانية والكردية والارمنية والسلافية الاركان المتداعية من الامبراطورية وعجلت بانهيارها. ويشرع لوتسكي بدءا من الفصل الثاني بتناول تاريخ كل قطر عربي على حدة خلال فترة محددة ، او هو يتناول مجموعة البلدان التي تشكل وضعا جغرافيا متجاورا ، كالشرق العربي ، او سورية الطبيعية او الجزيرة العربية .. الخ . ونجد تاريخ فلسطين خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين موزع على فصول أربعة هي : الفصل الرابع ، الثامن ، التاسع ، والرابع والعشرون، ويعود لوتسكي ليتناول فلسطين مع بقية الاقطار العربية بشكل عام في الفصل الختامي لفترة الحرب العالمية الاولى .

وبصدد حملة نابليون على سورية وفلسطين ، يرى لوتسكي ان الاطماع الفرنسية بالمنطقة كانت ضمن برامج وحسابات نابليون البعيدة المدى ، بحكم وقوع المنطقة في شبكة المطامع السياسية الدولية ، فقام نابليون بحملته الشهيرة على سورية (١٧٩٩) ، الا أن تقديراته كانت خاطئة ولم تستطع جيوشه ان تترك آثارا عميقة في سورية ولم يستطع الفرنسيون تجاوز عكا . وكانوا قد احتلوا فلسطين فقط فاكتفوا بسواحلها وبسهل مرج ابن عامر واستقاموا فيها لثلاثة اشهر فقط ، غادروا بعدها البلاد . ويلاحظ لوتسكي ، كيف ان احمد باشا الجزار والي عكا قد استعاد سطوته وامتدت ، بما عزاه لنفسه من شرف الانتصار على نابليون ، وكيف سعى الى وضع سورية برمتها تحت سلطته. ويلاحظ ايضا ان وفاة الجزار ١٨٠٤ كان من شأنها ان تزيد الفوضى الاقطاعية في البلاد ، لانحلال قبضته الحديدية ، غير ان سليمان باشا قائد جيش الجزار في عكا استطاع بعد نزاعات استمرت أشهرا أن يحكم جنوب سورية مدة خمس عشرة سنة (١٨٠٤ — ١٨١٩) . وقد شهدت فترة حكم سليمان باشا لاضطرابات وحروب الباشاوات ضد الوهابيين ، وكذلك ضد الباشاوات المجاورين من عكا وطرابلس وحلب ، كما استولى ، من جهة أخرى ، على السلطة في يافا شخص يدعى محمد آغا كانت الجماهير تلقبه بأبي النبوت .

ويتحدث لوتسكي عن تذمر الجماهير في سورية وفلسطين في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، من أعمال السلطان التركي محمود الثاني والتي اتصفت بالاصلاحية ، حيث اتهم بالارتداد والخيانة من الجماهير المتدينة ، وقد زاد من نقمة الجماهير وسخطها وقوع عبء نفقات تنفيذ الاصلاحات على عاتق الحرفيين وصغار التجار بشكل خاص ،

فانخفضت الاجور وارتفعت الضرائب ، فوصم ايديولوجيو الحرفيين (الشيوخ) السلطان بالعار والترف والفساد ودعوا الى التمسك بآداب التقشف والاحتفاظ بالفضائل القديمة وبأدوات الانتاج القديمة . كما حدثت عام ١٨٢٥ انتفاضات في القدس وبيت لحم ونابلس ، اذ رفض السكان دفع الضرائب . واندلعت عام ١٨٣٠ انتفاضة اخرى في نابلس ، وقد سهلت هذه التمردات والانتفاضات العفوية ، مضافا اليها السخط السائد ، عمل قوات محمد علي التي اقتحمت حدود سورية وفلسطين عام ١٨٣١ بترحيب من السكان . يلاحظ لوتسكي ان سورية وفلسطين كانت محط مطامح محمد علي « اذ لم يكن من المستطاع تحقيق خططه لتشكيل دولة عربية كبيرة دون حيازته على هذين البلدين اللذين صانا مصر من الهجوم من الشرق ووقفا كحاجز ضد الخطر التركي » . وقد اتخذ محمد علي كذريعة لتحقيق مطامحه ، هرب ستة آلاف فلاح مصري من التجنيد ، ولجوءهم الى حماية والي عكا ، فبدأ محمد علي عملياته الحربية ضد والي عكا فقط وجهز حملته التي كانت اعلانا عن تمرده على السلطان العثماني ، فقد أدت هذه الحملة الى نشوب حرب تركية مصرية كبيرة انتهت بابرام معاهدة صلح كان من نتائجها ان عين محمد علي حاكما على فلسطين وسورية وكيليكيا . ويتطرق لوتسكي الى اصلاحات ابراهيم (ابن محمد علي) في سورية وفلسطين ، فيرى ان ابراهيم قد سعى في فلسطين ، كما في سورية ، الى القضاء على الاتفصالية الاقطاعية والى تحديد الحقوق السياسية التي يتمتع بها الولاة الاقطاعيون المنفردون ، واستعاض عن السادة الاقطاعيين غير المطيعين الى السلطة المركزية بآخرين يخضعون له كلية . وهكذا اعتمد ابراهيم في كفاحه ضد الاقطاعيين العصاة في منطقة نابلس على شيوخ عبد الهادي وخاض بمساعدتهم نضاله ضد الشيوخ الاخرين . وقام ابراهيم باصلاحات ادارية وقضائية وتعليمية هامة .

ويتحدث لوتسكي عن الاستياء والانتفاضات التي قامت في وجه ابراهيم في فلسطين وسورية فيلاحظ ان على الرغم « ان اصلاحات ابراهيم كانت قد ضمنت نمو القوى المنتجة بدرجة ما وحسنت وضع التجار والحرفيين والفلاحين الا انها اثارت استياء خطيرا في سورية » . ففي فلسطين قامت أول انتفاضة فلاحية كبيرة ضد التجنيد شملت فلسطين كلها تقريبا وكان ذلك عام ١٨٣٤ . وقد ابيدت الحملة المصرية التي أرسلت لتنكل بالفلاحين ، وحاصر الثوار ابراهيم نفسه في القدس وجاءت لمعونته امدادات عسكرية مصرية كان على رأسها محمد علي لقمع الانتفاضة . وقد تتابعت على اثر ذلك الانتفاضات في سورية ولبنان وظهرت خلافات جديدة بين محمد علي والباب العالي مهدت لتدخل الدول الكبرى وظهور ما يسمى بـ « المسألة الشرقية » ، اذ انفتح الباب على مصراعيه امام الدول الكبرى وخاصة الانجليز ، وازداد تغلغل الرأسمال الاجنبي ، وهكذا اعتبر هذا العهد فاتحة للاستعمار الاوروبي للبلدان العربية وعهد تبعيتها اقتصاديا .

ويرى لوتسكي ان نشاط الارساليات الدينية كان طريقا آخر من طرق التغلغل الاجنبي في الشرق العربي ، حيث فتح المبشرون المدارس والمؤسسات في سوريه وفلسطين . وكانت هذه المؤسسات تدار من قبل الفاتيكان وتحظى باسناد فعال من قبل فرنسا . وفي عام ١٨٤٦ بعث البابا نظام بطريكية القدس اللاتينية الذي كان قائما في وقت من الاوقات في عهد الصليبيين . وفي عام ١٨٤٩ أنشأت روسيا في القدس ارسالية دينية روسية لتعزيز نفوذها بين السكان الارثوذكس من شبه جزيرة البلقان . اما انكلترا فقد أقدمت على مخاطرتين في آن واحد . اذ ساندت البروتستانت وخطط المستعمرين الالمان في فلسطين ، وانشأت في القدس اسقفية انكليزية — بروسية (١٨٤١) . ومن جهة اخرى شجعت خطط الاستعمار اليهودي وبدأت تلهم مختلف انواع المشاريع الصهيونية . ويقول لوتسكي « وفي منتصف القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود ضئيلا جدا في فلسطين ، ولا يكاد يبلغ ١١ ألف نسمة . وكان الكثيرون منهم زوارا نزحوا الى هناك لاغراض دينية . وفيما يتعلق بالازمة الشرقية (١٨٣٩ — ١٨٤١) فان الانجليز اخرجوا من محفوظاتهم خطط نابليون بشأن انشاء دولة يهودية في فلسطين . وفي عام ١٨٣٨ قدم اللورد شافتسبري ، وبعده القنصل البريطاني في القدس جيمس فن ، جملة من المشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها تحت الحماية البريطانية . فحظيت هذه الخطط بعطف من قبل بالمرستون ، الذي رأى فيها ضمانا لامن مواصلات الامبراطورية ، كما لقيت سندا من قبل مونتفيوري ، الصيرفي اليهودي — الانجليزي الذي يمت بصلة قربى الى اسرة

روتشيلد . وقد قام مونتفيوري بزيارة الشرق بضع مرات وانه ابتاع عام ١٨٥٥ بستان برتقال بالقرب من يافا ، الا أنه لم يستطع استمالة أي مستوطن يهودي .. » ويلاحظ ان هذا المشروع من اقدم المحاولات الحديثة للتوطين اليهودي في فلسطين .

واخيرا يتحدث لوتسكي في الفصل الختامي عن الحرب العالمية الاولى ، كحرب امبريالية تستهدف اعادة اقتسام العالم ومناطق النفوذ وكيف استخدم الطرفان المتحاربان الاراضي العربية ومواردها والمواصلات ، كما وضعت الطاقة البشرية في غير مصلحة الشعوب العربية التي هي بدورها معادية الطرفين المتحاربين . كما يتناول تفاصيل عن المفاوضات السرية لاقتسام البلدان العربية ودور روسيا القيصرية فيها . وبصدد فلسطين يتحدث لوتسكي عن العمليات العسكرية التي قامت بها القوات البريطانية على اراضيها ضد الاتراك ، وحول وعد بلفور والمطامح الصهيونية في البلاد ، يلاحظ لوتسكي ان رغم المساندة البريطانية، «ورغم حياد السلطات التركية العطوفة » ورغم التبرعات السخية والاعتمادات المالية الصهيونية المختلفة لم يحصل الصهاينة في غضون الثلاثين عاما التي سبقت الحرب العالمية الاولى على اية نتائج ملموسة ويقول « ولم يكن في فلسطين في عشية الحرب الا ٤٣ قرية يهودية بلغ عدد سكانها ١٣ الف معمر ، وخلال الاعوام ١٨٨٢ — ١٩١٤ ، دخل البلاد حوالي ٤٥ الف مهاجر ، وفي عام ١٩١٤ لم يكد يبلغ سكان فلسطين اليهود ٩٠ الف شخص». ويلاحظ لوتسكي الترابط المصلحي بين المستعمرين الانجليز والصهيونية في انشاء وطن قومي لليهود ، كما يشير الى سخط الشعوب العربية على بريطانيا على اثر نشر وعد بلفور ، وعلى اثر نشر حكومة روسيا السوفييتية للمعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها اتفاقية سايكس — بيكو .

ملاحظات ختامية : على الرغم من ان كتاب لوتسكي هو من الكتب القليلة النادرة التي تصدت لكتابة تاريخنا العربي الحديث بروح التحليل العلمي ، الا ان الكتاب لم يحافظ على هذا النهج كلية ، فهو يهبط احيانا الى مستوى السرد التاريخي المحض . ولعل من المهم ان ننوه بالفصل الثالث المتعلق بمصر تحت حكم محمد علي ، الذي هو من اجمل الفصول واكثرها جذالة وخصوبة . وكذلك الفصل الاول الذي اعطى خلفية شاملة لاوضاع الوطن العربي عشية الاحتلال العثماني واثناءه .

وثمة عيب آخر يشمل الكتاب عموما هو خلوه من الاسناد والمراجع والمصادر التي اعتمدها في المادة التاريخية . وربما كان صدور الكتاب وتحريره بعد وفاة مؤلفه هو المسؤول عن هذا النقص .

واخيرا ، ان صدور كتاب لوتسكي الهام يدفعنا الى الاشارة الى ظهور عدد من الدراسات التاريخية الماركسية حول تاريخ المنطقة ، في وقت نحن احوج ما نكون لفهم طبيعة تطورات منطقتنا العربية ، كما هو الحال مع كتاب الباحث التركي ديفيتسيوغلو « النموذج الاقتصادي للعهد العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر » ودراسة دومينيك شيفاليه « اسباب الاضطرابات الفلاحية في كسروان عام ١٨٥٨ » وكتابات فؤاد قازان حول « الاقطاعية ومراحل تطورها في عهد دولة المماليك » ودراسة الباحثة الروسية سيمليانسكايا حول الحركة المناوئة للاقطاع في لبنان خلال القرن التاسع عشر . ولا يفوتنا ان نشير ان للوتسكي نفسه مقالة هامة عن فلسطين نشرت في مجلة « مشاكل زراعية » السوفييتية (الجزء الرابع ، المجلد ٤/٣ سنة ١٩٣٣) تحت عنوان « الامبريالية الانجليزية وثورة تشرين الاول في فلسطين » . وقد ترجمها رياض يونس ونشرتها مجلة « دراسات عربية » ضمن كتاب خاص صدر في تموز ١٩٧١ باسم « المقاومة الفلسطينية : الواقع والتوقعات » . ان حدود هذه الدراسات العميقة والمشبعة بالروح العلمية تحفزنا هنا الى مطالبة دور النشر العربية وبوجه خاص مركز الابحاث الفلسطيني الى ايلاء المؤلفات التاريخية المتصلة بالمنطقة العربية وفلسطين اهمية خاصة . ففي مقدمة ايفانوف لكتاب لوتسكي اشارات متعددة الى بعض الكتب التي صدرت بالروسية او بلغات سوفييتية تتصل بتاريخ فلسطين والمنطقة ، وهي الكتب التي يمكن ان تكون حافزا لتعاون مثمر بين مركز الابحاث ودور النشر السوفييتية لايصال هذه المؤلفات الى العربية .

هاني حوراني

Walter Zander, Israel and the Holy Places of Christendom. (Weidenfeld and Nicholson, London, 1972).

الدعاية والاعلام والابحاث العلمية كلمات ثلاث لبضاعة واحدة تباع لزبائن مختلفين . ومن يريد الحصول على فكرة عن هذا التطابق يستطيع ان يجد بغيته في الكتاب الذي نحن بصدده ، بل واكثر من ذلك . من يريد من الاعلاميين العرب تلقي بضعة دروس في اسرار مهنته يستطيع هو ايضا ان يجد دروسه في هذا الكتاب . ولو قدر لي ان اترجمه فلن اتردد في اضافة عنوان فرعي له « كيف تصبح رجل اعلام في سبعة ايام » .

مؤلف هذا الكتاب المفيد ولتر زاندر ، يهودي هرب الى انكلترا من الاضطهاد النازي وكرس حياته للكتابة هنا . وتناولت كتاباته احوال اليهود في الاتحاد السوفيتي والنزاع العربي الاسرائيلي . وبعد ان وقعت الاماكن المقدسة تحت الحكم الاسرائيلي ، وجه انظاره اليها . وكتابه هذا « اسرائيل والاماكن المقدسة المسيحية » هو حصيلة ذلك البحث .

السر في اعتباري هذا الكتاب درة من درر الاعلام هو الطريقة التي استدرجني فيها المؤلف بحيث لم افق الى حقيقة النقد الذي دفعه لي حتى النصف الثاني من الكتاب . وفيه يستعرض زاندر قصة المسيحية وكنائسها في الديار المقدسة منذ اول نشأتها ويعرج الى دخولها تحت حكم العرب ويثبت في متون الكتاب عهد عمر بن الخطاب الى المسيحيين مع بعض الحذوفات منه ، ومن ذلك تعهد المسلمين للمسيحيين بعدم السماح لليهود بدخول القدس . ويثني زاندر على رعاية المسلمين، العرب والاتراك، للاماكن المسيحية ويشير في الاخير الى وقوعها تحت الحكم الاردني الهاشمي وكيف دحضت الحكومة الاردنية مخاوف العالم ازاء مصير الكنائس فاثبتت هي الاخرى قابليتها على رعايتها وحرصها على ازدهارها . كلام معقول يزيد من عدالته استشهاد المؤلف بشتى الوثائق والحجج في تأييده . ثم يخلص الى النتيجة التالية : ان كل حكومة حكمت فلسطين وجدت من صالحها وواجبها رعاية الكنائس المسيحية . واذا كان المسلمون قد اضطلعوا بالمهمة ، فلم لا يستطيع اليهود الاسرائيليون القيام بنفس الشيء ؟ ويعود زاندر الى انصافه فيعترف بأن أمام اسرائيل عقبات جسيمة في ادارتها لكنائس فلسطين ، من ذلك انه لم يسبق لليهود قط ان تولوا مسؤولية كنيسة مسيحية ليتمتعوا بخبرة وتقاليد كافية . ومن ذلك ايضا ان اليهود لا يؤمنون بقدسية المسيح والسيدة العذراء كما يفعل المسلمون لينظروا الى الموضوع بشيء من الورع الروحي . واخيرا لا يوجد بين اليهود مسيحيون كما يوجد بين العرب ليتولوا المسؤولية وينيروا الطريق للحكومة . ومع ذلك ، يقول المؤلف ، ان البداية التي بدأت بها اسرائيل هي بداية موفقة تبشر بالخير بالنسبة لهذه الكنائس .

ويتناول زاندر الشهور الاولى من الادارة الاسرائيلية فيورد لنا نص التعليمات التي اصدرتها الشرطة الاسرائيلية الى المواطنين في ضرورةاحترام قدسية هذه الاماكن ... الخ . وهذه من الهفوات الاعلامية القليلة في الكتاب . فحيثما احتاج شعب الى اوامر من الشرطة بالاحترام ، اقرأ على الشعب والاحترام السلام . والحقيقة ان حوادث الاعتداء على حرمة الكنائس لم تعد خافية على احد واضطر زاندر الى الاشارة الى بعض منها فذكر احتجاج السلطة الكنسية السوفيتية على الاعتداءات المختلفة التي تعرضت لها كنائسها في فلسطين المحتلة . وعلق الكاتب على المذكرة الشديدة بقوله ان الحوادث كانت طفيفة ومن عمل الغوغاء والاولاد . واشار ايضا الى سرقة التاج الذهبي من رأس السيدة العذراء فأعرب عن اعجابه بالشرطة الاسرائيلية التي استطاعت ان تلقي القبض على السارق الاسرائيلي الذي لم يستطع مقاومة الذهب حتى عندما يكون على رأس مريم العذراء . وعلى كل ، يقول المؤلف ، ما اكثر ما حدث مثل هذه الحوادث في التاريخ . لم نلوم الحكم الاسرائيلي على حرق المسجد الاقصى ؟ ألم تشب النار في كنيسة القيامة عام ١٨٠٨ ؟ ولم نلوم شابا اسرائيليا على سرقة تاج السيدة العذراء ، ألم ينهب راهب مسيحي النجمة الفضية من كنيسة بيت لحم اثناء معركة بين الارثوذكس واللاتين ؟ ونحن هنا طبعا امام ركن من الاعلام الصهيوني يقوم على تجسيم عيوب الآخرين وتسويد وجه البشرية الى الحد الذي تصبح فيه الشمطاء الاسرائيلية بدر الدجى .

ومن هذا الركن ايضا يتوصل زاندر الى رأيه القائل بان الخطر الذي احاط ويحيط الكنائس الفلسطينية هو ليس فيمن يحكمها وانما فيمن يتبعها ، ليس في المسلمين او اليهود وانما في المسيحيين انفسهم . ويريد بذلك النزاع الطويل بين اللاتين والارثوذكس. ويستشهد هنا بوقائع مختلفة عن توقف اصلاح هذه الكنائس او ترميمها او تطويرها او تزويقها بسبب هذا النزاع . ويذهب الى اكثر من ذلك فيروي كيف تحولت مذابح هذه الكنائس الى مذابح حقيقية اقتتل فيها الرهبان والقسس بالشموع والشمعدانات بل وبالصلبان ايضا . ويعطي المؤلف جزءا كبيرا من كتابه لتاريخ هذا النزاع ويزودنا فيه بثروة نادرة من المعلومات والوثائق ولكن دون ان يلمس في سرده الوتر النابض لهذا الخلاف . سبب النزاع عند ولتر زاندر مرجعه اختلاف في المدرسة الفلسفية لليونان وايطاليا . وهو سبب يتطلب سببا . النزاع للسيطرة على شرقي البحر المتوسط والطريق الى اسيا وغير ذلك من الاعتبارات الاقتصادية السياسية امور لم تخطر على بال المؤلف مع الاسف . ويستطرد زاندر في ذكر المحاولات المختلفة التي جرت للتوفيق بين الطرفين وتوحيد الكنيسة المسيحية ويفرد صحائف طويلة للوثائق المتعلقة بالموضوع وينتهي بالاشادة بمحاولة البابا حاليا لتحقيق هذا التفاهم . وهكذا وبهذه السهولة تصبح مشكلة الاماكن المقدسة مشكلة تتعلق بتوحيد الكنيسة المسيحية ولا علاقة لاسرائيل او حكمها بالموضوع .

وبعد ان يستميح القارىء عذرا في تركه جانبا مسألة التوسع الاسرائيلي وضم المنطقة الى اسرائيل ، يخلص الى البديل المقترح للحكم الاسرائيلي ، الا وهو وضع الاماكن المقدسة تحت ادارة دولية (المشروع الذي يلح عليه الفاتيكان). ويعمد زاندر الى رد فكرة التدويل لعدة اسباب منها سبب لا جدال في طرافته . هيئة الامم المتحدة ليست اهلا للتصرف بالاماكن المقدسة المسيحية لان اكثر اعضائها غير مسيحيين . ولكنها كانت اهلا لهذا التصرف عندما قسمت فلسطين في ١٩٤٨ لان اكثر اعضائها كانوا مسيحيين عندئذ . وطبعا وبالتبعية يمكننا ان نقول انها لا ولن تصبح اهلا للتصرف في القدس لان اكثر اعضائها لن يكونوا من اليهود . ولم كل هذه الضوضاء ، يقول المؤلف . فلسطين لا تعني كثيرا للمسيحيين . الم يقل القديس غريغوري ان الله يوم القيامة لن يسأل عباده ما اذا كانوا قد حجوا الى القدس ام لا ؟ الحج ركن من الاسلام واليهودية ولكنه ليس كذلك بالنسبة للمسيحية . وعندما غزا نابليون فلسطين توجه الى عكا وترك القدس وراءه . ولكن ولتر زاندر ليس كاتبا اعلاميا عربيا ليكتفي بهذا الجانب ويسدل الستار على الجانب الاخر فمضى ليستشهد بالقديس جيروم الذي قضى الثلاثين سنة الاخيرة من حياته في الديار المقدسة مؤمنا بان الوقوف حيث وقف المسيح جزء من العبادة .

ومن الافكار الغريبة التي يسوقها زاندر اعتقاده بان موسكو ستصبح في المستقبل روما الثالثة بالنسبة للكنيسة ويستشهد بالاهتمام الذي يوليه الاتحاد السوفيتي للكنائس والممتلكات الدينية الروسية الموجودة في الاراضي المقدسة في الايام الاخيرة . ومن يدري ، أفليست هذه ارض المعجزات ؟ ام هي يا ترى نقطة اعلامية اخرى تعذر علي فهمها ؟

وينتهي الكتاب بستة ملاحق لمذكرات ونصوص مختلفة تتعلق بالاماكن المقدسة المسيحية ومكانتها بين المسيحيين والنزاع حولها ومن ذلك الفرمان العثماني لعام ١٨٥٢ وقرارات حكومة الانتداب — كل هذا بالاضافة الى الاقتباسات الطويلة التي يوردها المؤلف في صلب الكتاب الى حد مميل احيانا ومشوش احيانا اخرى . ويصبح هذا المنحى مضيعة بالفعل عندما يكون الاقتباس من احد الملاحق المثبتة في اخر الكتاب على اي حال . ولكن هذه العيوب قد تبدو ابشع من حقيقتها بالنسبة للناقد الذي يراكض عقارب الساعة ، في حين سيجد الباحثون في الموضوع والمتفرغون له طعاما سمينا في المعلومات القيمة التي يسوقها المستر زاندر في عرض كلامه . والاكثر من ذلك ان مثل هؤلاء القراء هم الجمهور الذي فكر فيه عند كتابته كتابه . براعة زاندر الاعلامية تتجلى في استعماله وتسخيره للمعلومات والنصوص للوصول الى نتيجته المرسومة مقدما . ومن ابرع استعمالاته الاعتماد على النصوص العربية وتصريحات الحكومة الاردنية ومذكراتها في الرد على التدخل الدولي في مصير الاماكن المقدسة وتثبيت اهلية الحاكم الفعلي في التصرف والادارة . الحاكم الفعلي كان الملك عبد الله . الحاكم الفعلي الان غولدا مئير . ويحك ايها التاريخ ، ما افظعك .

خالد القشطيني

أحمد الشقيري ، من القمة الى الهزيمة ، (دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١) .

الكتاب يؤرخ لجانب من التاريخ الفلسطيني والعربي المعاصر بقلم رجل شارك ، مهما كان حجم المشاركة والاراء المختلفة فيها ، في صنع احداث هذا الجانب من التاريخ . ومع ادراكنا ان الكتاب ، لانه في صيغه مذكرات ، جاء ذاتي النظرة يتناول الاحداث من حيث علاقتها بالذات التي تدونها ، فأن قيمته تنبع من ان احمد الشقيري في كتابه هذا دون سجلا دقيقا [هل نقول يوميا ؟] للاحداث التي سبقت بقليل ورافقت نشوء منظمة التحرير الفلسطينية والاعتراف العربي بها خلال الفترة من اواخر عام ١٩٦٣ الى اواسط عام ١٩٦٥ . المذكرات تتحدث اذن عن بعث الكيان الفلسطيني ممثلا بـ م.ت.ف ، غير ان السؤال الذي يلح على قارىء المذكرات هو من بنى هذا الكيان ؟ فاذا كانت المنظمة قد « ولدت على فراش مؤتمر القمة العربية » فالى من هي تنتسب ؟ من ابواها ؟

ان مؤتمر القمة العربية لم يخول الشقيري اطلاقا انشاء كيان فلسطيني ، فقد قرر المؤتمر ان « يستمر السيد احمد الشقيري ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية في اتصالاته بالدول الاعضاء والشعب الفلسطيني بغية الوصول الى اقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره » (ص ٥٠) ، والشقيري نفسه يقول « كانت مهمتي في الواقع الاتصال والدرس ومن ثم تقديم تقرير الى مؤتمر القمة الثاني في شهر اغسطس ١٩٦٤ » (ص ٦١) ومؤتمر القمة الثاني لم ينعقد الا وكانت م.ت.ف. قد ظهرت الى الوجود في أيار (مايو) ١٩٦٤ . اما جامعة الدول العربية فهي لم تأخذ مرة مسألة الكيان الفلسطيني مأخذ الجد . وأول مرة ورد هذا الموضوع رسميا في الجامعة كان في اذار (مارس) ١٩٥٩ عندما اتخذ مجلسها قرارا « باعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وابراز كيانه شعبا موحدا » . اما كيفية ابرّاز هذا الكيان ، اختصاصاته ، محتواه ، شكله ، علاقاته فلم تبحث مرة . واذا كانت هذه هي المواقف الجماعية للدول العربية فأن موقف كل منها منفردة لم يختلف عما اسلفنا . فقراءة « المذكرات » تعطي انطباعا واحدا بأن ما من دولة عربية ، باستثناء واحدة كانت « متحمسة » لابراز الكيان الفلسطيني . والاستثناء الذي اشرنا اليه هو موقف مصر فقد « كانت ج.ع.م. راغبة في انشاء الكيان اليوم قبل الغد » . غير ان الشقيري وخلال الكتاب كله لا يشير الى سبب هذه الرغبة . حتى انه في اكثر من مكان يشككنا في هذه الرغبة : فبعد ان كلفه مؤتمر القمة الاول بالاتصال بالدول العربية والشعب الفلسطيني لتنظيم هذا الشعب « عدت الى منزلي وانا في حيرة من امري من موقف القاهرة من الكيان الفلسطيني ، فلم تلاق جولتي الطويلة المضنية في الوطن العربي اي صدى في صحفها واذاعاتها ولو حتى من ناحية اخبارية » (ص ٩٢) . وحتى قبل ذلك ، قبل ان يكلف من القمة العربية بهذه المهمة ، اي عندما اختارته الجامعة العربية ممثلا لفلسطين لديها (ايلول سبتمبر ١٩٦٣) والقى خطابا دعا فيه الى الكيان الفلسطيني « اهتمت الصحافة (بذلك الخطاب) خارج القاهرة اهتماما بالغا واهملته صحف القاهرة اهمالا ظاهرا » (ص ١٨) وكان تعليقه على ذلك « الاهمال » « سأمضي في الطريق (طريق انشاء الكيان) وليكن موقف القاهرة ما يكون ، فأن الزمن سيكشف كل شيء » (ص ١٩) .

مرة اخرى ، اذا كانت هذه هي مواقف الدول العربية من الكيان الفلسطيني فمن الذي بناه اذن؟ هل كان بعث الكيان حلما في بال الشقيري «استغل» وظيفته ممثلا لفلسطين في الجامعة العربية لتجسيده واقعا وكان قرار القمة العربية الآنف الذكر رخصته في ذلك ؟ الشقيري يقول ان « موضوع الكيان كان مثار اهتمام الرأي العام الفلسطيني والعربي لاربع سنوات مضت » (ص ٣٧) ، ولكن ما دور الشقيري نفسه في تحويل ذلك الاهتمام الى حقيقة مجسدة ؟ ان الصفحات الثلاثمائة التي يتألف منها الكتاب تشير بوضوح الى ان الشقيري راوده حلم الكيان الفلسطيني منذ وقت مبكر . وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٦٢ حاول تجسيد هذا الحلم عندما عرض على لجنة خبراء منبثقة عن جامعة الدول العربية وكان وقتها ممثلا للمملكة العربية السعودية « مشروعا للكيان الفلسطيني يقوم على اساس الدعوة لمجلس وطني يمثل التجمعات الفلسطينية ، تنبثق عنه جبهة وطنية لقيادة الشعب الفلسطيني ، تكون لها اختصاصات عسكرية وسياسية وتنظيمية

واعلامية ومالية ، وتحدد صلتها بالجامعة العربية» (ص ٥٩ ، ٦٠) وهو مشروع يكاد لا يختلف في خطوطه العريضة عن مشروع منظمة التحرير الفلسطينية . فهل نستطيع ان نحكم اذن ان هذا الرجل هو مهندس الكيان الفلسطيني وبانيه ؟ ان تأكيد هذا الحكم ، او نفيه ، يحتاج الى برهان غير « المذكرات » التي بين ايدينا . هذا صحيح باطلاق ولكن يظل صحيحا ايضا ان اية دراسة جادة لموضوع انشاء الكيان الفلسطيني وكيف تم ، لم تظهر بعد . وجميع تلك الادبيات واخص منها تلك التي اعتبرت انشاء منظمة التحرير الفلسطينية خطة قامت بها الدول العربية لتطويق العمل الفلسطيني المستقل واحتوائه [مع ملاحظة ان المنظمة قامت قبل اعلان بدء العمل الفدائي بأكثر من نصف سنة] جميع تلك الادبيات تفتقر الى أسلوب التوثيق التاريخي ، وتنطلق في مجملها من منطلقات تحليلية صرفة .

وكلمة اخيرة ، اني اعتبر هذه « المذكرات » دعوة لكل من عايش تلك الفترة واسهم بجهد في صنع احداثها ، الى ان يسهم في تأريخها . فهي واحدة من اخطر مراحل العمل الفلسطيني ، والعربي كذلك ، تحتاج الى جهد ، ربما جماعي ، لاستجلاء حقائقها . فهل يأخذ مركز الابحاث على عاتقه مهمة ان يكون بؤرة استقطاب لجهود تعد بمثل هذا الانجاز ؟

عصام سخنيني

الموت الكبير ــ شعر سميح القاسم
(دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٢)

مجموعة جديدة لشاعر من شعراء الارض المحتلة عرف بغزارة انتاجه ، وهو سميح القاسم الذي اعتاد القراء والنقاد ان يضعوه في الدرجة الثانية بعد محمود درويش ، حيث انتشر اسمهما سوية على اعقاب هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، وحيث عرفا معا بتلك الغنائية الغضة الدائبة البحث عن جديد في الرؤيا الشعرية ، وبتلك الروحية الشابة المتحركة النزاعة الى رسم حدود واضحة وتقاسيم بارزة لحركتهما الشعرية داخل الارض المحتلة ، ولحركة الشعر المقاوم بشكل عام . ولكن الاستقلال الشعري الواضح لكل منهما لم يمنعهما من هذه المجانسة ، حتى اليوم ، بالرغم من الفارق الكبير ــ من حيث التجربة الغنية للقصيدة ــ بينهما ، ففي الخطوة الاولى التي عرف فيها محمود درويش غنائيا شغافا ، بحرف سميح القاسم بغنائيته المباشرة الجارحة ، وفي الخطوات التالية التي ذهب فيها درويش الى الاعمق حيث الرؤيا الغنائية ، والدرامية داخل القصيدة ، ذهب القاسم هو الاخر حيث الخطابة الغنائية ، والدرامية خارج القصيدة، لا داخلها . ان الفاصل الغني بينهما كبير وعميق. ولعل ذلك يفسر خلو شعر محمود درويش من اية شكلية خارجية كتعدد الابطال ، او الحوار او الاصوات ، في حين التجأ سميح القاسم في معظم شعره وخاصة المتأخر منه الى المسرحية الشعرية، والى التشكيل الخارجي والاهتمام بتقديم الشخوص والحوار والاصوات . في « الموت الكبير » مجموعة سميح القاسم الاخيرة وهي مجموعة ضخمة قياسا لمجموعاته السابقة ، تجد التجاءات الشاعر هذه . فها هي مباشرة ، وحادة في مباشرتها أحيان كثيرة. ولقد تساءلها الشاعر ان تكون كذلك لتمثل ــ في رأيه ــ اسلوبا خاصا من اساليب الواقعية الثورية ولتكون قادرة على ان تصله بالجماهير صلة مباشرة وسريعة وحميمة . ولعل من ابرز مظاهر هذه المباشرة الغنائية استيحاء الشاعر المتصل من لغة الشارع ولهجة الناس البسطاء ، ليتمكن من خلق هاجس شعري وسيط ، فهو يستعمل لغة وسطا بين العامية والفصحى احيانا ، دون ان يتورط باخطاء واسفاف العامية ، او فخفخة

وكبرياء الفصحى ، وهو احيانا اخرى يضمن في قصائده مقاطع كاملة من الشعر الشعبي ، مثلا كان او اغنية ، وليس امر هذا التضمين بجديد على الشعر الفلسطيني عامة وشعر الارض المحتلة خاصة ، فلقد شاع فيه حتى اصبح خاصة من خواصه .

ان شواهد اللغة الوسطية كثيرة في المجموعة . ففي قصيدة « الدم الصهيل » يكتب الشاعر هذه المخاطبة :

يا رائحا للشام
سلم على الحبيب
وقل له يا زين
أنت له الطبيب !
...
يا راحلا لمصر
بس لي ترى الضريح
...
رح يا هوا مرسال
واخبط على الابواب
وخبر الاحباب :
دم المغني سال ! (ص ١٥)

وهذا الاستيحاء لا يقتصر على اللغة فحسب بل هو ينسحب على بناء هذه المقاطع حيث كتبت كما هو واضح بوزن غنائي معروف في الفولكلور الفلسطيني ، الذي اشتهر منه الموال والاهزوجة والترنيمات التي ترد عادة على لسان الاطفال ، أو على لسان الامهات :

يا قمر القميرة
يا رافع الغيمات
على السما بنديره
يا خاطف البنات (ص ٧٢)

أما ما يتصل بتضمين المقاطع العامية فيقتصر عادة على القصائد التي تتضمن قصة ، او شهادة واقعية ، كما في « خديجة تنتظر حبيبها العائد بالمهر » حيث تأتي التضمينة « منلوجا » يكشف عن الصوت الاخر للقصيدة ، او نغمة ذات دفق اعلى يرتفع بالقصيدة الى درجة من العاطفة ، جديدة ، كما في قصيدة « هبني قدرة الشهداء » :

لاني موقن الا مفر من الردى العالي
أطل على المشارف ضاحكا
وأقول موالي :
على ماله
أخذنا القرد يا دنيا
وراح المال يا دنيا
وظل القرد
على حاله (ص ٥٤)

او في قصيدة « طانيوس شاهين » حيث يخاطب الشاعر الارزة :

جدة الخضرة يا ارزة كوني
نعش اشباح القلاع
اشعلي النار على كل الجبال
واسمعي صوت مناديك
وهبي يا ضياع
لبنان يا لبنان
ما عاد بدها صبر
شعل معي النيران
عيشة بشر .. او قبر (ص ١٠٥)

ومن مظاهر تلك المباشرة الغنائية والواقعية الثورية ، البارزة اتساع اللغة الشعرية وطابعها السردي وخلوها من التركيز والايماء والاضاءة ، ولا اريد ان اسجل هنا خلافا مع الشاعر فمعرض الخلاف لا يحتمله مكان للتعريف والمراجعة كهذا المكان ، ولكني اقف في حدود ابراز المظاهر الشعرية ، بالرغم من انني مقتنع بان هذا الطابع السردي غير المركز هو الذي يقف وراء غزارة انتاج الشاعر ، وهو الذي يؤدي في رأيي الى هذا التشابه — لا الاتصال — بين قصائد الشاعر جميعها حتى لتعتبرها قصيدة واحدة طويلة كثيرة التكرار . فأنت لتقرأ احيانا في قصيدة واحدة اكثر القصائد ، دون ان تتشكى ، لان قصائد سميح تحتفظ الى جانب ذلك بالطرافة والتوتر وتعدد الاصوات والاشكال ، ولكنك دون شك لا تستغرق فيها عمقيا ، شأنك أمام قصائد محمود درويش الاخيرة .

الى جانب ذلك يبرز في مجموعة سميح الاخيرة اهتمامه بالتشكيل الخارجي ، ولقد سبق ان اشرت الى ان هذا التشكيل تطوير لنزعة المباشرة الغنائية ، فأكثر القصائد تحفل بأصوات متعددة ولكن تلك الاصوات تبقي محدودة بذاتها لا تختلط مع بعضها لتشكل دراميا داخليا ، بل هي مستقلة تتوجه الى الاخر وتنتظر بدورها الاخر صامتة ، شأنها شأن المسرحية النثرية، ففي قصيدة «السنبلة وشوكة القندول » على سبيل المثال ، حوار بينهما

تطالب فيه السنبلة شوكة القندول ان لا تقتلها ولكن الشوكة تأبى لان القتل مهنتها ، وتأتي في النهاية النار لتنهيهما معا ... الخ وكما في قصيدة « حيث صار الموت عادة » .

كما ان للشاعر سميح اهتماما ما زال ، في تلك المقاطع الغنائية الصغيرة التي تشبه التوقيعات ، والتي اختفت او كادت من شعر محمود درويش ، فهي لم تعد تغني في ضربتها الواحدة ما تملك ان تغنيه القصيدة الحديثة بضرباتها الداخلية العديدة. ما الذي تستطيع ان تعطيه عشرات من هذه القصائد — المقاطع ، المتشابهة :

ان مت ظمآنا
فلا تبخل على سواي
يا قطر :
العازف بعض الناي (ص ٢٠١)
...
اعيش بالدين وبالتقسيط ،
أموت يا مولاي
ومن ثقوب الناي
ألفظ أنفاسي ، وللقصائد التحنيط (ص ١٩٠)
...
وطني محتقن في
فما حبر يسيل
عند اقدام القتيل ؟ (ص ١٦٥)

ان الطرافة الشعرية التي تتسم بها قصائد سميح القاسم ، والتي تأخذ لها وجوها كأن تكون قصيدة في بيت واحد كقصيدة « ضيق » التي يقول فيها « لمحاكم التفتيش اشكو ! » (ص ٢٠٨) او قصيدة متضمنة فاصلا نثريا صحفيا كما في قصيدة « الجواد الابيض يصهل على التل »، او السخرية التي لا تخلو من مرارة الخيبة وخاصة في قصائده القصيرة كقصيدة « لا مفر » .. و « محاولة لتركيب صورة قديمة ممزقة » و « الزبانية والسفير الساذج » .. الخ ، اقول ان تلك الطرافة الشعرية ، والخطابية اذا كانت القصيدة بصوت الشاعر ، او استخدام الشخوص ، والحكاية .. كلها لازمة من لوازم المباشرة الغنائية لدى سميح القاسم ، التي تشكل جوهر تجربته الغنية.

ان هذه الملاحظات التي تعرضت فيها لتجربة سميح الغنية فقط دون مضامينه ورؤياه للانسان والعالم، انما جاءت بمقتضى حال ما هو معروف عن شعر الارض المحتلة ، فمواضيعه معروفة وكذلك رؤياه، خاصة عند سميح وزملائه — باستثناء محمود درويش حيث استطاع ان يغير قدرا هاما من تجربته . واذا ما لاحظنا لدى محمود درويش في دراستنا عن مجموعته « أحبك او لا احبك » ، ان « الحصار » كان يشكل محورا هاما في رؤياه لذاته وللعالم ، فان « الحزن » لدى سميح القاسم هو هذا المحور ، فما من قصيدة تطالعها الا وتجد الحزن ينبوعا لا ينتهي وموردا لا ينضب ، وقد يأخذ هذا الحزن شكل الدموع تارة او شكل الموت تارة أخرى ، الموت الذي يدمر والذي يجدد ، والدموع التي تغلق ابواب المملكة والتي تفتحها (ص ٨) .

« فمن الحزن امتشق الحالمون حرابا ، وامتشقوا زهرة الفرح (ص ٢٨) وها هو الشاعر يقابل الثائر في « ردهة الحزن » ذلك الثائر الذي « أخذ الحكمة عن كتب الحزن » (ص ٩٩) . والذي يقول في مكان اخر .

الف شكر
بلغ الحزن بنا سن الرجولة
وعلينا ان نقاتل » (ص ١١٦)

والموت ذاته يأخذ هذا الشكل ليكون ينبوعا للحياة، فكثيرا ما يصرخ الشاعر متفجرا هوذا الموت
جوادي الابيض الصاهل في كل الجهات
هوذا الموت (ص ٢٦)

وهو يلتقي به « بين انقاض حزيران ليتداخلا ، ويشتعلا ويضيئا » (ص ٨٦) ... الخ . وليس غريبا ان يكون الموت ينبوعا للحياة ، ولطالما شغلت هذه المعادلة الحية الشعراء ، فسقطوها بين الحكايات والاساطير ليعيدوا على ضوء الرؤيا الحديثة حقيقة الموت والانبعاث الخالدة .

فوزي كريم

Charles Dobzynski, **Le miroir d'un peuple. Anthologie de la poèsie yidich 1870 - 1970.** (Paris, Gallimard, 1971).

هذا الكتاب : مرآة شعب او مئة عام (١٨٧٠ — ١٩٧٠) من الشعر اليهودي باللغة اليديشية ، رغم مظهره الادبي المحض ، اذن المحايد ، هو في الواقع كتاب صهيوني لخدمة غرض صهيوني : اضطهاد اليهود في أوربا الشرقية حاليا ، لكنه يخدم هدفه على جبهة الادب لا على جبهة السياسة. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الاسرائيلية بين ٦٧ — ١٩٧٠ تهدم منازل الفلسطينيين في الارض المحتلة وتصادر أملاكهم وتعتقلهم اعتباطيا وتمر عليهم مياسيم التعذيب في الزنزانات المغلقة وتعتقل شعراء الارض المحتلة وتفرض عليهم الاقامة الجبرية ، كانت ، ومن ورائها الجوقة الصهيونية العالمية تثير من جديد قضية اضطهاد اليهود الشرقيين عامة والمثقفين منهم خاصة كتغطية بارعة لاصوات المضطهدين الفلسطينيين داخل وطنهم المحتل وخارجه . في هذا الوقت بالذات اصدر المؤلف والشاعر الفرنسي الصهيوني اليساري الشهير شارل دوبزنسكي هذا الكتاب الذي اعترف هو نفسه بأنه لم يكن على جدول اعماله الادبية. فقد كان مشغولا باصدار ديوانه الجديد وباعادة النظر في ترجمته لديوان ناظم حكمت . الا أنه ، على حد زعمه ، « أحس بصوت من الاعماق الداخلية هو صوت ذلك الهاجس الذي لازمني منذ طفولتي : عذاب يهود الشتات المرير وانعكاساته في شعر الغربة » .

كتب المترجم مقدمة طويلة عن اللغة اليديشية يبدو فيها التحيز ذو الطابع الرومنطيقي بارزا جاء فيها : « اللغة هي بالنسبة الى كل شعب معطى تجريبي ، ووسط طبيعي تماما مثل الهواء الذي يتنفس والنور الذي يرى . اما بالنسبة لليهودي فاللغة شيء آخر مختلف تماما : اللغة هي وسيلة اليهودي لتأكيد قوميته وشخصيته الثقافية المتميزة في بحران الشتات . اللغة بالنسبة لليهودي هي في نفس الوقت ثمرة واداة النضال اليومي من اجل البقاء على قيد الحياة » . وهنا نلمس اسطورة الشعب المختار جلية . الشعب الذي هو فوق قوانين التاريخ ، الشعب الذي ثبت رغم ارادة التاريخ . فاذا كانت اللغة هي بالنسبة لكل شعوب الارض تعبيرا تلقائيا عن الحياة الاجتماعية والنفسية ، فهي بالنسبة لليهودي تعبير عن قوميته « الفولاذية » التي لم تمت بعد ألفي عام من الحل والترحال !

كانت الحركة الصهيونية تقول ان اليهودية هي وسيلة للحفاظ على القومية اليهودية . اما دوبزنسكي فقد اضاف جوادا آخر هو اللغة ، التي يعالجها كشاعر افسدته الصهيونية : « اني قادم من محيط لا شطآن له ، محيط اعماقه من اخاديد القرون ومن ذكرى الالم والامل المتجددين على مر الايام ، محيط ملحمة الزمن الذي صاغ التماثل القومي بين الشعب اليهودي ولغته » .

يستغرب القارىء لهذا الكتاب الشعري وجود عشرات الصفحات التاريخية عن مذابح اليهود في المانيا النازية وروسيا الستالينية وحديثا طويلا مملا عن اضطهاد المثقفين اليهود في اوربا الشرقية. لكن استغرابه يزول عندما يصل الى مسك الختام : « ليس أمام اليهودي المضطهد الا ان يعود الى وطن الميعاد » أي ان يعود الى فلسطين المحتلة ليضطهد شعبا آخر ومثقفين آخرين ليس أمامهم أمام الاضطهاد الصهيوني لهم في عقر دارهم الا الهجرة او بالاصح التهجير او التردد بين السجن والاقامة الجبرية وابتلاع اطنان الاهانات يوميا . معظم قصائد الشعراء الاربعة والثمانين التي يضمها هذا الكتاب قصائد ملتزمة بالقضية الصهيونية باستثناء عدد قليل من القصائد . لان « البرج العاجي لا يعرفه ولا يعترف به الذين ضرب التاريخ حولهم حصارا » على حد قول احد الشعراء اليهود في الديوان . وما احرى ان يكون هذا الشعار هو شعار الشعراء الفلسطينيين لانهم اليوم هم الذين ضرب التاريخ عليهم حصارا .

فهل لهذا السبب نجد ان معظم قصائد الديوان حزينة لا تدور الا حول الاغتراب الروحي لليهود ؟ من الواضح ان المترجم تعمد اختيار هذا النوع من الشعر ليجعل مأساة اليهود ، الذين تحولوا من شعب مظلوم في اوروبا الى شعب ظالم في فلسطين، وكما قال ماركس : « ان شعبا يضطهد شعبا ليس شعبا حرا » ، حاضرة في وعي وضمائر القراء الغربيين كما لو كانت ما زالت حية ، كما لو وقعت بالامس ، وكما لو كان القارىء الغربي المثقل « بعقدة الذنب » ما زال مدعوا لان يبحث لها عن

مخرج انساني ، عفوا صهيوني . المترجم لا يكتم هدفه فهو يعترف بصفاقة : « اردت من هذه المرآة ان تكون شهادة شعرية ، تمزق قلب القارىء ، على حياة ونضال واحلام وتطلعات وفرح والام شعب طال ليله وعذابه » . هذه الكلمات كانت تكون اكثر صدقا لو كتبت تقديما لاحدى دواوين محمود درويش ، توفيق زياد او سميح القاسم او اي شاعر من شعراء الشعب الفلسطيني «الذي طال ليله وعذابه » .

من ١٨٧٠ — ١٩٧٠ عرف الشعب اليهودي باللغة اليديشية ازدهارا عجيبا . فلقد حطم شعراؤه الصمت الذي حاولت البرجوازية الاوروبية في القرن التاسع عشر ان تضربه حول مأساة اليهود . لقد حول الشعراء اليهود الكلمة الشعرية الى سلاح للدفاع عن قضيته ورفضوا ان يجعلوها لعبة للتسلية والامتاع . وفي خلال قرن واحد ظهرت عشرات المدارس الشعرية اليهودية ابتداء من الشعر الخطابي المباشر الى الشعر الرمزي والايحائي . لكن ما تميزت به كل هذه المدارس المتنوعة ، بل المتناقضة ، هي انها كانت كلها ملتزمة بقضية شعب . ان ما حققه الشعر اليهودي اليديشي في قرن لم تستطع ان تحققه اداب اخرى خلال بضعة قرون . وللشعراء الفلسطينيين والعرب في ذلك درس بليغ .

يضع المؤلف في رأس الصفحة الاولى للكتاب أبياتا للشاعر اسحاق لابيوش قال عنها بانها تلخص المثل الاعلى للشعر اليديشي خلال قرن ، وهذا المثل الاعلى هو « العدالة والاخوة الانسانية » : «قطرات الدم الممزوجة بقطرات الدمع لا تذهب هدرا ، بريق العيون المغروزة فيها الحراب لا ينطفي عبثا » اصدق قصائد المجموعة هي قصائد الشعراء البروليتاريين مثل موريس فانجفسكي وروزن فيلد وافرون رايزن . انهم يحكون فصول المأساة بما يشبه الهمس ، لا مأساة كل يهودي ولا مأساة البروليتاريا اليهودية وحسب بل مأساة كل البروليتاريين في كل البلدان ويحلمون بعالم جديد لا ينتهي فيه ألم العامل اليهودي فحسب ، بل ألم كل عامل في كل مكان . يقول موريس فانجفسكي :

ايها العامل اليهودي في مجاهل سيبريا كفاك عذابا
ايها العامل من كل الاجناس في كل سيبريات العالم
ثر على العذاب .
ايها العمال ارحموا الحجارة تحت مطارقكم
واقسوا على رؤوس ظالميكم
ليس اليهودي هو الذي يتعذب
ان الانسان هو الذي يتعذب
مأساتنا هي مأساة الانسانية
يا معذبو الارض قفوا
ضعوا حدا للمأساة

تغلب على اغلب قصائد الديوان النبرة الملحمية التي نجدها عند شعراء الارض المحتلة . ونجد شبها عجيبا بين قصيدة حييم نحمان بيالك (مدينة المذبحة) حيث استعمل الشاعر نبرة الكتاب المقدس وضمن بعض اياته في بعض ابياته وبين قصيدة توفيق زياد (كفر قاسم) .

يقول بيالك :
شعبي أجتث كالعشب
لكن العشب المقتلع من جذوره يحيا ...
لا تنتظر بعد الان
خذ نفسك بعيدا
اهرب الى الذين ما زالوا على قيد الحياة
فاليوم يوم الصيام
علقهم في الهيكل
اكتب على جدرانه تاريخ قتلهم
وضع معهم
في بحر أجاج من الدموع ... ملحا
على الهيكل
اكتبوا اسماء قتلانا

ان المرء يتذكر عفوا وهو يقرأ هذه القصيدة توفيق زياد وهو ينوح في اباء و : « على جذع زيتونة » يكتب قصة امواته في كفر قاسم . اما لاينفسكي فان شعره مؤثر جدا . لقد اختزن الالم في سريرته وعاشه في اعمق اعماق وجدانه . فاكتسب شعره بالرمزية التي يكتب بها تأملاته حول مصير اليهودي في القرن التاسع عشر ومصير الانسان المستضعف والفلاحين الذين انتزعت املاكهم من اجل تحقيق التراكم البربري ، طابعا انسانيا شاملا .

الى جانب هؤلاء الشعراء البروليتاريين والانسانيين نجد شعراء صهيونيين مباشرين وتافهين يستغرب المرء وجودهم في عالم الشعر امثال ايلشومن ، فوجلير ، وافرون سوتكفير واخرون ممن يبدأون رحلتهم من سيبريا ليحطوا رحالهم في القدس . وتمر قافلتهم بمحارق النازية وغابات حرب الانتصار

وبمدن محترقة ورجال بلا وجوه ونساء ضارعات تحت أقدام الجلاد واطفال يتأوهون من التعذيب . امـا في « ارض اسرائيـل » فكل هـذه الرؤى الجهنمية تتلاشى بقدرة قادر لتصبـح ذكرى ... بعيدة :

في ارض السلام
ارض اسرائيل
لن نعذب حتى الذين عذبونا .

ويضيف المترجم : « لعل الذين يدعمون المقاومـة الفلسطينية في فـرنسا لا يعلمون ان المخـربين لا يحكم عليهم بالاعـدام وان اسرائيل ترد عـلى زارعي الموت ودعاة تدميرها بطلب الحق في الحياة! » الرد على هذا الديوان ليس مجديا بمقال او بكتاب بقدر ما يكون بترجمـة « مختارات من الشعـر الفلسطيني خلال عشرين عاما » ونشرها باللغـات الاجنبية في الغرب وبتعاون شعراء وكتاب غربيين من انصار الحق الفلسطيني وعددهم ليس بالقليل.

لقد اصدر الشاعر الفلسطيني محمود صبح المقيم في أسبانيا سلسلة من شعر شعراء الارض المحتلة باللغة الاسبانية لاقت اقبال القـراء الاسبانيـين المشجع . كما ترجم الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي المعتقل حاليا في المغرب مختارات من الشعر الفلسطيني باللغة الفرنسية .

وفي موسكو صدر ديوان محمود درويش . لكن كل هذه المبادرات والجهود المشكورة ما زالت تحتاج الى تنسيق وتعميق وتعاون مع الادباء والشعـراء التقدميين في الغرب . لان اشتراكهم هو الـذي يجعل هذا الشعر الفلسطيني ليس ضيفا ثقيلا على لغة وذوق وعادات القاري الغربي . فمتى نفكـر بالرد المجدي على الدعاية الصهيونية المتعـددة الاشكال والواجهات والجبهات ؟

فاضل عباس هادي

التلمود والصهيونية

بقلـم

الدكتور أسعد رزوق

منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف.

٣٢٠ صفحة ٨ ل.ل.

تضاف اجـور البريد : ١٠٠ ق. ل. في البـلاد العربيـة
٢٥٠ ق. ل. في اوروبه ، ٥٠٠ ق. ل. في سائر دول العالم

تقارير اسرائيلية

الصناعات الفوسفاتية والمعدنية والتعدينية في فلسطين المحتلة وأثرها في خدمة الاطماع الصهيونية

الدكتور فلاح سعيد جبر

الفوسفات والصخور الفوسفاتية مادة حيوية وركيزة أساسية من ركائز صناعة الاسمدة الكيمياوية في العالم . وأهم استعمالاته لزيادة غلة الارض الزراعية وللمساعدة في الاسراع في اصلاح الاراضي البور وجعلها اراض زراعية . وبهذا فان الصناعات الفوسفاتية لها فوائد عدة . فهي تشكل مراكز صناعية في مناجم التعدين ومراكز التحسين ومراكز التسويق والتصنيع لذلك تشكل دخلا قوميا معينا يتغاير تبعا للطاقة الانتاجية ولكلفة الانتاج . وهي بنفس الوقت ومن خلال تصنيعها كأسمدة تشكل موردا آخر اما على شكل تصديرها كمواد مصنعة أو استهلاكها في الداخل لزيادة غلة الارض الزراعية ولاستصلاح المزيد من الاراضي وهذا ايضا يشكل موردا ماليا دائما وركيزة اقتصادية متينة . والصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة تمثل للكيان الصهيوني ما ذكرناه سابقا صناعيا وزراعيا واقتصاديا .

ان ثرواتنا المعدنية العربية المستغلة حاليا لم تستغل مطلقا ولا خطط لها أن تكون سلاحا من أسلحتنا الاقتصادية في معاركنا المصيرية التي تخوضها جماهيرنا الان . واذا كان الاستعمار والصهيونية والتخلف قد دفعنا للابتعاد عن انتهاج خطة علمية اقتصادية لاستثمار ثرواتنا وتصنيعها ومن ثم خلق صناعة عربية تعتمد الخامات العربية، فان الغاية من ذلك كانت ولا شك مجرد بقائنا مصدرا للخامات الرخيصة وسوقا جيدة لبضائع الدول المستغلة . والفوسفات العربي يمكن أن يؤدي دورا مهما في خدمة قضايانا المصيرية وعلى رأسها قضية المصير العربي في فلسطين العرب . ويتطرق بحثنا هذا وبايجاز الى الصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة معتمدا على نشرات الامم المتحدة ذات العلاقة ومجلات الفوسفات والبوتاس (اعداد ١٩٦٢ — ١٩٧٠) واصدارات المؤسسات العربية .

عرفت فلسطين صناعة الاسمدة الفوسفاتية منذ أمد بعيد . فقبل النكبة عام ١٩٤٨ كانت شركة الاسمدة الكيمياوية تنتج السماد الفوسفاتي اعتمادا على خامات مناجم الرصيفة في الاردن . وبعد عام ١٩٤٨ واقامة اسرائيل من قبل الامبريالية العالمية أدركت السلطات هناك أهمية استغلال الفوسفات من نواح اقتصادية وعسكرية . ادركت السلطات أهمية وجود الفوسفات وكانت الدلائل الجيولوجية تشير الى وجود ترسبات فوسفاتية في منطقة أورون ومنطقة وادي ايفا في عراد . وبعد دراسات جيولوجية واثبات احتياطي الخامات الفوسفاتية التي من الممكن استغلالها اقتصاديا باشرت شركة النقب للفوسفات استخراج وتسويق الفوسفات عام ١٩٥٢ . وطورت السلطات هناك معامل الاسمدة في منطقة حيفا حيث تولت هذه المهمة شركة الاسمدة والكيمياويات الاسرائيلية . ومنذ ذلك الوقت واسرائيل تولي هذه الصناعة عناية خاصة فأجرت العديد من الدراسات لايجاد مناطق جديدة تحوي خامات فوسفاتية ، وكذلك اهتمت السلطات هناك بايجاد التسهيلات وتقديم المعونات الكثيرة لهذه الصناعة ، فانشأت الطرق واستثمرت لذلك ملايين الدولارات وأخذت العديد من القروض من البنك الدولي ، كما حدث عام ١٩٦٢ حيث قدم البنك الدولي (٢٢) مليون دولار مساهمة في انشاء طرق كلفتها الكلية (٤٦) مليون دولار ، وكان هذا لتحسين طرق مواصلات نقل الفوسفات والبوتاس الاسرائيلي ، خاصة بعد اكتشاف ترسبات ضخمة من الفوسفات في منطقة عراد حيث

اكتشفت خامات فوسفاتية تبلغ نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها ٢٩٪ واحتياطيها المثبت يزيد على (٢٢) مليون طن (الترسبات الواقعة شمال شرق ديمونة على طريق بئر السبع وسدوم) . ومع مطلع الستينات كان قد أعلن عن اكتشاف ترسبات فوسفاتية في مناطق جبل الهور ، عين ياهف ، هيمشار ، ووادي حيون .

وكنتيجة للتطور الكبير الذي طرأ على الصناعات الفوسفاتية في العالم ولمواجهة المنافسة في الاسواق العالمية ، اندمجت شركة الاسمدة والكيمياويات الاسرائيلية وشركة النقب للفوسفات بشركة واحدة سميت شركة الفوسفات والكيمياويات ، وكان ذلك عام ١٩٦٢ . وخلال ثلاث سنوات من العمل بعد ذلك استثمرت الشركة الجديدة (٢٠) مليون دولار لايجاد تسهيلات وزيادة المكنة في مشاريع هامض الفوسفوريك ومعامل السوبر فوسفات الثلاثي ولتطوير افران الحرق الذاتي ولانتاج بلاستيك غير قابل للحرق ومواد كيمياوية اخرى لتحل محل الجيلاتين الحيواني . وحصلت اسرائيل في نفس الفترة على قرض من بنك الاستيراد والتصدير الامريكي لاستيراد الافران الجديدة وادواتها الاحتياطية . وخططت الشركة الاسرائيلية في أول أيام عملها لانتاج خامات محسنة من الفوسفات تحوي على ٣٨،٥٪ من خامس اوكسيد الفوسفور وانتاج السوبر فوسفات الثلاثي بطاقة انتاجية تصل الى (١٠) الاف طن سنويا .

ولما كانت تطلعات اسرائيل لدعم اقتصادها تقضي بزيادة صادراتها من الفوسفات (خامات ومواد مصنعة) ولم يكن بمقدورها عمل ذلك منفردة دعت عدة شركات عالمية لاستثمار الفوسفات المكتشف في مناطق عين ياهف ، هيمشار وجبل الهور ، ورسا العطاء على شركة اليومينيا الامريكية (تتعامل على مستوى عالمي في تسويق الاسمدة الزراعية والاطعمة الحيوانية) . وبعد دراسة استطلاعية للمناطق الفوسفاتية المذكورة اختارت شركة اليومينيا منطقتين فقط من المناطق الثلاث وهما منطقة عين ياهف ومنطقة هيمشار وترك أمر استثمار الترسبات الفوسفاتية في المنطقة الثالثة وذلك لبعدها عن طرق المواصلات ولاسباب جيولوجية وفنية اخرى . وبعد ان تم الاتفاق على استثمار المنطقتين من قبل الشركة الامريكية اسست شركة امريكية اسرائيلية مشتركة باسم الشركة الامريكية الاسرائيلية للفوسفات . اول أعمال هذه الشركة كان اجراء تحر جيولوجي تفصيلي اثبت من جرائه وجود ترسبات فوسفاتية اقتصادية الاستغلال في مناطق عين راشيل — مرزابا — شيزان — كركشة — كركشتون — ومناطق زيفرون . ونتيجة للتحريات الجيولوجية عثر على احتياطي اكبر من المعلن في السابق وبنوعية افضل . وقدر الاحتياطي الاجمالي للمنطقة بما يزيد على المئة مليون طن ونسبة خامس اوكسيد الفوسفور كمعدل لهذه الترسبات قدر بـ ٢٦٪ . كذلك اثبتت الشركة الامريكية وجود احتياطي قدر بـ (٣٠) مليون طن بالقرب من منطقة عين ياهف ونسبة احتوائه من خامس اوكسيد الفوسفور تبلغ ٢٤٪ وهذه المنطقة تقع على بعد (٣٠) كيلومترا شرق مرزابا في وادي عربة .

منطقة العمل الاستثماري الاول كانت عين ياهف التي تقع على بعد (٤٠) كيلومترا جنوب غرب سدوم في وادي عربة وبنفس الوقت فان المنطقة تقع على الطريق الرئيسي الواصل بين سدوم وحيفا . ولم يباشر بالاستثمار الفعلي في المنطقة الا بعد اكمال انشاء طريق معبد (٢٧ قدما) أفتتح خصيصا لهذه الغاية . وبعد بدء الاعمال في هذه المنطقة انشىء طريق معبد يربط بين سدوم وتل الشوكة الذي ساعد على نقل الخامات الى ميناء أشدود . أما منطقة هيمشار التي تقع على الطريق الرئيسي بين بئر السبع وايلات فلقد بوشر باستثمار ترسباتها الفوسفاتية بعد ربطها بطريق معبد بمنطقة عين ياهف وكان ذلك عام ١٩٦٥ . ولاحتياجات عمليات التحسين والتركيز للخامات الفوسفاتية الى كميات كبيرة من المياه باشرت مؤسسة الهندسة المائية الاسرائيلية دراسات هيدرولوجية ثبت بعدها وجود عشرة ملايين متر مكعب من الماء كاحتياطي سنوي في منطقة عين ياهف ونصف مليون متر مكعب من الماء سنويا في منطقة هيمشار يمكن توفرها من وادي بارن الذي يبعد (٨) كيلو مترات عن موقع الترسبات الفوسفاتية في المنطقة .

وباشرت هذه الشركة أعمالها بانتاج خامات فوسفاتية محسنة نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها تتراوح بين ٣١ الى ٣٢٪ وبطاقة انتاجية تصل الى ربع المليون من الاطنان سنويا وللاعوام الاربعة الاولى وكان هذا برنامج العمل الاولي للشركة ولكن بعد اثبات وجود احتياطي كبير للفوسفات في المنطقة

خططت الشركة لانتاج مليون طن من الخامات في مدى السنوات الاربع الاولى من بدء العمل . واضافة لذلك فلقد قررت انتاج خامات محسنة تصل نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها الى ٣٨٪ وذلك باستعمال طريقة الحرق الذاتي بواسطة افران خاصة .

وكانت نتائج التحاليل الكيمياوية للفوسفات المحسن السوق والمنتج من قبل الشركة كما يلي ، والرقم الاول للفوسفات المحسن العادي والرقم الثاني للفوسفات المحسن بطريقة الحرق الذاتي : خامس اوكسيد الفوسفور ٣٢،٦٪ ، ٣٥،٩٪ . اوكسيد الكالسيوم ٥٣،٢٪ ، ٥٣،٧٪ . اكاسيد الحديد والالمنيوم ٠،١٪ ، ٠،١٪ . اكاسيد السليكا ٠،٥٪ ، ٠،٥٪ . الفلورين ٣،٢٪ ، ٢،٥٪ . ثاني اوكسيد الكربون ٧،١٪ ، ٣،٣٪ . اكاسيد الصوديوم والبوتاسيوم ٠،٥٪ ، ٠،٠٣٪ . الفياديوم ٠،٠١٪ ، ٠،٠١٪ .

وفي مطلع عام ١٩٦٥ جرت مباحثات بين شركتين امريكيتين (سويفت وكارل م. ليوبورودس) لانشاء معمل للشركة الامريكية الاسرائيلية لانتاج الفوسفات المركز بالحرق الذاتي بمعدل نصف مليون طن في السنة . أما بالنسبة للتحريات الجيولوجية التي اجراها جيولوجيو السلطة الاسرائيلية فلقد اسفرت على العثور على ترسبات ضخمة من الفوسفات في منطقة زيفا ايفا في صحراء النقب بين بئر السبع وسدوم وقدر الاحتياطي في المنطقة بـ (١٠٥) ملايين طن (سمك الطبقات الرسوبية الفوسفاتية في المنطقة يتراوح بين متر وخمسة امتار في المعدل) . ولقد أولت السلطات الاسرائيلية عناية خاصة لتصنيع الخامات داخل فلسطين المحتلة فأعيد فلوريد الهيدروجين في معامل شركة الكيمياويات والفوسفات في حيفا عام ١٩٦٥ بعد ان كان انتاجها قبل هذا التاريخ غير اقتصادي وبلغت قيمة صادرات اسرائيل من هذه المادة في أول عام من بدء الانتاج حوالي (٦٠) الف دولار. كذلك انتجت المعامل الاسرائيلية المنتجة لحامض الفوسفوريك مواد كيمياوية هي سلفايت الكالسيوم، لاستغلالها للاستهلاك المحلي . وأعدت العديد من الدراسات العلمية المتعلقة بتطوير الصناعة الفوسفاتية هناك ، فأوجدت طريقة جديدة لزيادة تركيز وتحسين الخامات الفوسفاتية قبل ارسالها للتصنيع وذلك باستعمال سلفايت الامونيوم ، لان الكالسيت في الصخور الفوسفاتية يزيد من استهلاك الاحماض خلال عملية انتاج السوبر فوسفات ، لذلك يفاعل الكالسيت مع سلفايت الامونيوم في درجة حرارة عالية (٤٠٠ الى ٦٠٠ درجة مئوية). ونتيجة لذلك كان استهلاك الحامض مع معاملته بالصخور المستخرجة من مناجم اورون (٢٤٪ خامس اوكسيد الفوسفور) ٨ — ١٣ غراما من حامض الكبريتيك لكل (١٠٠) غرام من الخامات وبدون ذلك كان يستهلك (٧٦) غراما من حامض الكبريتيك لكل (١٠٠) غرام من الخامات الفوسفاتية .

وفي خطة التنمية التي اعدتها اسرائيل للفترة بين ١٩٦٦ — ١٩٧١ رصدت الحكومة (٦٠) مليون دولار لاستثمارها في المشاريع الكيمياوية ، خصصت ٧٥٪ منها لتطوير المشاريع الصناعية الفوسفاتية في حيفا وفي منطقة عراد . ففي حيفا تقضي الخطة بانشاء شركة الكرمل الكيمياوية التي تنتج حامض الفوسفوريك ونترات البوتاسيوم (وضعت خطة العمل من قبل هيئة خاصة من وزارة الاقتصاد الاسرائيلية) . ومنح هذا المشروع عشرة ملايين دولار كمساعدة من الحكومة الاسرائيلية وأقيمت منشآت هذه الشركة بالقرب من مصفاة البترول في حيفا وسيكلف المشروع (١٢،٣) مليون دولار . وبنفس الوقت قدمت مصفاة البترول في حيفا مساهمة في رأس المال لتطوير المنشآت المقامة تبلغ اربعة ملايين دولار . وتأمل الحكومة الاسرائيلية ان تحصل على المزيد من القروض الخارجية لتطوير هذا المشروع من المصادر الخارجية المهتمة بشراء منتجات هذه المعامل . وفي نهاية عام ١٩٦٥ اقترحت اللجنة الوزارية المشكلة في وزارة الاقتصاد الاسرائيلية اقامة مشروع برأس مال ضخم لانتاج حامض الفوسفوريك في منطقة عراد ورصد مبدئيا للمشروع (٣٦،٧) مليون دولار من الاموال المخصصة للمشاريع الكيمياوية في خطة التنمية للفترة بين ١٩٦٦ — ١٩٧١ . والمشروع هذا يقام باشراف مباشر من قبل الحكومة الاسرائيلية بمعاونة شركة ماديرا الامريكية . وتقدم المؤسسة الامريكية هذه مبلغ (١٤) مليون دولار مساهمة منها في هذا المشروع (تم التوقيع على هذه الاتفاقية بين شركة ماديرا والمؤسسة الكيمياوية في حيفا) ومقابل الاربعة عشر مليون دولار التي دفعتها شركة ماديرا قدمت المؤسسة الاسرائيلية اربعة عشر مليون دولار

أخرى . وساهمت الحكومة الاسرائيلية بمبلغ (٢٠) مليون دولار اخرى قدمتها كقرض لهذا المشروع . اضافة لذلك تعهدت الحكومة بتجهيز المياه لهذا المشروع واقامة واصلاح طرق المواصلات في المنطقة واقامة خطوط سكة حديد جديدة كل ذلك بما مجموعه (٥) ملايين دولار . ومخطط لهذا المشروع انتاج (١٦٥) الف طن من حامض الفوسفوريك و (٤٠) ألف طن من فوسفات الكالسيوم (سنويا). ولانتاج حامض الفوسفوريك اقترح له بادىء الامر طريقتان لصنعه اما بواسطة حامض الكبريتيك (في هذه الحالة سيستورد الكبريت اما عن طريق ايلات او عن طريق اشدود) . الطريقة الاخرى المقترحة (المكتشفة في فلسطين المحتلة) باستعمال حامض الفوسفوريك.وفي هذه الحالة يصنع اعتمادا على كلوريدات المنغنسيوم المستخرجة من البحر الميت حسب المراحل التالية : ١ ــ فصل المغنسيوم من كلوريد المنغنسيوم المستخرج من البحر الميت . ٢ ــ صنع حامض الهيدروكلوريك من الكلوريدات المتبقية . ٣ ــ خلط هذا الحامض بالخامات الفوسفاتية لصنع حامض الفوسفوريك . ومن ناحية اقتصادية فان المشروع الثاني يكلف (٤٣) مليون دولار، اما باستعمال حامض الكبريتيك فسيكلف المشروع (٣٠،٣) دولار ولذلك اختيرت الطريقة الاولى (طريقة حامض الكبرتيك) . والدراسات جارية لتطوير الطريقة الثانية . وتباشر السلطات الاسرائيلية الان اقامة مشروع بكلفة (٩) ملايين دولار لانتاج الاسمدة الفوسفاتية والخامات المحسنة ومكان هذا المشروع هو ميناء اسدود على البحر الابيض المتوسط . وطاقة هذا المشروع الانتاجية تبلغ (١٠٠) الف طن من الاسمدة و (٤٦) الف طن من الفوسفات المحسن الجاهز للتسويق .

وطورت اسرائيل المؤسسات المسؤولة عن التصدير فأوجدت هذه العديد من الاسواق الخارجية سواء كان ذلك في الدول الاشتراكية او الدول العربية وتضاعف تصدير اسرائيل خلال فترة قليلة من الزمن وتواصل الان هذه المؤسسات سعيها لتصدير ما مقداره مليون طن في العام ولهذه الغاية اقامت عدة خزانات في بعض الموانىء الاوروبية لتسهيل عملية التسويق وتنوي اقامة امثال هذه الخزانات في بعض الموانىء الاسيوية نفسها . ان معدل نمو الصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة يسير بتسارع كبير وتشكل هذه الصناعة حجر زاوية في الاقتصاد الصناعي الاسرائيلي .

استثمار وتصنيع الفوسفات في فلسطين المحتلة

تنهج اليوم غالبية الاقطار النامية والمتطورة اسلوب التخطيط العلمي كأساس لبناء اقتصاد متين كأسلوب لبلوغ غاية بأقصر وقت وبأقل مخاطر . والتخطيط العلمي للدول كل متكامل يجب ان يراعى فيه كل صغيرة وكبيرة ، ومن كل النواحي صناعيا وزارعيا، وقصر التخطيط على ناحية معينة مهما كانت ايجابياتها في المراحل الاولى فان سلبياتها فيما بعد تقضي على كل الايجابيات السابقة . ومنذ ان خلق الاستعمار اسرائيل في فلسطيننا ادركت ان انتهاج أسلوب التخطيط العلمي هو الاسلوب الوحيد للوصول الى غاياتها . وغايات اسرائيل معروفة لدى الجميع يمكن تلخيصها فيما يلي : اولا ــ بناء اقتصاد اسرائيلي يعتمد بصورة مباشرة على المواد التي من الممكن توفرها في الاراضي المحتلة ، بعد ان ايقنت اسرائيل ان اعتمادها على الموارد الخارجية لن يدوم طويلا . ثانيا ــ اغراء يهود العالم للهجرة الى فلسطين ليزيد كادرها العلمي بازدياد الطاقة البشرية (ومنذ زمن اعلنت عن عزمها لتهجير اربعة ملايين يهودي لاسكانهم في صحراء النقب) . ثالثا ــ اعمار النقب ليستوعب المهاجرين الجدد . رابعا ــ خلق مستعمرات استيطانية داخل فلسطين المحتلة وخاصة في المناطق غير كثيفة السكان ، ليتم توزيع السكان على طول رقعة الارض المحتلة على شكل مستعمرات لها اغراض عسكرية (دفاعية وهجومية) ومراكز تموين واغراض اقتصادية . خامسا ــ ايجاد ضمانات لاصحاب رؤوس الاموال الخارجية او للبنوك الدولية لاخذ قروض لاستغلالها داخل الارض المحتلة . سادسا ــ ايجاد صناعات تعتمد على الخامات المتواجدة ، كمواد اولية وأن تكون لهذه الصناعات سوقا رائجة داخلية وخارجية . سابعا ــ توسيع رقعة الارض الزراعية وزيادة غلة وحدة الارض الزراعية لتزيد صادراتها وتقلل من استيراداتها .

وبدراسة مستفيضة لكل الموارد في فلسطين أيقنت السلطات هناك ان الفوسفات واستثماره وتصنيعه خدمة لكل اغراضها المدرجة مسبقا بل ان الفوسفات سيكون حجر زاوية لها في خلق صناعات تعتمد على الفوسفات بصورة رئيسية وزيادة لها في الدخل وخدمة لكل اغراضها وكما يلي :

أولا : **بناء اقتصاد متين يعتمد الموارد الطبيعية المتواجدة كاساس** : ان وضع خطة لتصنيع وتطوير اي بلد يجب ان تبنى على اسس علمية تراعى ظروف البلد وما يحويه من معادن وخامات قابلة للتصنيع واراضي زراعية ومصادر للطاقة . وفلسطين البلد الزراعي لا يملك العديد من المعادن والخامات اقتصادية الاستثمار وكل ما يملكه النحاس (مناجم تيمناع) جنوب النقب ، البوتاس (جنوب البحر الميت) ، الاملاح (المستخرجة من الشواطىء) الفوسفات المنتشر في مناطق عدة (أورون — هيمشار — عين ياهف — جبل الهور ووادي حيون) وبعض مصادر الطاقة (نفط وغاز طبيعي) . وبدأت صادرات اسرائيل من النحاس منذ عام ١٩٥٩ وكانت طاقتها الانتاجية للسنوات الخمس الاولى تقدر بـ (٦١٠٠) طن سنويا ، وعام ١٩٦٤ ارتفع انتاجها الى (٩٠٠٠) طن في السنة ، وجرى العمل على تطوير مناجم النحاس ومحاولة استغلال اكبر للخامات المتواجدة (دخل اسرائيل من تصدير النحاس وصل الى (١١) مليون دولار في العام) . أما البوتاس فبلغت صادرات اسرائيل منه في العام (١٩٦٨) (٣٢٨٠٢٥) طنا ، ويجري التخطيط لزيادة الانتاج ليصل في السنة الى (٦٠٠) الف طن . وبمقدور اسرائيل زيادة طاقتها الانتاجية من البوتاس لتصل الى (١٠٢) مليون طن . ودخل اسرائيل من تصدير البوتاس عام ١٩٦٨ بلغ (١٠٠٦) مليون دولار . وانتاج اسرائيل من النفط عام ١٩٦٨ بلغ ١١٤/٦١٤ مليون طن استهلكت اسرائيل القسم الاكبر منه ، اما بالنسبة للفوسفات فلقد بلغت قيمة صادرات اسرائيل من خاماته المحسنة (١٠) ملايين دولار عام ١٩٦٨ . اضافة الى انتاج الاسمدة الكيمياوية واستعمالاته الاخرى .

وهكذا نجد ان على اسرائيل ان تخطط لتصنيع الفوسفات اولا لتوفر سوقا عالمية تستوعب الانتاج. وثانيا لحاجتها الى الاسمدة الفوسفاتية في الداخل ولان الفوسفات والبوتاس اضافة للنتروجين هما عماد صناعة الاسمدة الكيمياوية في العالم كله . لذلك فان التخطيط لتطوير اي من هذه الصناعات هو تطوير للصناعات الاخرى . أما بالنسبة لباقي المعادن المتواجدة فاحتياطي النحاس قليل نسبيا . اضافة الى اقامة معامل تعتمد على الخدمات النحاسية غير اقتصادية ما لم تعتمد طاقة انتاجية كبيرة لا يمكن توفرها من مناجم تيمناع النحاسية . لذلك يشكل الفوسفات حجر زاوية في بناء الاقتصاد الاسرائيلي .

ثانيا — **اغراء يهود العالم للهجرة الى فلسطين وايجاد مجالات عمل جديدة للايدي العاملة العاطلة عن العمل** : ان ايجاد مجالات عمل واسعة مضمونة وبشروط معاشية جيدة يدفع العديد من اليهود في العالم للنزوح الى فلسطين . واقامة الصناعات الفوسفاتية ابتداء من استخراج الخامات من المناجم — تركيزها — نقلها الى مراكز التصدير او الاستهلاك — تصنيعها في المعامل وطرحها في الاسواق كمواد مصنعة . كل هذه العمليات تحتاج الى العديد من الايدي العاملة ، فمنجم جبل اونك في الجزائر في بداية عمله كان يستوعب (٦٠٠) شخص ما بين عامل وفني ومهندس وجيولوجي واداري . وعليه فان الصناعات الفوسفاتية لما تحتاجه من كوادر فنية وعلمية بامكانها استيعاب العديد من هذه الايدي وبالتالي بامكان السلطات الاسرائيلية اغراء العديد من الايدي العاملة اليهودية خارج فلسطين المحتلة للنزوح الى «أرض الميعاد» حيث ينتظرهم عمل معد لهم .

ثالثا — **اعمار النقب** : ان نظرة لخريطة المعادن في فلسطين تبرز حقيقة واضحة ان غالبية المعادن المكتشفة وخاصة الفوسفات تقع في مناطق الجنوب (صحراء النقب) وكانت اسرائيل قد اعلنت عن عزمها لاسكان (٤) ملايين يهودي في النقب . ولكي تفعل ذلك فلا بد لها ان تخلق حضارة في تلك الربوع وان تمدها بخطوط مواصلات حديثة وان تنشىء المدن والقرى للتشجيع على الهجرة . وكانت الترسبات الفوسفاتية عاملا مهما في ذلك فبالقرب من المنجم هناك دور اللهو ، المستشفيات ، المدن الصناعية ... الخ . ولتصدير هذه المنتجات الفوسفاتية لا بد من ايجاد طرق مواصلات حديثة تحتاج الى محطات وسط الطريق والى انشاء مراكز ادامة وغيرها . كل هذا معناه نقل الحضارة واعمار منطقة ولو بصورة جزئية تكون كالنواة ليتجمع حولها العديد من السكان وتغري العديد للنزوح اليها طلبا للعمل او السكنى بالقرب من ذويهم. وهكذا خدم الفوسفات هذه الناحية الحيوية كبداية لاعمار النقب ليستوعب الملايين الاربعة المزمع تهجيرهم الى فلسطين المحتلة .

رابعا — **خلق مستعمرات استيطانية داخل فلسطين المحتلة وخاصة في المناطق غير كثيفة السكان** :